

10.10.2016

الساحل البشري

تأليف: جون آر . غيليس
ترجمة: د. ابتغال الخطيب

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

علم المعرفة

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

الساحل البشري

تأليف: جون آر. غيليس
ترجمة: د. ابتهاج الخطيب



نوفمبر 2015

430

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

علم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

أسسها

أحمد مشاري العدواني
د. فؤاد زكريا

المشرف العام

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير

د. محمد غانم الرميحي

rumaihing@gmail.com

هيئة التحرير

أ. جاسم خالد السعدون

أ. خليل علي حيدر

د. علي زيد الزعبي

أ. د. فريدة محمد العوضي

أ. د. ناجي سعود الزيد

مديرة التحرير

شروق عبدالمحسن مظفر

a.almarifah@nccalkw.com

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب. 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

تليفون: 22431704 (965)

فاكس: 22431229 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنفيذ والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 465 - 8

رقم الإيداع (2015/893)

سكرتيرة التحرير

عالية مجيد الصراف

العنوان الأصلي للكتاب

The Human Shore: Seacoasts In History

By

John R. Gillis

Licensed by The University of Chicago Press, Chicago,
Illinois, U.S.A.

© 2012 by John R. Gillis. All rights reserved.

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

المحرّم 1437 هـ - نوفمبر 2015

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

9	مقدمة المترجمة
13	مقدمة
21	الفصل الأول بديل لجنة عدن
63	الفصل الثاني سواحل البحار القديم
99	الفصل الثالث الجيئات البحرية للأطلسي لبدايات العصر الحديث
141	الفصل الرابع استيطان السواحل
177	الفصل الخامس الاكتشاف الثاني للبحار

213	الفصل السادس الأحلام والكوابيس الساحلية
251	الخاتمة: تعلم العيش مع السواحل
267	الهوامش

مقدمة المترجمة

«لكي تحكم الطبيعة يجب أن تطيعها»،
ذاك هو الاقتباس القديم الذي ينهي به جون
غيليس كتابه المثير «الساحل البشري». وفي حين
أنه يمكن وصف الكتاب بصفات متعددة، فإن
كلمة «مثير» تأتي أكثر قربا لما يستشعره القارئ
ليس فقط من خلال المعلومات المقدمة ولكن
كذلك من خلال أسلوب عرضها. يقدم الكتاب
استعراضا علميا بيئيا لسواحل العالم وللتغيرات
المهمة التي أصابت بعضها بشكل جلي،
تغيرات في معظمها سلبية موعزة لتدخلات
الإنسان الأنانية في النظام الدقيق للبيئات
الانتقالية الحساسة بين الأرض والبحر، غير أن
«المثير» في تناول هو أن الكتاب لا يتوقف
عند المنطق العلمي، بل لربما هو لا يبني عليه.
يستعرض الكتاب الطبيعة الاجتماعية والثقافية
للسواحل والكيفية التي أثرت بها وتأثرت من
خلال هذه الجوانب الذهنية البعيدة عن علوم
البيئة والآثار. يستعرض الكتاب علاقات الجذب
والطرد بين الإنسان والسواحل والبيئات المائية،

«أما أكثر ما في تناول من إثارة
في كتاب غيليس فهو ما أنصّب
على الربط الإنساني بين فكرة جنة
عدن، كجنة أرضية، وعلاقة الإنسان
القديمة مع الأرض والساحل»

حيث بدأ الإنسان القديم حياته قريبا من السواحل ليبتعد بعدها عنها متوغلا على اليابسة ومكونا علاقة سلبية شبه عدائية تجاه الساحل، ليعود مجددا بحنين شديد إلى السواحل، عودة اقتصادية ترفيهية سياحية هذه المرة، عودة مدمرة للعيش «على» وليس «مع» الساحل.

أما أكثر ما في تناول من إثارة في كتاب غيليس فهو ما أنصّب على الربط الإنساني بين فكرة جنة عدن، كجنة أرضية تماما، وعلاقة الإنسان القديمة مع الأرض والساحل. يعتقد الكاتب أن الأنظمة الفكرية والبيولوجية التي أتت لتؤكد «أرضية» الجنة قد أسهمت في تثبيت الفكرة العدائية للسواحل على أنها خطوط فاصلة بين أمان الأرض وتهديدات المياه. يستعرض الكاتب تاريخا طويلا للتعامل الإنساني مع مياه الأرض كلها على أنها «بحر كبير»، وأن العالم بأكمله «جزيرة صغيرة» خالقا عوامل رعب غامضة في أعماق المياه، حيث بدت الأعماق، التي كان الإنسان يتجنبها دوما مفضلا الإبحار بالقرب من الساحل، أماكن تسكنها الشياطين والأرواح الشريرة، أماكن يقطعها الإنسان بخوف ليصل إلى بر الأمان، إلى يابسة أخرى.

استعرض الكاتب كذلك تاريخ إقامة الإنسان على السواحل، أنواع البيوت التي شيدها هناك، أنواع الحياة، التغذية، والعمل التي وفرتها هذه البيئة الانتقالية. تحدث الكاتب عن الكيفية التي انتقلت بها السواحل من كونها أماكن كسب للقوت إلى أماكن دفاعية حربية حيث استخدمها الإنسان كواجهات قتالية لفترة طويلة وصولا إلى كونها أماكن اصطياف ترفيهية يعيش عليها الإنسان لحظات التأمل وأحلام اليقظة من دون أن ينتبه فعليا إلى حقيقتها أو تأثير اختياراته فيها. يأتي الكاتب كذلك على علاقة الإنسان بالملخوقات الساحلية والتي في حين بدأ الإنسان نظرتة إليها على أنها جزء من الحياة المتوازنة وإضافة غذائية مكملة له، أصبح إنسان اليوم ينظر إليها على أنها طفيليات تجب إزالتها ليبقى له الساحل النظيف القاحل يصفاف عليه من دون أن يستشعره.

وفي هذا المجال يستعرض الكاتب علاقة الإنسان بالطحالب المائية، الأصداف، الأسماك، الحيتان، بيد أن أكثر الأمثلة إثارة وتجاوبا مع تجاربنا هو مثال سمك القرش الذي لطالما كان مخلوقا مسالما يعيش بتوازن في بيئته حتى حوله الإنسان إلى وحش مربع فتاك من خلال الفيلم الأكثر شهرة «الفك المفترس». يستعرض الكاتب

عددا من الأعمال الأدبية الأخرى التي أسهمت إما في تشويه صورة الحيوانات المائية وخلق الأساطير المرعبة حولها أو في تعزيز أهميتها ووعيها بمحيطها، مثل رواية هيرمان ميلفيل التي حاولت تقديم الحوت على أنه ضحية للإنسان، والتي استُقبلت في وقت نشرها أسوأ استقبال على أنها هلوسة أدبية لكاتب مجنون.

يستمر غيليس في استعراض تاريخ الساحل وكائناته ليس فقط علميا ولا زمنيا ولا طبيعيا، بل إنه يتعدى هذه الأبعاد، كما ذكرت أعلاه، إلى تلك الاجتماعية، الثقافية، الذهنية، الثيولوجية، بل والأدبية الفنية كذلك. يستعرض الكتاب عددا من الأعمال الفنية التي تعاملت مع الساحل وكائناته في محاولة لتبيان النفسية الإنسانية المتباينة عبر العصور في معتقداتها وتعاملها مع هذا الساحل. ينتهي الكاتب إلى استعراض التعامل التقني الصناعي الحالي الذي في حين أنه قرب الإنسان من الساحل في صورة سياحية ترفيهية مكانيا، بيد أنه أبعد عنه كما لم يسبق له البعد ذهنيا ونفسيا. تزور أعداد هائلة من البشر المنتجعات الساحلية سنويا من دون أن تلقي نظرة على المياه أو تستمتع بها وأن تتعامل معها بأي شكل. ينظر البشر اليوم إلى المياه من بُعد، يتعاملون معها ومع سواحلها الفاصلة على أنها أماكن خطر يمكن لهم أن يستمتعوا بالنظر إليها من دون أن يقتربوا فعليا من روائحها ومخلفاتها.

أخيرا، يدرس الكاتب الساحل من خلال المنظور الطبقي، فيبين علاقة الطبقات المختلفة مع هذا الساحل والكيفية التي غير بها البشر، وفق طبقاتهم الاجتماعية، مفاهيمهم تجاه الساحل وأساليب تعايشهم معه. يبين الكاتب أنه في حين كان الساحل مكانا منبوذا بالنسبة إلى الأغنياء إبان العقود الوسطى والمتأخرة من القرن التاسع عشر، حيث كان مكانا يسكنه - وفق مفهوم الأغنياء - والفقراء واللصوص وممارسو البغاء والمهربون وتجار المخدرات، وحيث كان ينظر إليه على أنه مكان قذر غير مريح مملوء بالمخاطر والأوبئة، تحول الوضع في أواخر ذلك القرن إلى عكسه تماما. سعى الأغنياء إلى طرد الفقراء من مناطقهم الساحلية طمعا في العقارات المرتفعة على الساحل ورغبة في صنع أماكن ترفيهية في المناطق التي يكسب منها الفقراء قوتهم. يستعرض الكاتب هذه العلاقة الطبقيّة الاجتماعية استعراضا مفصلا في فصول كتابه، مؤكدا أن هذه الرغبة الطبقيّة في تحويل الساحل من مقر للبائسين

إلى مراكز ترفيهية للأغنياء هي التي ابتدأت هذه العلاقة الجديدة الأخيرة والتي تبدو مدمرة بين البشر والساحل.

لا يتوانى الكاتب في تقديم تحذيراته من طريقة التعامل البشري مع الساحل بل وحتى من طريقة التفكير البشري في هذا الساحل. يدفع بنا الكاتب إلى أن نعيد التفكير بشكل عميق وحقيقي في الساحل وكائناته، لأن نجد وسيلة كي نعيش معه وليس فقط عليه، لأن نتفهمه ليس بوصفه خطأ فاصلا بين الأرض والماء ولكن كجزء مناسب لا يتجزأ من الكينونة الحيوية المستمرة للأرض والماء.

يدفع كتاب «الساحل البشري» بذهنية القراء إلى آفاق جديدة مجبرا إيانا على إعادة النظر فيما نعتقد أنه مسلمات، مؤكدا التساؤل الذي بدأه في أول كتابه، لمَ يا ترى تركز البشرية على تاريخها الأرضي من دون أن تبدي اهتماما كبيرا بتاريخها الساحلي والمائي؟ ما الدوافع تجاه هذا التجاهل؟ وما الذي يفوتنا من تاريخنا وبالتالي من إمكانيات صنع مستقبلنا نتاج هذا التجاهل؟ لمَ الجنة أرضية فقط؟ أين هي الجنة المائية من الوعي الإنساني؟ يأخذ «الساحل البشري» القراء في رحلة طويلة وعميقة محاولا تبين حقيقة التاريخ الإنساني الأرضي المائي الذي يعتقد الكاتب أنه لا مستقبل واضح مضمون من دون تبيانه وفهمه التامين.

د. ابتهاج الخطيب

مقدمة

السواحل. هناك أنماط مختلفة
من السواحل. كل إنسان يولد في
هذا العالم له ساحل، له حافة، حد،
منطقة انتقالية بين نفسه والعالم.

جون أ. موري⁽¹⁾

هناك اندفاع غير مسبوق حول العالم
باتجاه البحر. نصف سكان العالم يعيشون الآن
على بعد مائة ميل من محيط ما. في الولايات
المتحدة ارتفع التعداد السكاني الساحلي
بنسبة 30 في المائة تقريبا خلال ثلاثين سنة.
اليوم، أصبح ما كان يسمى بالنطاق الساحلي،
والذي يشكل 15 في المائة من المساحة الأرضية
للولايات المتحدة، مأهولا بما نسبته 53 في المائة
من التعداد السكاني للولايات المتحدة. وبطرق
مشابهة، ارتكست أستراليا، جنوب أمريكا، آسيا
وأوروبا إلا أفريقيا لم تُفرغ، وحتى هناك، فإن
الأعداد السكانية الساحلية، خصوصا من سكان
المدن، آخذة في الانفجار. كلنا اليوم مخلوقات

«يجب علينا أن نتعلم العيش مع
سواحلنا، وليس فقط عليها، فبقاؤنا
وبقاؤها يعتمدان على ذلك»

«الحواف» نفسيا وكذلك جسديا. وباختبارنا واحدة من أعظم الهجرات الجسدية في التاريخ الإنساني، فإننا اليوم نعيش في خضم حالة إعادة ترتيب ثقافي ذات دلالات بالغة الأهمية⁽²⁾.

خلال حياتي، تغيرت السواحل بشكل يفوق تغير أي معلم طبيعي آخر. ليس فقط أن استعمار الشعوب الداخلية للسواحل قد غير البيئة البحرية بشكل جذري، ولكن كذلك غير هذا الاستعمار وبشكل تام طبيعة المجتمعات الساحلية. اكتسبت السواحل في حد ذاتها معنى ثقافيا جديدا كليا، ليس فقط لمن يعيشون عليها، ولكن كذلك بالنسبة إلى السكان الداخلين الذين يُدفع بهم وبشكل متزايد باتجاه البحر. واليوم، فإننا جميعا، بصورة أو بأخرى، ساحليون. ليس فقط إننا نعيش على السواحل، نحن نفكر من خلالها كذلك، فالسواحل جزء من جغرافيتنا الأسطورية كما الطبيعية.

تمثل حياتي، بإيجاز، هذه العودة الملحمية للبحر. وُلدت في نيوجيرسي وجرى اصطحابي إلى شاطئها كطفل صغير. بيد أن معظم طفولتي وصباي قد قضيتها في الداخل الأمريكي، ولم يكن إلا عندما تزوجت وأصبحت أبا لولدين أن ملكت منزلا موسميا على جزيرة صغيرة تطل على ساحل ماين^(*). وعلى الرغم من أنني لم أدرك الوضع في وقتها، فإنه يبدو بنظرة استذكارية، أنني كنت في الواقع أشارك فيما يبدو تحولا تاريخيا عظيم الدلالة. اليوم، أنا عضو في هذا التعداد السكاني الذي يسمى شبه ساحلي، حيث أعيش في المنطقة الشاطئية معظم السنة وفي ماين خلال الصيف.

لقد استغرقت نصف قرن لكي أصبح محيطا تماما بما يعنيه ذلك بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى المجتمع بشكل أكثر عمومية. حتى الآن، مازلت أستكشف الطرق المختلفة الممكنة لأصبح ساحليا. كل صيف، أراني مدفوعا بقسوة إلى إدراك مدى اختلاف علاقتي بالبحر عن تلك التي لجيراني في ماين والذين يعتاشون من المحيط. لقد توصلت إلى تقدير الاختلاف بين العيش على السواحل والعيش مع

(*) تقع ولاية ماين في الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة مطلة بجزائها الشرقي والجنوبي على المحيط الأطلنطي. تمتد سواحلها لما يزيد على ثلاثة آلاف ميل، حيث بُني على هذه السواحل، خصوصا الجنوبية منها، عدد كبير من المجتمعات الساحلية. [المترجمة].

السواحل، كما تعلمت تمييز الفرق الحاد بين الأشخاص المقيمين على السواحل والأشخاص الساحليين الذين تتعدى علاقتهم التاريخية بالبيئة الساحلية مجرد السكن. المايينيون يحبون أن يذكرونا، نحن «القادمين من بعيد»، كم نحن مختلفون عن هؤلاء السكان الأصليين لسواحلهم. أنا الآن أقبل حكمهم⁽³⁾.

في العمل الكلاسيكي لراتشيل كارسون «البحر من حولنا»^(*)، يُقدم المحيط على أنه بداية كل الحياة. مرور الوقت، تعلمت المخلوقات العيش على الأرض، وقلّة، مثل الحوت والفقمة، اتخذت طريقها عودة إلى البحر. «تدرجيا، حتى الإنسان وجد طريقه عائدا إلى البحر»، لم يكن عائدا جسديا بل «عاود الدخول ذهنيا وخياليا». هذا تحديدا ما فعلته كارسون ببراعة كعالمة وكاتبة عظيمة الموهبة. لقد جلبت كارسون الملايين من القراء إلى حافة البحر، حيث أعادت تعريفهم بالبيئة الغنية التي تقع على جهتي الحد المائي. وذلك هو أيضا ما أطمح إلى تحقيقه كمؤرخ، بيد أن مهمتي هي عبور الحاجز الزمني الذي يفصل الحاضر الساحلي عن الماضي الساحلي⁽⁴⁾.

لقد كانت الكتابة عن السواحل والأشخاص الساحليين رحلة ذهنية رائعة، ممثلة بالمفاجآت والاكتشافات. لقد جاء العديد منهم من جزيرتنا الصغيرة والتي هي على مرمى النظر من حديقة أكاديا العامة^(**)، حيث أجد سهولة في تخطي حد التيار المائي وحد الزمن أكثر من أي مكان آخر. تسجل مقبرة هذه الجزيرة مائتي سنة من الحياة والموت عليها. إننا في بيت قبطان بحري من القرن التاسع عشر والذي كان ذات يوم ملك أحد أشهر كتاب ماين، روث مور^(***)، والتي كانت تعرف وضع الأرض والبحر تماما كما يعرفه الآخرون. تصور قصائدها ملامح الساحل الثابتة وكذلك التغييرات الشاسعة التي أصابت الساحل عبر القرون⁽⁵⁾.

(*) The Sea around Us: كتاب نشر في 1951 عن دار أكسفورد للنشر، ويدور حول تاريخ البحر علميا وعاطفيا. [المترجمة].

(**) تقع حديقة أكاديا العامة في ولاية ماين، وهي من أجمل الحدائق الواقعة على الساحل الشرقي بما تحتويه من نباتات وحيوانات وأعلى قمة جبل على الساحل الأطلنطي الشرقي للولايات المتحدة. [المترجمة].

(***) تعتبر روث مور أحد أهم «الكتاب الإقليميين» لولاية ماين في القرن العشرين. كانت مور فخر نيو إنغلاند حيث كانت تعد بمقام الكاتب فولكر هناك. توفيت مور في العام 1989. [المترجمة].

الصيف الأول كان الناس فيه هنودا
لما يقرب من خمسة آلاف سنة
بنوا حد الساحل بأكوام المحار قبل أن
يخسروا معركتهم أمام السابقين

وعهدهم كان زمن التاريخ
حيث تشهد السجلات المكتوبة
بأن سيطرتهم على جزر الساحل بدأت
منذ أقل من أربعمئة سنة محسوبة

الآن أَقْبَلَ زمن العقار
زمن قسائم المائة ألف دولار
زمن الشقق السكنية المتراسة
على طول الساحل [مقتبسة كما هي] بقع للاختيار

ما سيلحق بزمن المطورين
أمر لا يمكن لصوت إنساني أن يَبْتُ فيه
لكن جزر الساحل الصامتة تعرف
وتتعامل مع الخبايا بحكمة وعقل تقتدي به

على ساحل مور، الماضي حاضرٌ دائما. لم يغادر الأمريكيون الأصليون فعليا قط.
أحفاد هؤلاء الذين تركوا أكوام المحار منذ زمن المسيح يعودون سنويا لتجميع
حلزون البحر واصطياد الغزلان. ينضم إلى هؤلاء ورثة المستوطنين الأوروبيين الأوائل،
والذين لايزالون يصطادون السمك ويصنعون المراكب بطرق كانت مألوفة لأي
بحار قديم. على هذا الساحل، حتى المصطافون من ضواحي المدينة يعرفون كيف
يصطادون، يجمعون، ويزرعون الحقائق بطرق لا تختلف كثيرا عن تلك التي كانت
لشعوب العصر الحجري.

إن الأدلة على هذه الاستمرارية موجودة في كل مكان على شواطئ ماين، غير أن النسيج الذي يربط بينها خفي إلى حد كبير. لقد أقمت هناك ما يقرب من نصف قرن قبل أن أدرك ضحالة ما أعرفه عن تاريخها الطبيعي والإنساني. من جانب، كان تدريبي كمؤرخ هو ما ضيق أفق فهمي، حيث إننا تعلمنا معاملة السواحل على أنها أماكن يبدأ عندها التاريخ وينتهي، أهميتها تنحصر فقط في كونها عتبات. تعلم المؤرخون تفضيل الأرض على الماء، الشعوب الداخلية عن تلك الساحلية. ونحن لسنا الوحيدين في قصورنا هذا. فعلى الرغم من استكشاف كارسون الرائد لأطراف البحر، فإن مختصي البيئة كانوا بطيئين في قبول تحديثها لسكنى هذه الأطراف «ذهنيا وخياليا»، لمزج السواحل مع منظورهم التاريخي. يظهر هؤلاء اهتماما عميقا بمصير الحياة النباتية والحيوانية الساحلية، بيد أنهم يبدوون لا مبالين تجاه العامل الإنساني للبيئة البحرية الساحلية، والذي يسمى *Homo littoralis* (*)، والذي لا ينفصل تاريخه عن تاريخ الساحل في حد ذاته. نحن جميعا نعاني فقدان ذاكرة معيقا، حيث ننسى أن السواحل هي مناطق خاصة جدا، تسمى *ecotones* (**)، وهي مناطق يتداخل فيها نظامان بيئيان، هي المواطن الطبيعية لمخلوق *Homo sapiens* (***) وهي مواقع للكثير من التاريخ الإنساني اللاحق⁽⁶⁾.

في وقت ما، كانت السواحل مواطن لأعداد مهمة من البشرية، عندما، وكأي مواطن، كانت هذه السواحل مواقع انتماء، مراكز للعالم عوضا عن مجرد حدود له. الآن، وعندما أصبحت السواحل حوافاً لشيء آخر، لقرارات أو جزر، أصبحنا لا نعيش فيها ولكن عليها. إن العلاقة الحالية للإنسانية بالساحل هي علاقة الغريب، فبعد آلاف السنوات من الوجود الساحلي، نسيت الإنسانية كيف تتعايش مع السواحل والمحيطات. لم يكن استيطان السواحل أمرا سهلا في وقت ما، فارتفاع منسوب البحر، والتعسف في صيد السمك، والتلوث، كلها حدثت في الماضي، حيث كان على بشر السواحل دوماً أن يتعاملوا مع الكوارث الطبيعية والإنسانية. من خلال التجربة

(*) «بشر السواحل» أو البشر المقيمون على السواحل. [المترجمة].

(**) الكلمة تشير إلى المساحة الانتقالية بين مجتمعين متشابهين في ظروفهما المناخية والجغرافية. [المترجمة].

(***) الاسم العلمي للنوع الإنساني، في إشارة إلى المخلوق العاقل. [المترجمة].

والخطأ تكيف هؤلاء في تعاملهم جسديا وثقافيا مع هذه البيئة الممتلئة بالتحديات. بيد أنه لم يحدث سابقا أن كانت درجة تواتر التحديات بعظمة الوقت الحاضر، حيث تعاضمت هذه الدرجة بسبب حقيقة أن الكثير ممن يحيا على السواحل ليست لديهم فكرة عن كيفية الحياة هناك بطريقة مستقرة. هناك حاجة ملحة ليس فقط إلى فهم ديناميكية التغيرات المناخية بل هناك حاجة مستوجبة كذلك إلى الاستفادة من إستراتيجيات التكيف المحفوظة في السجلات التاريخية من أزمنة كانت فيها السواحل «هنا» وليست «هناك»، أماكن للعيش وليس للزيارة فقط⁽⁷⁾.

جيمس هاميلتون - باتيرسون، مؤلف كتاب *Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds*، والذي يعرف البحار والسواحل عن ظهر قلب، يعتقد «أننا أضعنا مكاننا، ولا نعرف كيف نعود». لست في الواقع بهذا التشاؤم، وإلا ما كنت بدأت رحلة عَبَرَت المئات من آلاف السنوات، رحلة أخذتني ليس فقط إلى سواحل شمال أمريكا وأوروبا بل إلى أفريقيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، واليابان، وتازمينا كذلك. تحذرنا كارسون من أن «طرف البحر يبقى حدا مراوغا وغامئا». ليس فقط أن الصفات الطبيعية للسواحل تتغير باستمرار، بل تتعدد كذلك طرق أن يكون الإنسان ساحليا بتعدد الشعوب الساحلية. نحن نحتاج إلى أن نصل إلى شيء من الفهم المنطقي لكل الطرق التي عاش من خلالها البشر مع السواحل، قصة امتدت إلى ما لا يقل عن 200 ألف سنة. هناك دروس مهمة لتتعلمها من أسلافنا الساحليين، سواء كانوا صيادي ما قبل التاريخ، ملاحين قدماء في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، معماريين هولنديين للأراضي المستصلحة من البحر، أو بحارة لونغ آيلند⁽⁸⁾.

لم أتوقع، وأنا أنطلق في رحلتي هذه إلى أزمنة سحيقة ومساحات بعيدة، أنني سأنتهي إلى كتابة قصة بديلة للتاريخ العالمي. لقد حضري اكتشاف أنه ليس في الواقع الداخل ولكن الساحل هو الذي كان جنة عدن الأصلية وأن الوصف الأفضل للـ *Homo Sapiens* هو أنهم كائنات الأطراف التي ازدهر وجودها باستمرار على المناطق الانتقالية الساحلية حيث يلتقي نظاما اليابسة والبحر الإيكولوجيان، حضري ذلك كنوع من المفاجأة. منذ العصر الحجري وإلى عصر عولمتنا هذا، كانت شعوب السواحل دوما في المقدمة. لقد اتضح أن التغيير كان يولد باستمرار على الأطراف وليس على المناطق الداخلية، لذلك فإن علينا أن نقلب تاريخ أراضينا

الداخلية على أعقابها. هذه العملية تأتي بتحدٍّ ليس فقط لتاريخ مركز اليابسة التقليدي، بل كذلك للاهتمام السابق لعلوم أعماق البحار بالدراسات التقليدية البحرية. فيما يلي، سأفحص ستة أزمنة رئيسة في التاريخ الساحلي ابتداءً باللمحة الأولى التي عادت فيها البشرية إلى البحر قديماً من الداخل الأفريقي، حيث سأؤكد كل الظواهر المستمرة، ولكن كذلك سأبين التغييرات التي حدثت حول العالم.



لافتة على جرف عند منطقة «سي رانش»، كاليفورنيا. الصورة للمؤلف.

ترحب اللافتة المبينة في الشكل رقم 1 بالزوار المتجولين هبوطاً إلى تلال منطقة «سي رانش» في كاليفورنيا، وهي عبارة عن امتداد ساحلي خلاب في شمال سان فرانسيسكو. استوقفت هذه اللافتة مساري ذات عصر ساطع في أبريل 2007، حيث لم أستطع أن أبعدها عن تفكيري أسابيع عدة بعد ذلك اليوم. مرور الوقت، بدأت أرى جملة «لا تدر ظهرك للمحيط أبداً»^(*) كدعوة بمقدار ما هي تحذير. لقد دفعنتي هذه الجملة في رحلة لفهم علاقتنا المعقدة مع البحر، والتي أخذتني حول العالم وإلى أعماق زمن قليل من المؤرخين الذين قاموا بزيارته.

(*) تلك الجملة هي الثالثة والأخيرة على اللافتة الظاهرة في (الشكل رقم 1). [المترجمة].

وفي طور كتابة هذا الكتاب، كان لي أن أتعلم أن الساحل هو الموطن الأصلي للإنسان العاقل Homo Sapiens. لقد تغيرت علاقتنا بهذا الساحل بشكل ملحوظ خلال الـ 200 ألف سنة الماضية، بيد أننا بقينا غير منفصلين عنه من البداية ومازلنا كذلك إلى اليوم. لقد أدت السواحل دورا حيويا في جعلنا إنسانيين، ونحن، بدورنا، قد صنعنا من السواحل ما هي عليه. أنا أدعو هذه الدراسة «الساحل البشري» لأشدد على هذا الاعتماد المتبادل. هذه قصة تطور مشترك، قصة خلق مشترك. في عصرنا هذا، عصر الأزمة البيئية، من المهم جدا أن نعود مجددا إلى موطننا في المكان الذي تلتقي فيه الأرض بالمياه. يجب علينا أن نتعلم العيش مع سواحلنا، وليس فقط عليها، فبقاؤنا وبقاؤها يعتمدان على ذلك.

بديل لجنّة عدن

إن ساحل البحر حافة... وهو
يتحدى الفكرة المعتادة للحدود
عبر كونه غير ثابت، متقلبا، وغير
قابل للنفاذ.

ريبيكا سونت⁽¹⁾

إن الحضارة الغربية حضارة مرتبطة
بالأرض، ومسجونة داخلها ذهنيا، إن لم يكن
فعليا. وعلى الرغم من أن لهذه الحضارة
تاريخا طويلا من الإنجازات الماثية، فإن هذه
الإنجازات لا تشكل هويتها الرئيسية. في العالم
الغربي، نحن نتخيل التاريخ الإنساني مبتدئا
ومنتهيا على اليابسة. إن فهمنا لجذورنا،
العلمية والدينية، هو قطاعا بري، حيث إننا
واجهنا صعوبات عظيمة في إيجاد مكان للماء
في كل من تواريخنا أو جغرافياتنا. نحن نتذكر
لوسي التي وجدت بقاياها ذات الثلاثة ملايين
سنة في العام 1974 في ممر أولدوفاي الجاف

«في التقاليد الغربية، كان البحر
دائما بيئة غريبة»

تماماً، ولكننا ننسى أنه إبان حياتها، كان الممر عبارة عن بحيرة، وأنها في الغالب كانت من سكان السواحل. فقط منذ وقت قريب بدأ علم الآثار لتحت الماء يتحدى الاعتقادات المبنية على التنقيب البري، حيث يشير هذا العلم إلى المدى الذي كانت عليه البشرية شبه بحرية، تبحث عن طعامها ليس فقط في المياه العذبة ولكن، وبصورة أكثر أهمية، على أطراف البحار كذلك.

«إن عدم المقدرة على النظر إلى المكان على أنه أي شيء سوى بري، هذا الاعتقاد الأبدى أن المجتمعات ما هي إلا كيانات مرسومة الحدود، مركزية، محاطة وثابتة، ما هو إلا تشويه للمنظور الماضي»، كتب إيريك ليد أنه «منظور للتاريخ مغربل من خلال نتائج التاريخ». وبدعم من التقاليد الدينية كما الدنيوية، أصبح لمركزية اليابسة مكانة أسطورية في الثقافة الغربية. إن أقدم الآلهة الإغريقية كانت جايا، الأرض الأم: «أم للجميع، أقدم من الجميع، صلبة، رائعة كما الصخر». إن الشعوب التي عرفناهم على أنهم العبريون القدماء كانوا قد بدأوا من فورهم في الاستقرار في وضع شبه زراعي عندما استحوذتهم فكرة جنة عدن. هذه المركزية لليابسة جرى تمريرها إلى المسيحية، وبتدعيم من المفاهيم الإغريقية والرومانية حول الأرض والماء، أصبحت الفكرة أساسية للحضارة الغربية. ومادامت جموع البشرية بقيت مرتبطة باليابسة، فإن الوضع منطقي، ولكن بما أن هذا الوضع ليس هو الحقيقة حالياً، فلا بد من المساءلة حوله⁽²⁾.

في التقاليد الغربية، كان البحر دائماً بيئة غريبة. هناك مجتمعات أخرى لطالما شعرت بالارتياح مع مسطحاتها المائية والانتماء إليها، وذلك على الرغم من أنه، ووفق علمي، لا توجد شعوب تنفي بالكامل ارتباطاتها باليابسة. فحتى شعوب الملوكين^(*) وغيرها من الشعوب التي تسمى بغجر البحار، في جنوب شرق آسيا، لا يعيشون بالكامل في البحر. فالفيجيون^(**) يعتقدون أن جزيرتهم قد أتت إلى الوجود عن طريق روكوموتو الذي غاص في البحر ليجلب تربته الخصبة إلى السطح. إن قصة الغواص الأرضي شائعة بين الشعوب التي تعيش بجانب البحر أو تعتاش منه. إن شعب الهيدا القادم من جزر الملكة شارلوت

(*) مجموعة جنوب شرق آسيوية تعيش بالقرب من البحر، وترتبط به وثيقاً في حياتها. [المترجمة].

(**) شعوب أتت من جزر فيجي، وهي جزر في جنوب المحيط الهادي. [المترجمة].

الواقعة على الساحل الكندي الشمال غربي يحكي قصة «غراب» طائر فوق البحر، والذي يرى جزيرة صغيرة فيحولها إلى الأرض. لاحقا، وبينما يستكشف «غراب» هذا العالم الجديد، يصل إلى مسمعه صوت قادم من قوقعة حلزون صغيرة؛ ليكتشف خمسة آدميين بالغي الصغر، ليصبخوا كما يشير إليهم شعب الهيدا على أنهم «أهل سطح الأرض»⁽³⁾.

بالنسبة إلى الشعوب الساحلية وأهل الجزر، لم تكن سوى حافة البحر التي كانت جنة عدن الأبدية بالنسبة إليهم، فهي بالنسبة إليهم ليست الهامش ولكن مركز عالمهم. وعلى خلاف العبرانيين، الذين كان التاريخ بالنسبة إليهم عبارة عن سلسلة طويلة من النفي، فإن هيدا، الشعب الساحلي، لا ذاكرة لديهم حول قدومهم من أي مكان آخر. في القصص التي يسردونها لأنفسهم، لطالما كانت سواحل شمال غرب الهادي هي موطنهم. هم يعيشون في بيئة واسعة وفي رغد ووفرة، في حاضر لا يتغير، حيث لا يثير لديهم أي حنين إلى ماضٍ مفقود أو أحلام بمستقبل تعويضي. فلم يكن حتى وصل الأوروبيون المسيحيون وأخبروهم بأن كل البشرية توزعت من منطقة أرضية واحدة تسمى جنة عدن، ليجعلوا منهم إحدى قبائل إسرائيل التائهة، أن جعلوهم حتى يبدأوا بالأخذ في الاعتبار احتمالية كونهم غرباء على أرضهم، أو أن البحر يشكل خطرا عليهم. وحتى عندها، فإنهم رفضوا هذه النظرية التراجيدية للتاريخ على أنها غير محتملة كونها متضادة مع شعورهم بكونهم دوما شعوب xhaaydla وهو المصطلح الذي يستخدمونه للساحل، حيث لا ينتمون كليا إلى الأرض أو إلى البحر، نوع مختلف من الأماكن يعيشون عليها في نوع مختلف من الزمن، مكان ما لا يمكن العثور عليه عادة على خريطة المستطلع أو صفحات المؤرخ⁽⁴⁾.

في الغالب، لاتزال السواحل فئة غير معرفة في كل من التاريخ والجغرافيا. حتى اليوم، فإننا بصعوبة نلتفت إلى هذا الـ 95 في المائة من التاريخ الإنساني الذي جرت وقائعه قبل قيام الحضارات الزراعية. في العصر ما بعد الصناعي هذا، لايزال تصورنا للجنة على أنها حديقة عدن وللإنسان المثالي على أنه المزارع. يدفع كتاب سفر التكوين إلى إقناعنا بأن بداياتنا كانت بأكملها محددة أرضيا، غير أن هذا الكتاب كان قد كتب في الوقت الذي كان العبرانيون فيه يستقرون

في حياة زراعية. خدمت قصة عدن كأساس أسطوري للمجتمع الزراعي على نحو رائع، بيد أنها لا علاقة لها بتاريخ وجغرافيا البشرية، بما في ذلك تاريخ وجغرافيا اليهود اللذان تحققا قبل أن يكتبنا منذ نحو 8 آلاف عام. إن قصة الإنسان العاقل الحديث Homo sapiens والتي تهمني هنا، تبدأ منذ 164 ألف سنة مضت. لمعظم مدة وجودنا، كنا مخلوقات متنقلة تبحث عن الطعام، كما أن معظم التطور الإنساني كان قد حدث ليس في المواقع المغلقة أرضيا، ولكن حيث تلتقي اليابسة بالماء. لا تزيف فكرة جنة عدن ماضيها فقط، لكنها الآن، وحيث للمرة الأولى يحيا مزيد من البشر في المدن عوضا عن اليابسة، هي تزيف مستقبلنا تماما.

نحن نحتاج إلى إعادة اكتشاف شعوب الساحل xhaaydla لإيجاد سرد تاريخي أقل تركيزا على اليابسة، سرد يتبين العلاقة الطويلة للإنسانية بالبحر ككائن ساحلي يحتل البيئات الانتقالية ecotones، حيث تلتقي اليابسة بالماء. نحن نحتاج إلى أن نتعرف على أنفسنا ككائنات متنقلة مائية، كحراس للطرائد كما نحن مزارعون. يعتمد المزارعون إلى التحكم في الطبيعة فيما يقبلها حراس الطرائد ويتكيفون مع ظروفها. كما سنرى، على السواحل، كانت الزراعة مصحوبة في الغالب بالصيد والحصاد. والآن حيث ثبتت بشدة محدودية قدرة البشر على التحكم في الطبيعة، تتزايد الحاجة إلى استعادة عامل التكيف هذا الذي كان موجودا عندما كانت للبشر علاقة عمل مع البحر كما مع اليابسة. باختصار، نحن نحتاج إلى سرد جديد، سرد فيه، كما يقترح ستيف مينتز، «حدائق أقل، ومزيد من حطام السفن»، سرد أكثر انسجاما مع الطبيعة المتغيرة للسواحل في عصر التغير المناخي الهائل هذا⁽⁵⁾.

أسطورة الحديقة

يقال إن العبرانيين كانوا «أول شعب فهموا أن أنفسهم تحيا حياة يعرف معناها بعيدا عن الطبيعة». كان إلههم مزارعا والذي زود آدم وحواء بثراء جاهز، والذي منع أي حاجة إلى العمل ووعد بحياة أبدية. في البداية لم تكن هناك طبيعة مقفرة. هذا القفر كان نتاج عصيان آدم وحواء، والذي دمر الجنة

الأصلية، وحكم على البشرية بالكسح والموت. كانت تلك هي قصة البدء التي اشترك فيها العبرانيون مع الحضارات الزراعية الأخرى في الشرق الأوسط القديم، قصة كانت غير مفهومة مطلقا للشعوب التي تعتمد الصيد والحصاد، والذين كانت آلهتهم حراس طرائد عوضا عن مزارعين، والذين كانوا يشعرون بأنهم في موطنهم في الأماكن التي كان يعتبرها اليهود والمسيحيون قفارا وحشية.

تبدأ أسطورة الخلق في الكتاب المقدس بإعلان أن «الأرض حينها كانت فوضى وبورا وظلاما في الأعماق، وأنفاس الرب تحوم فوق المياه». كان من أوائل أفعاله أن يروض المياه الثائرة. خلق الرب السماوات، قائلا: «لتجتمع المياه أسفل السماوات في مكان واحد حتى تظهر اليابسة الجافة، وهكذا كان. ودعا الرب اليابسة الجافة بالأرض، والمياه المتجمعة أسماها البحار، وارتأى الرب أنها جيدة». أنتجت الأرض الزرع والأشجار، بينما امتلأت المياه بالسماك، والهواء بالطيور. «وخلق الرب وحوش البحر العظيمة وكل كائن حي يزحف...»، فقط حينها خلق الرب الرجل والمرأة «على صورتنا، شبيهين لنا، ليحكمما سيطرتهما على سمك البحر وعلى طيور السماء»، أمرا إياهما بأن «كونا مثميرين وتضاعفا واملأ الأرض وسيطرا عليها»⁽⁶⁾.

الأرض هي اللاعب الرئيسي في جغرافية الكتاب المقدس، فكما بين أين كوربن «لا يوجد بحر في جنة عدن»، فبعد السقوط، يظهر البحر كبيئة غريبة، تهديد أبدي للبشرية. لقد كان من التربة أن خلق الرب الإنسان، حيث أعطاه الاسم آدم، والمشتق من الكلمة العبرية adama^(*) التي تعني الأرض. في هذه القصة يلد الرجل امرأة. لا يوجد في أي جزء من سفر التكوين فكرة الأرض الأم، حيث إن الأرض نفسها هي قوى أبوية عوضا عن أمومية. إنها خلق الرب الأب الذي يستخدمها ليصنع آدم، ومن ضلع آدم ليصنع حواء. وعليه، فإن البيولوجية الطبيعية، في هذا التوصيف للخلق، تصبح معكوسة. الأرض تولد لإله أبوي⁽⁷⁾.

الرب المزارع خلق عالما بوفرة لا محدودة، واعداد حياة أبدية من دون كسح، أو وباء، أو موت. كان لآدم وحواء أن يعيشا إلى الأبد تعايشا سلميا مع

(*) في اللغة العربية، أَدَمَةُ الأرض: باطنها، وأديمها: ظاهرها. والأدمة السُمرة، والآدم من الناس الأسمر؛ وكل تلك معانٍ يشتمل عليها الجذر العبري אָדָם (ألف - دال - ميم). [المحرر].

المخلوقات الأخرى لولا أنهما عصيا إرادة الرب. كان عقابهما لأكلهما الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة ليس فقط فقدان الحياة الأبدية، ولكن تحويل الأرض نفسها إلى قفار من «الشوك والزعزور»، حيث يمكن الحصول على لقمة اليوم فقط بالعمل الشاق.

في لحظة السقوط، توقفت الأرض كلها عن كونها جنة، وأزيلت جنة عدن إلى الشرق، حيث سيبقى متعذرا بلوغها حتى ينتهي الزمان. الحياة الأبدية استسلمت للمحنة الأبدية للإنتاج ولإعادة الإنتاج، حيث حمل الرب حواء وكل النساء اللاتي أتين من بعدها آلام الولادة. كان بكرها، قابيل، المزارع الأول، وهابيل، الراعي الأول، كلاهما ملعونا كذلك. غضب قابيل عندما ازدري الرب قربانه من فاكهة الأرض لمصلحة عطاء أخيه من الحيوانات. قتل قابيل هابيل، وهذا أدى إلى نفي ثانٍ إلى أرضٍ أكثر قحالة هي أراضي Nod* في شرق عدن، حيث بدأ قابيل هناك في تكوين عائلة، والتي ستصبح في النهاية شعب إسرائيل، الذين خلطوا بين الزراعة المستقرة وأنشطة الرعي، وعليه أصبح مصيرهم مرتبطا بقوة بتقلبات نشاط الزراعة. بكل تأكيد، فإن قصة الطرد من جنة عدن، وما تبعها من النفي المرتبط بالمجاعة، والمسرودة روايته في العهد القديم، كانت مرتبطة بوضوح بالكوارث البيئية التي نعرف الآن أنها قطعت الطريق على التاريخ الزراعي في الشرق الأوسط القديم. كانت قصة الجنة المفقودة نتاج ثورة العصر الحجري الحديث، حيث كانت الطريقة التي منطلق بها اليهود تاريخهم التراجيدي، من حيث عبوديتهم لمآسي الوجود الأرضي.

هامت سلالة آدم في أرضٍ هاجمتها الفيضانات والقحط باستمرار. أصبحت وصية «انطلق وتكاثر» عبئا آخر لأنه، على عكس الصيادين الرحل الذين خفقت حركتهم من نسبة مواليدهم نسبيًا، كانت مجتمعات الإنتاج الزراعي المستقر تميل إلى الأسر الكبيرة، والتي أدت إلى تزايد عدد البشر في المناطق القاحلة الضعيفة من الشرق الأوسط. لقد كان المزارعون، وليس الصيادين الرحل، هم من أجبروا على تبني إستراتيجيات التنقل والشتات من أجل البقاء. وكما يقول عالم الأنثروبولوجيا هيو برودي: «سفر التكوين هو قصة الخلق التي يجري

(* ذكرت هذه المنطقة في سفر التكوين على أنها الأرض التي نفي إليها قابيل بعد قتله أخاه هابيل. [الترجمة].

تفسير البيئة الزراعية العنيفة وغير المستقرة من خلالها، والتي قدمت على أنها حتمية». المجتمعات الباحثة عن الطعام صادفت كذلك معاناة دورية على يد الطبيعة، غير أن القصة التي يروونها ليست موسومة بالأحداث الكارثية، ولكن بدورات من التحدي ومقاومة هذا التحدي والتي من خلالها تتفوق الاستمرارية على التغيير. فلقد زارت الفيضانات شعب الهيدا كذلك، غير أن قصصهم تروي كيف أن الزوارق كانت تأتي لإنقاذهم باستمرار⁽⁸⁾.

لقد زود سفر التكوين العبرانيين القدماء، ولاحقا المسيحيين المضطربين بالقدر نفسه، بتفسير تاريخهم التوسعي، وبذريعة للاستيلاء على الأراضي التي تشاركوا فيها ذات يوم مع جيرانهم من الصيادين الرحل. إن الثورة الزراعية في العصر الحجري الحديث لم تخفف من عبء توفير القوت بل كثفته في الواقع. لقد ظل الصيادون الرحل الجزء الأكثر صحة والأقل توترا بين الجنس الإنساني. لم تكن لديهم حاجة ليسردوا لأنفسهم قصصا مأساوية عن الفقد والاسترداد، فبالنسبة إليهم كان العالم دائما جنة عدن⁽⁹⁾.

عندما أثار الشعب المختر إله العبريين استيائه مرة أخرى، تدخل الماء كوسيلة عقاب إلهية. يرسل الإله طوفانا عظيما، وهو حريص على أن يشهد نوح وعائلته هذا الفعل كدرس للأجيال المستقبلية. فبينما تفجرت السيول من أعماق الأرض وبدأت الأمطار في الانهمار، اختفت الأرض اليابسة لمدة 150 يوما. هنا، يؤدي الماء مرة أخرى دورا مدمرا، في حين أن الأرض هي المزود الأول بالحياة. مرة أخرى، إنه الذكر الذي هو الخالق. نوح هو آدم ثان، غير أنه هذه المرة لن يولد لفرديوس. فعندما تراجعت المياه واستقرت السفينة على أرض صلبة، وجد نوح وأبناؤه أنفسهم قد استقروا في عالم هو حتى أكثر عدائية. فالأرض التي كانت ذات يوم ممهدة هي الآن خراب، مقسمة داخليا بالجبال المرتفعة والأنهار الثائرة، محاطة من كل الجوانب بالبحار التي تهدد باجتياح الأرض عبر كل السواحل. وبينما تتكشف أحداث قصة العهد القديم، يصبح البحر قوة أكثر خطرا من أي وقت مضى⁽¹⁰⁾.

لم تكن الشعوب الزراعية هي الوحيدة التي تخاف البحر، فبالنسبة إلى الإغريقيين والرومان، كان البحر فراغا من عدم، شيئا يقطعونه بأقصى سرعة

ممكنة للرجوع إلى الديار حيث الموطن الوحيد الحقيقي للبشر: الأرض. المسيحية، تباعا للتقاليد اليهودية، تنتظر إلى المحيط بسلبية كذلك. إنه ليس نوح البحار بل نوح المزارع الذي هو الشخصية الرئيسية في قصة الطوفان. وفي لحظة عودته إلى الأرض الجافة سيصبح الخمار الأول في العالم، غير أن بضاعته ستقوده ليخزي نفسه وأبناءه. مرة أخرى، ستخذل الأرض العبرانيين، وسيجبرون مجددا على النفي، «ومنهم ستتفرع الشعوب على الأرض بعد الطوفان». تشتت ذرية نوح في أفريقيا، وآسيا، والأجزاء الأوروبية لجزيرة أرضية عملاقة أصبحت تدعى تاليا Orbis Terrarum [الكرة الأرضية] محاطة بنهر لا يمكن عبوره يعرف باسم Oceanus [المحيط]. في مكان ما في عمق اليابسة، بعيدا باتجاه الشرق، جنة عدن لاتزال موجودة، لكنها الآن أصبحت مسورة، متعذر الوصول إليها بالنسبة إلى بني البشر، وذلك إلى نهاية الزمن⁽¹¹⁾.

إن ما يجعل العهد القديم والحديث، معا، رواية قوية هو ليس فقط معقولية أحداث الرواية حول سقوط حضارة زراعية، ولكن كذلك في إعطائها الأمل في خلاص مستقبلي. في العهد القديم، تضمن لليهود أرضهم الموعودة. في العهد الحديث، المسيح هو آدم الجديد، غير أن موته ليس هو نهاية القصة: ستكون هناك بداية جديدة، حيث ستشمل الأرض الموعودة كل اليابسة، وتمتد إلى كل البشر. وبمجرد أن تتحول كل الشعوب إلى المسيحية، ستصبح الأرض مرة أخرى فردوسا. وكما جرى التنبؤ في سفر الرؤيا، فإنه مع القدوم الثاني للمسيح، ستصبح الأرض جنة مرة أخرى، وبما له مغزى، أنه «لن يكون هناك بحر بعد ذلك».

وصولا إلى القرن الثامن عشر، فإن النسخة الإنجيلية للجغرافيا والتاريخ أظهرت أرض ما بعد الطوفان على أنها خراب، معرضة لسلسلة لا متناهية من الكوارث المشرعة إلهيا، والمقصود بها معاقبة سكانها العصاة. كان عالما النبات والحيوان كلاهما ملعوننا منحلا. فقط تدريجيا بدأت تحل محل رواية الانحراف هذه رؤية متفائلة بالتغيير. ففي بداية القرن السادس عشر، أدى اكتشاف حقيقة أن الأرض ليست جزيرة محاطة بنهر لا يمكن عبوره، ولكنها في الواقع مجموعة من الجزر والقارات المتصلة عوضا عن كونها منفصلة مائيا، إلى أن يفقد البحر مواصفاته الشيطانية. غير أن الوضع سيستغرق قرنين آخرين

قبل أن ينظر إلى الجزر على أنها نقطة العبور نحو التطور، وأن السواحل التي كانت ينظر إليها سابقا على أنها عوائق، ستصبح معابر، مميزات وليست عوائق. وبحلول القرن الثامن عشر بدأت العلوم الأرضية الجديدة تسائل الترتيب الزمني الإنجيلي الذي حدد بداية العالم بمجرد ستة آلاف سنة سابقة. إن دلائل التغيير التي حدثت عبر ملايين السنين لم تتطلب فقط قصة جديدة للأصول، ولكنها تشير إلى نهايات بديلة كذلك، والتي لا تشمل تدخلا إلهيا لإنهاء العالم، ولكن تطورا ارتقائيا ثابتا⁽¹²⁾.

بيد أن كلا من أوروبا وشمال أمريكا قد تمسك بأساطيره الزراعية دخولا إلى القرن التاسع عشر. ظل البحر، كما كان في سفر التكوين، فراغا يُعبر، عوضا عن أن يُستكشف، هو ليس مكان غريبا بالنسبة إلى البشرية. لقد شكل البحر محيطه الذاتي، متكونا بعيدا عن تحكم البشر. كان صيد البحر يعتبر «هبة» للبشر، ليس لهم سوى أقل القليل من التحكم فيها. لم يكن شيء ليوقف البحر من الاستيلاء على حياة إنسان. كمساحة لا مكانية ولا زمانية، كان المحيط خارج كل من جغرافيا وتاريخ البشر. إن علم المحيطات كان آخر العلوم الأرضية الوليدة، حيث إن الجغرافيين أعطوا أقل القليل من انتباههم لسبعة أعشار سطح الكوكب المغطى بالمياه. تجاهل المؤرخون كذلك المياه التي ربطت العالم ببعضه ببعض: فبالنسبة إليهم، الزمن يبدأ وينتهي على أطراف اليابسة. لقد استمر سرد قصة الشعوب من منطلق فقد واكتساب الأرض، بحيث إن علم الإنسان وعلم الآثار، كما التاريخ، حتى عندما أصبحت أوروبا وشمال أمريكا أكثر صناعية ومدنية، ظلت جميعها حبيسة الأرض، بالتركيز على الداخل على حساب الأطراف⁽¹³⁾.

السواحل باعتبارها الموطن الحقيقي للبشرية

ظل الكتاب المقدس، حتى أواخر القرن الثامن عشر، النص الأساسي لكل من التاريخ والجغرافيا في المجتمعات الغربية. في القرن السابع عشر تحدد تاريخ بدايات الإنسانية بشكل حاسم عند العام 4004 ق. م عن طريق جيمس أشر، رئيس أساقفة أرماج، في مكان كان يعتقد أنه في بقعة من صحاري الشرق

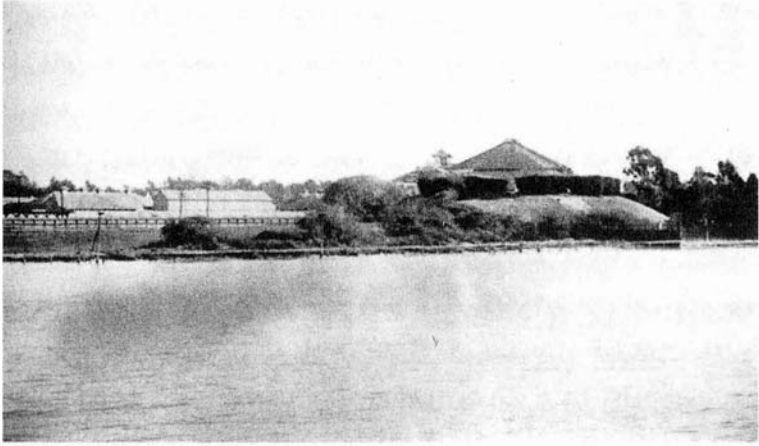
الأوسط، غير أنها من المتعذر الوصول إليها. وفقا لهذا الميراث الفكري، فإنه من غير المفاجئ أنه حينما تطور علم الآثار الإنساني في القرن التاسع عشر، كان مرتكزا على الإقليم ذاته. حتى وقت قريب، مؤرخو حقبة ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون أن كل الأشياء كانت جذورها في الشرق الأوسط القديم ومنطقة دول المتوسط، قبل أن يجري توزيعها تدريجيا من هناك إلى بقية العالم. فإلى أن اخترع الكيميائي ويلارد إف. لبيي طريقة التأريخ بواسطة الكربون المشع في العام 1949، فإن كل السجلات الزمنية كانت تتمحور حول اكتشافات الآثار الشرق أوسطية. فرانسيس برايور يقول: «عبر النظر إلى الشرق من أجل تاريخ، كان كذلك طبيعيا النظر للشرق من أجل منشأ»⁽¹⁴⁾.

لايزال شائعا التمييز بين التاريخ وما قبل التاريخ، كأن هناك بعض الفروق الجوهرية بين البشر الذين عاشوا قبل الثورة الزراعية وبعدها. كتب ستيف ميتش، أحد الرواد الباحثين، يقول: «قليلة هي الأحداث المؤثرة التي حصلت حتى 20.000 ق.م، الناس ببساطة استمروا في عيشهم صيادين رحل، كما كان أسلافهم يفعلون لملايين السنين». فبالنسبة إليه، لم يحدث شيء مهم قبل بداية الزراعة. هذه المعلومة ببساطة غير صحيحة. بيد أنه، حتى الباحثون الذين درسوا الصيادين المرتحلين بشكل متعمق اعتادوا على أن يضعوا هؤلاء في فئة «البدايين». فعلى مسافة قريبة من حيث أقطن في بيركلي، يحدد شارع شيل موند موقعا ما كان في يوم تلة ضخمة من الصدف صنعها شعب الأهلون Ohlon people. أقنع ألفرد كريوبر، عالم آثار بيركلي الشهير، شريكته فيبي هيرست بتمويل تحقيق حول الموقع الذي كانت قد جرت مقدا تسويته جزئيا من أجل حلبة سباق إميريفيل، ثم توج بصوان للرقص الشعبي. تم اختيار زميل كريوبر، ماكس أهل، ليقود عملية التنقيب التي نُشرت نتائجها في العام 1907. تعتبر دراسة ماكس أهل نموذجا للدقة في علم الآثار. قدر أهل أن هذه التلة تعود حوالي ألف سنة إلى الماضي، وأنها أهملت أخيرا فقط. من خلال موقع عمله، استطاع أهل أن يرى بسهولة الناس المحليين وهم يجمعون المحار في وقت الجزر. بيد أنه تخيلهم على أنهم ينتمون إلى المرحلة «البداية» ذاتها من الحياة، والتي إليها أعاد هو السكان الأصليين، شعب الأهلون «في كل أنحاء العالم، وحتى

اليوم، يمكن رؤية الناس على الساحل وقت الجزر يجمعون الصدف الذي كشفه المد المتراجع للطعام»، و«هؤلاء الناس دوما ما ينتمون إلى الطبقات المتدنية من المجتمع، ويحيون بهذه الصورة حياة بدائية كما هي بسيطة»⁽¹⁵⁾.

كانت المسافة بين تلة المحار وخط المد بضع ياردات فقط، بيد أن المسافة الزمنية التي فرضها أهل بينه وبين هؤلاء الصيادين الرحل الأكثر حداثة كانت عظيمة. إن علماء الإنسان من هذا الجيل الذين تم تدريبهم على التفكير في الزراعة على أنها أعلى المراحل الحضارية، وذلك قبل قدوم زمنهم هم الصناعي - المدني، يصرون على أن الحياة على الساحل لا بد أنها كانت «الملجأ الأخير» للشعب الذي ما كان ليختار تلك كطريقة للحياة قط إذا لا يزال لديهم طريقة للوصول إلى اليابسة. إن احتمالية أن المكان الذي تلتقي فيه اليابسة بالماء يمكن أن يكون جنة عدن حقيقية حتى لم تخطر على بال أهل، ذلك لأنه، مثل كل هؤلاء الذين تعلقوا بأسطورة الخلق للحضارة الغربية، بقي حبيس الأرض عقليا.

وكونهم «بدائين»، جرى نفي الصيادين الرحل أوتوماتيكيا من الحاضر إلى ماض بعيد، ينظر إليهم على أنهم من الناجين القدماء جدا، الذين كانوا يعيشون على زمن مستدان في عالم حديث حيث لا مكان لهم ولا مستقبل. إن الخطة التطورية التي كان يفضلها جيل أهل اعتمدت التفضيل للأرض على الماء، وافترضت أن الصيادين الرحل البحارة لم يتغيروا منذ اللحظة التي قدمت فيها البشرية إلى الساحل. فعلى الرغم من دلائل التغيير، عبر الزمان والمكان، جرى الحكم فيهم بأنهم غير قادرين على التغيير. فوفقا لمبدأ التطورين حول الارتقاء المتطور، أهمل هؤلاء أولا من قبل صيادي الحيوانات الضخمة العظماء، ولاحقا من قبل المزارعين. نسبة إلى هذه القصة، فإنه فقط عندما استُهلكت كل المؤن من الحيوانات الكبيرة اتجه الإنسان الصياد إلى صيد السمك. لم يتنازل ذكر هذا الجنس مطلقا (فعليا أو رمزيا) عن أن يمارس مهنة جمع الطعام، وهو العمل الذي ربطه جيل أهل بالنساء والشعوب الأدنى مرتبة. إن المفهوم الذي يقول إن الحركة في اتجاه الساحل ليست سوى خطوة إلى الخلف هو مفهوم لا يزال يحلق حول علم الآثار المعاصر⁽¹⁶⁾.



صورة للتلة الضخمة للمحار في إمبرفيل، كاليفورنيا، في العام 1907،
ثم توجهت بصوان للرقص الشعبي، الصورة من ويكيبيديا.

أوضحت هذه القصة العنصریات الطبقيّة والجندرية للجيل الأول من نبلاء علماء الاجتماع الذين، في حين أنهم تركوا المجتمع الزراعي من وقت قريب فقط، كان لهم أقل القليل من التواصل مع صيادين مرتحلين حقيقيين. إن النظر إلى ما قبل التاريخ من خلال نظرة المزارعين المتعالية أدت بهم إلى فهم عدة أشياء بطريقة خاطئة. أولاً وقبل كل شيء، فإن تدجين وترويض النباتات والحيوانات كان قد بدأ قبل قيام ما يدعى بالثورة الزراعية بزمن بعيد، وفي الأغلب، فإنه بدأ في المناطق التي تلتقي فيها اليابسة بالماء (البحيرات، والأنهار، والسواحل البحرية)، وذلك عوضاً عن الأرض اليابسة. إن الفوائض المكتسبة عبر صيد الحيوانات وصيد السمك في الأغلب زودت الناس بدرجة من الراحة سمحت لهم بإجراء تجارب الترويض والتدجين على النباتات والحيوانات. كارل ساور كان من أوائل من أوضحوا أن المزارعين صيادي السمك هم من قادوا الطريق إلى تطور البشرية. لم يكونوا هم المتقاعسين، بل كانوا الرياديين بين البشر الأوائل. إن جداله حول أن الترويض بدأ على سواحل جنوب شرق آسيا جرى تأكيده جزئياً فقط، بيد أن مقاومته الأولية لأسطورة التطوريين حول

النشء المحصور على اليابسة يستحق انتباهنا. لقد كان بزوغ مجتمع زراعي خالص معرضا دوريا لأنواع مختلفة من الأوبئة والمجاعات، وربما هو، على الأقل من وجهة نظر بيئية، الأول بين العديد من الزلات التي ارتكبتها البشرية⁽¹⁷⁾. ومادام علم الآثار وعلم الإنسان استمرا في الاعتقاد أن البحث هو «عمل ميداني»، سيبقى البحر خارج دائرة اهتماماتهم؛ فالسواحل والشعوب الساحلية كانت مبدئيا تثير القليل من اهتمام مؤرخي ما قبل التاريخ الذين ركزوا على الصياد الرجل الذي يجوب الأرض، موعزين صيد السمك وجمع المحار إلى فئة «آخر ملاذات» البشرية، أعمال عمل بها البشر عندما انقرض أو شح عدد الحيوانات. فبالنسبة إلى علماء الآثار المحترفين، كل الأشياء المهمة بدأت على الأرض، فالتطور من القروء العظيمة إلى أوائل البشر كان ينظر إليه تقليديا على أنه تم في غابات السافانا الأفريقية، حيث، بعد أن تركت القروء أمان الحياة المعيشة على الأشجار، تطورت أولا فكرة الكائن ذي القدمين وانفصل البشر عن القردة⁽¹⁸⁾.

بيد أن هذه النظرية لم تفسر بشكل كامل التغييرات التطورية الأخرى التي أدت إلى ظهور الجنس البشري المميز. لم يكن هناك أي تعليل لعدم وجود شعر على أجساد البشر أو لقدراتهم على السباحة، وذلك حتى أتى رجل إنجليزي، يدعى أليستر هاردي، بالفكرة الجديدة غير المألوفة، بأنه لم تكن هي غابات السافانا بل كان البحر هو الذي حقق التفرع بين القردة والبشر. لقد اقترح هاردي أن الخوض في المياه، ومن ثم السباحة، هما اللذان شجعا، ليس فقط الوضعية المستقيمة للبشر، ولكن كذلك غياب الشعر عن أجسامهم وقدراتهم على السباحة والغوص. لم ينشر هاردي تساؤلاته حتى العام 1960، عندما أعلن أنه ربما جرى إجبار القردة على النزول إلى الماء بسبب اختفاء الغابات وغمر الفيضانات مواطنها السابقة. لقد خمن هاردي أنها عاشت عدة ملايين من السنوات على سواحل الأنهار والبحيرات، حتى تحولت في النهاية إلى Homo habilis^(*)، القادرين على استعمال الأدوات الحجرية لفتح المحار⁽¹⁹⁾.

إن هذه الفكرة بأن الماء كان موردا للبشر القدماء عوضا عن كونه عائقا كانت بطيئة اللحاق بدوائر علم الإنسان؛ بيد أنها فكرة تبنها الجغرافي من

(*) نوع من أنواع الجنس البشري المنقرض، يسمى الإنسان الماهر، عاش ربما منذ مليون ونصف المليون إلى مليونين ونصف المليون سنة مضت. [المترجمة].

بيركلي كارل ساور في العام 1962. لقد حدس ساور أن الساحل لم يكن آخر اختيارات البشرية ولكنه كان نقطة البداية لأفراد الإنسان العاقل الحديثة. عندما أطلق ساور وصف «الموطن البدائي للإنسان» على الساحل، لم يكن يعني أن يربطه بالبداية أو الركود. على العكس تماما، فبالنسبة إلى ساور «تطورنا أخذ منحى بعيدا عن طريق الكائن الحيواني المعتاد بسبب الاتجاه نحو البحر. لا يوجد أي محيط أكثر جذبا لبداية البشرية. البحر، تحديدا سواحل المد والجزر، قدمت أفضل الفرص للغذاء، والاستقرار، وللتكاثر والتعلم»⁽²⁰⁾.

كان ساور ينتمي إلى الغرب الأوسط الذي أيقظ فضوله بسبب تلال الأصداف الضخمة التي وجدها في باجا، كاليفورنيا خلال العام 1920. وبوصفه عضو هيئة تدريس في بيركلي، كان لا بد، وهو على علم باكتشافات ماكس أهل التي تبعد فقط أميالا قليلة عن الحرم الجامعي، وذلك عن طريق صديقه المقرب ألفرد كروبر. ساور كان أحد عظماء الأكاديميين الفضوليين، والذي لم يقابل حاجزا قط لم يرغب في تخطيه. كان مهتما، ومنذ زمن، بأصول الإنسان وانتشاره، وعندما تمت دعوته لتقديم محاضرة آيزيا بومان عن طريق الجمعية الجغرافية الأمريكية في العام 1952، كان مستعدا لرمي قفازه في وجه مؤسسة علم الإنسان وعلم الآثار، متحديا مفهوم التطور الإنساني أحادي الخط: «لا يوجد قانون عام للتطور تتبعه كل البشرية، لم تكن هناك مراحل ثقافية يعبر من خلالها كل البشر»⁽²¹⁾.

أعاد ساور تحديد مكان جنة عدن من الداخل وإلى الساحل: «ربما يكون، كما كان يعتقد، أن نوعنا كانت أصوله وموطنه على اليابسة الداخلية. إلا أن اكتشاف البحر، أيا كان الوقت الذي حدث فيه ذلك، قد مكن البشر من العيش في مواقع أبعد من تلك الداخلية». لقد كان على الساحل أن انفصل البشر ليس فقط عن الكائنات الحيوانية ولكن كذلك مع البشر الأقل تطورا hominids. هناك، طور أفراد الإنسان العاقل مميزات الحياة المتحضرة، بما في ذلك تكوين الوحدات العائلية، وقوانين القرابة، والشعور بالمركية الأمومية في البيت. تسارع منحى التعلم الإنساني، مما مكن من استمرارية الأجيال وأسس لنظام ثقافي واجتماعي معقد ومستمر. في النهاية، ستحسن القدرة على استخدام المياه من

القدرة على التواصل عبر المسافات المتباعدة، والتي سينتج عنها أخيرا توزيع الثقافات الإنسانية المتطورة من أفريقيا عبر الساحل، وعلى امتداد السواحل الشرقية للمحيط الهندي، ثم إلى أستراليا، وإلى أوراسيا، ثم في النهاية حول الحافة الشمالية للمحيط الهادي وإلى الأمريكتين⁽²²⁾.

هنا كان التحدي الواضح لقصة سفر التكوين، حيث إن القصة لا تطرح فقط جنة عدن جديدة، بل إنها تطرح آدم جديدا وحواء جديدة، والذين تطورا عبر التواصل مع البحر عوضا عن الأرض الداخلية. إن ترحيل جنة عدن من الداخل إلى الساحل قوض مجد الإنسان الصياد والذي كان رائجا جدا في أيام ساور. كذلك، فإنها قلبت العنصریات الطبقيّة والجندرية المنتصرة عبر إعطاء النساء دورا رئيسيا في عملية التطور الإنساني. لقد وضع ساور النساء في مركز الوحدة المنزلية، بيد أن نساءه لم يكن مجرد ربان منزل بأي صورة من الصور. على الساحل «الجنسان متساويان من حيث الإمكانيات، والقدرة على التحمل، وكفاءة الأداء في المياه، ويمكنهم أن يشاركوا في أعمال الجمع وفي رياضات الماء على قدم المساواة». لقد عكس ساور حماس كاليفورنيا ما بعد الحرب لكل شيء ساحلي في الوقت الذي كانت فيه الولاية تغير طرازها لتصبح ساحل الأحلام. إن حياته هو بذاتها قد لخصت ما كان يعتقد مستقبلا البشرية. فبينما هو يدير ظهره لجذوره الغرب أوسطية الزراعة، كان يكتب «عندما تمتلئ كل الأرض بالبشر والآلات، لربما سيكون آخر احتياج وطقس للإنسان، كما كان في بداياته، هو الوصول إلى اختبار البحر»⁽²³⁾.

لقد استغرقت توقعات ساور أربعين سنة ليجري تأكيدها عبر مؤرخي ما قبل التاريخ، غير أن أسطورة الخلق الأرضية كانت تحت الهجوم مقدما من زاوية أخرى، والتي كان لها خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته جمهور شعبي أكبر بكثير من ذلك الذي كان لعلم الإنسان أو علم الآثار. راتشيل كارسون، التي ترعرعت في بنسلفانيا ولم تزر البحر كعاملّة بيولوجيا متدربة حتى 1929، لم تنشر كتابها «البحر من حولنا» The Sea Around US حتى 1951. غير أن هذا الكتاب نجح فوريا واستمر على قائمة أفضل مبيعات النيويورك تايمز لمدة ثمانية وعشرين أسبوعا، حيث أوعز تأثيره لأسلوب الكاتبة الشاعري الأسطوري كما

هو للمعلومات العلمية التي عرضها. قلبت كارسون العلاقة بين الأرض والبحر، معلنة أنه «كما بدأت الحياة نفسها في البحر، كذلك بدأ كل منا حياته المنفصلة في محيط مصغر داخل رحم أمه، وفي مراحل تطوره الجنيني يكرر الخطوات التي تطور بها جنسه، من مستوطنين لعالم مائي يتنفسون بزعانفهم وصولاً إلى مخلوقات تستطيع أن تحيا على الأرض». ومثل ساور، كارسون توقعت أن تحفر البشرية طريقها «عودة إلى البحر»، حيث، وإن لم يستطع البشر أن يعودوا فعليا إلى المحيط بأجسادهم، فإنهم «سيعودون إلى دخوله ذهنيا وخياليا»⁽²⁴⁾.

وأخيرا يبيل علم الآثار قدميه

لم يكن كارسون وساور وحيدين في رحلتها الذهنية. في أمريكا وأوروبا ما بعد الحرب، الملايين من معاصريهما كانوا يصلون إلى اكتشافاتهم الشخصية للسواحل في واحدة من أعظم الحركات الإنسانية والتي تستمر بتصاعد أعظم إلى اليوم. هؤلاء الآدم والحواء الجدد كانوا يبحثون عن نسختهم الخاصة من جنة عدن، غير أن تطلعاتهم لم تكن تلك التي للشعوب الزراعية. كمخلوقات تنتمي إلى الحقبة الصناعية، بل ربما إلى الحقبة ما بعد الصناعية، كانوا يستهدفون نوعا جديدا من الفردوس. وخلال عملية العودة إلى البحر، والتي هي رحلة خلال الزمن كما هي خلال المكان، كانوا ملزمين بالتقريب عن التاريخ المنسي لعلاقة البشرية مع البيئة البحرية.

على الرغم من معقولية هذه القصة البديلة للتطور الإنساني، فإن مفهوم الأصول البحرية ظل، وإلى وقت قريب، هامشيا. فبالنسبة إلى معظم المؤرخين، الزمن لا يزال يبدأ وينتهي على اليابسة. وبالأسلوب نفسه، يستمر الجغرافيون في معاملة المياه على أنها خارج حدود موضوعهم. هذه الرؤية المنغلقة على الأرض تنطوي على عنصرية جندرية قوية. ففي زمن ما قبل التاريخ، كان التركيز تقريبا منحصرا على الرجل الصياد. فقد كان مفروغا منه، وعلى الرغم من الأدلة التي تشير إلى مشاركة الإناث، فإن صيد السمك كان نشاطا ذكوريا حصريا⁽²⁵⁾. نستطيع أن نرى الآن أن تزييف النظرة الماضية هذه كان معمولا به هنا كما في كل مكان آخر. ففكرة الرجل الصياد كانت في معظمها اختراع علماء الإنسان الفكتوريين من الرجال وهي تشير إلى تشابه لافت مع صياد الفرائس الكبيرة

الحديث، والذي يسافر كذلك بعيدا عن موطنه باحثا عن فريسته. فالرجال المتعلمون جامعا، والذين يتصرفون على أساس المعتقدات المعاصرة لانفصال المجالات، لم يعطوا الكثير من الانتباه لنشاطات النساء البحريات، حيث يضعون هؤلاء النساء في المكانة المتدنية لوظيفة التجميع وبذلك يخسسون، وبصورة ضخمة، أهمية عملية التجميع بحد ذاتها بالنسبة إلى مسار تطور البشرية⁽²⁶⁾.

لطالما اعتمدت الحياة على الماء، ونحن متأكدون من أن الجنس البشري hominids كانوا يستخدمون سواحل البحيرات والأنهار قبل أن يبدأوا في ترك الداخل الأفريقي بزمن طويل، منذ 1.5 مليون سنة. بدأ جنس hominids في الانفصال عن القردة منذ ستة أو سبعة ملايين سنة مضت، حيث ظهر عدد من الأجناس المختلفة Homo erectus [الإنسان القائم]، Neanderthals^(*)، Homo habilis بين عدة آخر وذلك قبل وصول الجنس البشري الحديث Homo sapiens، تقريبا منذ 200 ألف سنة مضت. هاجر أفراد جنس النياندرتال إلى أورسيا غير أنهم أخيرا انتهوا تماما. كان جنس الإنسان القائم هو الأول الذي يهاجر إلى جنوب غرب آسيا ومن ثم، وعبر جنوب شرق آسيا، إلى الصين، بيد أنهم انتهوا في تلك المنطقة ليفسحوا الطريق للجنس الأكثر تطورا وهو الإنسان العاقل، والذين تركوا أفريقيا بعد ذلك بزمن غير أنهم كانوا أفضل تجهيزا ليحتلوا العالم بأكمله في النهاية⁽²⁷⁾.

بدا أن أفراد جنس الإنسان العاقل، الذين نعتبر نحن سلالتهم المباشرة، قد هاجروا من الداخل الأفريقي إلى حيث سواحله الشرقية وذلك منذ 160 ألف سنة مضت على الأقل. ولقد هاجروا خارج أفريقيا منذ 50 ألف سنة مضت، وذلك بعد أن طوروا حزمة من القدرات الإدراكية، والتي جعلتهم متفوقين على بقية أفراد جنس hominids، وذلك بمن فيهم من النياندرتال، والذين تعايشوا معهم في أوروبا لمدة طويلة من الزمن قبل أن ينقرض الأخيرون. لقد كانت سيطرة جنس الإنسان العاقل القاطعة نتاج ليس فقط أي سمة تشريحية منفردة ولكن كانت نتاج تطوره العقلي، والذي كان في غاية الأهمية لاكتساب اللغة والسلوك الرمزي، تلك السمات التي تميز جنس الإنسان العاقل ليس فقط عن القردة بل عن أشباه البشر الآخرين humanoids⁽²⁸⁾.

(*) أحد أقرب الأجناس البشرية المنقرضة للإنسان الحديث. [المترجمة].

يخبرنا علماء البيئة بأن «الجنس البشري، منذ البداية، كان مخلوق الحواف»، يزدهر حيث تتداخل الأنظمة البيئية، في الأماكن المعروفة باسم ecotones أو المناطق البيئية الانتقالية. فمنذ أن هبط جنسنا من على الأشجار وأدار ظهره إلى الغابة وذلك ليتجول في السافانا، أو السهول الخضراء لأفريقيا، كان يجد المناطق البيئية الانتقالية تلك الأكثر جاذبية. في البداية كانت حواف الغابات ولاحقا شواطئ الأنهار والبحيرات حيث وجدنا أدلة على وجود أقدم جامعي محار ونباتات بحرية. هذا العمل لابد أنه استمر لمئات الآلاف من السنوات، غير أن نقطة التحول الحقيقية جرى الوصول إليها على حافة البحر، حيث تعرف بيئات الماء المالح بأنها أكثر إنتاجية من تلك التي للماء العذب⁽²⁹⁾.

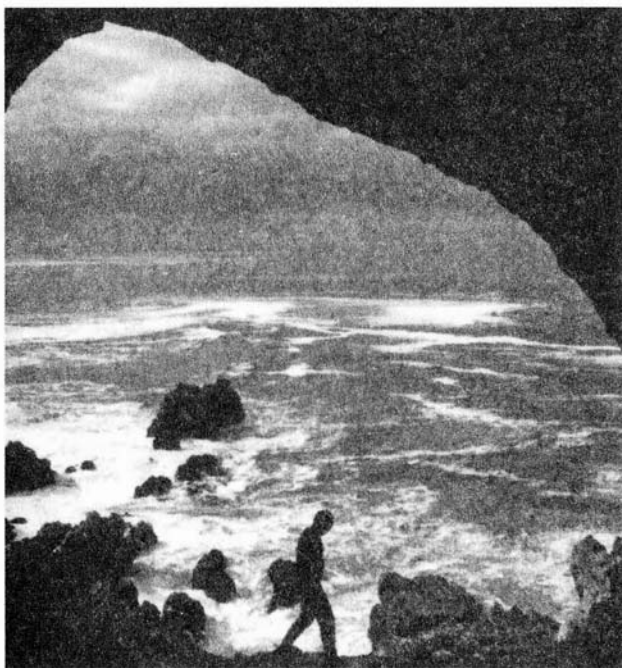
هناك أسباب منطقية تجعلنا نعتقد أنه في هذه البيئة أصبحنا نحن بشرا بشكل كامل، حيث تطورت نسبة المخ الكبير بالنسبة إلى الجسم والتي أصبحت، كما هي في الدولفين وبعض الأنواع الأخرى من الثدييات البحرية، سمنا المميزة. يوعز عالم الكيمياء العصبية مايكل كراوفورد هذه السمة إلى وفرة أطعمة المحار والسمك والتي تحتوي على أحماض دهنية (خصوصا DHA) المهمة لنمو المخ الكبير الحجم. إن بشر أكلة العشب وأكلة اللحوم الأولين لم تكن لديهم طريقة وصول إلى مثل هذه الأطعمة، ولم يكن إلا عندما وصلت البشرية إلى البحر أن تطور المخ إلى أبعاده البشرية الحالية. كان ذلك هو قاعدة الانطلاق لكل التغييرات الاجتماعية والثقافية التالية. لم تكن هناك لحظة أخرى، ولا حتى لحظة تأسيس المجتمعات الزراعية بعد ما يقرب من 155 ألف سنة لاحقة، بدا أنها أنتجت مثل هذا التحول الجوهري⁽³⁰⁾.

فقط عندما اجتمع عمل البستنة والزراعة مع الصيد تعلمت البشرية أن تتعايش مع الطبيعة بطرق يمكن لها أن تدوم لفترات طويلة جدا. من هذا المنظور، تعتبر الرحلة إلى الساحل ليست آخر وإنما أول ملاذ للبشرية، فقد كان يعتقد ولمدة طويلة أن البشرية توقفت عن الصيد فقط عندما انقرضت هذه الحيوانات. الآن، يمكننا أن نقول بثقة إن البشر استقروا على السواحل ليس بسبب نقص الأراضي الداخلية بل بسبب الغنى الذي قدمته السواحل البحرية. لقد كان على هذه السواحل أن طورت البشرية أوائل المجتمعات المستقرة وتعلمت كيفية التواصل والتقايض بعضها مع بعض — بمعنى آخر، تعلمت أن تحقق وجودا متحضرا. هناك، طورت البشرية كذلك

البستنة والتي هي سابقة للزراعة في حد ذاتها. كذلك، فإنه من الساحل بدأت الرحلة خارج أفريقيا، فمن دون البحر ما كان ليتمكن تصور التطور البشري⁽³¹⁾.

الجنة الحقيقية: نقطة القمة

لم يتوقف البحث عن جنة الكتاب المقدس عبر القرون مطلقا، لم تترك عملية البحث صخرة لم تقلبها أو مكانا لم تنقب فيه. في الولايات المتحدة وحدها، المئات من الأماكن تحمل هذا الاسم. إنه الاسم المفضل لتجار العقارات ووكلاء السياحة. على خليج موسل، عند أقصى الطرف الجنوبي لأفريقيا الجنوبية، يستقر شاطئ بيناكل بوينت Pinnacle Point ومنتجع الغولف المتسعين عاليا فوق بحر هائج. عندما رشح المتعهدون المالئون المكان على أنه «جنة عدن جديدة»، لم يكن في إمكانهم أن يعلموا أن الكهوف التي في الأجراف أسفل النقطة التاسعة في ملعب الغولف مباشرة ستقدم أقوى الإثباتات وإلى تاريخنا هذا على كونها مكان الأصول الحقيقية للبشرية⁽³²⁾.



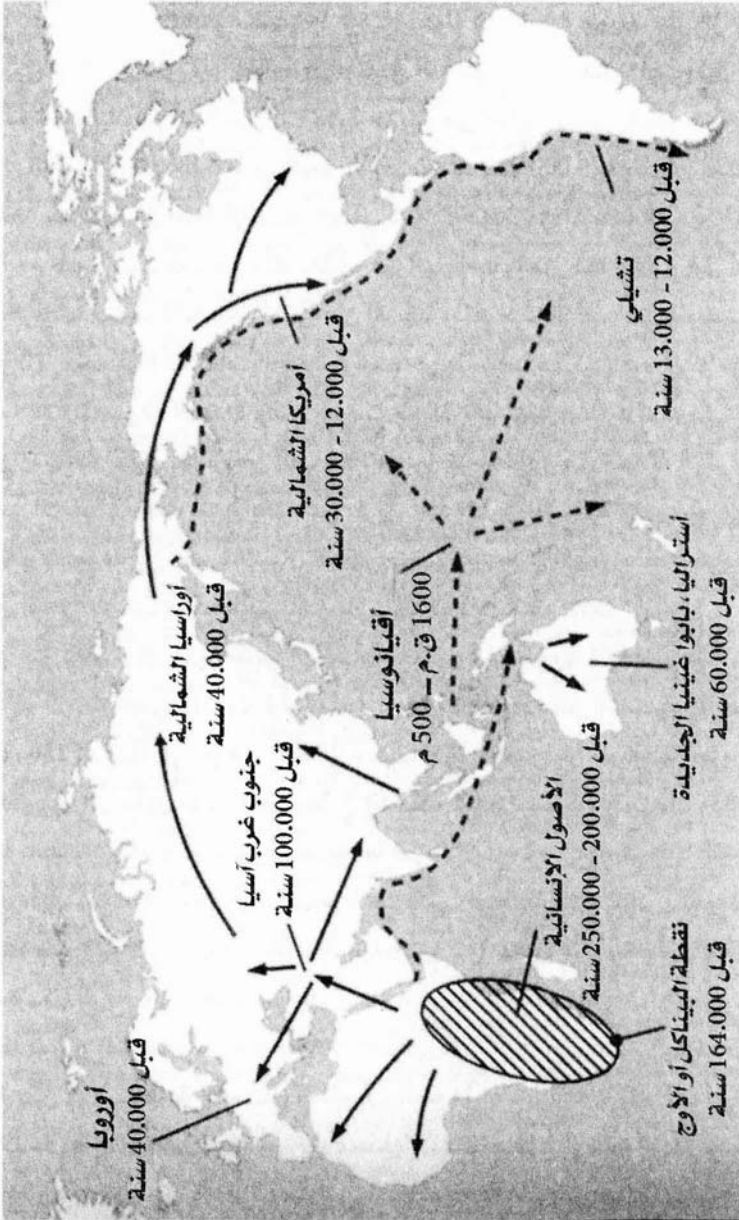
منظر من كهف عند Pinnacle Point، جنوب أفريقيا.
الصورة من مشروع علم الآثار لكيرتيس ماريان وخليج موسل.

إن اكتشاف الجنة الجديدة إنجاز لفريق علم آثار بقيادة كيرتيس ماريان من جامعة ولاية أريزونا. حدس ماريان أنه في أوج فترات التجمد، عندما كان الداخل الأفريقي باردا وجافا وغير صالح للعيش البشري، انتقل البشر بحكم الضرورة إلى الساحل، حيث كان الجو أكثر دفئا ومصادر الطعام أكثر وفرة. إن أعمال التنقيب في كهف أصبح يعرف باسم PP13B أثبتت أنها اكتشاف عظيم. فخلال عشر سنوات من الحفر المتأني اكتشف فريقه ليس فقط دليلا على أن المكان مأهول بل دليل أيضا على تطور ثقافي ومادي والذي صنع ثورة في فهمنا لأصول الإنسان العاقل. فبفضل عمل ماريان وآخرين، أعيد ضبط توقيت التطور كما أعيد توقيت الأصول من 125 ألف سنة إلى 164 ألف سنة مضت. لقد ظهرت أدلة على أن سكان PP13B قد استغلوا كلا طرفي خط المد، حيث اعتمدوا بشدة على المحار الذي كانوا يجمعونه في وقت الجزر عندما كانت الحياة البحرية أسفل الكهوف، والتي تشمل الحيتان وحيوانات الفقمة المعروفة على الساحل، مكشوفة وسهلة التجميع. تتوافر الأدلة على أن هؤلاء البشر كانوا بارعين منذ ذلك الوقت في تشكيل السكاكين الحجرية، لكن كانت هناك أدلة أعمق لسلوكيات رمزية والموثقة في بقايا مادة صبغية صفراء ochre يعتقد أنها أول دليل على تلوين الجسد جرى اكتشافه. لربما وصل سكان الجنة عند Pinnacle Point كمجموعة من البشر الرحل، غير أن غذاءهم الساحلي مكنهم من العيش المستقر، والذي يقترب كثيرا مما تخيله ساور⁽³³⁾.

هنا توافر الدليل على أنه وفي فترة تغيير مناخي مدمر محتمل أثبت البشر، ولربما لأول مرة، ليس فقط قدرتهم على التكيف ولكن كذلك على الإبداع الشديد. لقد كانت البيئة الساحلية هي خلاصهم، لكنهم، وحتى يستغلوا مواردها، كانوا يحتاجون إلى أن يتعلموا تفاعلي مخاطرها. وفرت الكهوف التي تعلو خط المياه مأوى، غير أنهم، وحتى يحصدوا الوليمة الموجودة أسفل خط المد، كانوا يحتاجون إلى توقيت نزولهم بحرص شديد حتى يستغلوا فترة انخفاض المياه. توقع ماريان أن ذلك لربما كان يحتاج إلى براعة في فهم التقويم القمري، والذي يعد قفزة ذهنية ليست بأقل أهمية من حساب الدورات الشمسية⁽³⁴⁾.

يبدو أن جنة Pinnacle Point كانت مأهولة لمدة زمنية طويلة، على الرغم من أن البشر كانوا قد انتقلوا إلى المناطق الداخلية مجددا عندما أصبح المناخ أكثر احتمالية. غير أنه أخيرا، أتت دورة جديدة من التغير المناخي بالبشر مجددا إلى البحر، وفي تلك اللحظة إلى البحر الأحمر، وذلك منذ 125.000 سنة مضت. نحن متأكدون أن أفراد الإنسان العاقل كانوا موجودين في المنطقة التي نعرفها اليوم باسم فلسطين بعد ذلك بقليل، غير أن نوم اختفوا من هذا الإقليم قبل أن يخرجوا خروجا ثانيا وأكثر أهمية من أفريقيا وذلك منذ 50 ألف سنة مضت. والآن، بمساعدة العلامات الجينية لرسم خريطة الأسلاف، نستطيع أن نلاحق سلالات المجموعة الصغيرة والتي خرجت من أفريقيا لتملأ العالم بأكمله بالبشر في زمن أكثر بقليل من أربعين ألف سنة. وبينما خرج آخرون من السلالة البشرية من أفريقيا في وقت أسبق بكثير عن طريق أخذ الطرق الشمالية والشرقية، فإن أهم مجموعة من جنس الإنسان العاقل خرجت عن طريق أقصى نقطة جنوبية في البحر الأحمر، تعرف اليوم باسم باب المنذب Gate of Grief⁽³⁵⁾.

لم يعان أوائل أفراد جنس الإنسان العاقل الذين عبروا تلك المياه لأنه في ذلك الزمن الذي ارتفعت فيه نسبة تجمد الأنهار، انخفض منسوب البحر إلى 230 قدما أقل مما هو عليه الآن، مما صغر المضيق بين أفريقيا والجزيرة العربية أكثر. ما إن بدأت المجموعة في التحرك، فإنهم تمسكوا بالساحل، وذلك ما دعاه سبنسر ويلز باسم «طريق ما قبل التاريخ السريع». في هذه الفترة الزمنية، كانت السواحل أكثر اتساعا بشكل كبير، لربما بما يقدر بمائتي كيلومتر، مما هي عليه اليوم، موفرة نظاما غذائيا بحريا غنيا جدا. تحرك الإنسان العاقل بشكل سريع على ضفاف سواحل الهند، متفرعين باتجاهي الشمال والجنوب، طاردين منافسيهم من hominids والنياندرتال الذين سبقوهم إلى المكان. لم يكن في استطاعة الإنسان القائم أن يقطع المياه مطلقا، لذلك، فإن أفراد الإنسان العاقل حصلوا على أستراليا بمجملها لأنفسهم عندما وصلوا إليها. عندما انتقلوا إلى الشمال داخل الهند وآسيا، فإنهم فعلوا ذلك عن طريق السواحل التي استقروا عليها مبدئيا. يمكن القول حقيقة إن الساحل كان «محطة الإعداد للاستقرار في بقية العالم⁽³⁶⁾».



خريطة لهجرات العالم من 2 100.000 [BCE] (*)، أعدها أدام دافيز.

(*) Before Common Era وهو مصطلح غير ديني لفترة ما قبل التاريخ. [المترجمة].

لقد كان ذلك جنسًا قادرًا على التحكم في أكثر البيئات قسوة، مما فيها القطبية. منذ عشرين ألف سنة مضت، وصل هؤلاء إلى الحدود الشرقية لسيبيريا حيث وسعوا مدى الصيد والتجميع إلى بيرنجيا، والتي كانت في حينها جسرًا أرضيًا بين آسيا وأمريكا الشمالية. تُشجعنا الأبحاث الأخيرة على التفكير في أن تأهيل الأمريكتين هو عبارة عن امتداد لعملية تأهيل الساحل عوضًا عن تأهيل ذاك الأراضي الداخلي. يخمن نوت فلامدراك وآخرون أن المهاجرين تحركوا بخفة على السواحل، مستغلين الفوائد الغنية لكلا جانبي خط المد. في ذلك الوقت كان ارتفاع مستويات البحر يقدر بنحو 350 - 400 قدم أقل مما هو عليه الآن، جاعلا من قارة أمريكا الشمالية أكبر حجمًا بزيادة تقدر بحجم ولاية تكساس الحالية. لا بد للواحد منا أن يتخيل أن ما يدعى أحيانًا «طريق كلب السريع» كان كتلة حيوية من الغنى والتنوع تشابه الغابات الاستوائية الممتدة من اليابان وعبر السواحل الجنوبية لبرنجيا نزولًا إلى باجا، كاليفورنيا، ثم تستمر بمحاذاة سواحل الأنديان نزولًا إلى طرف أمريكا الجنوبية. فكما لاحظ تشارلز داروين في 1834، هذه الغابات البحرية الشاسعة لم تحتضن فقط الثدييات البحرية، السمك، والطيور، بل احتضنت كذلك بشرًا مثل الفيوجيين Fuegians⁽³⁷⁾.

إن طرق الهجرات من آسيا إلى العالم الجديد استمرت في كونها مثيرة للجدل، بيد أنه اتضح لنا الآن وبشكل كاف أن الهجرة الساحلية أدت دورًا على الأقل بالأهمية نفسها في الأمريكتين كذلك الذي أدته في بقية أنحاء العالم. إلى تاريخنا هذا، كل الجهود المبذولة للعثور على دليل على ممر مائي عبر المحيط الهادي أو المحيط الأطلنطي باءت بالفشل، وفي حين أنه كان محتملًا أن القوارب كانت تستخدم للتنقل عبر السواحل، فإنه من غير المرجح أن هؤلاء الساحليين الأوائل كانوا بحارة يصلون إلى أعماق البحار. ومع ذلك، فإن السرعة التي سافروا بها عبر ضفاف السواحل كانت مذهلة. يسبق موقع مونت فيردي The Mont Verde في تشيلي بما لا يقل عن ألف سنة أقدم موقع استقرار بشري موثق على الأرض الداخلية، والذي يدعى موقع كلوفيز Clovis Site. كانت مونت فيردي مستوطنة طويلة الأمد، تقع على نهر يبعد بما يزيد بقليل على ثلاثين ميلاً عن البحر فقط، وهي مستوطنة بدا أن لديها علاقات تجارية مع مجتمعات بحرية أخرى. إن الأدلة على استهلاك المحار والأعشاب البحرية هناك تشير وبقوة إلى وجود الصيادين الرحل البحريين عوضًا عن

صيادي الحيوانات الضخمة الأرضية والذين كانوا ولزمن طويل هم أبطال النظريات التقليدية للهجرات القارية المركزية⁽³⁸⁾.

لَمْ بقيت قصة جنس الحواف البشري غاية في الغرابة؟ إن أحد الأسباب الجلية تركز في غياب نوعية الأدلة المتوافرة بكثرة على المواقع الأرضية الداخلية. فعلى مدى الـ 150 ألف سنة الأخيرة تعرضت مستويات البحر إلى تذبذبات بالغة، ماسحة بشكل متكرر سجل الاستيطان الإنساني على الساحل. في آخر فترة تجميد، والتي وصلت الذروة منذ 20 ألف سنة مضت، وصلت ارتفاعات البحر، كما ذكرت أعلاه، من 350 إلى 400 قدم أقل مما هي عليه الآن. استقر البشر في العديد من الأماكن التي اختفت منذ زمن طويل منذ ذلك الحين، إما أنها مسحت عن طريق المد المرتفع أو غرقت عميقا أسفل الأمواج التي استطعنا فقط اليوم، وبمساعدة التكنولوجيا الحديثة لعلم الآثار المائي، أن نستكشفها. في وقتنا هذا، كل سنة تأتي باكتشافات جديدة على الساحل والتي تكشف التاريخ الخفي لجنسنا الساحلي، لبراعته في تحويل السواحل إلى طرق سفر وتجارة ليس لها مثيل على الأراضي الداخلية. حتى وقت قريب، كان علماء الآثار مقتنعين بأنه جرى دخول أمريكا الشمالية عن طريق ممر داخلي غير متجمد. الآن، يمكن إثبات أن اتباع الطرق الأرضية عبر الحقول الكورديليرية واللورينتايدية^(*) الجليدية كان لربما سيكون أشد صعوبة بكثير من اتباع طريق كيلب السريع الهائل على ضفاف السواحل. ببساطة، ليس هناك تفسير آخر لكيفية وصول البشر إلى أقاصي الجنوب للقارة وفي وقت قصير جدا بعد دخولهم أمريكا الشمالية⁽³⁹⁾.

في البداية، بدا أن مهاجري الساحل كانوا يستخدمون الشواطئ بشكل بسيط، يتنقلون عبرها عندما يستهلكون مكان إقامتهم، حيث إنهم نادرا ما يستقرون لفترات زمنية طويلة. غير أنه ومنذ عشرة آلاف سنة، تحولت الطرق الساحلية إلى جذور ساحلية وذلك عندما أصبحت المستوطنات أكثر ديمومة. كان ذلك تقريبا في الوقت نفسه الذي بدأت فيه المجتمعات الزراعية المستقرة. وبينما كان يعتقد ذات يوم أن تطور الساحل كان معتمدا على تطور الداخل، يبدو الآن أن الوضع، ربما، كان معكوسا

(*) Cordilleran and Laurentide Ice Sheets هي مساحات جليدية ضخمة كانت تغطي أجزاء من أمريكا الشمالية وكندا. [المترجمة].

في الواقع، حيث تحققت بدايات المجتمع الزراعي على السواحل. لطالما كان الصيادون الرحل ماهرين في الفلاحة، وفي العديد من البيئات الانتقالية حيث تتداخل اليابسة بالماء، لم يكن ممكنا التفريق بين صيادي السمك والمزارعين. كان يجب استكمال البروتين المتوافر من السمك والمحار بسعرات حرارية من لحوم الحيوانات والنباتات القابلة للأكل، والتي كان من السهولة العثور عليها على الساحل كما في الداخل. والآن، أصبح مؤكدا أن التطور الإنساني لم يتبع تسلسلا بسيطاً من الصيد والتجميع إلى الزراعة. لم يعد في الإمكان النظر إلى الزراعة على أنها فقرة عظيمة مفاجئة للأمام، بل كامتداد للمهارات التقنية التي جرى تعلمها على طرف الماء⁽⁴⁰⁾.

لقد تطور صيد السمك والزراعة، صيد الطرائد والبستنة ترادفياً منذ البداية، حيث كان كل منها يتمم الأخرى. لا بد اليوم من ترك مفاهيم القرن التاسع عشر حول «مراحل» التطور وذلك من أجل مفهوم التاريخ المستمر المتداخل والذي يدرك أن الأرض والماء جزءان يعتمد أحدهما على الآخر لنفس النظام البيئي. لم يحدث هذا الانفصال حتى القرن التاسع عشر عندما تحول نظاما الزراعة وصيد السمك إلى مؤسسات تجارية في البداية في العالم الرأسمالي المتطور ولاحقاً في أجزاء أخرى من العالم. غير أنه، ولأطول مدة من زمن وجودنا، شكلت الأرض والبحر نظاماً بيئياً واحداً، أحيانا يحتل شريطاً ساحلياً ضيقاً فقط، ولكن وبشكل متزايد، وعبر التوسع في عمليتي التنقل والتجارة، أصبح هذا النظام منطقة شاسعة تمتد عميقاً داخل المناطق الأرضية كما داخل البحر عبر الساحل، أحيانا تتمدد عبر مساحات مائية تربط الأراضي المتباعدة.

تطور جنسنا، جنس الحافة

بالنسبة إلى العديد من مؤرخي ما قبل التاريخ، يظل اختراع الزراعة نقطة التحول الكبرى. يصير هؤلاء على رسم حد واضح بين الصيادين الرحل والمزارعين، متجاهلين التداخل بين حراس الطرائد والمزارعين. إن مفهوم أن الصيادين الرحل لا قدرة لديهم على الزراعة قد وضعهم تلقائياً في رتبة أقل من الجنس البشري، رتبة تدعى «بدائية». إن مفهوم البدائية، وهو تشويه آخر للنظرة الماضوية، الذي جرى اختراعه عن طريق الفيكتوريين المتلهفين لإبعاد أنفسهم عن أسلافهم، هو مفهوم قد استمر على الرغم من كل الأدلة على سعة حيلة هؤلاء الصيادين الرحل. نحن

نعرف، على سبيل المثال، أن الصيادين الرحل في السواحل الشمالية الشرقية في أمريكا قد طوروا مجتمعا مائيا عبر زراعة المحار في أماكن محمية صناعيا على طول الساحل. غير أنه حتى فرانز بواس، والذي كان يعرف طرائقهم أفضل من أي باحث آخر بين جيله، قد تجاهل الأدلة التي تشير إلى حدائقهم المحارية⁽⁴¹⁾.

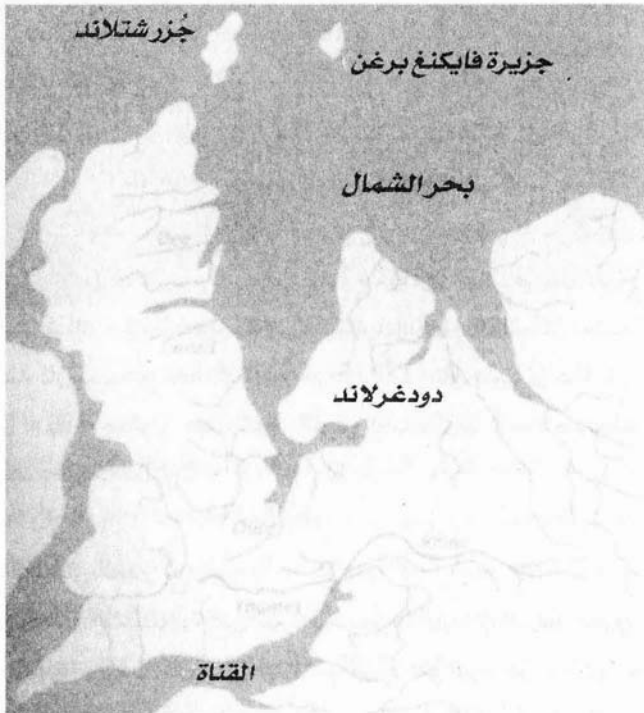
لظالما كان على علم الآثار أن يرضى بالتغريب المستشعر السابق للبحر. فحتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت السواحل أماكن يجب تجنبها، سكانها كان ينظر إليهم على أنهم مخلوقات أقل من سكان الداخل. فالأماكن التي يلتقي فيها الماء اليابسة ويختلط بها هي «معبأة بالفهم الخاطئ والمخاوف». لم يبدأ الأوروبيون، حتى خمسينيات القرن التاسع عشر في الفحص الجاد لأجساد العصر الحجري المحفوظة جيدا والتي كانت تظهر في المستنقعات المجففة حديثا، أجساد كشفت عن المدى الذي احتل به البشر البحيرات والأقاليم الساحلية وذلك قبل أن يحتلوا الداخل، حيث عاشوا في ما بدا أنها بيوت متكلفة أو على هضاب كانت تسمى crannogs^(*) في أيرلندا، أو terps^(**) في هولندا وشمال ألمانيا⁽⁴²⁾.

في الوقت نفسه تقريبا، كان الفيلاذيلفي كليرانس أتش مور يشرف على دراسة حول تلال المحار والسكان حول هذه الأكوام في السواحل الجنوب غربية، لفلوريدا، كاشفا عن عالم متواز على هذا الجانب من الأطلنطي. فقد كشف تنقيب فرانك كوشينغ في 1890 في منطقة كي ماركو عن مجتمع على مستوى عال غير متوقع مخفي فيما كان وقتها مستنقعا لشجر المانغروف الاستوائي. مع ذلك، كانت لاتزال هناك مقاومة لاعتبار سكان الأراضي الرطبة على أنهم أي شيء سوى زراعيين يعيشون على طرف المياه. «إنسان ما قبل التاريخ كان إنسانا وليس كائنا برمائيا»، هكذا استخلص أوسكار باريت في خلال الخمسينيات من القرن العشرين. ومع ذلك، فإن نصف قرن آخر من علم الآثار النشط حول المناطق البرمائية قد جلب سكان هذه المناطق إلى مقدمة الاهتمام العالمي. على ساحل تشيشاير في إنجلترا، كشف المد المنخفض ومنذ زمن عن منطقة تركيز مكثف لجذوع أشجار ولجذور كان المحليين يسمونها غابة نوح. لم يعط العلماء أي انتباه لذلك حتى نشر كليمنت ريد كتابه الصغير Submerged Forests في 1913، مخمنا أن تلك المنطقة قد تكون

(*) بيوت تبنى كأنها جزر صناعية تشيد في البحيرات والأنهار. [المترجمة].

(**) تلة صناعية يبنى عليها مكان العيش. [المترجمة].

حافة عالم ضائع مستلق أسفل بحر الشمال بين بريطانيا والدنمارك. اكتسب تخمين ريد مصداقية أكبر عندما جرى التقاط رمح مصنوع من عظام قرن غزال من على ضفاف دودغر^(*) عن طريق صيادي سمك في 1931. وقد أكد مزيد من الاستكشاف الصوتي بعد الحرب العالمية الثانية وجود منطقة بحجم بريطانيا في حد ذاتها والتي كانت موجودة ما بين عشرين ألف سنة وخمسة آلاف سنة مضت، مكان كان، على الأغلب، موطنًا للصيادين الرحل حتى أجبرهم فيضان العصر ما بعد الجليدي على الانتقال إلى ما يعتبر الآن سواحل بريطانيا والقارة الأوروبية. في العام 1998 كانت تلك هي أرض دودجر المععدة، تنضم إلى المنطقة المغمورة بين سيبيريا وألاسكا، بيرنجيا، ومناطق ما تحت البحر لبحار جنوب الصين والتي تعرف باسم سندالاند، على اعتبار أنها الأراضي الرئيسية المفقودة للعصر الحجري الأوسط⁽⁴³⁾.



رسم لدودغرلاند، أرض موصلة بين بريطانيا وأوروبا، نحو 3000 قبل الميلاد.

الرسم لآدم ديفز.

(*) ضفاف بحر الشمال، تبعد نحو 100 كلم عن ساحل إنجلترا الشرقي. [المترجمة].

هذه الأراضي، والتي كانت تعتبر مبدئياً «أراضي جسرية» عوضاً عن كونها فقط أراضي عادية، كانت تفهم تدريجياً على أنها مواطن لشعوب دائمة والذين استعمروها بسبب ثراء مواردها من النباتات والحيوانات. بقدرتهم على التنقل والتكيف، هذه الشعوب في دودجرلاند، بيرنجيا وسندلاند «عاشت حيوات غنية واجتماعية في بيئة ربما توافرت لها الفرص». فبينما بقيت معظم الأدلة مغمورة، فإن الاكتشافات على طول الرفوف الصخرية لكل من أوروبا وأمريكا قد ألقت ضوءاً جديداً على الصيادين الرحل المبدعين والمتكيفين، حيث تساويهم بالبشر الداخليين inlanders المعروفين بشكل أفضل، والذين لطالما كانت آثارهم أكثر تطوراً بكثير. الآن تبرز قصة خلق جديدة بديلة بينما تبدأ السواحل المغمورة بكشف أسرارها لتقنية السونار ولأجهزة الغوص المتقدمة⁽⁴⁴⁾.

إن أحد أكثر الاكتشافات المثيرة لعلم الآثار الحديث هو بيت ستار كار Star Carr House، والذي اكتُشف بالقرب من سكاربورو في شمال يوركشاير. ويُعتبر هذا المكان أقدم مكان سكن في بريطانيا، والذي كان مأهولاً منذ ما يقرب من 10500 سنة مضت، في وقت كانت فيه بريطانيا لاتزال متصلة بالقارة عبر دودجرلاند. في الوقت الذي كان فيه هذا المكان مأهولاً، كان يقع على بحيرة، والتي كانت هي كذلك موقعا لقاعدة خشبية ضخمة، ما يعتبر أقدم مشروع نجارة معروف للبشر في أوروبا. وُجد في الموقع مجداف قارب ولباس رأس مصنوع من قرن الغزال ما يدل على أن ستار كار كانت كذلك مركزاً للطقوس. فحتى اكتشافها في العام 2008، كان يعتقد أن هذه المنطقة كان يسكنها فقط الصيادون الرحل. الآن، يبدو جلياً أن هذا كان مجتمعاً مستقراً له ثقافة متطورة، حيث تتوافر الفرص الجيدة كذلك لإيجاد مستوطنات أقدم فيما يتقدم البحث الأثري⁽⁴⁵⁾.

الغنى الساحلي للعصر الحجري

في القصص الأسطورية التي تسردها شعوب الهيدا في الشمال الغربي الكندي هناك تلميحات لوقت كان يمكن فيه المشي بين ما هو اليوم جزر مواجهة للشاطئ. تدريجياً، سترتفع مناسب البحر حيث ستأخذ الحافة بين الأرض والبحر الشكل الذي ظل حتى وقتنا هذا. وبتراجع المياه المتجمدة في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي أخذت الأنهار الرئيسية ومصباتها مواقعها الحالية، سامحة لسمك المياه

العذبة باتخاذ أنماط هجرته الحالية. إن تكوين المستنقعات والأراضي الطينية السبخة قد يسر تكاثر المحار، ثبتت اتجاهات الهجرة للطيور، ووفرت مناطق تكاثر ثابتة لحيوانات الفقمة والألفظ وغيرهما من الثدييات المرتادة للبحر⁽⁴⁶⁾.



Tollundmannen، رجل يعيش على المستنقعات وُجد في الدنمارك.

الصورة من ويكيبيديا كومنز.

إنه في هذا النظام البيئي الضيق بين الأرض والبحر طور الصيادون الرحل أوائل المجتمعات الساحلية التي كانت لها السمات الشائعة حول العالم نفسها. فلقد كانت هناك سمات معينة ميزت الساحليين عن سكان الأراضي الداخلية من البداية. فأولاً، كان الساحليون متنقلين بشكل كبير. وكان التنقل هو نمط الحياة الطبيعي، فالبقاء والتطور المستمر اعتمدا على التنقل. فلم يكد الساحليون يخرجون من أفريقيا، حتى ملأوا هذا الكوكب بسرعة لم يحققها أي جنس آخر. كانت للتنقل فوائد عدة مثل درجة أعلى من الصحة البدنية عن التي كانت للشعوب المستقرة، والذين كانوا غالباً ما يلوثون بيئاتهم. وبالمثل، عندما يتعايش البشر مع الحيوانات عوضاً عن أن

يصطادوها، فإنهم يجعلون أنفسهم عرضة للأوبئة التي تحملها الأجناس الأخرى. فبينما من غير البين أن الصيادين الرحل كانوا يعيشون حياة أطول، بيد أنهم في الغالب، كون أراضيهم أقل كثافة سكانية، كانوا أقل عرضة للأوبئة.

كما أن الصيادين الرحل أبقوا على نسبة تكاثر منخفضة. فبينما تحملوا هم 95 في المائة من وقت البشرية بمجمله على هذا الكوكب، فإنهم شكلوا فقط 12 في المائة من كل البشرية التي عاشت على هذه الأرض. نحن نعرف أن الصيادين الرحل المعاصرين يستخدمون أنواعا مختلفة من أساليب تحديد النسل، ولا بد أن الصيادين الرحل القدماء قد فعلوا ذلك أيضا. ربما العامل الأهم بالنسبة إلى معدلات المواليد المنخفضة لديهم كان الدرجة المرتفعة لتحركهم والتي شجعت الأمهات على الإرضاع الطبيعي لفترات أطول، ما أدى إلى إبعاد المسافات الزمنية بين الولادات وبالتالي الحد من العدد الكلي للمواليد. في كل الأحوال، يمكننا أن نكون متأكدين بدرجة معقولة أنهم عاشوا في جماعات صغيرة جدا، أقرب إلى كونها عائلات ممتدة كبيرة، والتي كانت تتحرك وتستغل الموارد في المناطق التي تجمع أنظمة بيئية مختلفة والتي ألفوها بشكل كبير⁽⁴⁷⁾.

من المتوقع أن الصيادين الرحل البحريين قد عرفوا كذلك كيف يتفادون أنواعا معينة من الكوارث الطبيعية. إن الخبرة الطويلة مع ظروف الساحل قد علمت جنس الحافة البشري أن يعيش فوق مستويات البحر، عادة بعيدا بمسافة عن خط المد، متفادين بذلك العواصف والتسونامي. إن أساطير الشعوب الساحلية للشمال الغربي الكندي تشير إلى فيضانات دورية لكنها تحكي كذلك عن هروب ناجح باستخدام الزوارق. إن البشر الذين يحتلون الحواف من بين كل الأنظمة البيئية عادة ما يظهرون قدرة سريعة على التغلب على المشاكل، كما يظهرون تكييفا أكبر مع تأثيرات الرياح والنار كما هو تكيفهم مع المياه. تتوافر الدلائل على أنهم عرفوا كيف يستخدمون الماء ليحموا أنفسهم من أعدائهم من الحيوانات والبشر. في إيرلندا وأسكتلندا، كانت الإقامة في جزر صغيرة صناعية تدعى crannogs تخدم هذا الغرض. لم يقصد الفقراء فقط المكان من أجل المأوى. كانت تلك الجزر تؤوي الملوك والكهنة، الذين كانوا يعرفون كيف يستغلون القوى الماوراء طبيعية المرتبطة بالأماكن الحدودية حيث تلتقي اليابسة والماء⁽⁴⁸⁾.

مع ذلك، لم تكن عوامل الجذب للبيئات الانتقالية فقط مادية. فعلى ما يبدو أن الأماكن التي تختلط فيها اليابسة بالماء كانت منذ زمن مصدرا ومحفزا رمزيا للتطور الثقافي. لم تكن هناك فقط أعداد هائلة من الأرواح المقدسة والآلهة التي يمكن الالتقاء بها، ولكن كذلك القدرة على الوصول إلى عوالم أخرى، حيث يسكن الأسلاف الموتى. إن الطبيعة التحويلية للماء، والتي تنعكس إلى الآن في الطقوس الحديثة للتعميد، كانت مفهومة عالميا. فالسواحل لطالما كانت مواقع لطقوس العبور. فالممرات الخشبية المذهلة التي اكتشفت حديثا في المستنقعات الساحلية الأوروبية تُرى الآن على أنها كانت لها قيمة رمزية أكثر منها عملية. فمثل أرصفة الموانئ والممرات التي تشبهها، كانت هذه الممرات الخشبية تيسر وصول أناس ما قبل التاريخ إلى العوالم المائية، ليس من أجل المتعة في هذه الحالة، بل للتواصل مع الموتى. فكل نذور الأضحيان والأشياء المدفونة التي وُجدت في مثل تلك الأماكن كوادي ويثام في إنجلترا تركت أقل الشكوك حول التوالد الثقافي في الأماكن حيث تلتقي اليابسة والماء. كانت المستنقعات من أول التضاريس التي جرى تعلم ثقافتها، حيث تحولت عن طريق أداء الطقوس من طبيعة غير متميزة إلى أماكن مقدسة مشهودة. فمنذ بداية الزمن، لم تنتج البيئات الانتقالية فقط حياة جيدة بل حياة لها معنى كذلك⁽⁴⁹⁾.

ما هو مؤكد هو أن جنس الحفافة البشري قد تمتع بوفرة من الموارد، الثقافية كما المادية، والتي لم تتمتع بها الشعوب الأخرى. هؤلاء الأوروبيون الشماليون الذين احتلوا الأراضي المرتفعة التي تدعى *terps*، والواقعة على سواحل بحر الشمال كانوا يرعون الأغنام والماشية، وكانوا قادرين على تبادل القمح مع سكان اليابسة الداخليين. كان يقال إن «حياة *terp* كانت حياة جيدة على الأغلب، حيث إن كثافة الاستيطان كانت أكثر من ضعف تلك المعروفة للأراضي الترابية الداخلية». كان هؤلاء أقصى الكائنات الآكلة للحيوان والنبات، يقطعون خط المد ليشبعوا حاجتهم من البروتين، متحركين باتجاه الأراضي الداخلية للحصول على الكاربوهيدرات الضرورية، مشغولين بالتجارة عبر المسافات الطويلة للحصول على الكماليات والضروريات التي لم تكن سهلة المنال. سيكون من الخطأ الاعتقاد أنه لم يكد الصيادون الرحل يستقرون على الشاطئ حتى أداروا ظهورهم إلى اليابسة. على العكس تماما، فالأدلة تشير إلى أنهم كانوا يؤدون رحلات

موسمية إلى الأراضي الداخلية للصيد والجمع. كانت الشعوب الأصلية للساحل الشمالي الغربي في كندا تحيك الثياب من شعر الماعز الجبلي، فيما كانت شعوب الجوماش Chumash لجزر القنال Channel Islands جنوب كاليفورنيا متصلين عبر التجارة بجماعات تبعد مئات الأميال في الأراضي الداخلية. لاحقاً، وبتشجيع من تجار الفرو الأوروبيين، مددت الشعوب الساحلية الشرقية والغربية للعالم الجديد مدى ومواسم نشاط صيدهم، موسعين بالتالي حجم بيئاتهم الانتقالية⁽⁵⁰⁾.

قبل أن يصبحوا ماهرين في الصيد البحري بزمن، كان الصيادون الرحل ساحليين مهرة يسافرون على طول الساحل بحثاً عن الموارد. أسهم ذلك بشدة في انتشارهم حول العالم، لكنه قاد كذلك إلى إنشاء القواعد البحرية التي منها كانوا ينطلقون يوماً أو موسمياً، عاندين بمؤن تكفي المجتمعات تلك على مدار السنة، وتوفر فوائض للتجارة مع مجتمعات ساحلية أو داخلية أخرى. كان هؤلاء روادا كذلك في التبادل والتواصل عبر المسافات وذلك قبل ظهور طبقة التجار المتخصصة بزمن طويل. كونهم يعملون من دون نظام نقدي، كان هؤلاء ماهرين في المحافظة على التبادل طويل المسافة. وكونهم معتادين على التعامل مع الغرباء، كانت الشعوب الساحلية لشمال أمريكا، مثل نظرائهم حول العالم، ليسوا فقط مستعدين بل متحمسون لإدخال الأوروبيين في شبكات تجارتهم وذلك عندما ضل هؤلاء الطريق إلى عالم الساحليين منذ قرون مضت⁽⁵¹⁾.

سافرت الشعوب الساحلية الأولية بخفة. فصناعة القوارب والطوف تبدو أنها واحدة من أقدم الإنجازات التكنولوجية البشرية، حيث لن توفر المواصلات الأرضية أي مميزات عن تلك المائتية قبل الوصول إلى القرن التاسع عشر، فالحركة السريعة التي نعرف أنها كانت موجودة على السواحل لم تكن لتكافئها أي وسيلة تنقل أرضية. بكل تأكيد، كانت نسبة التغيير على السواحل أعظم بكثير من أي تغيير يمكن تخيله في الأراضي الداخلية. فمعدلات التطوير التي حدثت على امتداد الساحل منذ 100 ألف سنة ق. م تبدو أنها تجاوزت أي شيء حدث مسبقاً، وذلك جزئياً بسبب المعدلات المرتفعة للتنوع الثقافي والذي أثبت أنه كان عاملاً محفزاً على تبادل الآراء. فكما نعرف الآن من الدراسات الحالية للحدود البيئية، هذه الحدود في الأغلب ستكون كذلك حدوداً ثقافية، حيث ستكون نسب التبادل في أعلاها والتغيير أكثره حدوثاً وتكراراً⁽⁵²⁾.

يؤرخ علماء الآثار بداية الإبداع الإنساني مع صناعة النصل الحجري وذلك تقريبا منذ 200 ألف سنة مضت. لحقت ذلك صناعة حجر الرحي والطرف المدبب بسرعة كبيرة، بيد أن التقدم الأعظم اللاحق كان في جمع المحار والذي بدأ منذ 140 ألف سنة مضت، متبوعا بسرعة كبيرة بالتبادل عبر المسافات الطويلة. إن أول عبور للبحر لجنس الإنسان العاقل إلى أستراليا يؤرخ حدوثه منذ 40 ألف سنة مضت، بيد أنه اكتُشف الآن أن نوعا آخر من hominids، وهم الإنسان القائم، كانوا يرتحلون في البحر المتوسط منذ وقت مبكر في حدود 130 ألف سنة مضت. تشير الاكتشافات الأخيرة التي تمت على السواحل الجنوبية لجزيرة كريت إلى أن الشعب الذي ينتمي إلى ثقافة أتشيوليان (Acheulean) في الشمال الأفريقي قد وصلوا إلى الجزيرة بمساعدة أدواتهم الحجرية، والتي جرى حفظها في مرتفعات بلاكياس (Plakias) الصاعدة. في مناطق أخرى، تؤرخ صناعة السنابر العظامية والحرايب لنحو 100 ألف سنة مضت، ثم تبعها على وجه الاحتمال الصيد البحري وفق التسلسل المتوقع⁽⁵³⁾.

إضافة إلى ذلك كله، هناك عاملان في مصلحة جنس الحافة وهما التكيف والمرونة. لربما تحسن هذان العاملان بوجود المجموعات ذات النطاق الضيق من الصيادين الرحل البحرين، معظمهم لا يزيد على كونه عائلة ممتدة، غير معرضة لأي تدرج طبقي داخلي أو سيطرة خارجية. لا يوجد سوى أقل القليل من الدلائل على وجود تقسيم طبقي قبل اختراع الزراعة الداخلية. العلاقات بين الرجال والنساء، وبين المجموعات العمرية المختلفة، كانت تبدو غاية في المرونة، حيث خط النسب الأمومي كان في أقل الأحوال يبدو شائعا كما خط النسب الأبوي. فحيث مارست المجتمعات جمع المحار، كان لكل من الصغار والكبار أن يقدموا مساهماتهم للخير العام. على طول الحدود الأريضية، التحكم في البيئة كان يتطلب درجة أعلى من التعاون بين الشعوب الزراعية⁽⁵⁴⁾.

مما نعرفه من الاكتشافات الأثرية الحديثة، كان الصيادون الرحل الساحليون يتمتعون بالوصف الشهير لما رشال ساهلينز «ثراء العصر الحجري»، وهو ثراء استفاد من السبل الميسرة لنطاق واسع من الموارد التي كانت متوافرة بشكل أعظم مما هي لأي موقع جغرافي آخر. فبينما تكون الأراضي الرطبة الساحلية أو المجاورة

للبحيرات ربما الأكثر تنوعا حيويا وإنتاجا بين كل مناطق الأرض، بيد أنها تختلف في خصوبتها على نطاق واسع. فالمستنقعات النباتية تقدم مصدرا للوقود لكنها غير خصبة. كما أنه ليس كل السواحل غنية بالأغذية البحرية كما هي تلك السواحل المعتدلة طقسيا والمباركة بالأمواج المتقلبة Upwelling^(*) أو التيارات المتتابعة، والتي توفر أفضل بيئة لكل أنواع الأحياء المائية. إنه من الواضح أن المياه الساحلية كانت أكثر إنتاجا من المحيطات العميقة، حيث إن أغنى الأماكن بينها جميعا هي مناطق تلاقي المد والجزر^(**) المعتدلة طقسيا وأماكن مصبات الأنهار في البحار، التي أنتجت ما يقرب من عشرة أضعاف الكتلة الحيوية للسواحل في العموم. ما كانت له أهمية خاصة في بداية الألفية الحالية هو المحار الذي كان يظهر مع كل جزر. كانت الأفواه النهرية مواقع مثالية، فهناك لم يكن على صيادي السمك أن يلاحقوا الفريسة، فقط كانوا يجهزون شباكهم وسياجهم للأسماك النهرية المولد التي تعيش في البحار كذلك والتي أتت بشكل منتظم بمجرد أن استقرت الخطوط الساحلية، وذلك بين 6000 و4000 ق. م. كانت هذه العملية ملاحظة في كل من العالمين القديم والجديد، وحيث التطورات في خطوط العرض العليا لنصف الكرة الأرضية الشمالي كانت متشابهة بشكل لافت للنظر حول العالم. ففي كل من أمريكا الشمالية وشمال غرب أوراسيا كانت نهاية العصر الجليدي تحويلية، صانعة بيئة كان لها تأثير حاسم ليس فقط في السواحل بحد ذاتها بل في الدواخل القارية كذلك. في هذه الأجزاء من العالم، ليس من المبالغ فيه القول إنه على مدى آلاف السنوات تكونت حياة جديدة عن طريق كل من اليابسة والبحر⁽⁵⁵⁾.

وفرت السواحل في كل مكان تنوعا حيويا عظيما. كانت السواحل الشمالية مواطن طبيعية ليس فقط للمحار ولكن كذلك لعدد متنوع من النباتات (اللفت البحري، الملفوف البحري، الطحالب البحرية) الغنية بالمواد المعدنية مثل اليود الذي، بالإضافة إلى الزيوت السمكية، قد حسن النظام الغذائي والصحة العامة بين البشر. كانت الشواطئ حيث توالدت حيوانات الفقمة والألفظ هبات إضافية من

(*) مصطلح يشير إلى ظاهرة محيطية تسبب من خلالها الرياح تقلب الماء بحيث تصعد الطبقة الأبرد والأكثر كثافة والغنية بالمواد المعدنية إلى سطح الماء لتحل محل المياه الأدفأ والأقل غنى معدنيا. [الترجمة].

(**) Intertidal zones: تلك هي المناطق التي تصعد فوق الماء وقت الجزر وتنغمر بالماء وقت المد. [الترجمة].

البحر، بيد أن الأفضل بينها جميعا كانت هي الأراضي الرطبة الجاذبة ليس فقط للأسماك ولكن كذلك للحيوانات البرمائية، والحيوانات الأرضية، والطيور المهاجرة التي كانت عششها هبات إضافية. وحيث إنهم تكيفوا مع تنوع وموسمية البيئة الانتقالية حيث تلتقي اليابسة بالبحر، فإن هذه الشعوب الساحلية كانت أقل عرضة للمخاطر من هؤلاء الذين كانوا يعتمدون على مجال أضييق من الموارد. يقال إن الشعوب الأرضية الداخلية كانت تتحرك كذلك بحثا عن غذائها، بيد أن شعوب السواحل كانت لديهم رفاهية القدرة على الاستقرار في مكان واحد، حيث يتحركون خروجاً عبر الماء ليجلبوا المؤن إلى حيث موقع سكنهم⁽⁵⁶⁾.

بكل تأكيد، كانت مستويات الاستهلاك لدى أجناس الحافة القدماء منخفضة بمقاييسنا، حيث كانت نسب أعمارهم أقل من نصف نسب أعمارنا. فإلى أن بدأوا بالاستقرار مع نهاية العصر الجليدي، كان هؤلاء يتحركون باستمرار حتى يستطيعوا جمع أي كمية من ذلك المقدار من الموارد الذي قد يشكل ثراء بالنسبة إلينا. في المقابل، لم يكن هؤلاء عرضة لأنواع الكوارث التي لطالما تركت آثارها على تاريخ الشعوب الزراعية. ربما لم يعرف هؤلاء معنى الرفاهية، لكنهم كذلك كانوا يعملون بمقدار أقل. فمن المقدر أن الصيادين الرحل البالغين كانوا قادرين على تأمين احتياجاتهم بجهد مبذول لمدة ما بين ست وسبع ساعات في اليوم، فيما احتاج المزارعون نحو تسع ساعات. في مجتمعات اليوم الصناعية، لاتزال ساعات العمل تدور في حدود ثماني ساعات، وهي ساعات أكثر إرهاقا ورتابة بكل تأكيد⁽⁵⁷⁾.

أولى الثقافات الساحلية

لقد وُجد مسبقاً منذ خمسة عشر ألف سنة مضت ما وصفه جيمس ديكسون بأنه «نظام بيئي ساحلي بحري مستمر متداخل المد والجزر، يمتد بين شمال شرق آسيا وشمال غرب شمال أمريكا ثم أبعد جنوباً إلى نصف الكرة الأرضية الجنوبي». لقد وُجدت حافة الهادي قبل أن تكون هناك حافة الأطلنطي بكثير، وهو سبب جيد ليس فقط لمراجعة فكرتنا المتمحورة أوروبا في أن التاريخ يتحرك من الشرق إلى الغرب ولكن كذلك للتساؤل عن مركزته الأرضية. ففي بعض أكثر البيئات

وعورة لساحل أمريكا الشمالي الغربي القاسي، أعطت وفرة البيئات الانتقالية الغنية ما دعاه الكنديون فرصة الأمم الأولى في الحصول على «وقت لتطوير أعظم ثقافة فنية في العالم الحديث». ففي زمن ما، تخيل علماء الآثار تمدد الحضارات من الداخل إلى الخارج. الآن، أصبح بالإمكان رؤية عدة نقاط للبدية، حيث الأماكن التي كانت تعتقد هامشية أصبحت تتخذ دورا رئيسيا في عملية التطور الإنساني⁽⁵⁸⁾. على خطوط العرض الأكثر ارتفاعا للعالم القديم كما في العالم الحديث، «شجعت نوعية ووفرة أنظمة الغذاء البحرية الزيادة المتتابة في الأعداد السكانية، وأدت إلى نوعية حياة أكثر استقرارا». الآن، أصبحت نوعية الحياة المستقرة ممكنة، ليس فقط في أماكن مثل الشرق الأوسط حيث ستتطور الزراعة، ولكن كذلك على طول السواحل نفسها. فمنذ تقريبا سبعة آلاف سنة مضت، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ جنسنا، جنس الحافة. لم يعد هؤلاء مجرد جموع من الفرق المتنقلة بل أصبحوا الآن مجموعة من المجتمعات المستقرة، غالبا على اتصال بعضهم ببعض، يتبادلون البضائع وكذلك الأفكار واللغات. في هذه المرحلة يمكن الحديث عن حضارات الشاطئ، كل منها تتشكل وفق ساحلها المعين، لكنها تشارك جميعا في سمات شائعة محددة. فالأساليب القديمة للاستغلال واسع النطاق للموارد أدت إلى تكثيف الصيد والجمع على كلا طرفي خط المد. فالصيد بعيدا عن الشاطئ، والذي كان يمارس على الأقل لمدة مائة ألف سنة كمكمل لمصادر الشاطئ والتقاط المحار، بدأ الآن في البزوغ بوصفه نشاطا رئيسيا. فالدلائل تشير إلى تطور تقني متزايد، من حيث نماذج جديدة لشبكات الصيد وللطعم ولأنواع جديدة من القوارب أكثر صلاحية للإبحار عما كان متوافرا سابقا⁽⁵⁹⁾.

إن العائد الغذائي للصيد عادة ما يكون أعلى من ذلك الذي يكون للزراعة، بيد أن عائد صيد السمك لا يزال أعلى. فبوجود منفذ على كمية ثراء أعظم للبحر، ارتخت الموانع أمام النمو السكاني وأصبحت العديد من المجتمعات الساحلية ليست فقط أكبر ولكن أكثر تعقيدا بدرجة كبيرة. إن تجربة التشوماش Chumash الذين أسسوا أنفسهم على الجزر في حدود 7500 ق. م فيما يعرف لنا اليوم باسم قناة سانتا باربارا قد جرى توثيقها بتفاصيل دقيقة. لكونهم شعبا انجذب من الداخل وإلى الساحل، هم الآن وجدوا أن الجزر توفر لهم منافذ أفضل بكثير للأسماك، بكل أنواعها المحلية

والمهاجرة. اختبر هؤلاء انفجارا إبداعيا في صنع معدات الصيد والقوارب، والذي بحلول العام 1500 ق. م.، شمل الزوارق الخشبية. إن درجة التعاون التي استلزمها صيد السمك شجعت تطور فكرة الهرمية، التي عادة ما تكون ذكورية السيطرة، والتي جرى ربطها بالصيد منذ ذلك الوقت. إن جمع المحار وغيره من الأنشطة المتصلة بالقرب من الشاطئ لم تفقد أهميتها المادية، ولكن عندما أصبحت هذه الأنشطة ميادين للنساء، والأطفال، وكبار السن، تقلصت مرتبتهم بشدة. فالصيد شجع حياة متجذرة في مكان واحد، ومعها فهم جديد لفكرة المنطقة، ما أدى في النهاية إلى الشعور بأحقية التملك لأجزاء غنية بالموارد من الساحل. وبينما كان من النادر التعبير عن الوضع بأسلوب التملك هذا، فإن مفهوم استملاك البحر بدأ بالظهور، ما أدى إلى التنافس والخصومة، بل حتى الحروب حول المياه المتنافس عليها. غير أن صيد السمك شجع كذلك التخصص وتطوير التجارة في السمك مع مجتمعات اليابسة، والتي وفرت الطعام في المقابل⁽⁶⁰⁾.

كان ذلك هو الواقع في شمال أوروبا كذلك. بدأت الزراعة في الأقاليم الداخلية للشرق الأوسط، بيد أنها وصلت إلى منطقة المتوسط عبر البحر، حيث استقرت أولا على جزر إيجه قبل أن تتحول إلى الأراضي الإغريقية، ثم انتقلت أخيرا على طول الطرق الساحلية الأطلنطية التي أسسها الصيادون الرحل البحريون لتصل إلى شمال أوروبا بعد 7000 ق. م. وكما قال باري كنليف «لقد كان هو البحر الذي حدد السرعة». اتخذت الزراعة جذورها أولا عند مصبات الأنهار على طول الساحل الأيبيري، متنقلة بتدرج فقط إلى الأراضي الداخلية على طول الأنهار. ففي المنطقة التي تعرف على أنها هولندا اليوم، لم يبدأ تأهيل الأراضي الرطبة حتى تقريبا خمسة آلاف سنة مضت. كان الناس هناك شبه زراعيين، مركزين جهودهم على تزاوج العمل بين الخنازير والماشية. كان عالمهم يوصف بأنه «عالم مياه، مياه متنوعة، مقسمة بخطوط الضفاف المرتفعة الملتوية التي كانت تتبع الأنهار والجداول». أظهرت المناطق الداخلية تأثير جيرانهم الساحليين. إن تدوير محار البحر عميقا في الأراضي الداخلية يشير، بالنسبة إلى باري كنليف، إلى السيطرة التي كانت للبحر على الشعوب الزراعية الأوروبية القديمة، التي كانت جذورهم تمتد إليه⁽⁶¹⁾.



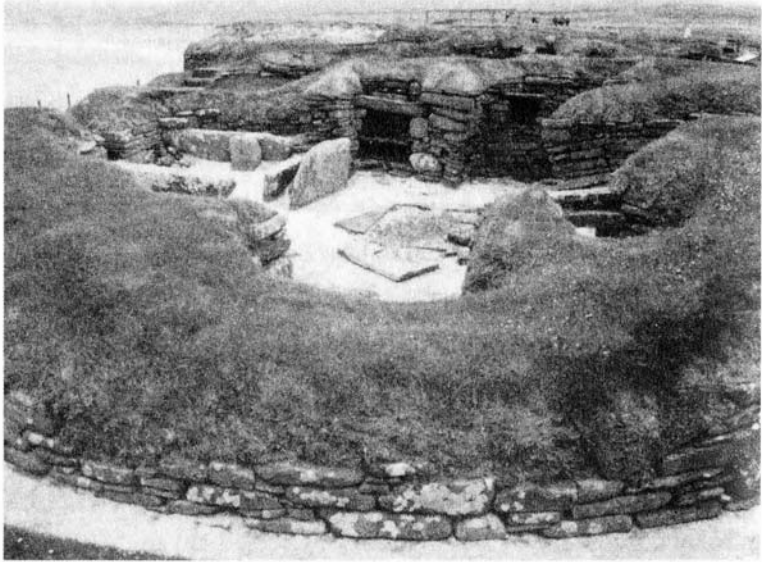
رسمه جدارية تبين قرية صيد تشيوماشية للفنان الكبير روبرت توماس،
تصوير ديفيد جي. ماكلولين، الصورة من مركز إرسالية موارد كاليفورنيا.

سفح سكارا

تقع جزر أوركني Orkney Islands شمال أسكتلندا، وهو مكان شديد العرضة للرياح العاتية القادمة من بحر الشمال، حتى إن هذه الجزر لم تتمكن من دعم الغابات على أرضها. إلى اليوم، هو مكان لا يرجح أن تكون فيه أي حضارة، بيد أنه عُثِرَ على دلائل هناك تشير إلى ثقافة مزدهرة سبقت الستونهنج Stonehenge* على الأهرامات في مصر. إن طبيعة أوركني زاخرة بحجرات القبور التي تعود إلى العصر الحجري، ودوائر للصخور المنتصبة، وأقدم بيت أوروبي عرفته البشرية، Knap of Howar، على جزيرة بابا ويستراي Papa Westray. بيد أن أكثر البقايا إثارة للإعجاب سفح سكارا، وهو قرية محمية من العصر الحجري، والتي تزودنا بأفضل

(* موقع تاريخي في ولتشاير، بإنجلترا. الستونهنج هو أحد أشهر المواقع التاريخية في العالم، ويتكون من عدد من الصخور العملاقة المصنوفة بشكل دائري. ليست هناك معلومة مؤكدة عن وظيفة الموقع، بيد أن هناك عددا من التكهنات حول كونه ساعة طبيعية، وتقوفا شمسيا، أو مجرد ملتقى لكبار الجماعة الساكنة للموقع. [الترجمة].

لمحات لمجتمع أطلنطي مكتمل التطور وُجد منذ خمسة آلاف سنة مضت. منذ العام 1999، كان المكان، وعن استحقاق، موقعا أثريا عالميا، وحالة نادرة لتمييز مساهمة الساحل في التطور الإنساني.



قرية سفح سكارا المكتشفة من العصر الحجري، أوركاني، أسكتلندا. (التصوير للمؤلف)

بُنيت قرية سفح سكارا على مرحلتين، حيث بدأ العمل بها من 3100 ق. م، ثم هُجرت في 2500 ق. م. إن التجمع المتراص لعشرة بيوت حجرية مرئية اليوم هي الآن على حدود خليج سكايل Bay of Skail على الساحل الغربي لأكبر جزر أوركني والمعروفة باسم ماينلاند Mainland. عندما بنيت القرية في البداية كانت متراجعة كثيرا عن البحر، ومحاطة بالمرج ومنفذ لبحيرة مياه عذبة. عرف سكانها الأصليون من العصر الحجري، والذين في الأغلب جاءوا عبر لسان بينتلاند البحري Pentland Firth من الأراضي الأسكتلندية، وذلك في الأغلب على الطوف، جالين معهم الماشية، والخنازير، والخراف، عرف هؤلاء كيف يزرعون الشعير والقمح بيد أنهم احتفظوا كذلك بمهارات أجدادهم في الصيد البري وصيد السمك وجمع النباتات. في البداية، غالبا ما تنقلوا من مكان إلى آخر، متوقفين لمدة زمنية كافية

لتكوين تلال كبيرة من العظام، والصدف والفضلات. لاحقا، سَتُغمر بيوتهم الحجرية قوية الصنع أسفل هذه التلال، حيث زودهم ذلك بالحماية من الرياح والطقس وقدم لنا معلومات لا تقدر بثمن حول نظامهم الغذائي وطريقة حياتهم. نحن نعرف أن لحوم حيواناتهم الداجنة كانت مُكملة بأنواع من قشريات البحر، وسمك القد، وسمك السيث saithe، وكذلك الحيتان التي ترسو على الشاطئ بشكل عابر وغيرها من ثدييات البحر.

استضاف سفح سكارا مجموعة لا تزيد على 50 شخصا، والذين يبدو أنهم عاشوا في مجموعات عائلية صغيرة، متساوين نسبيا في المكانة. لم يكن هناك منزل أكبر من غيره. كل منزل كان معدا بالأثاث الحجري، والذي كان يشمل أسرة صندوقية، وخزائن، وموقدا مركزيا، وأحواضا حجرية تستخدم لتنعيم صدف البطليونس الذي كان يستخدم طعاما للسمك. وعلى ما يبدو، فإن مساكنهم شبه المدفونة كانت مجهزة بقنوات صرف لإزالة النفايات الإنسانية. كان لديهم فخار، وأدوات حجرية (والتي تشمل سكاكين سكايل الشهيرة^(*))، وحليا مصنوعة من الأحجار أو العظام. كان شعبا يمتلك وقت فراغ كافيا ليطور حياة ثقافية ريفية. يشير النحت إلى نشاط رمزي عالي المستوى، يقترّب من الكتابة. كما أن وجود الصبغة الحمراء الشبيهة بتلك التي وُجدت في بيناكل بوينت تشير إلى ذوق مشابه في تلوين الجسد. إن الأدلة على وجود غرف مقابر في كل أنحاء أوركاني تشير إلى جهود مبذولة للتواصل مع الأسلاف وكذلك، ومن خلالهم، التواصل مع عالم الأرواح. إن العديد من المقابر المصنوعة على شكل غرف قد بنيت على قمم مرتفعات حيث تشبه كثيرا بيوت الأحياء. وقد كان المكان حيث تلتقي اليابسة بالماء ومنذ البداية يعتبر مكانا مقدسا، حيث الحياة والموت يندمجان كما لم يحدث في أي مكان آخر⁽⁶²⁾.

إن حالة الحفظ الرائعة لسفح سكارا توعز إلى حقيقة أنه لأكثر من أربعة آلاف سنة كان الموقع مهجورا ومملوءا بالرمال، ربما نتيجة لواحدة من العواصف العملاقة المألوفة في المنطقة. لم يُكشف عن المنطقة إلا في العام 1850، عندما كشفت رياح عظيمة أخرى أجزاء منها لمالك الأرض المحلي، والذي تصادف أن

(*) مأخوذة عن خليج سكايل Bay of Skail. [المترجمة].

كان عالم آثار هاويا. لقد أصابت الموقع أضرار كثيرة قبل أن يقع تحت عناية عالم الآثار الشهير في. جوردن تشايلد في العام 1928. لقد فهم هذا العالم مباشرة سبب انجذاب الأوركاديين الأوائل لهذا الموقع، وذلك على الرغم من كونه عرضة لظروف بحر الشمال القاسية. إن البيئة الانتقالية بجانب «الخليج المحمي رمليا ومنطقته النائية الغنية والمعشوشبة (كانت) جاذبة لصياد السمك، وراعي الغنم، والمزارع على حد سواء». فبتحديد أولا موقع تلالهم، ولاحقا موقع قريتهم المتراجعة بمسافة عن الشاطئ، ضمن هؤلاء لأنفسهم ما يقترب من 700 سنة لا بد أنها كانت حافلة بالسلام والوفرة. لم يُعثَر على أي أسلحة في سفح سكارا، ولا توجد أي أدلة على وجود مجاعة أو مرض وبائي. وكما أوضح تشايلد، فإن شعب سفح سكارا ترك تراثا فكريا حول طرق الحصول على الغذاء والعمارة المنزلية والتي لايزال من الممكن العثور عليها في هذه الجزر. إن المنازل التي تدعى المساكن السوداء التي كان يسكنها المزارعون صيادو سمك جزيرة، وذلك حتى وقت متقدم من القرن العشرين، كانت مبنية بطريقة شبيهة بمساكن العصر الحجري. لم تعد الأسرة مصنوعة من الحجر، بيد أنها كانت توضع على أي من جانبي المدخل كما كانت منذ خمسة آلاف سنة مضت. ليس هناك من مديح أعظم من التقليد، حيث إن استمرارية هذه وغيرها من الحضارات الساحلية تعتبر إعجازا حقيقيا عند مقارنتها بالمجتمعات الأرضية الداخلية والمعتمدة على نظام بيئي أوحد⁽⁶³⁾.

إن الحجم الصغير لهذه المجموعة منعها من استنزاف بيئتها الانتقالية. الزراعة، والرعي، وصيد السمك وجمع النباتات كلها قد كملت بعضها البعض بشكل مثالي، مانعة أي حاجة إلى التخصص أو للتقسيم الطبقي. ولكن مع مرور الوقت، تراكم الفوائد أدى إلى عملية التبادل مع مجموعات أركيدية أخرى من العصر الحجري. بدأت المقاييس الزمنية والمكانية لجنس الحافة الأركيدي بالاتساع، كما اتسع كذلك تطورهم الثقافي. وأدت الحاجة إلى شركاء الزواج في الأغلب إلى تحالفات مع قرى أخرى من العصر الحجري، ومع مرور الزمن، دخل هؤلاء في مشاريع بناء مشتركة، مثل مشروع الأحجار المنتصبه في دائرة برودجار Ring of Brodgar^(*)

(*) تقع الدائرة في غرب ميلاند، وهي مكونة من أحجار ضخمة ملتفة في دائرة حقيقية قطرها يبلغ 104 أمتار تقريبا. [المترجمة].

والغرفة العظيمة في ميس هاوي (Maes Howe) (*). ربما سببت هذه العلاقات أخيرا ترك سفح سكارا بذاته، لكنها صنعت ثقافة جزيرة مزدهرة متصلة بعالم يتسع باستمرار⁽⁶⁴⁾.

حتى منذ خمسة آلاف سنة مضت، كان الأوركيديون معززين بموارد عوالم خارجية والتي لم يكن من المحتمل أبدا أنهم يعلمون بوجودها. فمن المعروف أن الأخشاب الطافية القادمة من الغابات الشاسعة لشمال أمريكا تجرفها الأمواج إلى السواحل الأوروبية، حيث تزودهم بالوقود وبخشب الأسقف التي لا يمكن لجزييرتهم معدومة الأشجار أن توفرها. لقد رأينا كيف أن، المرة تلو المرة، هذا البحر الذي بدا معزولا جدا قد أثبت أنه معطاء إلى درجة كبيرة عندما فشلت في ذلك موارد الأرض الداخلية. لقد كانت السواحل أول جنة عدن للبشرية. لقد جاءت البساتين المغلقة أرضيا في مرحلة لاحقة بعيدة، فبداية، الزراعة، والصيد، وجمع النباتات كانت كلها أنشطة لا ينفصل بعضها عن بعض. لقد هجر البشر البيئات الانتقالية من أجل المجتمعات الأحادية ببطء وتردد. فحتى في زمن متأخر وصولا إلى 1500 ميلادي كان 15 في المائة من سكان الأرض لايزالون صيادين رحلا. لم يكن المزارعون هم أسلافنا بل كانوا أبناء هؤلاء الذين وضعوا بصمتهم الخضراء على الساحل أو على طول المجاري المائية. يذكرنا سفح سكارا مرة أخرى، كما يقول روان جاكوبسن، «إننا مخلوقون من أجل وخلقنا بواسطة هذا العالم الرفيع حيث تلتقي الأرض بالبحر»⁽⁶⁵⁾.

(* أحد أكبر المقابر في أوركاني، تقع أسفل تلة يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة. (المترجمة).

سواحل البحار القديم

« نعيش حول البحر مثل النمل
أو الضفادع حول مستنقع».

سقراط في محاوره فيدون لأفلاطون⁽¹⁾

انطلق أفراد الإنسان العاقل *Homo sapiens* في رحلتهم الملحمية من سواحل أفريقيا، سائرين على طول سواحل الجزيرة العربية والهند قبل أن يتوزعوا ليملأوا بقية العالم. وللخمسين ألف سنة التي تلت، حتى أكثر البحارة إقداما نادرا ما أبحروا بعيدا عن مرأى اليابسة. بالنسبة إلى الإغريق القدماء، كان المتوسط أقرب إلى أن يكون بركة أكثر منه محيطا. وصف فيرناند برودل شعوبه بأنهم «يتحركون مثل سرطان البحر من صخرة إلى صخرة»، من جزيرة إلى جزيرة، ومن شبه جزيرة إلى شبه جزيرة. أسمى الإيطاليون هذه الحركة *costeggiare*، في حين أن الإنجليز يعرفونها بأنها *coasting*. أما بالنسبة إلى البرتغاليين فهي *cabotage*. حتى بعد أن جرى

«كان الإغريق مستقرين مع الساحل
ولكنهم مترددون تجاه البحر»

عبور المحيطات، استمرت معظم السفن في احتضانها للسواحل، غير أن هذه الرحلات لم تحز سوى أقل القليل من انتباه المؤرخين البحريين، والمهوسين بالداخل البحري العميق، وبأساطيل المياه الزرقاء عوضا عن سفن المياه البنية الأكثر وفرة⁽²⁾.

إن جذورنا موجودة مع ما أسمته راتشيل كارسون «الأم العظيمة للحياة، البحر»، غير أن تاريخنا اللاحق كان أكثر برمائية من كونه مائيا. لقد تطورنا كبشر على طول الساحل عوضا عن الداخل البعيد عن الساحل، فالموطن الحقيقي للبشرية هو حيث تلتقي اليابسة والماء، موضع ولادة الحضارة. في العادة، نحن نربط هذه الحضارة بتطور الزراعة في الشرق الأوسط والهند منذ 10 آلاف سنة مضت، بيد أن الأبحاث الحديثة تشير إلى أن شعوب العصر الحجري كانوا يزرعون المحاصيل ويزاوجون الحيوانات منذ وقت أقدم بكثير، وغالبا في أماكن حيث المزيج من اليابسة والماء يقدم أعظم إنتاج بأقل الجهود. وكما اتضح، فإن الرعي في البرية والزراعة كانا لا يمكن تمييز كل منهما عن الآخر لمدة ألف عام قبل وبعد ما يسمى بالثورة الزراعية. إضافة إلى ذلك، فإن ما عرفها فيليب فيرنانديز - أرميستو صوابا على أنها حضارات الساحل seaboard civilizations قد تطورت باستقلالية عن الحضارات الداخلية. إن تطور هذه الحضارات لا يزال موضوعا تاريخيا وجغرافيا مهملا بشكل غريب⁽³⁾.

نستعمل نحن وبسهولة مصطلح حضارة civilization لوصف أراض مثل مصر، والصين، وبلاد الرافدين لكننا نتردد وبشكل غريب لنضيفها على شعب مثل الفينيقيين، والإسكندنافيين، والسواحيليين، أو أي من الشعوب الساحلية أو شعوب الجزر الأقل شهرة، والتي تشمل الأليوتيين Aleuts، والملاكايين Malaccans، والكاريبين Caribs، والتونغانين Tongans، والذين هم مؤهلون تماما لأن يدعوا حضارين كما هم جيرانهم في الأراضي الداخلية. فمجتمعات الساحل كانت مختلفة عن جيرانهم من مجتمعات اليابسة المغلقة، غير أنهم لم يكونوا أدنى منهم مطلقا في إنجازاتهم الاقتصادية وكذلك الثقافية على حد السواء. إن ما يميز هؤلاء ويجب أن يضعهم موضع اهتمام عظيم هو ظروفهم البيئية على حافة اليابسة والماء. كونهم ليسوا زراعيين حصريا، هم ليسوا بحريين تماما كذلك. بالأحرى، هم يعبرون عن قدرة برمائية amphibiousness، وهي القدرة على استغلال كلا طرفي خط المد، للعيش ليس فقط بجانب البحر ولكن كذلك مع البحر في علاقة مستقرة⁽⁴⁾.

لقد بزغت حضارات الساحل عن مجتمعات الصيادين الرحل البحريين وهي الحضارات التي أهلت كل جزء من العالم في نهاية آخر عصر جليدي عظيم. تطورت هذه الحضارات ببطء وهدوء، تاركة خلفها القليل من النصب التذكارية والسجلات المكتوبة التي جعلت دراسة الحضارات الأرضية أكثر سهولة. بيد أننا، والفضل لمصادر علم الآثار، نعرف، الآن، أن الشعوب التي احتلت بيئات انتقالية بحرية كان لديها منفذ لمصادر ثقافية ومادية غنية، والتي سمحت لهم بتبني وجود مستقر أسرع بكثير مما فعل الصيادون الرحل في الأراضي الداخلية. لقد سمحت السواحل للشعوب بأن تنمي وتطور علاقات اقتصادية واجتماعية أكثر تعقيدا، بما يشمل التجارة على امتداد السواحل وبالقرب منها. وكما رأينا مسبقا، كان الساحل محفزا على التطور الثقافي الثمين. ومع مرور الوقت، ستحصل السواحل كذلك على سلطة وغنى كبيرين، ما أدى إلى تكون ما يدعى Thalassocracies، وهي الدول المحكومة عبر البحر عوضا عن الأرض، بسيطرة تمتد أكثر من أي إمبراطورية أرضية⁽⁵⁾.

في الغرب، بدءا من الفينيقيين، متبوعين بالإغريق، والإسكندنافيين، والقوات البحرية الحديثة الأولى لشمال غرب أوروبا، أنشأت شعوب الساحل مقاطعات ومستعمرات تجارية على السواحل البعيدة، لتتسخ نفسها أخيرا على مدى مناطق متسعة. وبينما مال المؤرخون إلى ربط الإمبراطوريات باليابسة، فإن أعظم الإمبراطوريات مساحة في التاريخ الإنساني، الهولندية والبريطانية، قد ولدت بحريا. اليوم، آخر أعظم الدول المحكومة بحريا thalassocracies، الولايات المتحدة، لاتزال تستخدم قواعد جزرها ومقاطعاتها الساحلية لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية حول العالم.

إن هناك درجة مذهلة من استمرارية الحضارات الساحلية خلال الـ 15 ألف سنة الماضية، ولربما أقدم كذلك. إن هذه الحضارات هي الحلقة المفقودة في سرد تاريخ العالم، والذي استمر في كونه منغلقا أرضيا لفترة أطول مما يجب. إن مستقر البحار القديم كان غالبا المياه البنية عوضا عن المياه الزرقاء، لكن حتى عندما كانت الأنشطة الساحلية مؤمنة عبر الارتحال عبر المحيطات، كما كان الوضع في البداية في المحيط الهندي وبعد ذلك في الهادي ولاحقا في الأطلنطي، فإن الجزء الأعظم من الأنشطة البحرية ظل أكثر قربا من الشاطئ منه في عمق البحر. تخيل الجغرافي الإغريقي هيكتايوس اليابسة أنها جزيرة عظيمة، Orbis Terrarum (العالم)، محاطة بنهر لا

يمكن عبوره، Oceanus (محيط)، حيث كان لهذه الرؤية أن تسيطر على الجغرافيا حتى القرن الخامس عشر. وكما أوضح الإدريسي، الجغرافي الإسلامي العظيم للقرن الثاني عشر: «لا أحد يعرف ما يقع خلف البحر... بسبب المصاعب التي تعيق الإبحار، وعمق الظلام، وارتفاع الأمواج، وعنق الرياح... لا يجرؤ بحار على قطع أو اختراق البحر المفتوح. يكتفي هؤلاء بالسواحل». وحتى اليوم لاتزال معظم الأنشطة البحرية مكثفة على طول خطوط السواحل⁽⁶⁾.



العالم كما صورته هيكاتيوس، 500 ق. م.

غير أنه لا يوجد ساحل يشبه آخر. تختلف السواحل جيولوجيا، وبيولوجيا، وجويا، وفي مجموعة أخرى من الصفات. يمكن أن يكون لأي ساحل تنوع كبير في المناخات المحلية والبيئات والتي تجعل التعميم صعبا جدا. كما أنه لا يوجد شعب ساحلي

يشبه الآخر تماما، ليس فقط بسبب الظروف المختلفة التي يحيون فيها بل كذلك بسبب تنوع القدرات على التكيف والتي يتمكن منها البشر. لكل شعب ساحلي بناء اجتماعي وثقافة مختلفان. إن تركيزي هنا هو على الثقافة الساحلية المتميزة التي تطورت في أوروبا بداية من البحر المتوسط، بل وحتى أبرز المميزات الخاصة، سابدأ من سواحل بحرين مختلفين تماما، المحيط الهندي والمحيط الهادي.

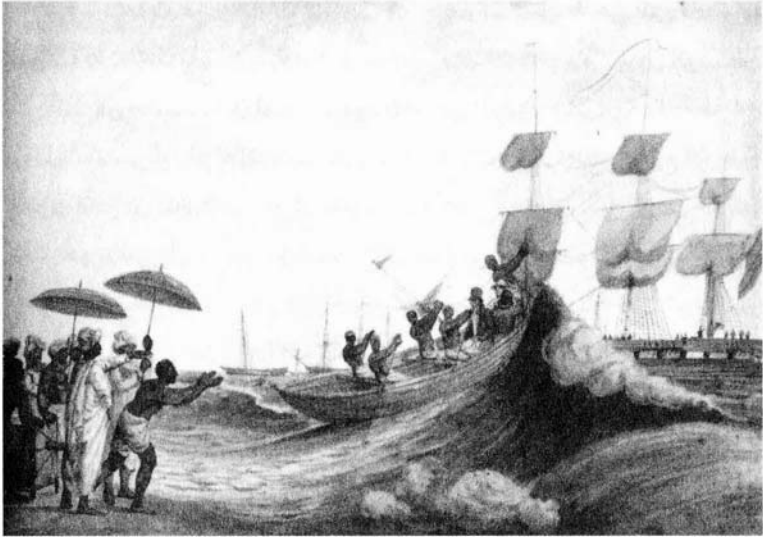
الساحل الأقدم: المحيط الهندي

عندما نتحدث عن حضارات الساحل، فإن حضارات المتوسط هي التي تحضر في عقولنا ذات المركزية الأوروبية أولا. في خرائط العالم القديم وعالم القرون الوسطى التي أتت من الغرب، يكون المتوسط هو دائما محور التركيز، حيث إن معالجة فيرناند برودل الكلاسيكية له لطالما كانت هي المثال لكل المعالجات الجغرافية والتاريخية الأخرى لأحواض المحيطات. غير أن المتوسط حجمه صغير قياسا بالمقاييس العالمية وليس هو الأقدم بأي شكل بين البحار السبعة التي يمكن جوبها. إن هذا الشرف يوعز إلى المحيط الهندي، وهو ثالث أضخم جسم مائي في العالم، والذي عبره البشر لمدة خمسة آلاف عام على الأقل، مقارنة بألفي سنة للمحيط الهادي وخمسمائة سنة قصار للمحيط الأطلنطي لمثل هذا العبور المستمر. بالطبع، لا بد لنا من تمييز أن المحيطات لم تأخذ أشكالها الحالية إلا منذ سبعة آلاف سنة مضت. عندما كانت البحار منخفضة بمقدار ثلاثمائة قدم عما هي عليه الآن، كانت العديد من البحار أشبه بممرات مائية نهرية، يسهل عبورها على الطوف أو القوارب⁽⁷⁾.

غير أن المحيطات لا تحتاج إلى أن تعبر حتى تكون مهمة في تاريخ البشرية. لقد صنعنا أبطالاً من الرحلات العابرة للمحيطات، متناسين الرحلات المذهلة الفذة التي أنجزت على طول الساحل. إنها السواحل، وليست المياه المفتوحة، التي تشكل الخطر الأكبر على البحارة، وهي حقيقة ضاعت عند العديد من المعتادين على اليابسة، نحن نحتاج إلى أن نوجه انتباهنا أكثر إلى الأنشطة الساحلية، والتي، حتى وقت قريب، شكلت القدر الأكبر من الحركة البحرية في العالم.

إذا ما ركزنا على حضارات السواحل، فإن ساحل المحيط الهندي يجب أن يكون نقطة انطلاقنا، بداية من 125 ألف سنة مضت عندما وصل الإنسان العاقل من

الداخل إلى ما يسمى الآن ساحل إرتيريا. لربما ستمر 75 ألف سنة أخرى قبل أن يعبر هؤلاء الأهالي الساحليون المياه عند النهاية الجنوبية للبحر الأحمر. وبينما هم يقطعون طريقهم إلى الهند وما بعدها، استمر هؤلاء في كونهم رحلا بحريين، يتحركون أفقيا على طول الساحل بحثا عن الموارد، ويتاجرون عبر المسافات القصيرة نسبيا. وقبل أن يصبح حوضا موحدا، كان المحيط الهندي عبارة عن مجموعة من البحار غير المترابطة - البحر الأحمر، خليج البنغال، بحر العرب - كل بسواحله الخاصة وحضاراته الساحلية المميزة⁽⁸⁾.



قارب سفينة يصل إلى الشاطئ، مدراس، الهند.
الصورة من المتحف الوطني البحري، لندن.

عندما بدأت تجارة المسافات البعيدة، كان ذلك شكلا من أشكال النشاطات الساحلية إلى حد كبير، والتي أطلقت، على الرغم من ذلك، من الحضارات الزراعية العظيمة، حضارة بلاد الرافدين والحضارة المصرية، والتي تقع في الشمال، غير أنها كانت تبحث عن البضائع المتوافرة عميقا باتجاه الجنوب في شرق أفريقيا وشبه الجزيرة الهندية. كانت الهند بحد ذاتها مكتفية ذاتيا، غير أنها مستعدة لاستقبال هذه المبادرات. رحب الأفريقيون كذلك بالتجار من الشمال غير أنهم نادرا ما ركبوا

البحر بأنفسهم. بدأت التجارة عبر البحر الأحمر مبكرا منذ 5000 ق.م. كانت العلاقات بين بلاد الرافدين ووادي السند مؤمنة بحلول 3000 ق.م، وقد أدى تكثيف مثل هذه التجارة في الداخل الساحلي بالتجار إلى فك شفرة نظام الرياح بين 3000 و1000 ق.م، والذي أدى إلى تكوين أول ممرات منتظمة عابرة للمحيطات في العالم، بحيث تصبح الحركة عبرها بدلا من حول حوض المحيط الهندي⁽⁹⁾.

أبحر البشر أولا في المحيط الهندي، غير أن ذلك لا يعني أن مجتمع المياه الزرقاء قد تطور هناك. بقيت كل من الهند وأفريقيا نظامين اقتصاديين زراعيين إلى زمن طويل، حيث كانت شعوبهم الساحلية أكثر ارتباطا باليابسة عن البحر. لم تظهر دولهم الداخلية أي اهتمام في إبراز سيطرتهم باتجاه البحر أو حتى في التحكم المباشر في التجارة الساحلية. كانت هذه الدول مكتفية بأن أجازت للشعوب الساحلية الربط بين اليابسة والماء، سامحة لهم بدرجة معينة من الاستقلالية الثقافية وكذلك السياسية والاقتصادية. إن الوحدة التي كانت للمحيط الهندي لم تكن مفروضة من الداخل لكنها «خلقت عبر تحركات البشر، والعلاقات التي تتضمنها، والمسارات التي يتبعونها». عبر هذه المسارات أتت شعوب جديدة وأديان جديدة - البوذية، الهندوسية، البانية، وأخيرا الإسلام - حيث انتشرت على طول السواحل بسهولة أكثر من اختراقها للداخل. اختلطت المعتقدات العالمية بسهولة مع الأديان المحلية، لتخلق في النهاية ثقافات ساحلية مميزة مثل السواحيلية في شرق أفريقيا. بعض هذه الثقافات كانت أكثر إبحارا من غيرها. فقد اعتبر الهندوس المحيط مصدر تلوث، حيث لم تكن طبقاتهم الاجتماعية العليا لتغامر بعبور ما أسموه «المياه السوداء». بيد أن هذه المخاوف لم تكبح شعوب الطبقات الدنيا، الذين كانوا يشكلون الأكثرية بين الصيادين والبحارة في الهند كما في الأماكن الأخرى⁽¹⁰⁾.

كانت معظم الشعوب حول المحيط الهندي من الساحليين عوضا عن كونهم رحالة أعماق البحار. أتى شعب البحارة الحقيقي الوحيد في المحيط الهندي من الشرق وليس من الشمال أو الغرب. في الغالب نشأ هذا الشعب في جنوب الصين أو تايوان منذ نحو ستة آلاف سنة مضت، ليرتحلوا إلى جنوب شرق آسيا ومن ثم تحركوا حتى استقروا في أوقيانوسيا، ولكن ليس قبل أن يتحركوا باتجاه الغرب بحلول العام 1000 ق. م، ليعثروا على جزيرة مدغشقر المهجورة، والتي جعلوها

لهم اقتصاديا وثقافيا. من مدغشقر أبحر هؤلاء في زوارق ذات مجاديف، جالين معهم الموز، وجوز الهند، والسكر إلى شرق أفريقيا ولأول مرة. ومع ذلك، فإن هذا الإبحار طويل المسافة والمذهل والبطولي لم يؤد إلى انفتاح مؤثر نحو المحيطات الأخرى. إن البحارة الذين قطعوا المحيط الهندي استمروا في احتضان سواحلهم. استمر المحيط الهندي في كونه مملكة لمجتمعات ساحلية صغيرة معزولة تقريبا والتي لم تصل قط إلى مستويات حضارات الأراضي الداخلية من حيث القوة، والتمدن، أو الرقي الثقافي، غير أنها كانت، وبكل المقاييس، كاملة التحضر⁽¹¹⁾.

عندما حل الإغريق ومن ثم الرومان محل الفينيقيين، والمصريين والفارسيين في تجارة المحيط الهندي، استخدموا ذات المسارات والموانئ، حيث لم يقدموا على عمل الكثير لتغيير طبيعة الهند أو أفريقيا الساحليتين. وحتى وصول المسلمين في نحو العام 1000م لم يعطل هذا النمط المستوعب. فكما يقول مايكل بيرسون، إن شعوب المحيط الهندي لم تتحول إلى الإسلام بقدر ما هي تقبلته. ولم يحدث سوى عند وصول البرتغاليين في القرن الخامس عشر أن جرى تحدي استمراريات الألفية الماضية، وحتى عندها، فإن تطفل عامل الملاحة الجديد هذا لم يحل بسرعة محل الثقافات الساحلية القديمة التي يمكن العثور عليها إلى الآن في شرق أفريقيا وعلى طول سواحل الهند الشرقية⁽¹²⁾.

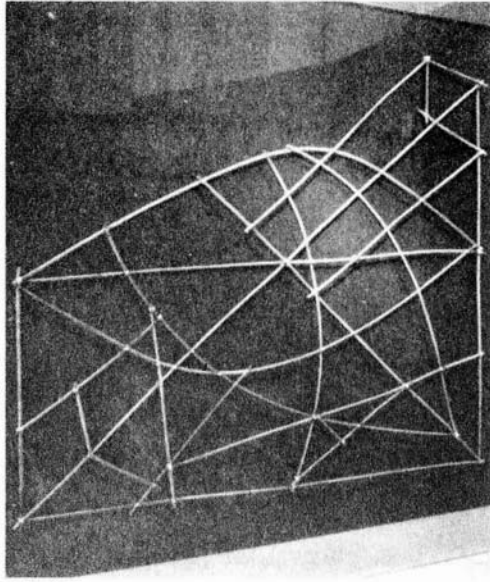
حول حافة الهادي

وُجِدَت ثقافة ساحلية أخرى حول ما يعرف اليوم باسم بحر الصين الجنوبي. ولمدة ما يقرب من ألفي سنة ربطت حافته بين الشعوب الجنوب آسيوية. قبل وجود الدول الإقليمية والقادرة على ربط هذه الشبكات الضخمة والمتنوعة من الأنهار، ودلتا الأنهار، والأرخبيلات، والبحار، كانت المنطقة عبارة عن نوع من الأراضي الرطبة المترابطة بعضها ببعض عن طريق التجارة والهجرات بين الأعداد الهائلة من المجموعة الإثنية. وكما رأينا، فإن شعوب هذا الإقليم تحركوا غربا باتجاه المحيط الهندي وجنوبا باتجاه المحيط الهادي، حيث سيصبحون البحارة الأسترونيزيين الذين أخيرا سيبحرون شرقا عبر الهادي في أعظم عمل بطولي إبحاري رآه العالم قبل القرن الخامس عشر⁽¹³⁾.

يعتبر المحيط الهادي أضخم المحيطات، فهو ضعف حجم الأطلنطي. على ما يبدو، لم يكن لدى أوائل من خاضوا المغامرة هناك اسم يطلقونه عليه، ومثل الشعوب القديمة الأخرى، فقد اعتقدوا أنه سلسلة من البحار - جنوب الصين، اليابان، جافا، باندا، سيليبس، سولو، تيمور - والمسماة بأسماء الأراضي المجاورة. ومثل المحيطات الأخرى، جرت تسميته قبل أن يُتعرّف عليه بشكل كامل بزمن بعيد. ولقد عمده فيرديناند ماجلان البحر المسالم Mare Pacificum، دون معرفة أي شيء عن مداه وبتقدير شديد الخس لعنفه. بالنسبة إلى البحارة البولنيزيين الذين وصلوا قبل ماجلان بكثير، فإن شساعة الهادي الرائعة قد تضاءلت بعض الشيء بوجود الـ10 آلاف من جزره، العديد منها متجمع في شكل أرخبيلات، والتي بدت لسكانها كأنها شيء مثل أرض مائية متصلة عوضاً عن كونها منفصلة بالماء. ولأن هذا التشكيل عُرف على أنه بحر من الجزر وليس جزراً في بحر بعيد، فإن هذه الأرخبيلات قد جعلت الهادي يبدو أسهل تحكماً. عندما وصل المستكشفون الأوروبيون في القرن السادس عشر ركزوا انتباههم كذلك على الأرخبيلي، حيث قسموا الهادي إلى ثلاث مناطق رئيسية، والتي أسموها بولنيزيا (بمعنى جزر كثيرة)، وميكرونيزيا (جزر صغيرة)، و ميلانيزيا (جزر سوداء، والتي أُسميت نسبة إلى ذوي البشرة الداكنة من سكانها)، بينما يتخيلون معظم الهادي على أنه فراغ عظيم⁽¹⁴⁾.

قبل العام 1960 كان يعتقد أن الهادي الأرخبيلي قد تأهل أصلاً من الشرق إلى الغرب. لقد جرى دحض هذا المعتقد الآن تماماً عن طريق أبحاث علم الآثار والأبحاث الجينية، والتي تفتت آثار التأهيل السكاني في الهادي من جنوب غرب آسيا إلى غينيا الجديدة وأستراليا منذ أربعين ألف سنة مضت وصولاً إلى العصر الجليدي، عندما كانت مناسب البحر أكثر انخفاضاً بكثير وعندما كانت هناك ممرات ضيقة فقط للإبحار فيها. استقر الصيادون الرحل والذين قطعوا هذه الرحلة إلى سواحل أستراليا وغينيا الجديدة حيث الموارد كانت أكثر غنى. بحلول العام 30.000 ق. م ارتحل هؤلاء مجدداً، هذه المرة باتجاه سلسلة جزر سليمان المقابلة لغينيا الجديدة. وقد احتفظوا بمعظم صفات أسلافهم من الصيادين الرحل، حيث إن الجزر هي الأكثر امتلاكاً للسواحل بين كل أنواع اليابسة. غير أنه مع مرور الوقت، بدأ هؤلاء بزراعة البطاطا الحلوة وجذور القلقاس، وهو نشاط زراعي يضاهاي الصيد والتجميع البحريين⁽¹⁵⁾.

خارطة إبحار rebbelib
 لجزر المارشال، وهي خارطة
 مصنوعة من أعواد الحطب
 حيث الجزر فيها ممثلة
 بأصداف الودع، والأمواج
 ممثلة بالخطوط.
 الصورة من ويكيبيديا



استؤنفت الهجرات في 2000 ق. م بوصول من يدعون بشعوب لايبتا من الشمال، والذين كان لديهم مستوى متقدم من المهارات في إنتاج المصنوعات الفخارية وبناء القوارب. بحلول العام 1000 ق. م أوصلتهم محاولات الإبحار الفذة إلى أقصى امتداد شرقي للهادي الجزري (المملوء بالجزر)، وصولاً إلى جزر الهاواي، وجزيرة إيستر، وإلى ما يعرف اليوم باسم نيوزيلاندا. بحلول ذلك الوقت تطور هؤلاء لأبعد بكثير من معيشتهم كصيادين رحل، حاملين معهم ليس فقط النباتات والحيوانات ولكن كذلك أنظمة سياسية ودينية متطورة. لقد مثل هؤلاء لحظة نادرة لمجتمع بحري قادر على الارتحال عبر المحيطات ولكن لم يعتبر نفسه قط أكثر من مجموعة بحارة في بحر مملوء بالجزر. أحياناً ينسى هؤلاء المغامرون في الهادي مهاراتهم في الإبحار ويصبحون معزولين بشكل تام. أدار الأستراليون الأصليون ظهورهم إلى البحر وأصبحوا صيادين أرضيين، وأصبح سكان جزيرة إيستر شعباً معزولاً تماماً، محكومين بالفشل بسبب عدم قدرتهم على التواصل مع العالم الأكبر⁽¹⁶⁾.

لا توجد أدلة قاطعة على وصول مغامري الهادي إلى سواحل العالم الجديد، غير أنه يجب عدم السماح لذلك بالتشويش على حقيقة أنه حتى القرن الخامس عشر

كان هؤلاء بحارة العالم الأفضل، حيث غطوا مساحات شاسعة، واستعمروا سواحل بعيدة، وأسسوا أنظمة تجارة إقليمية في غاية الغنى والتعقيد. ولو أنهم وصلوا إلى السواحل الغربية للأمريكتين، لكانوا قد وجدوا حضارة ساحلية قديمة أخرى، غير أنها حضارة مختلفة كثيرا عن تلك التي لهم. فحتى وصول كولومبوس كان سكان الأمريكتين يعيشون في عزلة ربما لمدة 14 ألف سنة. لقد شكلت هذه القارة كائناتها الحية الخاصة بها في بيئتهم البوائية الخاصة بهم كذلك، وعليه فلم يكن لدى السكان مناعة ضد الأوبئة التي كانت موجودة في مناطق العالم الأخرى. فلو أن مغامري الهادي وصلوا إلى السواحل الأمريكية، لكانوا من دون أدنى شك أطلقوا أوبئة مدمرة على الأقل بقدر ذلك الوباء الذي عاث دمارا في السواحل الشرقية الأمريكية في القرن السادس عشر. بالنسبة إلى شعوب الساحل الغربي، أتى يوم تصفية الحساب بعد ثلاثمائة سنة. بحلول ذلك الوقت، كانت أرخبيلات الهادي قد دمرت مسبقا بسبب أوبئة جلبها معهم مستكشفون أوروبيون.

المتوسط: مُل وضافدع حول البركة

لقد طورت شعوب المحيطين الهندي والهادي توجهاتها تجاه البحر والتي هي مختلفة تماما عن تلك التي ستظهر حول المتوسط وعلى الحافة الشرقية للأطلنطي. في جنوب شرق آسيا جرى تنصيب بعض الشعوب الداخلية، والتي رُحلت بسبب جيرانها المعتدين إلى الساحل ومن ثم إلى داخل البحر، على أنها «شعب بحري». إن شعب الموكن من تايلاند وبورما يطلق على نفسه لقب «غرقى البحر» (sea drowned) حيث يعيش أفرادها على متن kabangs^(*) معظم الوقت. غير أنهم يأتون اليابسة للتجارة وليحتموا من العواصف والتسونامي. يسمى هؤلاء التسونامي Laboon والتي تعني «الموجة التي تأكل الناس»، حيث طوروا أنظمتهم التحذيرية المبكرة الخاصة بهم والتي خدمتهم جيدا على مدى قرون. تعلمت بعض الشعوب الساحلية الأخرى أن تبني مساكنها على ركائز مرتفعة أو أن تصنع مساكن برمائية. استمر هؤلاء الذين يعيشون حول حافة المحيط الهندي في كونهم من بين أبرز ساحلي العالم⁽¹⁷⁾.

(*) قوارب تقليدية كان يصنعها هذا الشعب ويعيش على مننها. [المترجمة].

لقد انطلقت شعوب الهادي مسافات أبعد عن الساحل أكثر مما تجرأ أن يفعل أي ممن كانوا قبلهم. لقد كانوا يشعرون بأنهم في موطنهم الطبيعي أكثر في البحر، حيث استثمروه وهم ملمون بالزمان والمكان، واللذين شعر بهما الأوروبيون وأبقوهما لليابسة فقط. بالنسبة إلى الإغريق، كان البحر دائما غريبا ومثيرا، مكانا «يجلب الموت، يأخذ الأشياء بعيدا، ويجعل الأشياء تختفي». بدأ هذا التوجه في البحر المتوسط القديم، أو في الواقع، حول البحر المتوسط القديم، والذي اجتذبت سواحله الصيادين الرحل من hominid لما يقرب من 125 ألف سنة ولربما أكثر بكثير. في البداية، كان هؤلاء الساحليون كثيري الحركة، لكن مع مرور الوقت استقر هؤلاء ليكونوا مجتمعات ذات أنظمة معقدة وأخيرا حضارات شاطئية مثيرة للإعجاب. لقد قال سقراط إنهم كانوا مثل «النمل والضفادع حول بركة»، وهو توصيف لايزال يناسب شعوب البحر المتوسط اليوم⁽¹⁸⁾.

إذا كان هناك شيء حول البحر المتوسط يميزه عن المحيطين الهندي والهادي، فهو ضيق سواحله. فما بين 7000 و4000 ق. م ارتفعت مياهه لما يقرب من 150 مترا، لتفيض على ما كان وقتها سهولا ساحلية واسعة النطاق، صانعة من أجزائها الضحلة جزرا متعددة قريبة من الساحل. في الشمال والغرب، هبطت الجبال إلى البحر، في الجنوب والشرق، كانت السواحل مطوقة بصحار ذات وعورة. هؤلاء الذين استقروا على الساحل كانوا معزولين عن المدن النائية، غير أنهم في الشمال، كان لهم تواصل مع الأرخيبيالات المتعددة القريبة من الساحل. وبخلاف الطريق من البحر الأسود والبعض من الأنهار العظيمة التي جفت مياهها صبا في المتوسط، لم يكن هناك تواصل سهل مع الداخل. لذلك السبب أطلق الإغريق عليه مسمى «بحر بين الأراضي». كان البحر هو المركز، واليابسة كانت الحد الخارجي، والمياه هي الداخل واليابسة هي الخارج. فبالنسبة إلى شعوبه «الأماكن المتصلة عن طريق البحر دائما «قريبة» فيما الجيران على اليابسة بدوا من حيث التواصل بعيدين جدا»⁽¹⁹⁾.

لم تكن سواحل المتوسط، خصوصا على الجوانب الشمالية والغربية من البركة، ضحلة فقط، لكنها كانت متغيرة جدا. امتدت أشباه الجزر الطويلة عميقا في البحر، منتمية أكثر إلى البحر منها إلى اليابسة. كونت أكبر أشباه الجزر هذه - إيطاليا وإسبانيا - عوالم خاصة بها، كأنها جزر أكثر من كونها جزءا من اليابسة. كانت

هاتان الجزيرتان مترابطتين عن طريق المياه، وهي مياه غالبا ما شكلت بحارهما المنفصلة عوضا عن كونها جزءا من الجسم المائي الأكبر الذي نعرفه اليوم على أنه البحر المتوسط. كان الأدرياتيكي وإيجة من ضمن أوائل البحار التي جرى فرزها، وقد جُزئت كذلك إلى أجسام مائة أصغر حجما. هذان أخذتا اسميهما وهويتيهما من الأراضي التي تحوطهما. كانت للسواحل المتقابلة غالبا أشياء مشتركة بعضها مع بعض أكثر مما كان لها مع مدنها النائية. تعلم القدماء أن يعاملوا بحار اليابسة هذه كما نعامل نحن أي منطقة، فقد ضم الرومان الأدرياتيكي كجزء من إمبراطوريتهم، حتى وهم يدعون أن بقية المتوسط كانت مفتوحة أمام الجميع⁽²⁰⁾.

فكما يذكرنا فيليب فيرنانديز - آرميستو، «للحديث بشكل دقيق، المحيطات غير موجودة: إنها تشكيلات من أذهاننا، نسج من خيال رسام الخرائط، طرق ملاك الأراضي في تقسيم المساحة البحرية وفق وضعية اليابسة». فبالنسبة إلى بريدراج ماتيفجيفيك «المتوسط ليس مجرد جغرافيا» بل في الواقع مجموعة من الممارسات الاجتماعية والآراء الثقافية المرتبطة بالجسم المائي. لقد جرب البحارة القدماء المتوسط بأجزائه المختلفة قبل أن يعرفوه بشكل متكامل بزمان طويل. كان المتوسط معروفا مبدئيا لسواحل الليفانت باسم «البحر العظيم»، وهو المصطلح الذي كان غالبا ما يستخدم من قبل الإغريق. لم يبحر البحارة القدماء بواسطة البوصلة أو رسومات الخرائط، بل بمعرفتهم المحلية التي تحصلوا عليها من التجربة المباشرة ومرروها لمن بعدهم شفويا. وكما كان الوضع بالنسبة إلى نظرائهم البولنديين والأمريكيين الأصليين، كان الماء بالنسبة إليهم «مكانا، وليس مساحة، سطحه المتحرك مملوء بالنذر، وبمفاتيح الألباز، وبالمعاني». كان البحارة القدماء يعرفون بحارهم المحلية كما يعرف سكان اليابسة أحياءهم. كانت معظم رحلاتهم تشبه تجول سكان اليابسة المتهادي، حيث يقومون بها دون جداول أو مقاصد ثابتة. ولأنهم كانوا يعرفون أنهم واقعون تحت رحمة الرياح والتيار، فإنهم كانوا يعرجون طريقهم، حيث كانوا نادرا ما يبحرون بين نقاط ثابتة، ولكنهم يتجولون بتلو على طول الساحل، متوقفين مرارا وتكرارا للأكل والنوم والمتاجرة، وفي بعض الأحيان للنهب⁽²¹⁾.

فحتى عصر البخار، كان الإبحار في خط مستقيم من ضرب المستحيل في كل الأحوال. يشير تيم إنغولد إلى أن فكرة الخط المستقيم أصلا هي «رمز حدائي

افتراضي، إشارة إلى انتصار التصميم العقلاني الهادف على تقلبات العالم المادي». لم تظهر فكرة خط ساحلي مستمر إلا بحلول القرن الثامن عشر، حيث إن الساحل كان معروفا من التجربة الشخصية وليس من خلال ضربات قلم رسام الخرائط. اكتُشفت السواحل القديمة أولا عن طريق البحر، ولاحقا فقط عن طريق اليابسة. لم تكن السواحل خطوطا بل سلاسل من نقاط محددة غير مترابطة والتي طالما كانت ذات أهمية عظمى بالنسبة إلى البحارة، تحديدا الموانئ الآمنة ومواقع المخاطر الخفية. فقبل أن يرسم خط على الجلد أو ورق البرشمان، كانت الخرائط الذهنية، التي كانت تنقل عبر الذاكرة من جيل إلى جيل، تحتوي على مجموعة من التفاصيل الحيوية للملاحة على طول الساحل. إن أولى رسومات المتوسط، periploi^(*)، كانت أساسا خرائط للمسارات، «سلسلة من الموانئ والعلامات الطبيعية». هذه الرسومات تجاهلت إلى حد كبير ما يقع بعيدا عن الساحل، فالبحر ما كان ليقطع ولكن ليتم الإبحار حوله. فلم يكن من قبيل المصادفة أن مصطلح periplous يعني «الإبحار حول»⁽²²⁾.

لم يكن للبحر المتوسط القديم خطوط ساحلية كما نفهمها اليوم. قبل أن يكون هناك ساحل، كانت هناك فقط موانئ، وأجوان، ومواقع صيد، ومعالم أرضية. لم يكن البحار ليبحر باتجاه ساحل بكونه كذلك، ولكن باتجاه موانئ أو أراض محددة. كانت تلك أول ما جرى رسمه ومنحه أسماء. بيد أن ما يقع بينها بقي من دون اسم، أو كانت تسمى، كما هي الحال في اليوم، «ساحل المضيق»، والتي كانت بلا أي أهمية للبحارة القدماء. لقد كانت في الواقع الحاجات الملحة للبحار عوضا عن اهتمامات صاحب الأرض هي التي شكلت الصورة البشرية للسواحل أولا، وفي نظر القدماء، كان البحر هو الذي شكل الأرض. وكما بين الجغرافي الروماني سترابو: «إنه أساسا البحر الذي يعطي الأرض تخطيطها وشكلها، حيث يشكل الخلجان، والبحار المرتفعة، والمضايق، وعلى القدر نفسه، الأراضي البرية isthumuses^(**)، وأشباه الجزر، وألسنة الأراضي الممتدة في البحار». كانت السواحل تنتمي إلى البحار، مطوقة الجزر المقابلة لها. في حالة اليونان القديمة، نجد حالات حيث كانت اليابسة معرفة

(*) كلمة إغريقية الأصل تشير إلى وثيقة تحدد الموانئ والنقاط الأرضية المهمة للبحارة. [الترجمة].

(**) تعني بشكل أكثر دقة الأرض البرزخية أو الخلاء الذي يربط بين كتلتين كبيرتين. [الترجمة].

«من حيث علاقتها بجزيرة ما مطلة على الساحل وليس العكس». لم يكن الساحل لا يابسة ولا بحرا ولكن مزيج من الاثنين، شيء أكبر بكثير مما يشير إليه فهمنا المعاصر لخط الساحل⁽²³⁾.

في العالم القديم، كان العالم البحري مفهوما على أنه مجموعة كبيرة من البحار الصغيرة وليس أجساما ضخمة نسميها اليوم محيطات. كان البشر يشعرون بالراحة مع فكرة البحار قبل أن يستوعبوا ضخامة المحيطات بزمان طويل. كان مفهوم البحر يطبق على أي جسم مائي محدد بالأراضي. كما يطبق المفهوم كذلك على الأجسام المائية المطوقة بالأراضي، المالحة أو العذبة، مثل بحر طبريا، وبحر قزوين، أو البحر الميت. لم يصنع القدماء فوارق أوضح بين الأجسام المائية عما صنعه بين التضاريس الأرضية. لم يكونوا يميزون القارات عن Insula أو الجزر، وهو المصطلح الذي كان يطبق على أي منطقة معزولة على الأرض وعبر الساحل. ولم تعرف الجزر على أنها أراض محاطة بالمياه حتى القرن السادس عشر. البحيرات، ومصبات الأنهار، والأنهار، والبحار كلها كانت تمتزج أحدها بالآخر. فقد أظهرت الخرائط الإغريقية المتوسط على أنه مثل النهر العظيم، يتدفق من البحر الأسود وعبر أعمدة هرقل. لقد تعمدوا تقليل تقديريهم لعرضه، ربما لتهديئة هؤلاء الذين يخشون أن يفقدوا منظر السواحل⁽²⁴⁾.

إن مفهوم البحار السبعة مطبق اليوم فقط على المياه التي هي بحجم المحيطات، ولكن في العالمين القديم والأوسط، كان يمكن لهذا المفهوم أن يشمل أي جسد مائي، بداية من البحيرات الملحية وصولا إلى الأنظمة النهرية. في العصر الروماني، كانت مياه الساحل الغربي لإيطاليا والتي لها حدود مع كورسيكا، وصقلية، وسردينيا معروفة باسم بحر التيرانين الذي أصبح سكان اليابسة يسمونه Mare Nostrum أو بحرنا. إن البحر المستقل كان فكرة يمكن للعقل أن يستوعبها، هو وحدة إبحار يمكن التحكم فيها، حيث نادرا ما تخرج فيها الأرض عن منظر البحار. وكما يقول بروديل: «كانت أراضي المتوسط سلاسل من الأقاليم المعزولة بعضها عن بعض، ولكنها تحاول أن تتواصل. بعضها مع بعض». لقد خلقت البحار المتعددة الحافز لتأسيس شبكات تجارة حيوية. وكونها مطوقة بالجيال والصحاري، فإن هذه الحضارات الساحلية سرعان ما أصبحت thalassocracies أو إمبراطوريات

بحرية، تسعى نحو الفتوحات والاستعمار من شبه جزيرة إلى أخرى، ومن جزيرة إلى أخرى، حتى امتدت الإمبراطوريات في كل الأنحاء ولكن ليس عبر البحار الداخلية بالضرورة⁽²⁵⁾.



خريطة بورتولان^(*) بيد جورج دو أجولون، 1492. الصورة من ويكيبيديا.

في العالم القديم، كانت الأجسام المائية الضخمة معروفة بالمناطق التي تقع على حدودها. إن مصطلح atlantic أو الأطلنطي له جذوره في الأساطير الإغريقية حيث كان يعني في البداية المياه الأقرب إلى جبل أطلس في شمال أفريقيا. سيستغرق المصطلح قرونا عدة قبل أن يستخدم للإشارة إلى المياه خارج أعمدة هرقل. في البداية كانت هذه المياه تسمى Oceanus أو المحيط، وكانت تعرف بأنها أقرب للنهر الذي يحيط العالم المألوف. تدريجيا، فقدت هذه المياه تعريفها النهري حيث أصبحت تشبه بالمتوسط، أحيانا يسمى «البحر العظيم»، وبعد ذلك بالبحر الأعظم

(*) خرائط البورتولان هي، كما تصفها ويكيبيديا، خرائط إبحار تعتمد على اتجاهات البوصلة وتقديرات القبطان للمسافات في البحر. [المترجمة].

الخارجي، وبعد ذلك بالبحر المحيطي أو المحيط البحري، وأخيرا بالمحيط الغربي. إن مصطلح ocean أو محيط كان شائعا استخدامه للإشارة إلى البحار التي كانت شديدة الضخامة ويتعذر الإحاطة بها. خلال العصور الوسطى، كان شائعا لما نعرفه على أنه الأطلنطي أن يسمى باسم الساحل الأقرب له المحيط الألماني، المحيط الإسباني، حيث لم يشع استخدام اسم الأطلنطي حتى القرن السابع عشر. عندما جوبه بالحجم غير المسبوق للهادي، اختار فيرديناند ماجيلان أن يسميه محيطا وذلك إبان العشرينيات من القرن السادس عشر. مع مرور الوقت، هذه الأعداد الكبيرة من البحار سيجري استبدالها بالمحيطات السبعة⁽²⁶⁾.

إمبراطوريات التجارة الساحلية

تطورت الحضارات الساحلية في منطقة المتوسط ببطء وذلك عن طريق تنقلها على طول الساحل أو انتقالها من جزيرة إلى أخرى وليس عن طريق الرحلات الطويلة بعيدا عن الساحل. كانت الجزر مهمة مقدما في منطقة المتوسط في فترة ما قبل التاريخ. فقد وفرت هذه الجزر أماكن للتجارة مع الأراضي الداخلية، وعندما ظهرت الزراعة في ليفانت في 9600-6900 ق.م، انتقلت أولا إلى جزيرة كريت في نحو 7000 ق.م، قبل أن تنتقل إلى الأراضي الأوروبية بعد ذلك ببضع مئات من السنوات. وهكذا دارت الزراعة حول المتوسط بأكمله. تنقل الساحليون الذين واجهتهم قحولة أو عدائية البيئة الداخلية بذات الطريقة عبر الجزر. احتل الفينيقيون، وهم شعب كنعاني أداروا ظهورهم لمنطقة ليفانت التي أزيلت غاباتها، شمال أفريقيا حيث استبدلوا لاحقا بالقرطاجيين، الذين انطلقوا أخيرا في الأطلنطي إلى حيث الأماكن المكتشفة للتجارة على طول ساحله وعلى الجزر الصغيرة لشمال أفريقيا وأيبيريا. فبينما كانوا كأقرب ما يصنع المتوسط القديم من شعب بحري خالص، كانوا كذلك ساحليين، محتضنين ومستعمرين للساحل⁽²⁷⁾.

منذ أن بدأت البشرية بالمناجزة، فإنها اختارت أن تفعل على حدود الأراضي، حيث كان ينظر لها على أنها مناطق محايدة، حيث التبادل العادل مضمون. قبل أن تكون هناك أسواق دائمة في المدن، كانت هناك مهرجانات تجارية موسمية تقام على حدود المقاطعات الملكية وعلى تقاطع الطرق. كانت السواحل من ضمن

هذه الحواف الجلية التي كانت ترحب بالتبادل، وقبل أن تكون هناك موانئ ثابتة، كانت هناك أراضٍ حيث كانت المقايضة تتم. يصف هيرودوت الطريقة التي كان القرطاجيون يتاجرون بها مع المحليين على ساحل أفريقيا الأطلسي:

كانوا يوصلون بضائعهم ويضعونها على الشاطئ قطعة قطعة. بعد أن يتم ذلك، يعود هؤلاء إلى متن سفنهم حيث يصنعون إشارات من الدخان. عندما يستقبل السكان الأصليون هذه الإشارات، ينطلقون إلى الشاطئ، حيث يودعون الذهب من أجل البضائع ويتراجعون إلى الداخل. عندئذ يرسو القرطاجيون مجدداً على الساحل لينظروا في العرض. فإذا ما قدروا كمية الذهب كقيمة مناسبة للبضائع، فإنهم يجمعونه ويبحرون إلى موطنهم. ولكن إذا لم تكن القيمة مناسبة، فإنهم يصعدون إلى سفنهم مرة أخرى بانتظار الأحداث. بعد ذلك، يعود القرطاجيون للشاطئ ليضيفوا مزيداً من الذهب إلى عرضهم الأول، حتى يصبح هؤلاء القرطاجيون راضين عن العرض.

في أماكن أخرى، هذا النوع من التبادل من دون تواصل مباشر كان يسمى المقايضة الخرساء أو التجارة الصامتة⁽²⁸⁾.

لقد أسمى الإغريق أماكن التجارة باسم emporia، وذلك حتى لا يختلط أمرها مع المدينة polis. إن فصل الميناء المفتوح عن المدينة المحصنة سمح للإغريق باستغلال الأراضي الطبيعية، وعليه بالدفاع الأفضل عن المدينة ضد الأعداء الغرباء والطبيعة المعادية. اعتقد أفلاطون ضرورة إزالة المدن فعلياً من جانب البحر، «فالبحر، على الرغم من لطفه، بيد أنه مرافق خطر، كما أنه طريق سريع للأخلاقيات والطبائع الغربية كما هو طريق للتجارة»، والتي كان يعتقد أنها مفسدة لأخلاق المدينة. فالقدماء طالما حددوا مواقع الأسواق خارج أسوار المدينة، في موقع محيد سهل عملية التبادل مع المدن الكبرى الأخرى. وهناك كذلك، كان يسمح للغرباء بأن يجتمعوا ويتسامروا. فالمدن الكبرى زودت التجار الغرباء بالامتيازات، والذين بالنسبة إليهم هذه emporium أو مركز التجارة كان مساحة تحكم نفسها ذاتياً، في الأغلب بتقاليدھا ولغاتها الخاصة والمميزة عن تلك التي في المدينة. لاحقاً، تلك المقاطعات التي تعرف باسم funduq أصبحت أكثر ديمومة حول المتوسط كله،

ولكن في البداية، كما هي الحال مع أثينا، كان السوق هو الساحل ذاته، وهي ممارسة كانت متبعة كذلك في المحيط الهندي، ولاحقا، في شمال أوروبا. فقط عندما جرى ضم الأسواق داخل أسوار المدينة وانتقلت التجارة من الحافة إلى الداخل وحل الميناء الدائم محل الشاطئ بشكل كامل كموقع للتجارة. كان الرومان يعتمدون بشكل أقل على التضاريس الطبيعية من الإغريق، بيد أن مهاراتهم الهندسية جعلت موانئهم المبنية لأغراض محددة عرضة للهجوم. فعندما شيدوا ميناء أوستيا على مصب نهر التير، صادفوا مشكلة القوائم التي ستزعج بنائي الموانئ الأوروبيين لقرون مقبلة⁽²⁹⁾.

كان الإغريق مستقرين مع الساحل ولكنهم مترددون تجاه البحر. كانت تسيطر على رحلاتهم فكرة nostos، الأمل في العودة. وكانوا يفضلون، إن أمكن، ألا يأكلوا وجباتهم أو يناموا على سطح السفن، كما أنهم خاضوا معاركهم البحرية أساسا على مرأى من اليابسة. كان الساحل موطنهم، وكما بين أئين كورين: «في العصور القديمة، أبقى الساحل حلم المسكن الدائم الذي حددته الآلهة حيا، أو أنه زود الناس بركيزة للأمل في العودة». لم يكن البحر في حد ذاته هو هدف الوصول لكنه كان فقط وسيلة للعودة إلى الوطن. لم يكن عند القدماء مفهوم الاستطلاع والاكتشاف، فيما عدا رسم خرائط السواحل والجزر، فاهتمامهم بالبحر انحصر فقط في ملامسته لليابسة وفي ربطه بين بقعة أرض وأخرى. مثل عوليس، هم لم يبحروا قط بأي شيء آخر يحتل ذهنهم سوى ميناء موطنهم، حيث إنه لم تكن لديهم أي متعة مع البحر بحد ذاته، والذي كان بالنسبة إليهم مكانا مربعا إلا إذا كان مملوءا بالجزر أو احتوى على خلجان محمية بأشبه الجزر. كون البحر المتوسط كان محاطا من كل جانب عدا واحد فقط، وكونه كان مفتوحا على الأطلنطي فقط من خلال أعمدة هرقل الضيقة، كان ذلك مصدر راحة عظيمة للبحارة القدماء⁽³⁰⁾.

لقد اختار معظم الملاحين أن يبقوا قريبا من الساحل، مطمئنين لوجود أعداد كبيرة من الأرخبيلات التي باركت السواحل الشمالية للبحر المتوسط. اليوم، نفكر نحن في الجزر على أنها أماكن معزولة، منتمية للبحر عوضا عن اليابسة، بيد أن الإغريق القدماء اعتبروا العالم terraqueous، متساوي الأجزاء بين اليابسة والماء. وكما رأينا مسبقا، كان البحر بالنسبة إليهم جزءا من الداخل. نحن نقول إننا سنذهب

خارجا إلى البحر^(*)، ولكن بالنسبة إليهم كانت المدن النائية هي الفضاء الخارجي. هذه الجغرافيا «المقلوبة» تتحدى مفاهيمنا الحديثة، بيد أنها ضرورية جدا لتقدير طبيعة السواحل والشعوب الساحلية القديمة⁽³¹⁾.

علم الأحياء المائية المتوسطية

إن امتلاك أرخبيل كان مفتاحا للسلطتين الاقتصادية والسياسية في المتوسط وذلك حتى بداية العصر الحديث. احتل الساحليون هامشا ضيقا حيث الجبال أو الصحاري في المؤخرة، وفي حالة السواحل الشمالية، حيث بحر مملوء بالجزر على بابهم الأممي. لقد عاشوا فيما يشبه الأرض المائية التي ليس لها نظير اليوم، لكنها كانت شائعة بما فيه الكفاية في الأزمنة الأقدم. أشباه الجزر المحاطة من أطرافها الثلاثة بالماء كان ينظر إليها على أنها «تقريبا جزر»، حيث إنها هي كذلك كانت تنتمي إلى الماء أكثر منها إلى اليابسة. في العديد من اللغات الأوروبية القديمة كان مصطلح جزيرة island يجمع بين مصطلحي ماء is والمصطلح الذي يشير إلى الأرض land، والذي يشير إلى حالة برمائية. كانت الأراضي المائية تشمل ليس فقط الجزر ولكن كذلك المستنقعات. كانت الجزر مناطق مثالية للتبادل، فإذا ما لم تكن موجودة، كانت الشعوب المتاجرة تصنعها. كان أوائل سكان ما يعرف اليوم باسم فينيسيا صيادين يحتلون بحيرة مستنقعية نشطة المد والجزر. مع مرور الوقت سيصنع هؤلاء مدينة مبنية على دعائم والتي بحلول القرن الثامن ستدخل ضمن مدار الإمبراطورية البيزنطية ولاحقا تؤسس مستعمراتها الخاصة حول البحر الأدرياتيكي⁽³²⁾.

إن مفهوم الأرخبيل كان قد ضم في أصوله اليابسة والماء كليهما. كان بحر إيجه، الذي يقع على حدود شبه جزيرة البلقان والأناضول، يعرف مبدئيا على أنه أرخبيل. لاحقا، أصبح هذا المصطلح يطلق حصريا على الجزر، وأخيرا على أي مجموعة من الجزر. تدريجيا، أصبحت كلمة جزر islands تعني الأراضي المحاطة بالماء، بيد أنه ولزمن طويل كان المصطلح يطلق على أي منطقة معزولة، بما في ذلك الأراضي المغلقة (التي لا تجاور الماء) كليا⁽³³⁾.

(*) we are going out to sea.

كانت الجزر تلوح ضخمة في الأفق في العالم القديم. في فهمنا الحديث القاري للمساحات، تصغر الجزر وتنعزل، ولكن في العالم البرمائي للمتوسط القديم، كانت الجزر متصلة ومعززة مكانتها. عندما تحرر الفينيقيون خارج المتوسط إلى الأطلنطي، كان أول ما بحثوا عنه هو الجزر، حيث يستطيعون إقامة محطات تجارية. كانت الجزر على السواحل الأفريقية والأوروبية الغربية تمارس أدوارا متفاوتة في تطوير التبادل الثقافي كما الاقتصادي لقرون مقلبة، حيث كانت هذه الجزر نقاط ربط في عالم من الحركة المستمرة، والتي كانت ذات أهمية أساسية في حياة الصيادين الرحل لما قبل التاريخ كما كانت للبحارة القدماء. لقد كان ذلك نظاما اقتصاديا وثقافيا مستمر، مقارنة بالأنظمة الداخلية الزراعية، بسبب الحركة المستمرة وانتهى بسبب الركود. إن أفضل ما توصف به المجتمعات الساحلية هي مساراتها عوضا عن جذورها، ربما هذا هو السبب في كون الشعوب الساحلية غير مرئية بالنسبة إلى المؤرخين، الذين يجدون صعوبة في التثبت من الشعوب المتحركة والتحقق منها⁽³⁴⁾.

مثل الجزر، واجهت المدن الإغريقية البحر، بحيث أصبحت أكثر ارتباطا به من أراضيها النائية. المثل كان صحيحا بالنسبة إلى فينيسيا ولمراكز التجارة الساحلية الأخرى. في المتوسط، تطور قالب مميز للإمبراطورية، *thalassocracy* وهي الإمبراطورية التي تعتمد بشكل أقل على السيطرة على الأرض من اعتمادها على السيادة على الممرات البحرية والمقاطعات الساحلية. لهذه الإمبراطورية أهداف عدة، أكثر تجارية في حالة الفينيقين، أكثر عسكرية في حالة الإغريق، لكنها جميعا اعتمدت على القوة البحرية عوضا عن تلك البرية. انتشرت الإمبراطوريات الإغريقية البحرية هذه من جزيرة إلى أخرى، ومن شبه جزيرة إلى أخرى. كانت إستراتيجية تدعى *epiteichismos* معنية بزراعة المقاطعات على السواحل الغربية وبطريقة سمحت لشيشرون بأن يقول: «إن سواحل بلاد الإغريق تبدو مثل الحاشية المدرزة على أراضي الشعوب البربرية». لقد كانت بلاد الإغريق موجودة حيث وجد الإغريقون، وهي لم تكن مقاطعة بقدر كونها مجموعة من السواحل. كان الرومان بدرجة أكبر شعبا داخليا زراعيا، بيد أن مدنهم كانت معزولة بذات الدرجة، حيث كانت منفصلة عن الريف. كان مفهوم الدولة الإقليمية المرتكزة على أراض داخل حدود ثابتة معروفا لديهم كذلك. مثل الإغريق، كانوا بناء للإمبراطوريات، مهتمين

ليس فقط بالأراضي المتجاورة ولكن كذلك بشبكات من الأراضي المطوقة ذات القيمة العسكرية والتجارية. كانت الإمبراطورية الرومانية مكونة من مدن هي أشباه جزر متصلة، في هذه الحالة، بالطرق كما بالبحار، بيد أنها كانت مستمرة في الافتراض القديم أن العالم هو بطبيعته جزيري. كان حيزهم أرخبيليا بلا ريب عوضا عن كونه قاريا، وهذه الرؤية ستستمر لقرون عدة قبل أن تفسح المكان لما أسماه دينيس كوسغروف «رؤية إقليمية مرتكزة على اليابسة»، وذلك فقط في القرن التاسع عشر⁽³⁵⁾.

لقد كان الإغريق القدماء يفهمون أنفسهم على أنهم شعب معزول، على الأرض كما في البحر. ولقد قيل إن المدن الرئيسية الإغريقية كانت مثل «الجزر على الأرض اليابسة». كان الانعزال يعتبر قوة، وكان الماء فرصة وليس عائقا. كان طاليس، معاصرا في مدينة مالطة الواقعة على الساحل الأناضولي في القرن السابع ق.م، أول من عرف الماء على أنه العنصر الأساسي لكل أشكال الحياة، حيث اعتقد تلاميذه أن الأرض عبارة عن قرص يطفو على مياه أزلية. وقد كان مواطن آخر من مالطا، هيكتايوس، هو الذي رسم أول خريطة للعالم في نحو 500 ق.م⁽³⁶⁾.

مع مرور الوقت، سيستكشف الإغريق والرومان الامتدادات الغربية لسواحل المتوسط والأطلنطي وصولا إلى الجزر البريطانية شمالا، التي أسموها جزر القصدير Tin Isles وذلك نسبة إلى المعدن الذي قاibusوا من أجله هناك. لقد تخيل هيكتايوس الأرض ذاتها على أنها جزيرة، Orbis Terrarum، محاطة بنهر ثائر والذي أسماه المحيط Oceanus. لم يكن لديه مفهوم القارات ولكن عوضا عن ذلك تخيل الأرض على أنها جزيرة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء والتي نستطيع تمييزها بسهولة على أنها أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. وقد عين هيكتايوس البحر المتوسط، بصحبة البحر الأسود، تحديدا في مركز جزيرة الأرض، ومثل كل رسامي الخرائط الجيدين، فقط عين موطنه، ميليتوس، في الوسط بالضبط.

لقد قطع الإغريق مسبقا مسافة في تحويل شرق المتوسط إلى بركة عظيمة موحدة، حيث أسموها «البحر الذي نعلوه» بيد أن الرومانيين سيذهبون إلى أبعد من ذلك. فبحلول العام 30 ق.م، امتدت إمبراطوريتهم إلى كل سواحلها، حيث أصبحوا مستعدين لتحويل مفهوم «بحرنا» Mare Nostrum من البحر التيراني إلى

البحر المتوسط بأكمله⁽³⁷⁾. بيد أنه كان هناك تمييز حاد بين البحر الداخلي والمحيط الغربي الخارجي. كان المتوسط معروفا ومحدودا، بيد أن المحيط كان كما أسماه الإغريق aperion، لا نهائيا، غامضا، ومرعبا. إذا كان المتوسط هو موطن الرومان وكذلك الإغريق، فإن ما يقع خارج أعمدة هرقل كان موضوعا مختلفا برمته. ستبقى هذه المساحة كهواية عميقة وعلى مدى قرون⁽³⁸⁾.

إن فكرة أن الماء يمثل الفوضى بينما الأرض تمثل النظام كانت مغروسة بعمق في الجغرافيا الأسطورية للشرق الأوسط القديم التي جرى تطويرها تاليا وتضخيمها أولا بواسطة اليهودية ولاحقا المسيحية. إن أهوال قصص الطوفان في العهد القديم ومعالجته لموضوع البحر كعائق عوضا عن كونه فرصة قد تعمقت جميعها عن طريق المسيحيين، الذين أضافوا إلى نظرة العالم الوثني للمحيط أنه فراغ مرعب وذلك عن طريق تقديم عامل فعال وهو الشخصية حديثة الاختراع للشيطان. فأبعد من حدود «بحرنا» لم ير الوثنيون كذلك سوى الموت والخراب، لا يهون عليهم سوى وجود الجنة Elysium، أو حديقة هيسبيرايدس، التي كانوا يعتقدون وجودها على الأطلنطي القريب على ما كان يعرف باسم جزر المباركين Isles of the Blest وجزر المحظوظين Fortunate Isles، وهو مكان الأبطال الموتى، الذي يتعذر دخوله على الرجال العاديين. وكما وصفهم هيزيود، على «جزر المباركين، محاطين بالمحيط ذي الدوامات العميقة، عاشوا من دون أن يعانون التعب أو الأسى. بالنسبة إليهم الأرض المعطاة للحبوب ثلاث مرات في السنة تثمر فواكه عذبة كالعسل»⁽³⁹⁾.

إذا ما تخيل المسيحيون أسلافهم إما في الجنة في الأعلى وإما في الجحيم في الأسفل، فإن الوثنيين قد صمموا مكانا لأسلافهم في البحر. بالنسبة إليهم كانت حافة البحر تمثل عتبة، أو حدا بين عالم الأحياء والأموات، ومكانا يحتوي على فرص هائلة ولكن كذلك على مخاطر عظيمة. هناك كان مكان للتواصل مع الأسلاف لكنه كذلك مكان طبيعي مسكون بالأرواح. أحيانا، كانت الشعوب الساحلية للعصر الحجري والبرونزي تطلق موتاها من على الساحل أو تدفنهم على الجزر الساحلية القريبة، حيث تضمن لهم حياة أبدية ولكن كذلك تمنعهم من العودة وإزعاج الأحياء. عندما كان يتعذر الدفن في البحر، كان الإسكندنافيون القدماء معتادين على الدفن في مقابر على السفن، وهو نوع آخر لذات الفكرة.

استمرت الجزر الأسطورية في مواسة الشعوب الساحلية في مواجهتها للموت وذلك حتى بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ق.م بوقت طويل⁽⁴⁰⁾.

على طول السواحل الأطلنطية الشمالية

يمثل الأطلنطي نقطة تناقض: لقد كان آخر المحيطات التي جرت السيطرة عليها ولكن يمكن القول إنه كان المحيط ذا التأثير الأكبر على مرور الزمن. لقد تأخر البشر في الوصول إلى كلا ساحليه الشمال الغربي والشمال الشرقي؛ وذلك بسبب الكميات الهائلة من الثلج والجليد التي غطت هذه السواحل حتى عشرة آلاف سنة مضت. لقد نتج عن كتل الجليد المتراجعة ومناسيب المياه المرتفعة سواحل متباينة استثنائية وذلك بأعظم نسب للسواحل نسبة إلى الأراضي الداخلية تقريبا عن أي مكان في العالم. لقد كانت الحافة الأطلنطية متميزة كذلك بكميات «الجزر المغمورة»، بأعداد أشباه الجزر والجزر القريبة من الساحل، وكذلك بعمق نقاط تجمع الأمطار التي جففتها الأنهار العظيمة والتي تدفقت في مصبات الأنهار البحرية العظيمة. فحتى بلغت البحار ارتفاعاتها الحالية في نحو 6500 ق.م، فإن المنطقة التي نعرفها اليوم باسم أوروبا كانت تمتد غربا لتشمل الجزر البريطانية، بما فيها إيرلندا، فيما بين أوروبا وبريطانيا كانت هناك غابات ومروج التي أسماها علماء الآثار Doggerland، وذلك على اسم ضفاف دودجر المغمورة الآن. كان بحر البلطيق أبطأ حتى في حصوله على شكله الخارجي الحالي، وذلك في نحو 5000 ق.م. فما ظهر أخيرا في أوروبا والذي يدعوه فيرناند بروديل الرأس الغربي لآسيا كان متميزا بتنوعات جيولوجية وبيئية عظيمة. لقد كان ذلك محفزا قويا على الحركة والتبادل التجاري، والتي هي صفة كل السواحل، لكنها كانت ملاحظة بقوة تحديدا على الساحل الأوروبي⁽⁴¹⁾.

لقد وصل أول صيادي ما بعد العصر الجليدي الرحل الساحلين إلى الشمال الغربي لأوروبا فيما بين 9000 و7000 ق.م. هناك وجدوا تنوعا بيولوجيا أعظم من الموجود في المتوسط، كاملا بما في ذلك نباتات البحر الخضراء، واللفت البحري، والجزر الأبيض، والطحالب، وبالطبع وفرة من قشريات البحر. وفيما هم يتنقلون

على طول الساحل، فقد استغلوا تحديدا مصبات الأنهار، حيث وجد علماء الآثار تلالا ضخمة من الصدف ولكن كذلك أدلة على ممارسة صيد السمك وصيد الطيور. لقد كانت الجزر الصغيرة المقابلة للساحل في الأغلب هي أوائل الأماكن التي يستخدمها الصيادون الرحل. ففي نمط يتكرر على طول الحافة الأطلنطية، كانت جزيرة غدیر Gadir عند قم ريو غواداليتي عند ما يعرف اليوم باسم الأندلس مأهولة مسبقا بالصيادين الرحل البحرين وذلك عندما أصبحت مركز تبادل فينيقيا في القرن الثامن ق.م، في هولندا الحالية، كان الصيادون الرحل ينتقلون إلى الساحل في الصيف، حيث يجمعون الأطعمة المختلفة ويرعون الحيوانات على حشائش المستنقعات الغنية هناك قبل أن يتراجعوا إلى الأراضي الأكثر ارتفاعا في الشتاء. بحلول العام 800 ق.م كان هؤلاء قد استقروا على جزر من صنعهم، حيث يزرعون ويتاجرون انطلاقا مما يعرف اليوم باسم الأراضي المستصلحة من البحر⁽⁴²⁾.

عندما وصلت الزراعة إلى أوروبا الغربية في بداية 5000 ق.م، كذلك وصلت إلى حد كبير عن طريق البحر، حيث انتشرت عن طريق الصيادين الرحل البحرين أنفسهم. وقد تأهل جنوب شرقي إنجلترا عن طريق البحر بحلول العام 4300 ق.م تقريبا بالصيادين الرحل الذين حملوا معهم مبادئ الصيد وتربية الحيوانات، وذلك على الرغم من أنهم لم يصبحوا مباشرة مزارعين متفرغين. باستخدامهم مهاراتهم الملاحية التي اكتسبوها عبر الألف عام الماضية، كان هؤلاء الصيادون الرحل يتجولون على سواحل إيرلندا وغرب أسكتلندا، وصولا إلى جزر أوركني بحلول العام 3800 ق.م. في الأغلب تأهلت في البداية الأراضي البريطانية عن طريق الجزر. ولوقت طويل جدا، بدأ أن الصيد والجمع قد اختلطا بالزراعة وتربية الحيوانات. لقد أزال صيادو ما قبل التاريخ البريطانيون الغابات وصنعوا حفر المياه لجذبوا طرائدهم إليهم. فقبل أن يكون هؤلاء مزارعين، كانوا حراس طرائد. الشيء نفسه ينطبق على الصيادين البحرين، الذين لم يشعروا بأي حاجة إلى العودة إلى الزراعة مادامت البيئة الانتقالية الساحلية كانت معطاءة للغاية⁽⁴³⁾.

مثل الصيادين الرحل البحرين في كل مكان، فإن هؤلاء الأوروبيين الساحليين الأوائل كانوا كثيري التنقل ويميلون إلى التبادل التجاري، وذلك في الأغلب على الجزر المقابلة تماما للساحل. وكما يوضح باري كانليف «يمكن لهذه أن تكون أماكن آمنة،

خارج نطاق الدولة، حيث، وبالاتفاق، يمكن للغرباء أن يتوقفوا فيها لصنع مراكز للتبادل التجاري». في حالة أوروبا الأطلنطية، سبقت التجارة الاستيطان الدائم، بيد أن الوضع كان أن الصيادين الرحل البحرين قد طوروا ترتيبا اجتماعيا أكثر تعقيدا عن ذاك الذي صنعه نظراؤهم على اليابسة. إضافة إلى ذلك، وعلى ما يبدو عليه الوضع من غرابة، فإن هؤلاء البشر كثيري التنقل كانوا هم أول من تبنا أُمَاط الحياة الأكثر استقرارا، بينما استمر الصيادون الرحل في المناطق النائية في تنقلهم لمدة أطول بكثير⁽⁴⁴⁾.

وكما كان الوضع في المتوسط، اكتُشِف الساحل الأطلنطي أولا من طريق البحر؛ حيث بقي هذا الساحل، فترة طويلة جدا، مرتبطا بالبحر أكثر من ارتباطه بأراضيه الداخلية، فعلى السواحل المتسعة لشمال غرب أوروبا، لم يكن الخط بين البحر والأرض محفورا بقوة مطلقا، ومثل الثقافات الأرخيلية في المتوسط، دمج الساحل الجزر القريبة منه. ولكن وعلى خلاف المتوسط، كانت الحافة الأطلنطية حضارة شاطئية ونهرية في الوقت ذاته، وذلك لأنها كانت أقل تطويقا بالجبال أو الصحاري، كما أنها امتدت من على بعد البحر، وصولا إلى أقصى مسافة عند الأنهار التي يمكن للمد أن يصلها وغالبا لأبعد من ذلك. في بريطانيا، وهولندا، وأراضي البلطيق «امتد تأثير البحر في الماضي لمسافة أبعد في الأراضي الداخلية عن الحدود الساحلية». فحينما كانت القوارب تسبح في المياه الضحلة، كانت الموانئ على الأرجح تقع على أعلى نقطة من النهر، حيث تكون أكثر أمانا وتحظى بتواصل أعظم مع شبكات التجارة الأرضية الداخلية. فكما رأينا، لم ير الصيادون الرحل فرقا واضحا بين المياه العذبة والمالحة، متنقلين ذهابا وإيابا عبر خطوط المد، وذلك على أساس تغير الفصول. سيستمر هذا الوضع في أوروبا الأطلنطية حتى العصر الحديث تقريبا، حين قررت سفن الإبحار العميق في المحيط أن تُملي أماكن الموانئ على الساحل نفسه⁽⁴⁵⁾.

كان لأوروبا الأطلنطية بحار عدة، مسماة على أسماء أقرب الأراضي إليها، بطريقة مشابهة لتسميتنا للخلجان أو المضايق عن تسمية المحيطات العظيمة. إن اكتشاف القارب الكبير عند دوفر، والذي يتوقع أنه يعود إلى ألفي سنة قبل وصول الرومان، يشير إلى سلسلة من «طرق البحر السريعة» التي لم تكن لها نظائر على

اليابسة التي كانت لاتزال غير مخترقة. إن بحار البلطيق الضحلة كان لها العديد من الأرخبيلات الساحلية المماثلة لتلك الموجودة في المتوسط. إن كلمة Aland التي تشير إلى اسم مجموعة من الجزر والتي تقع اليوم بين السويد وفنلندا، كانت تعني في الأصل «أرضا رطبة»، وهي مشهد طبيعي بحري منفصل عن كل من الأراضي اليابسة وعن البلطيق بحد ذاته. في شمال أوروبا، كان الماء كذلك يحدد الأرض، حيث إنه مع سقوط الإمبراطورية الرومانية، تفكك الداخل وتشكلت الدويلات بالقرب من السواحل حول الماء عوضا عن اليابسة. لقد نشأ ما أسماه اتش سي داربي «الدويلات البحرية» للقرون الوسطى، صانعة «إطارا من الدويلات التي، في أزمنة مختلفة، وظفت بحارها الثانوية كقواعد عدة لوحداث سياسية»⁽⁴⁶⁾.

كان للسواحل المتقابلة أشياء مشتركة بينها أكثر مما كان لها مع أراضيها الداخلية، بيد أن الإمبراطوريات البحرية، بما فيها تلك التي صنعها النورمان، امتدت على طول الساحل من الحافة الأطلنطية الشمالية وإلى المتوسط الغربي. لقد وحد الفينيقيون دولة بحرية في الأدرياتيك كان قد بدأها الرومان، فيما تحكمت السويد، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، في الحافة الشمالية للبلطيق. استخدم إنجليز العصور الوسطى المتأخرة قوتهم البحرية ليسيظروا على غرب فرنسا، ليحولوا القناة التي بينهم إلى ما كان يعرف، لزمان طويل، باسم البحر الإنجليزي، فيما كانت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على جزر وسواحل شرق المتوسط أقوى بكثير من سيطرتها على أراضيها النائية. إن عقيدة «البحر المشمول في دولة» Mare Clausurum التي كانت بابوية العصور الوسطى تؤيدها، قد شرعت الدولة البحرية حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وذلك عندما ترسخ أخيرا مفهوم السيادة حصريا على الأراضي، وتم إعلان المحيطات على أنها «بحار حرة» Mare Librum عن طريق هيوغو غروتوس. وحتى عندها، مع ذلك، استمر مفهوم القطاعات البحرية، حيث وسعت الإمبراطوريات الأوروبية، بثبات واستمرار، قواها على طول الممرات البحرية، حتى عندما لم يدعوا السيادة على المحيط الأطلنطي بكليته⁽⁴⁷⁾.

إن الارتباط الذي كان للأوروبيين مع بحارهم الساحلية لم يمتد إلى ما أسماه القدماء المحيط Oceanus، هذا النهر الثائر الذي أحاط بجزيرة الأرض، والذي كانت أوروبا حدا غربيا خلفيا فيه. لم يكن الأوروبيون الشماليون أكثر تطلعا من

الإغريق أو الرومان لتجربة تحذير الشاعر بيندار بأن «ما يقع أبعد لا يمكن أن يخوضه الحكيم أو غير الحكيم. فالإنسان لا يمكن أن يعبر من غدير باتجاه الغرب المظلم ثم يعيد الإبحار مجدداً في اتجاه الأراضي اليابسة لأوروبا». قبل 1500 كان الأوروبيون، باستثناء الإسكندنافيين، أصحاب ثقافة ساحلية وليست ثقافة البحار العميقة، حيث كانوا يفضلون الإبحار ممرأى من الأرض، آمنين بوجود الجزر وأشباه الجزر التي عملت مصدات لتحميهم من المحيط ذاته. إن أقدم الخرائط، المعروفة باسم portolani، كانت مثل تلك المعروفة باسم periploi، تركز على العلامات الأرضية والموانئ، حيث تزود بالقليل من المعلومات عن المحيط في حد ذاته⁽⁴⁸⁾.

أصول إحدى الثقافات الساحلية

لقد ورث الأوروبيون الشماليون الثقافة الساحلية للبحر المتوسط، بما في ذلك جغرافيته الأسطورية. لقد استمر النظر إلى البحر والأرض ليس فقط على أنهما عاملان مختلفان، ولكن كذلك على أنهما عاملان مختلفان. كانت الأرض تمثل النظام بينما البحر يعني الفوضى. لقد ربط الوثنيون الأرض بالحياة، والبحر بالموت، والساحل بأحداث فوق طبيعية غامضة. كانت المسيحية تخشى البحر بالقدر ذاته، حيث كانت تربط المحيط بمملكة الشيطان. كان تأثير الرب أقوى على الأرض منه في البحر، حيث كان يعتقد أن المزارعين أكثر تقوى من البحارة. هذا الانشطار الحاد بين العاملين الأرضي والبحري جعل من الساحل - في حد ذاته - مكاناً خاصاً جداً مع ذلك، عتبة ليس لها مثيل. فكما قال باري كنليف: «فإذا كان في ذلك الوقت أن اعتُبر مجالاً الأرض والبحر نظامين منفصلين، كل منهما معرض لقوى فوق طبيعية مختلفة خاصة به، فإن الوسيط بينهما كان مكاناً انتقالياً حدودياً، ولذلك كان خطراً»⁽⁴⁹⁾.

لطالما كانت العتبات أماكن وقتية عارضة، بيد أنها كذلك أماكن مغرية، مشحونة بالرهبة، كما أنها مثمرة بآمال عظيمة. هذه الأماكن كانت مرتبطة بالعودة والمغادرة، وبدايات الحياة ونهايتها. فبينما كان العبور اليومي لخط المد طلباً للمؤن نادراً ما كانت له طقوس، كان الإبحار طويل المسافة يُعامل على أنه مرور من عالم إلى عالم آخر مملوء بالمعاني الرمزية العظيمة. كانت الرحلات عبر المياه تعتبر محولة ومغيرة للحياة؛ فالمرتحلون النخبة كانوا ينعمون بوجاهة عظيمة، في حين كان يُعتقد

أن الأبطال المتوفين ينتقلون إلى حياة أبدية على جزر أسطورية مثل جزر المباركين، والتي كان يعتقد أنها تقع بعد أعمدة هرقل. تخيل السلتيون والإسكندنافيون أن الموتى يُوجدون في البحر بعد الساحل، حيث ملأ هؤلاء البحر البعيد بجزر أسطورية كذلك، والتي أضاف إليها المسيحيون من مخزونهم الخاص من أشباح الجحيم والجنة في القرون التالية. كان البحر هو المكان الذي يفضلون أن يجدوا فيه أحلامهم بالسلام والوفرة، يجدونها عادة على جزر عدنية والتي إغراؤها سيتغلب أخيراً على الخوف من المياه المحيطية التي تحيط هذه الجزر. ولكن، وإلى ذلك الوقت، كان الماء مكان اللاعودة، مستودعا لكل ما هو غير مرغوب فيه على اليابسة، ليس فقط المخلفات الناتجة عن الحياة اليومية، ولكن أجساد المواليد المشوهة، والمنحترين، والمنحرفين. وكونه كان مكان الوثنية للاعودة وملعب المسيحية للشيطان معا، كان البحر مملوءا بالمخاطر، وهي مخاطر صدرت روايات تحذيرية للبحارة السذج⁽⁵⁰⁾.

لقد كانت الجزر القريبة من السواحل - في حد ذاتها - عتبات؛ حيث يستطيع الغرباء أن يأتوا ويذهبوا من خلالها بحرية، ميسرين بذلك التجارة والتواصل بين الجماعات الأرضية والتي كانت، فيما عدا ذلك، عدائية بعضها تجاه بعض. وكونها عتبات limen، فقد وفرت هذه الجزر ممرات بين العوالم المختلفة. وحيث إنه كان يعتقد أنها موجودة خارج إطار الزمن، كانت هذه الجزر تستخدم كمداخن للمتوفين. لقد استخدم الفينيقيون والإغريق هذه الجزر بهذه الطريقة، وعلى مدى قرون عاملت المجتمعات البحرية في أوروبا هذه الجزر على أنها «أماكن حدودية، ليست تماما من الأرض ولا من البحر... مسبوغة بقوى غير عادية في عقول هؤلاء الذين عاشوا على الواجهة بين الأرض والمحيط». كانت السواحل القديمة متخمة بالمخلوقات المهجنة ذات الأشكال المتغيرة. في الفولكلور الخاص بشمال الأطلسي، كان يعتقد أن الفقمة تفقد جلدها، وذلك حتى تتحول إلى بشر. هذه المخلوقات المعروفة باسم Selkies أو selchies على جزر أوركني وشتلاند، كان يعتقد أنها تكون علاقات رومانسية مع البشر، وتزواج طالما انتهى بمأساة، وذلك عندما تقوم مخلوقات الفقمة بإعادة صياغة جلودها وتعود إلى البحر⁽⁵¹⁾.

كانت مخلوقات السيلكي مشابهة، من أوجه عدة، لحرورية البحر ولمخلوقات تعرف باسم السارين sirens، وهي حيوانات سمكية مهجنة تعود أساطيرها على الأقل إلى

خمسة آلاف سنة مضت، حيث زمن الأساطير البابلية. لقد كان على السواحل، حيث يتداخل المائي والأرضي، أن كان يسهل تخيل التهجين. قبل أن يغامر الجنس البشري في المحيطات العميقة، ظهرت في البدء المخلوقات الأسطورية، حورية و حوري البحر merman و mermaid. على العالم نصف المجهول للساحل. إن الأوصاف القريبة جدا من البشرية لبعض الحيوانات، مثل تلك التي لخروف البحر manatee، جعلت من هذه الحيوانات مادة مثيرة للاهتمام بشكل مستمر. عرفهم الإغريق باسم sirens، وذلك تيمنا بالاسم العلمي لهم Serranus. عندما صادف كولومبوس خراف البحر، خلال مهمته الاستكشافية في الكاريبي، فإنه ميزهم على أنهم مخلوقات من الأدب القديم⁽⁵²⁾. لقد بين ريتشارد إليس كيف أن عددا متنوعا من الثدييات البحرية قد اكتسبت أبعادا أسطورية قبل أن يتم التعرف عليها أخيرا كحيوانات فعلية. ومع ذلك، لأن هذه المخلوقات تكونت في الخيال الإنساني، فإنها استمرت في الوجود مادامت استمرت المخاوف والرغبات التي صنعتها. ببساطة، انتقلت هذه المخلوقات من الفولكلور إلى الأفلام، ومن الدين إلى الأدب. كانت حورية و حوري البحر عبارة عن تعبيرات عن جاذبية البحر، ولكنها كانت كذلك تحذيرات تجاه مخاطره. فقبل القرن الثامن عشر شكلت السواحل أساسا ما أسماه بي فو توان مشاهد طبيعية مرعبة landscapes of fear⁽⁵³⁾. إن الإيمان بحوريات البحر قد وصل إلى أعلى نقطة على ما يبدو خلال نهايات القرن الثامن عشر، وذلك عندما أغرقت الأجساد المزورة، المصنوعة من جثث القروذ وذبول الأسماك، العديد منها صنع في آسيا، الأسواق الغربية. عرض مدير السيرك جي تي بارنم حوريته المسماة «حورية فيجي» في نيويورك خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت جاذبية الموضوع قد بدأت تتلاشى، حيث إنه قد أصبح واضحا أن ما كان يُعتقد أنه جنية البحر siren كان في الواقع من خراف بحر manatee المحيط الأطلنطي وأطوم dugong المحيط الهادي. وقتها، كانت السواحل قد أصبحت معروفة بشكل أفضل، حيث غادرت عوالم الغموض والخوف بعيدا عن الساحل. لقد أصبحت وحوش البحر الجديدة، حية البحر، والحوت العملاق، والقرش القاتل، كلها مخلوقات المياه العميقة. في القرن العشرين، عندما استُكشفت الأعماق بشكل شامل، تحولت هذه الحيوانات من مادة خوف إلى أنواع مهددة بالانقراض، والتي أصبح يُخاف عليها. تحرك مشهد الخوف مرة أخرى، هذه المرة إلى الفضاء الخارجي⁽⁵⁴⁾.

دائماً ما كانت السواحل هي الأماكن التي يلجأ إليها الإنسان لاستكشاف غموض الحياة والموت؛ فمن غير المفاجئ أن تكون هذه السواحل قد ارتبطت لزمن طويل مع المقدس. كان ساحل بيرو مشهداً لطقوس دفن مطولة، وذلك منذ زمن قديم يقدر بخمسة آلاف سنة مضت، وقد وُجِدَت غرف القبور على سواحل شمالي غرب أوروبا، وذلك قبل أن يبني المصريون أهراماتهم بزمن طويل. وعليه، يبدو أن تقاطع الأرض والبحر قد حفز النشاط الإنساني الرمزي منذ البدايات. لقد اعتقد الوثنيون والمسيحيون كلاهما أن الجزر والجروف الصخرية كانت «مقدسة بالنسبة إلى الآلهة». فلقد استضافت أماكن مثل جزيرة هيرونيوسوس الصغيرة المقابلة لقبرص جماعة أبولو الدينية قبل أن تتحول إلى مقام للقديس جورج. جزر أخرى في المتوسط كانت مقدسة بالنسبة إلى الوثنيين، ثم إلى المسيحيين، وأخيراً بالنسبة إلى الإسلام، فعلى حافة الأطلنطي، كان يقال إن جزيرة لافريت الواقعة على مصب نهر اللوار كانت تؤوي جماعة دينية نسائية قديمة للخصوبة. مثل هذه الأماكن أصبح المسيحيون المبشرون والمهاجرون يستخدمونها لاحقاً. كان الساحل الوثني موقعا لعدد كبير من الطقوس التي تهدف إلى مباركة البحارة واسترضاء هذا البحر النشط الذي كان يعتقد أن له مزاجاً وإرادة خاصين به، لا يجب لإنسان أن يتحداهما من دون مساعدة من الآلهة. على طول السواحل الأطلنطية لايزال القساوسة يباركون أساطيل السفن سنوياً، حتى إن كان ذلك الآن يتم من أجل السياح عنه من أجل نشاط الصيد المحتضر. لم يسبق لشيء أن نافس الساحل كمكان للغموض والسحر⁽⁵⁵⁾.

الحدود الأرضية الأطلنطية

بكل تأكيد، وسعت السواحل الطريق، ليس فقط للتجارة والتطور الثقافي، ولكن كذلك للغزو والاستيلاء. كان الأوروبيون يحصنون ألسنتهم الأرضية الممتدة في البحر على مدى قرون، بيد أن سواحلهم بقيت مخترقة، من دون حدود دفاعية. كان المغيرون والقراصنة موجودين على مدى ألف عام، ولكن لا شيء ضاهى القوى الدخيلة لإسكندنافيا القرن الثامن القدماء، والتي ربما كانت أحد أكثر المجتمعات الساحلية الأوروبية القديمة نجاحاً، والتي استمرت في عملية التطور منذ اللحظة التي وصل فيها الصيادون الرحل إلى إسكندنافيا. منذ البداية، كان الإسكندنافيون

شعبا برمائيا، وكانوا يشعرون بأنهم في موطنهم الطبيعي في الماء كما على اليابسة، فحتى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، كان موطنهم هو منطقة بلا طرق، حيث تنتقل الأشياء جميعها عبر الماء، وحيث الرمز الرئيسي لديهم هو القارب، والذي لم ينقل الأحياء فقط لكنه كان يوصل الموتى كذلك إلى العالم الآخر. بنى الإسكندنافيون البيوت والكنائس على شكل السفن، وكانوا يودعون موتاهم في أوعية تدفن في مقابر السفن الشهيرة، والتي لاتزال تميز المنظر الطبيعي الإسكندنافي عن أي منظر آخر. فما أسمته جونيل لارسون بثقافة «بحرية» قد امتد عميقا على اليابسة، إلى حيث تأخذ الأنهار القوارب السابحة في التيارات الضحلة. استمر ذلك حتى القرن الثالث عشر، وذلك عندما تم تطبيق النظام الإقطاعي على المنطقة، حيث انتقلت القوى من الماء إلى اليابسة، وحيث «استُبدل بالقارب كرمز رئيسي الفارس على الحصان»⁽⁵⁶⁾.

كان لارسوم محقا في إشارته إلى أن الثقافة البحرية قد انتشرت بشكل أعمق على اليابسة في تلك المنطقة عن أي مكان آخر في شمال غرب أوروبا. ومع ذلك، فإن أفضل وصف للإسكندنافيين هو أنهم ساحليون عوضا عن شعب بحري، حيث إنهم بقوا مرتبطين جدا باليابسة، وحتى عندما كانوا ينطلقون متجولين في الماء. بكل تأكيد، كان الإسكندنافيون بحارة رائعين، بيد أنهم، ومثل كل البحارة القدماء، كانوا مستقرين بشكل كبير، حيث طوروا أماطهم الخاصة في الزراعة وتربية الحيوانات. كوثنيين، اعتبر هؤلاء الساحل عتبة، مكانا لتقديم القرابين لآلهة البحر وإقامة الشعائر، وذلك لتمكين سفنهم من المرور من عالم اليابسة المألوف إلى محيط البحر الخطر، وهي الشعائر التي كان يتم تكرارها خلال مراسم الجنائز، وذلك عندما كانت السفينة توفر وسيلة نقل بين عالم الأحياء وعالم الموتى⁽⁵⁷⁾.

وحتى أزاحهم الضغط السكاني من على سواحلهم في القرن الثامن، بقي الإسكندنافيون بحارة مزارعين، معروفين بمهاراتهم التجارية بشكل أكبر من براعتهم القتالية. في مناطق مثل جزيرة غوتلند في غرب البلطقي، كانت المزارع تمتد إلى الساحل، حيث كان سكانها يتنقلون بسهولة بين صيد السمك والزراعة. لاحقا، وعندما أصبح صيد السمك على الساحل الزويجي نشاطا تجاريا بشكل أكبر، أصبح هناك تقسيم أكبر للعمل، بيد أن أحدا لم يتحرر الحق المفترض لكل الشعوب بالتصرف على أنهم صيادون رحل بحريون أبدا في إسكندنافيا⁽⁵⁸⁾.

وحتى عندما أطلق الإسكندنافيون أنفسهم بعيدا عن موطنهم، أبحر هؤلاء، كما فعل البولنديسيون، حاملين معهم البذور والحيوانات الضرورية لإعادة خلق وجود زراعي قادر على الاستمرار. من هذا المنطلق، كانوا كأنهم فينيقيو الشمال، متنقلين من ساحل إلى ساحل، ومن جزيرة إلى جزيرة، معيدين إنتاج ثقافتهم حيثما حلوا. تحرك الإسكندنافيون شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، مستخدمين الأنظمة النهرية للمنطقة التي هي روسيا الآن، وصولا إلى البوسفور، وذلك بينما هم يكتسحون الجزر البريطانية، ويتحكمون في سواحل فرنسا، قبل الدخول إلى المتوسط. بحلول القرن التاسع مد هؤلاء مداهم عميقا في البحر الشمالي بحد ذاته، مستعمرين جزر فارو في سنة 800، وصولا إلى آيسلندا في خلال سنة 870. غالبا، سبقهم الرهبان الإيرلنديون ببضع سنوات، بيد أن هؤلاء لم يكونوا ندا للفايكنغ أو للقراصنة الإسكندنافيين الوثنيين، والذين سينتقلون إلى جرينلاند بعد قرن من الزمان، وصولا إلى سواحل نيوفاوندلاند في حوالي سنة 1000.



مقبرة سفينة في جيلفار، بوجا، غوتلاند. الصورة لأو رونستروم

توازي الإنجازات الملاحية للإسكندنافيين تلك التي لمغامري المحيط الهادي، والذين كانوا يستكملون استيطانهم لأوقيانوسيا النائية تقريبا في الوقت ذاته الذي كان فيه الفايكنغ يتعدون عن سواحلهم الأصلية. ولكن سيكون من الخطأ التفكير في هؤلاء الفايكنغ على أنهم أي شيء غير حضارة برمائية شاطئية استثنائية عازمة على استكشاف

سواحل وجزر بحر الشمال. في الكوسمولوجيا الإسكندنافية، كان العالم مكونا من دائرتين متحدتي المركز. كانت الداخلية Midgadr مناسبة للبشر، بينما كانت الخارجية Utgadr تخص الوحوش. يفصل بين الدائرتين Oceanus⁽⁶⁰⁾ أو المحيط، والمعروف باسم Uthaf أو أوثاف، والذي جعلوا موقعه في الغرب، وذلك بعدما اعتقدوه بحرا داخليا ضخما يمتد من سواحل إسكندنافيا وصولا إلى ما نعتبره اليوم سواحل وجزر أمريكا الشمالية⁽⁵⁹⁾.

إن النسخة الإسكندنافية لما يعرف باسم Mare Nostrum أو بحرنا، في إشارة إلى البحر المتوسط، احتوت ليس فقط على الجزر البريطانية، ولكن كذلك على جزر فارو وآيسلندا. لقد بدا أنهم تخيلوا هذا البحر على أنه محدد في الشمال بما أسماه «الساحل الذهبي»، وهو امتداد للساحل النرويجي الذي كان يعتقد أنه يصل إلى جرينلاند، وفي الجنوب بامتداد شمالي لأفريقيا، والذي كان يدعى فينلاند Vinland. في الغرب كانت هناك هيللاند، والمحدد موقعها تقريبا حيث نحدد اليوم مكان جزر بافن، وماركلاند، حيث يجب أن تكون لبرادور، وحيث أرض سكرالينج وفنلندا تحتل موقع نيوفاوندلاند. وبينما نحن لا نملك أي نصوص أو خرائط من زمن الفايكنغ بحد ذاتهم، فإن مخطوطة لاحقة ستعبر عما قد يكون فهمهم المعاصر: «في جنوب جرينلاند تقع هيلولاند وبعدها ماركلاند، ومن هناك ليست المسافة بعيدة إلى فاينلاند، والذي يعتقد البعض أنها توصل إلى أفريقيا». إن خريطة سكالهولت التي رسمها الأسقف ثوردو ثوراكسون في 1570 تبين بوضوح منطقة مائية مغلقة، بحرا متوسطا إسكندنافيا⁽⁶⁰⁾.

ليس هناك من دلالة على أن ليف أريكسون ومرافقيه قد فهموا أنهم عبروا المحيط أو اكتشفوا عالما جديدا⁽⁶¹⁾. كان الإسكندنافيون ببساطة يتحكمون في بحر داخلي، حيث ينشطون على السواحل ويتنقلون بين الجزر على طريقة البحارة القدماء في كل مكان. إن ما نجحوا في فعله كان قد تم مسبقا في المحيطين الهندي والهادي: تطويق جسم مائي ذهنيًا، مرويضين فراغه المرعب الرهيب، وذلك عن طريق منحه سواحل محيطة به خياليا وملئه بالجزر. لقد قاموا برحلات أطول من تلك التي حاول الأوروبيون القيام بها قبلهم، لكنها لا تختلف في نوعيتها عن تلك التي أنجزتها شعوب ساحلية قديمة أخرى⁽⁶²⁾.

ستمر خمسمائة سنة أخرى قبل أن يصبح الأوروبيون مستعدين للقيام برحلات عبر المحيطات كتلك. وكما تبين، كانت رحلات الفايكنغ نوعا من الفترات الفاصلة والتي لم يكن لها شبيهه خلال أواخر العصور الوسطى، حيث إن الأطنطي استمر في

(*) رمز مقدس عند قدماء الإغريق والرومان، يمثل المحيط أو بشر إليه. [الترجمة].

كونه عائقا ذهنيا، وكذلك طبيعيا مربعا. أصبح الأوروبيون أكثر راحة كونهم بحارة، بيد أنهم لم يظهروا أي رغبة في أن يصبحوا من جائيي المحيطات. استمرت خريبتهم للعالم *mappaemundi* في إظهار موقعهم على أنه على جزيرة أرضية مطوقة ببحر شاسع، والذي فقد تدريجيا صفات النهر الغاضب المتعذر اجتيازه. في خلال أواخر العصور الوسطى امتلأ الفراغ الذي كان يمثل الأطلنطي تدريجيا بجزر أسطورية. ولكن تلك الجزر بقيت بعيدة المنال كما كانت أيام بندار.



خريطة سكالهولت للأسقف ثوردو ثوركاسون، 1670.

الصورة مأخوذة من ويكيبيديا كومنز.

عندما كان شرق المتوسط مغلقا بالنسبة إليهم في القرن الرابع عشر، قاطعا عليهم التجارة مع الشرق الأقصى عن طريق المحيط الهندي، بدأ الأوروبيون في استكشاف إمكانات أخرى، تشمل قطع الساحل حول أفريقيا. في خلال رحلاتهم الاستكشافية على طول غرب أفريقيا، اكتشف البرتغاليون بمحض المصادفة جزر الأطلنطي القريبة لماديرا والكناري، بيد أن ذلك كان، مرة أخرى، امتدادا لتحرك ساحلي قديم، وتنقلا بين الجزر، عوضا عن كونه تجربة جديدة في المغامرات البحرية. بعدها أتت الرحلات الاستثنائية لكولومبوس، والاكتشاف غير المقصود للعالم الجديد، والذي سينفي أخيرا وتماما فكرة أن المحيط يطوق Orbis Terrarum أو العالم، مثبتا لأول وآخر مرة وجود المحيطين الأطلنطي والهادي، وبادئا عصر السفر عبر المحيطات. غير أن أوروبا استمرت في كونها حضارة شاطئية وليست محيطية. وكما سنرى، جلب المستكشفون الأوروبيون عقلية ساحلية للعالم الجديد، حيث قابلوا شعوبا ساحلية أخرى كانوا، في جوانب عديدة، يشبهونهم أكثر مما يختلفون عنهم. في أغلب الجوانب، كانت حضارة الساحل الحديثة الأولى هي استمرارية للنشاط الساحلي القديم، وقد امتدت الآن بشكل عنيف حول حافة الأطلنطي والهادي عن طريق إمبراطوريات بحرية أوروبية في الشمال الغربي أكثر ديناميكية وقوة من أي شيء آخر عرفه العالم مسبقا.

الجبهات البحرية للأطلنطي لبدايات العصر الحديث

النهر في داخلنا، البحر هو كل
شيء عنا، البحر هو حافة الأرض
كذلك...

تي. اس. إليوت، «النقائذ الجافة»⁽¹⁾

كان الصيادون الرحل لايزالون يجمعون النباتات والعلف عندما بدأت المرحلة التالية من التاريخ الساحلي للأطلنطي الشمالي، مرحلة قطع المحيطات، في نهايات القرن الخامس عشر. يؤكد التاريخ التقليدي التغيير على حساب الاستمرارية. نحن نسمع دوماً أن رحلات كولومبوس قد افتتحت عصراً جديداً، بيد أنه في الواقع استمرت معظم الأنشطة البحرية في الاعتماد على الإبحار على طول البحر بدلا من عبور البحار المكتشفة حديثا. تتابع استكشاف العالم الجديد جزيرة بعد جزيرة، شبه جزيرة بعد شبه جزيرة، مستخدمين سفنا لا تختلف

«على مصائد السمك المرتحلة،
تتعلق الأفكار دوماً بالعودة»

كثيرا عن تلك المستخدمة ألف سنة ماضية. وكما سنرى، فإن أنشطة صيد السمك في بداية العصر الحديث كانت ثمرة للأنشطة السابقة في العصور الوسطى، التبادل التجاري عبر المحيطات كان امتدادا للتجارة الساحلية، كما أن الممارسات الإمبراطورية للإمبراطوريات الأوروبية في بدايات العصر الحديث تبدو مشابهة كثيرا لتلك التي كانت للإمبراطوريات البحرية في العصور القديمة والوسطى.

متى ما استطاعوا، كان البحارة في أوائل العصر الحديث يفضلون الإبحار حول المحيطات بدلا من عبورها. لقد كانوا يحرون على طريقة *costeggiare* أو على طريقة الالتفاف، حيث يلتفون محتضنين الساحل بأكثر قدر ممكن. كان ما يشجع مغامرتهم النادرة بعيدا عن الساحل هو الاعتقاد الخاطئ بأن البحر كان ممتلئا بالجزر، مما يوفر مروا قصيرا وآمنا لهم. عندما تخطت كولومبوس وصولا إلى العالم الجديد، فشل هو في رؤية أن أراضي هذا العالم لم تكن أرخبلا آخر، يمكن عبوره بسهولة عبر المياه، لكن في الواقع كتلة أرضية لا يمكن عبورها. سيمر وقت طويل جدا، تقريبا ثلاثمائة سنة، قبل أن يعي الأوروبيون المساحة الكاملة للطابع القاري للأمريكتين وقبل أن يستوعبوا حقيقة أنهم ربما يحتاجون إلى التخلي عن أساليب الإمبراطوريات التي نشأت بحريا من أجل تلك الدول الأرضية. في خلال ذلك الوقت، صنع هؤلاء نوعا جديدا من الحضارة الساحلية، حضارة امتدت حول حافة شمال الأطلنطي، والتي سكنتها شعوب ساحلية كانت لديهم صفات مشتركة بعضهم مع بعض أكثر مما كان لهم مع جيرانهم في الأراضي الداخلية النائية⁽²⁾.

إخوة البحار، «أرواح الحافة» *Souls of the Edge*

إن الخوف المبرر من الأضرار التي يسببها البحر قد دفع بالأوروبيين الشماليين إلى العيش بخفة على حافتهم من الأطلنطي. تعتبر السواحل أكثر العوامل الجغرافية غموضا وتقلبا. فمنذ زمن الأمواج المتقلبة العظيمة في نهاية آخر عصر جليدي، ارتفع البحر دوريا، بداية في مقتبل العصر الروماني ولاحقا مرتين خلال العصور الوسطى. خلال ثاني الفترات العديدة لارتفاع المياه خلال العصور الوسطى ما بين 1099 و 1570، أغرقت ثورات العواصف 286 مدينة وقرية في حوض بحر الشمال. ربما أفضل المدن المعروفة بتلك الحوادث هي دنويك على الساحل الأنجليني

Anglian شرق إنجلترا، كانت دنويك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميناء رئيسيا بتعداد ثلاثة آلاف من الناس، واشتهرت بتجارة الصوف وبكنائسها الثماني. ثم، بداية بعاصفة عظيمة في 1286، دمر ميناء المدينة حيث فقدت أحياء كاملة في البحر. بعدها ثارت عاصفتان تاليتان، واحدة في 1328 وأخرى في 1347، وثلثان دمرتا التأثير التجاري لدنويك ولكن لم تمرا ميزاتهما السياسية. وإلى أن جرى إبطال هذه الميزات بقانون الإصلاح لسنة 1832، كانت المدينة ذات شهرة لاذعة كونها «إدارة فاسدة»، حيث أرسلت عضوين من برلمانها إلى ويستمنستر. اليوم دنويك هي قرية بتعداد ثلاثمائة من البشر، والذين لايزالون يخسرون في مواجهة بحر الشمال. في كل مكان خلال العصور الوسطى كانت العواصف تحصد الأرواح كما كانت تحصد الأراضي. في الحادثة التي يسميها الهولنديون Grote Mandrenke، وهي حادثة الغرق العظيم في 1362، جُرف ما بين أحد عشر ألفا وثلثين ألف إنسان⁽³⁾. لم تكن هي المياه وحدها التي أغرقت الأرض، حيث إن العاصفة الرملية التي وقعت في حدود 2500 ق.م. لربما تكون قد تسببت في هجر القرية الأوركيديّة الرائعة للعصر الحجري الحديث والواقعة على سفح سكارا على حافة خليج سكيل، وذلك بعد ما يزيد على ستمائة سنة من الاستيطان. في شمال يوتلاند، بالقرب من مدينة المصيف الدنماركية سكاغين، توجد مدينة بها كنيسة، والمعروفة محليا باسم الكنيسة المدفونة، قد بنيت، بشكل غير متوقع، فوق المرتفعات الرملية. بنيت هذه المدينة في نحو 1400 لكنها هُجرت في 1591، وذلك عندما تسبب مزيج من عملية إزالة الغابات والرعي الجائر، والذدان تزامنا مع رياح عنيفة، في غمر سكاغين القديمة بالرمال. لقد عانت القرية الأستكتلندية كولبن المصير نفسه عندما مارس صناع الأسطح القشبية الحصاد الجائر لقصب الرمال والذي كان يدعم التلال المحلية في أماكنها. في أواخر سنوات 1840 كان لا بد من الحفر لاستخراج كنيسة على ساحل كورنيش بعد هبوب عاصفة. من هولندا حتى سواحل البلطيق، العديد من القرى ترقد أسفل ما يبدو اليوم لمحيي الشمس وللسابحين على أنها مجرد طبيعة مسالمة تماما⁽⁴⁾.

حتى عندما كانت السواحل تتمدّد وتتقلص مع ارتفاع وانخفاض مناسب مياه البحر، تأقلمت الشعوب الساحلية وذلك بالتحرك إلى داخل اليابسة وباتجاه الساحل. وجد الأوروبيون الشماليون أن التراجع عن البحر أسهل بكثير مما وجدته

شعوب البحر المتوسط كون هذا البحر محاطا بالجبال والصحارى. إن نقاط تحول الأمطار المتسعة والمائلة برقة في شمال غرب أوروبا قد وفرت طرقا للوصول إلى مناطق داخلية شاسعة والتي يمكن اجتيازها بقوارب رقيقة القاعدة حاملة تجارتها لمسافات بعيدة أعلى الأنهار وخلال البحيرات. لقد أحسنت شعوب المتوسط استغلال أرخبيلاتها، فيما كان للأوروبيين الشماليين ميزة الأرض الرطبة المتسعة المكونة من الأنهار والبحيرات. لقد زرع هؤلاء واصطادوا السمك، بنوا المستعمرات ومراكز التجارة، بيد أنهم كانوا دوما مستعدين للانتقال عندما كانت تهددهم المياه. كانت المياه هي حبل النجاة لجنس الحافة هذا. لقد تعلموا كيف يتكيفون مع الفيضانات الساحلية والتي أنعشت مروجهم، حيث وفرت ملاذا للطيور الباحثة عن الطعام والأسماك، كما جددت من مخزون الطحالب التي اعتمد عليها الناس كوقود. لقد جرى توثيق مدى الفيضانات في منطقة جنوب غرب إنجلترا والمعروفة باسم مستويات سمرست، في أسماء أماكنها الجافة، جزيرة آفالون (غلاستونبري) وجزيرة آثيني، والتي هي اليوم محاطة تماما بالأراضي غير أنها كانت غالبا محاطة بالمياه خلال العصور الوسطى في الفينلاند الواقعة^(*) على الساحل الشرقي، جزيرة إيلي (جزيرة إيلز) كانت جزيرة فعلية حتى القرن السابع عشر، وذلك عندما جفت الأراضي الرطبة أخيرا.

لقد وفرت المياه كذلك سبيلا إلى الداخل العميق، للتجارة، وعليه، سبيلا إلى ثراء غير متوافر على الساحل بحد ذاته. لقد اعتمدت الحياة على إبقاء الأنهار والممرات المائية مفتوحة، فعندما كانت تلك تسد بالطمي، كان يجري بناء القنوات. كانت المدن غالبا دوما ما تقع على الأنهار أو مصبات الأنهار، وكثيرا ما تتكون على الجزر التي توفر سبلا للمياه على كل جوانبها. وبينما كانت هذه المدن تكبر في حجمها، كان يجري حفر القنوات لتسهيل الوصول إلى مراكز هذه المدن. كانت فينيسيا، أمستردام وستوكهولم كلها أرخبيلات بطبيعة تصميمها، حيث ملئت بالقنوات بجهود سكانها. لقد جرب الجميع مخاطر الفيضانات بيد أنهم كذلك تقبلوا البحر، وهي الممارسة التي ستهملها مدن الموانئ اللاحقة ذات الاتصال الأقوى بالأراضي الداخلية النائية⁽⁵⁾.

(*) Fenlands أو Fens: إقليم مستنقعات طبيعي شرقي إنجلترا، تعرضت أغلب بقاعه للجفاف. [المحرر].

لطالما كانت أفضل وسائل الدفاع هي التراجع. فمنذ 500 ق.م، تعلم سكان الأراضي المنخفضة والمركزون على طول بحر الشمال كيف يحافظون على جفاف مناطقهم عن طريق بناء التلال الصغيرة التي كانوا يسمونها terps أو wieden. لقد بدأ البناء الجاد للخنادق فقط في القرن الثالث عشر، وذلك بوجود طواحين هوائية لتسحب المياه القادمة بعد ذلك بمائتي سنة. بالنسبة إلى هؤلاء البشر من القرن السادس عشر والذين استقروا في ما يعرف اليوم باسم هولندا، كان يبدو أن البحر «لا ينام لا في الليل ولا في النهار، ولكنه يهجم بوحشية مثل أسد يلتهم الأرض بأكملها». غير أن جهود خندقة الأرض وتجفيفها من المياه كانت بالخطورة العظيمة نفسها على الأرض كما هي خطورة البحر في حد ذاته. إن إزالة المياه تسببت في انكماش وانحسار الأرض الخصبة، ما تسبب في مزيد من الفيضانات. وبينما تمدنت هولندا خلال أواخر القرون الوسطى، جرى تجفيف الأراضي الرطبة الأقرب إلى المدن، مما تطلب مزيدا من الجهود الهرقلية لوضع البحر تحت السيطرة⁽⁶⁾.

الكنيسة المغمورة،
سكاغين، الدمارك،
هُجرت في 1775.
الصورة من
(ويكيبيديا).



انتشرت تكنولوجيا تصريف المياه تدريجيا في أرجاء أوروبا وأخيرا وصلت إلى العالم الجديد. لقد شكل الساحل الإنجليزي المقابل لهولندا أرضا رطبة أخرى، Fens أو أراضي مستنقعية، تلك التي سكنها الصيادون الرحل منذ العصر الحجري، والذين كانوا شعبا بحريا لا يرغب في أن تكون لديه أي علاقة بعمليات تصريف المياه التي كانت ستدمر بيئتهم الانتقالية الثمينة.

لقد اكتسب هؤلاء الناس سمعة كونهم «نمور المستنقعات»، حيث يقال إنهم كانوا يسرون على ركائز طويلة بينما «يركزون تفكيرهم على رعي الماشية، وصيد السمك، وتربية الطيور الداجنة». كان هؤلاء مختلفين كثيرا عن الآخرين المعروفين بصفة رجال المناطق العليا والمزارعين الداخليين والذين كانوا يعتبرونهم «نوعا من البشر متوافقين مع طبيعة المكان الذي يقيمون فيه، وقحين، غير متحضرين، حقودين». كان أصحاب الأراضي المستأجرة abseetee landlords^(*) ينظرون إلى الأراضي المغمورة على أنها «عديمة القيمة تماما» حيث كانوا يسرعون إلى تجفيفها. بحلول الثلاثينيات من القرن السابع عشر كان هؤلاء مستعدين لجلب مهندسين هولنديين لمساعدتهم فيما وُصف بـ «المغامرات». في خلال عملية التصريف والتطويق هذه، هجر هذا المشروع سكان هذه الأراضي المستنقعية، والذين كانوا يعتبرون المستنقعات أرضا مشاعا عظيمة، والتي كان لهم فيها حقوق استخدام بحكم مرور الوقت. اتجه هؤلاء المهجرون إلى المحاكم، غير أنهم كذلك في 1641 «تسلحوا، وبأسلوب فوضوي، عثروا على المغامرین، حطموا فتحات تصريف المياه، دمروا أراضيهم، أسقطوا أسيجتهم، أتلفوا محاصيل الذرة، هدموا بيوتهم، ثم وبالقوة استعادوا ملكية الأرض». لقد كانوا عدائين خصوصا تجاه المهندسين الهولنديين، غير أنه يبدو واضحا من أغانيهم الاحتجاجية أن هؤلاء سكان الأراضي المنخفضة قد شعروا بأن نمط حياتهم بأكملها أصبح مهددا من قبل رجال الأراضي العليا⁽⁷⁾.

تعالوا، يا إخوة البحر، ودعونا جميعا نحتشد.

لنتداول هذا الموضوع، الذي جعلنا نرتعش ونرتجف:

فكم سنتحسر، إذا ما حدث حقيقة أن سقطت الفينز Fens،

وحيث نعيش نحن على المستنقعات وعلى أعواد القصب، سيعيشون

هم على لحم العجل ولحم الخنزير.

(*) إشارة إلى أصحاب الأراضي الذين يؤجرون أملاكهم من دون أن يعيشوا عليها. [الترجمة].

الجهات البحرية للأطلنطي لبيدات العصر الحديث

لقد نهضت جماعات بأكملها ضد هؤلاء المطوقين، «حشد من النساء والرجال، مسلحين بالمناجل والمناسف، قاذفين بكلمات تهديد ضد أي شخص يحاول أن يقودهم خارج مستنقعاتهم». وباسم التطور الزراعي، كان المغامرون في مهمة ترويض ليس فقط قوى الطبيعة ولكن ترويض هؤلاء السائرين على الركائز الطويلة أيضا، والذين اعتبروهم أفضل بقليل من البرابرة الوثنيين⁽⁸⁾.

أنا أغني لكبت الفيضانات وترويض المحيط
الأنهار الغنية مسيطر ومستحوذ عليها
المياه بضافها أسيرة كأنها حبيسة سجن
حتى تسمح لها قنوات تصريف المياه الحنونة بأن تتحرر.

سيكون هناك تغيير في الرجال وفي مواقفهم،
قلوب جامدة وقاسية مثل قلوب الهايد Hydes، ستغذى على الندم
و«أرواح الحافة» ستعي الحوار،
أياد جديدة ستتعلم أن تعمل، وستنسى أن تسرق،
سيقان جديدة ستذهب إلى الكنيسة، وركب جديدة ستركع.

ليس من المستغرب أن يكون العديد من الفنلاندرين جمهوريين وذلك خلال الحرب الأهلية الإنجليزية. كانت للشعوب الساحلية ولزمن طويل سمعة على أنهم فوق قوانين الرب مثلما هم فوق قوانين البشر. وبعد مائة سنة لاحقة كانت المستنقعات لاتزال تعتبر من قبل الإصلاح الزراعي العظيم آرثر يونغ «بلدا شديد الوحشية [حتى] إنها ترعى جنسا من الناس متوحشين كتوحش المستنقع، وهناك باتت أخلاق الجموع وصلاحهم مهددة ومدمرة بسبب النقص في التطويق». حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت هذه الشعوب الساحلية سيئة السمعة بسبب جموحهم، ومجموعة «أرواح الحافة» كان لا يزال يعتقد أنها خارج نطاق حيز الحضارات⁽⁹⁾.

مواجهة الأطلنطي

في البداية، اعتمد الأوروبيون إستراتيجية دفاع عميقة لحماية أنفسهم من البحر ومن الأعداء الذين قد يقدمون عبر البحر. لقد عين الأوروبيون موانئهم عميقا

على اليابسة، حيث مواقع المياه العذبة عوضا عن المياه المالحة. في أوائل العصور الوسطى، كانت أهم نقاط التبادل التجاري، entrepot، في السويد هي سيغوتونا، الآن هي مدينة صغيرة مطوقة بالأراضي غرب أستوكهولم. بموقعها الداخلي على بحيرة مالارين، وفرت هذه المدينة منفذا لكل من بحر البلطيق وللداخل، ما جعلها مركزا ملكيا وتجاريا من 1000 إلى 1300. بعدها أفسحت المدينة المجال لاستوكهولم، وهي عبارة عن تجمع لجزر البلطيق والتي لم تكن مذكورة حتى في السجلات التاريخية إلى 1252. بحلول القرن الرابع عشر بدأت سمعة سيغوتونا في الخفوت، حيث أصبحت على ما هي عليه اليوم، مدينة سياحية صغيرة من دون أهمية تجارية كبيرة. على رغم ذلك، استمر الربط بين الموانئ والمواقع النهرية العليا، وذلك حتى بداية العصر الحديث. في العالم الجديد كما القديم، تقع مبدئيا المواقع التجارية في أعلى الأنهار ضد التيار، عادة على fall line أو «خط الانحدار»، حيث تلتقي مقاطعات الأراضي المرتفعة بالسهول الساحلية. تحولت هذه إلى موانئ، بعضها مثل ألباني، نيويورك، وريتشموند في فيرجينيا تقع بعيدا أعلى الأنهار. التيارات المائية القوية والشلالات أعاقت حركة المرور في النهر لعدم إمكانية تجاوز هذه التيارات والشلالات غير أنها وفرت مواقع مثالية للطواحين والمشاريع الصناعية. في حالة نيو هامبشير، كانت مدن الطواحين على خط الانحدار مثل درهام وإكسيتير في البداية أكثر أهمية من بورتسموث الواقعة على البحر. في كاليفورنيا، تقع موانئ ساكرامنتو وستوكتون عميقا في الداخل، والتي هي بأهمية سان فرانسيسكو نفسها في الأيام الأولى لحمى الذهب.

إن الحركة باتجاه البحر كانت عملية طويلة ومعقدة، غير أننا نستطيع استبيان بدايتها في أواخر القرون الوسطى، عندما كانت نقاط التبادل التجاري في كل مكان تتجه ناحية الساحل نتيجة ملء الأنهار بالسدود والركائز، وعليه عدم قدرة المراكب العائمة الأكبر حجما على الوصول عميقا إلى الداخل. لقد تخلت كل من يورك وبيريس وغنت عن مكانتها كموانئ لتصبح مراكز تجارية مغلقة أرضيا. وكما رأينا، ارتبطت الأسواق ولفترات طويلة بالحواف وخصوصا بالسواحل، والتي كانت تعتبر أماكن محايدة حيث يمكن للتبادل التجاري أن يحدث بحرية. ومنذ القرن الثالث عشر فصاعدا نشأت في البداية تجارة شمالية تضليلية ليس في الموانئ ولكن على ساحل

الجبهات البحرية للأطلنطي لبدابات العصر الحديث

فالسرترو، والتي هي اليوم جزء من المقاطعة السويدية الجنوبية في سكانيا. وكونه جزءا من مقاطعة الملك الدنماركي، كان هذا الشاطئ مفتوحا للتجار الغرباء والذين كانوا يأتون في الربيع والخريف، حيث يرسون عبر الساحل ولكنهم ينشئون قرى مؤقتة تسمى *fitten* حيث يستطيعون إدارة أعمالهم. في قمة شهرته، جذبت الكيلومترات السبعة من شاطئ فالسترو ممثلين عن 35 مدينة وشركة تجارية، بالإضافة إلى حشد من الممولين، الاستعراضيين، والمومسات. خلال ذلك الوقت كانت فالسترو، مثل مواقع الأسواق الأرضية، مكانا مهجورا، ليس بها سوى قرى لتشير إلى أهميتها بالنسبة إلى تجارة السمك العالمية⁽¹⁰⁾.

مع مرور الوقت، تراجعت نقاط التبادل التجاري مثل ضفة فالسترو لمصلحة مناطق التجارة الأكثر ديمومة. مبدئيا خارج أسوار المدن، أصبحت هذه المناطق مدنا موانئية بنى تحتية دائمة، مرافئ عميقة محمية بحواجز للأمواج، خطوط ساحلية ذات منشآت خدماتية، مستودعات، ومدن للبحارة. وحيث إن الموانئ أصبحت تنسب إلى حافة البحر، أفسحت إستراتيجية التراجع القديمة المجال لمصلحة وضع أحدث وأكثر جسارة، فقد بنيت موانئ جديدة وقُذفت المرفئ إلى الخارج. بحلول القرن السادس عشر لم تعد حافة أوروبا الأطلنطية نهاية العالم القديم بل بداية عالم جديد والذي بدأ يطوق الأطلنطي وما بعده⁽¹¹⁾.

ومع ذلك، ظلت أوروبا أكثر خوفا من البحر منها سفرا فيه، فقد استمرت ساحلية بعناد شديد. في أواخر القرون الوسطى تكثفت التجارة الساحلية الأوروبية. وبالأسلوب نفسه، بدأ نشاط الصيد، الذي كان حتى أواخر القرون الوسطى مهمة محصورة في المياه العذبة كليا تقريبا، يرتحل باتجاه الساحل. مرة أخرى، عملت التغييرات في الأرض، خصوصا بناء الطواحين، والتي أتت مرفقة بعملية تثبيت الركائز الناتجة عن عملية إزالة الأشجار، وتلوث المياه الناتج عن مخلفات البشر والحيوانات، عملت هذه التغييرات على تغيير البيئة حتى إن الأوروبيين بدأوا في الابتعاد عن المياه العذبة واللجوء إلى المياه المالحة سعيا خلف مؤونة السمك الذي أصبح خلال القرون الوسطى جزءا رئيسيا من النظام الغذائي المطلوب من الكاثوليك الملتزمين دينيا. بدأ السكان الذين كانوا يستعيدون صحتهم بعد زيارة وباء الموت الأسود خلال القرن الرابع عشر مجددا في انتهاك الأراضي الرطبة الساحلية. حارب الصيادون الرحل

الذين سكنوا هذه الأراضي الرطبة ألفية كاملة ضد عمليات التجفيف والتطويق، بيد أنهم أصبحوا يواجّهون بمؤسسات كنسية وملكية متزايدة القوى.

إن تآكل حقوق عامة الناس في الصيد والجمع له تاريخ طويل. فإلى تاريخ فتوحات النورمنديين في 1066، كان للشعب الإنجليزي منفذ لكل المياه المدية^(*). عندما حرم الملوك النورمنديون الناس من ذلك، حيث كانوا هم من يقدمون تراخيص للصيادين، بدأ صراع قاد إلى إلغاء امتيازات العرش في الماجنا كارتا، أو الوثيقة العظمى، لسنة 1215. وهكذا كان للشعوب الساحلية انتصارها، غير أن حقوقهم كانت محددة بالسّمك السابح ولا تمتد إلى بقية القشريات. في القرون التالية، استمر ملاك الأراضي الأقوياء في التعدي على حقوق الاستخدام المتعارف عليها، متسبين في قيام مقاومة ثابتة من قبل شعوب السواحل والأنهار⁽¹²⁾.

بحلول العام 1500 أصبحت السواحل والأراضي الداخلية متباينة بشكل حاد، ليس فقط اقتصاديا ولكن كذلك اجتماعيا وسياسيا. أصبح الداخل بحلول ذلك الوقت إقطاعيا تماما، تسيطر عليه مملكات وأرستقراطيات مالكة للأراضي ذات قوى متزايدة، يحكم تجارتها تجار مديون متحمسون لاحتكار التجارة التي كانت سابقا تحدث عن طريق الشعوب الساحلية من دون قيد أو ضريبة. لكن، وكما رفضت الأرض أن يتلعبها البحر، لم يستسلم البحر بسهولة للأرض. كان الساحل مستقلا بشكل كبير ليس فقط عن سيطرة الأرستقراطيين والملكيين ولكن كذلك عن النقابات والمؤسسات المدنية. أصبح الأوروبيون الساحليون بحلول ذلك الوقت ما أسماه باري كنليف «أخوية علمية»، والتي هي نتاج ألف سنة من النشاط الحر للتجارة والشعوب على طول الساحل. لقد قوبلت جهود اللوردات الداخليين لإعادة تعريف التجارة الحرة على أنها تهريب، بمقاومة من مجموعة «أرواح الحافة». لقد استمروا في العمل من مرافئ صغيرة وعادة ما تكون مؤقتة، حيث وُجد العديد منهم على جزر احتفظت بمكانتها خارج نطاق الدولة وباستقلالها. لقد جرى توصيف الساحل خلال أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة بشكل مستحق على أنه «منطقة للانتقال أو التحويل، جبهة «مفتوحة» على العالم العريض، منظمة ومسيطر عليها بشكل أقل بكثير من الإقطاعيات المملوكة أو المناطق المركزية للدولة العسكرية البيروقراطية⁽¹³⁾».

(*) Tidal waters: مياه فيها نشاط المد والجزر. [المترجمة].

الإسك بالدفة والمحرث: صعود أول نموذج اقتصاد بحري

تتجه نرعتنا الحالية إلى رسم خط حد بين الأرض والبحر، غير أن مثل هذا التمييز يشوه الماضي بشكل كلي، خاصة زمن بداية العصر الحديت، عندما كان معظم صيادي السمك مزارعين حيث لهم، كما يقول السويديون «فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل». يقال إن الأوركيديانين كانوا مزارعين يصيدون السمك، في حين أنه على جزر الشتلاند كان المزارعون معروفين بأنهم «صيادو سمك في أيديهم محرث». أصبح المزارعون الداخليون أصحاب سوق ومتخصصين بشكل متزايد، غير أن هؤلاء المقيمين على الساحل خلطوا المواقع، فجمعوا بين صيد السمك وجمع النباتات والبستنة، مستغلين المدى المتكامل من الموارد التي تقدمها بيئة الساحل الانتقالية. خلال العصور الوسطى شجع اللوردات الإقطاعيون مستأجريهم على مباشرة أنشطة بحرية وذلك عن طريق المطالبة بالإيجار من السمك نفسه أو من النقود المحصلة من صيد السمك. دفعت الكنيسة كذلك بملك المزارع الصغيرة في اتجاه البحر وذلك بمطابقتها بضريبة العشر من المصدر نفسه. غير أن الفلاحين المعنيين نادرا ما كانوا يعيشون على الساحل بحد ذاته، فقد كانوا يأتون البحر موسميا فقط. على السواحل الجنوبية لديفون، احتفظوا بما كان يسمى «الأقبية» حيث كانوا يخزنون قواربهم ومعداتهم، مستمرين حتى القرن الخامس عشر في العيش على الأراضي الداخلية، حيث كانوا يشعرون بأنهم في مأمن من كل من العواصف وأنشطة القرصنة⁽¹⁴⁾.

حتى أواخر العصور الوسطى في إنجلترا، «معظم صيد السمك كان لا يزال وبقوة في يد المزارعين الذين كانوا يصطادون بشكل متقطع من دون تفرغ تام». شارك النساء كما الرجال في سلسلة من الأنشطة التي كانت متغيرة بحسب الموسم والموقع. أفضل مقارنة لهذا الاقتصاد المرن هي مع أول نموذج صناعي أرضي والذي ظهر في العصر نفسه. في هذا الوقت كانت الزراعة مدمجة مع الحرفة وعملية إنتاج الموارد، التعدين، النسج، الحدادة، الدباغة، والتي جميعها كانت تحدث في إطار المساكن وليس المصانع، حيث عادة ما يشترك كل أفراد العائلة فيها، النساء كما الرجال، الأطفال والبالغون. كان ما قد يسمى *protomarine economy* أو أول نموذج بحري للاقتصاد ينشأ حول حافة شمال الأطلنطي. ومثل تطور أول نموذج

صناعي، كان النموذج البحري شديد اللامركزية، حيث يحدث خارج المدن والموانئ الرئيسية، منظما عن طريق عامة الناس سعيا خلف حياة أفضل من تلك التي كانوا يحيونها كفلاحين يعملون في الأرض حصريا من دون غيرها⁽¹⁵⁾.

كان الساحل نوعا من الواجهات، أقل تنظيما من الداخل حيث يزود الناس بدرجات أعلى من الحرية لاستكشاف فرص جديدة. فإذا ما كان الساحل خلال عصور أقدم قد امتد عميقا على اليابسة، فإنه الآن يتجه ناحية البحر، مطوقا الجزر القريبة منه. في القرن الخامس عشر بدأ البرتغاليون بإدارة ظهورهم للداخل الأيبيري، متجهين لاستكشاف ساحل أفريقيا وكذلك، من خلال هذه العملية، لاكتشاف، وعن طريق المصادفة جزر ماديريا والأزور. استدار كذلك شعب الباسك، البريتون، والإنجليز باتجاه البحر، ليس بحثا عن جزر جديدة بل للعثور على مؤن جديدة من السمك للسوق الأرضي المنتعش. من الملاحظ أنه لم يكن إغراء البحر كثيرا ولكن دفع اليابسة الذي ابتداء هذا التحول الجذري. ما كان آخذا في البزوغ لم يكن مجتمعا بحريا بقدر ما كان جنس حافة حيويا وخلاقا، وهو جنس كان على وشك أن يتخذ من كل أرجاء حافة شمال الأطلنطي موطننا له.

وبحلول أواخر العصور الوسطى تركز الفلاحون الفقراء على طول السواحل. فالنمو السكاني في القرنين السادس عشر والسابع عشر طرد الكثيرين من الداخل. لاحقا، سيدفع التطويق والتصفيات بمزيد من هؤلاء إلى الانتقال إلى السواحل وإلى حيث أول نموذج اقتصاد بحري. استأجر الفقراء أو احتلوا أجزاء صغيرة من الأراضي حيث كانوا من الذين لا يستطيعون توفير سبل العيش لأنفسهم. في الأراضي الداخلية، اتجه الفقراء المستنزفون ملاك المزارع الصغيرة إلى أنشطة متعلقة بأول نموذج صناعي ليتمكنوا من الاستمرار في الحياة. على الساحل، اتجه الفقراء إلى البحر ليتمكنوا من إنعاش الأرض. ارتفعت أعداد هؤلاء كما تزايدت كثافة المستوطنات الساحلية، حيث حلت مجتمعات صيد السمك المقيمة محل المواقع المؤقتة القديمة، لكن ليس بالأسلوب الذي يمكن أن نتخيله. هذه الكثافة العددية على الساحل لم تأت بالضرورة بهذا النوع من قرى صيد السمك المترابطة والتي تشكل إرثا للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقبل ذلك كان هناك غمط من

المستوطنات الموزعة عشوائيا والذي كان مستمرا. على مواقع عديدة على الساحل الأطلنطي «لا يوجد قرى. كل صياد يعيش في منزله منفصلا. فالحياة الجماعية لا تمتد لأبعد من العائلة»⁽¹⁶⁾.

توزع صيادو السمك المزارعون أفقيا على طول الساحل، حيث تمركزوا حول قطع الأرض التي يسهل الوصول منها إلى القوارب الصغيرة بدلا من التمرکز حول الموانئ عميقة المياه والضرورية للسفن الأكثر ضخامة. لم تبرز القرية المتخصصة في صيد السمك حتى القرن الثامن عشر، عندما بدأ التمييز بين صيد السمك والزراعة أخيرا وعندما انشقت الأرض عن البحر. يجب فهم الموانئ القديمة على أنها أماكن «تغيير، تقلبات، وكل ما هو غير متوقع، [حيث] إنها على نمط ما بنيت عليه». لاحقا، برزت أسطورة قوم من صيادي السمك كشعب ذي جذور مميزة، كجزء من عرق، برزت لتعزل التاريخ السابق لأول نموذج بحري لجنس الحافة والذي استغل كلا جانبي خط المد. إن أحد أفضل توصيفات مثل هذا الشعب تأتي إلينا من تقرير تمييزي متعال حول شعب الثانيت، وهو مجتمع الثامسايد الواقع أسفل النهر من لندن، والذين وصفهم التقرير بأنهم «حيوانات برمائية، والذين يوفرون احتياجاتهم الحياتية من البحر والأرض... ماهرين في حمل كل من الدفة والمحراث، وذلك بحسب مواسم السنة»⁽¹⁷⁾.

لقد برزت أسطورة قوم الصيادين المنعزلين بالتزامن مع أسطورة البحارة المحترفين، والتي هي نتاج بروز توجه رومانسي تجاه البحر بدا ظاهرا خلال القرن الثامن عشر ولكن برز بكل قوته خلال القرن التاسع عشر. نحن نميل إلى أن نبالغ في تقدير نسبة البحارة المتفرغين في أوائل زمن العالم الحديث. فلطالما كان الإبحار عملا جانبيا، يتولاه الرجال موسميا (وأحيانا النساء) والذين كانوا مرتبطين بالأرض بقوة، وذلك كمرحلة من الحياة وليست كمسعى مستمر مدى الحياة. وعندما جرى تبني الصيد البحري التجاري كعمل تفرغي كان هذا العمل، بدافع من الحاجة، من نصيب أفقر الفقراء، الشباب غير المتزوجين أو الذين لا يملكون أراضي، والذين ليست لهم مزرعة أو حرفة للاعتماد عليها والذين اعتمدت قدرتهم على تكوين بيت أو أسرة خاصة بهم على قضاء سنوات من الخدمة العازبة أو تحت عقد ملزم إما انتظارا لإرث ما وإما توفيرا لشراء مسكن وأرض من حوله⁽¹⁸⁾.

لم يكن هؤلاء الذين يصيدون السمك مطلقا بجنس منفصل ولكن كانوا طاقما متنوعا، ليس بأي شكل من الأشكال متوافقا مع القالب التقليدي للبحار والذي استحضره كتاب الرواية للقرن التاسع عشر إلى الوجود. إنه خطأ في استعادة الماضي عندما يجري وصف الصيادين بأنهم «تقليديون»، إما كونهم أقرب إلى الطبيعة وإما بقية باقية من ثقافة قديمة، ففي الواقع، المجتمعات الساحلية كانت أكثر حيوية من الكثير من جيرانها سكان الأراضي الداخلية. إن أقوام الصيادين، وهم أبعد ما يكونون عن كونهم تقليديين في عاداتهم ونظرتهم إلى الحياة، كانوا نتاج تغييرات على الأرض والتي لم تعط للمحرومين من ملاك المزارع الصغيرة اختيارا سوى «إما صيد السمك وإما الموت جوعا». لاحقا، راقَت الصورة المريحة لقرية الصيد الناشئة كنقطة ثابتة في عالم متغير باستمرار لأوروبي وأمريكي القرن التاسع عشر والذين كانوا يَمرون بتجربة التمدن والتصنيع الموجهتين، غير أن الأسطورة أخفت حقيقة أن تكاثر قرى صيد السمك كان يوعز بشكل كبير إلى المجموعة نفسها من المتغيرات التي كانت تخلق حاجة ضخمة إلى السمك بين أقوام المدن. تعمقا في القرن التاسع عشر، سبقت كامل الحافة لشمال الأطلنطي أول نموذج بحري، عالم متشرد من المجتمعات الساحلية الصغيرة المنعزلة (outports) والتي سبقت لسكانها فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل⁽¹⁹⁾.

سوق السمك المتجول

ما الذي تسبب إذن في إبعاد الأوروبيين عن الساحل من دون إزالتهم تماما من الأراضي الداخلية؟ المفارقة أن ما كان يحدث ليس في البحر بل على الأرض، تحديدا الكارثة البيئية، هي التي غيرت العلاقة بين الأرض والماء خلال العصور الوسطى المتقدمة، بداية على الأرض ومن ثم على السواحل في حد ذاتها. في بداية العصور الوسطى كان الداخل الأوروبي لايزال مثقلا بالغابات، حيث جداولها «كانت تجري صافية، منعشة، ومستقرة». وعلى ما يبدو كان هناك سمك مياه عذبة كاف ليشبع الاحتياجات المعيشية وحتى لتحمل القليل من الصيد الترفيهي. وفرت ضفاف الأنهار وسواحل البحيرات حواف استثنائية الخصوبة. عندما سأل رئيس دير إنجليزي صياد سمك محليا لم كلف نفسه الصيد في البحر، أجاب الأخير: «أحيانا أفعل، ولكن نادرا، لأنني أحتاج إلى الكثير من التجديف للوصول إلى البحر»⁽²⁰⁾.

لقد كانت البداية في القرن العاشر أن تسبب النمو السكاني في التصحر الشديد. كانت الأراضي الزراعية أقل قدرة على تحمل تدفق الأمطار، ما أدى إلى حدوث فيضانات محلية وعملية تعرية للأرض. بدأت الأنهار تمتلئ بالطمي والرواسب، فَبَطأت حركتها وأصبحت أكثر دفئا. تأثر سمك السلمون بشكل خاص. في بعض الحالات، سُدت منافذ البحر، ما أعاق دورات التبويض للسمك المهاجر للمياه العذبة. وما كان أشد ضرا هو السدود التي تناثرت على المجاري المائية الأوروبية والتي وضعها ملاك الطواحين والمشاريع الصناعية الصغيرة وذلك لاستغلال الطاقة المائية. كان التهديد لدورات تبويض سمك السلمون في أسكتلندا في غاية الخطورة لدرجة أن صدر تشريع في 1214 يأمر بفتح السدود دوريا للسماح للسمك بالمرور. يمكن العثور على عديد من التشريعات المماثلة في جميع أنحاء أوروبا، حيث تزايد القلق تجاه انخفاض معدل الصيد في الأراضي الداخلية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وبينما أصبح الداخل الأوروبي أكثر تمدنا، شكل التلوث، بسبب النفايات البشرية ونشاطات مثل الدباغة والصباغة، مخاطر إضافية بالنسبة إلى عملية صيد السمك، ليس فقط من أجل الاحتياجات المعيشية ولكن كذلك من أجل نمو سوق السمك التجاري في المدن الكبرى⁽²¹⁾.

حتى القرن الحادي عشر، لم يبدأ الصيادون الأوروبيون حتى في مس مصادر البحر، ما عدا تلك التي لاحتياجاتهم المعيشية على الساحل ذاته. لكن الآن انخفاض مخزون سمك المياه الداخلية مضافا إلى ذلك ارتفاع حاجة المدن إلى السمك قد غير كل ذلك. فمع الوصول إلى ذروة القرون الوسطى، كان منع الكنيسة لأكل اللحم والسمك الطازج خلال أيام معينة، أيام الجمعة، أيام القديسين، والأربعين يوما للصوص الكبير، يعني أنه كان يجري استبدال اللحم والسمك الطازج بالسمك المجفف لمدة تتراوح بين 130 و 150 يوما في السنة. وبينما أصبحت أوروبا أكثر غنى وأكثر تجارية، أصبح الناس أكثر اعتيادا على أكل السمك. كانت النتيجة ظهور أسواق السمك في المدينة، والتي لم يعد من الممكن تغطية احتياجاتها من صيد المياه العذبة. تكونت أشكال جديدة من الزراعة المائية حول برك الأسماك الممتلئة بسمك المياه الدافئة مثل سمك الشبوط عجزت بدورها عن تغطية الطلب المتزايد. عندها، ولأول مرة، طور الأوروبيون فكرة صيد السمك البحري التجاري، وذلك بدءا من أمام

الساحل النرويجي حيث جرى اختراع عملية تجفيف سمك القد على جزر لوفوتن. من هنا فلاحقا، أصبح سمك القد ما أسماه مارك كورلانسكي «تقريبا رمزا دينيا»⁽²²⁾. في القرن الحادي عشر، أصبحت مدينة برغن مركزا لتجارة القد المجفف، حيث كانت تزود معظم مناطق شمال أوروبا وإنجلترا. حطم التحالف الهانسي^(*) احتكار مدينة برغن بعد ذلك بقرنين لكنه فشل في منع الإنجليز من صيد السمك عبر سواحلهم. فمن الموانئ على ساحلهم الشمالي الشرقي، تحدى الإنجليز النرويجيون والهولنديون في بحر الشمال، مطلقين سلسلة من حروب سمك القد انطلاقا من أيسلندا ومناطق أخرى. تسببت هذه المنافسة بشأن مخزون سمك القد القريب من الشاطي والأخذ في التناقص، في الدفع بصيادي السمك الأوروبيين الشماليين، والذين كانوا سابقا ساحلين بشكل كبير وذوي تجربة محدودة في أعماق البحار، أبعد وأبعد عن الساحل. بدأ الصيادون المقيمون على السواحل الشمالية لإنجلترا وأسكتلندا بالتنقيب في شمال الأطلنطي عن مساحات سمكية جديدة. سرعان ما واجه هؤلاء منافسة من الهولنديين وكذلك من الإسكندنافيين، حيث انضم الأسطول الباسكي المرعب إلى هؤلاء من سنة 1540 فصاعدا⁽²³⁾.

بحلول نهاية القرن الخامس عشر، كانت القوارب بريستول تبحث عن السمك على مسافات أعمق باتجاه الغرب، وذلك ليس بهدف الاستكشاف أو الاستعمار بل كجزء من مشروع يدور حول فكرة السوق والذي أصبحت له الآن ديناميكية خاصة به. في العام 1497، استطاع جون كابوت أن يبلغ تجار بريستول بأنه شاهد ما أسماه New Found Land أو «الأرض المكتشفة حديثا». لم تكن الأرض في حد ذاتها بل السمك في البحر حولها هو ما أثار الأوروبيين بدرجة أكبر وسيستمر في إثارته على مدى القرنين التاليين. عندما شاهد ابن كابوت، سيباستيان، لإبرادور في العام 1508، أطلق عليها اسم Baccallaos أو باكالوس، حيث «وجد هو في البحر المجاور كميات عظيمة من نوع معين من السمك الكبير بالأطنان، يسميه المستوطنون باكالوس، حتى إنه أحيانا كان يسد الطريق على سفنه». ولمرة أخرى، عرف البحر اليابسة لهؤلاء الذين كانوا يعرفون كيف يعيشون على الاثنين بأسلوب جنس الحافة⁽²⁴⁾.

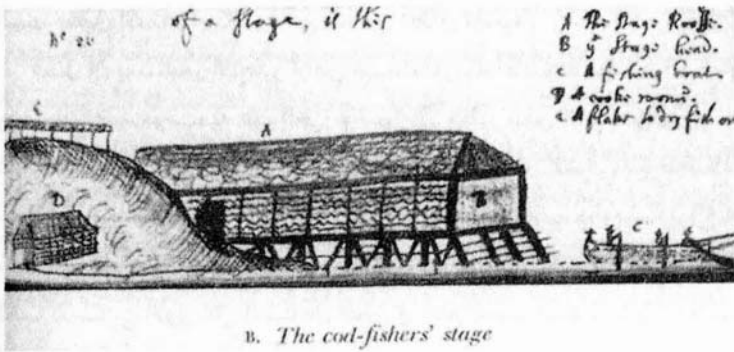
(*) Hanseatic League: نقابة كونفيدرالية للتجار. [المتجمة].

شكل شمال الأطلنطي ما أسماه جيفري بولستر one great bioregion أو منطقة بيولوجية عظيمة موحدة. إن تشابه المياه الباردة، والظروف الغذائية، والأجناس السمكية حول حافته سهلت على الأوروبيين تطبيق الأساليب التي تعلموها من على سواحلهم هم على بحار الشمال والغرب. كان صيد السمك الأوروبي في بداية العصر الحديث هو صيد مهاجر، له طبيعة موسمية، يختلف عن ممارسات الصيادين الرحل القديمة فقط في النطاق المتسع للتحركات التي يقومون بها. كانت مسارات الهجرة التي امتدت في زمن ما لعشرات أو على أكثر تقدير لمئات الأميال، قد امتدت الآن للآلاف منها. ولقد أصبح الزمن بعيدا عن الوطن، والذي كان يقاس بالأسابيع في زمن ما، أصبح الآن يقاس بالشهور، ولاحقا، في حالات صيد الحيات، بالسنوات. بيد أن عقلية الصيادين الرحل لهذا الزمن اللاحق كانت مشابهة لتلك التي لجنس الحافة في العصور المبكرة. كان هؤلاء يعملون في المجموعات الصغيرة نفسها، حيث كانوا يقاومون الانتظام مع أي مجموعات خارجية، ومستمرين في كونهم حاكمين لأنفسهم بشكل كبير. كونهم متناغمين مع حركة البحر وأحيائه، دوما على استعداد لتتبع الطرائد حيثما تقودهم، كان الصيادون المرتحلون يعملون على أساس مبدأ أن البحر مفتوح للجميع. بالنسبة إليهم، حقوق الاستخدام كانت تعني أكثر من حقوق الملكية⁽²⁵⁾.

قبل أن يستعمر الإنجليز أراضي شمال أمريكا، أسس هؤلاء لمراكز تجارة ومخيمات صيد موسمية على الجزر والسواحل. تغادر سفن الصيد موانئ ويست كنتري في الربيع مسرعة إلى أكثر الموانئ جاذبية على الساحل الشرقي لنيوفاوندلاند، حيث أول قبطان يصل سيكون هو «الأدميرال» المميز لهذا الموسم، وحيث يوزع هو ما كان يسمى «غرف» صيد السمك، ويسوي الخلافات بين أطقم الملاحنة المتنافسة. كانت الأسابيع الأولى على الساحل تقضى في صنع رصيف الميناء، ملاجئ خشبية خشنة المعيشة، والمنصات حيث يجفف عليها سمك القد. بعدها، يأخذ معظم الرجال القوارب الصغيرة لاصطياد سمك القد بطريقة handline أو بالخيط المفرد فيما يبقى البقية على الساحل «ليصنعوا السمك»، حيث يفتحونه، ويعالجونه، ثم يجففون الصيد. بحلول القرن الثامن عشر كان بعض الرجال يتكون خلفا ليحموا الغرف خلال الشتاء، بيد أن المستوطنات الدائمة لم تكن محبذة، ولم يحدث إلا في 1824 أن بدأ الناس بتمييز حقوق الملكية في المجال البحري⁽²⁶⁾.

تناوشت جماعة «أرواح الحافة» حول الموارد بيد أنهم أظهروا درجة رائعة من التعاون في مواجهة صيادين رحل آخرين على السواحل البعيدة. وبانتخابهم «أدميرال» ليشرّف على ميناء كل صيف، كان صيادو السمك الأوروبيون المرتحلون القادمون من أماكن مختلفة يسوون خلافاتهم من دون تدخل القوى الملكية. قام لويس روبرتس بتوصيف المشهد في العام 1638⁽²⁷⁾.

خمسائة سفينة كبيرة وصغيرة كانت تبحر من إنجلترا سنويا إلى هذا الساحل... حيث تصل هناك في حدود منتصف أبريل، يرسون سفنهم، ويقيمون أكشاكهم وكبائنهم على الساحل في خلجان وموانئ مختلفة، وهناك بوجود مؤن الصيد والملح، يبدأ هؤلاء الصيد من على قواربهم وسفنهم، مستمرين في ذلك إلى سبتمبر... وبانتهاء موسم الصيد هذا ومع بداية الجو البارد، يغادر هؤلاء مراكزهم وقواربهم، يصعدون سفنهم، يحملون أسماكهم، ينشرون أشرعة مراكبهم، ثم يعودون إلى مواطنهم الأصلية، حيث يقضي هؤلاء الصيادون الشتاء ثم يصبحون مزارعين، وعليه يمكن مقارنة حياتهم بحياة حيوان القندس، والتي يقضي نصفها على الأرض ونصفها الآخر في البحر.



منصات صيد في فيرلاندا، مرسومة في الموقع بيد الجراح الإنجليزي جيمس يونغ في القرن السابع عشر.

كانت معظم مراكز الصيد مبادرات خاصة، حيث لم تأتأ ادعاءات السيادة الملكية إلا لاحقا فقط، تقريبا كأنها فكرة تالية لتأسيسها. في أوقات ما اصطاد الإنجليز من على سواحل كانت اسميا تنتمي إلى فرنسا، فيما احتل

الأكاديون^(*) المتحدثون الفرنسية أراضي هي تحت السيادة البريطانية. كانت الأرض في حد ذاتها مثيرة للاهتمام، بيد أنها بالنسبة إلى الأشخاص الذين عاشوا حيواتهم «نصفها على الأرض ونصفها الآخر على البحر» انحصرت أهميتها في مدى توفرها منفذا إلى البحر. فكما يقول دونالد مينيغ: «كانت البحار غنية، الأراضي فقيرة. كان الدافع الرئيس إلى السيطرة على الأرض هو الحصول على أفضلية استغلال البحر». في نيوفاوندلاند وغاسبيه، كان الاهتمام بالداخل ضئيلا جدا، ينحصر في الاهتمام بالخشب لبناء غرف الصيد. لم يكن لدى صيادي الصيف أي وقت للزراعة حيث إنهم في البداية كانوا يحضرون مؤونة طعامهم معهم. لاحقا، عندما أصبح التجار أكثر ارتباطا بمشاريع صيد السمك، أدار هؤلاء نظام «شاحنة» حيث كان يجري تبادل السمك بالطعام والبضائع الأخرى التبادلية القادمة عبر البحار⁽²⁸⁾.

حتى عندما أصبحت المستوطنات الدائمة أكثر شيوعا خلال أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ظل الصيد نشاطا ارتحاليا، بيد أن القوارب كانت تغادر من سواحل نيوجنلاند والمقاطعات البحرية في كندا Maritimes الآن بدلا من إنجلترا. كان يجري إعلام المهاجرين البريطانيين إلى جزيرة الأمير إدوارد، في أواخر 1819، بأن «ميزة التمركز على الساحل البحري لا بد أن تكون واضحة، وذلك عند مقارنتها بالوضع المزري لهؤلاء الذين جرى خداعهم ليهجروا أراضيهم الأصلية من أجل الأراضي الداخلية في الولايات المتحدة». فعلى الساحل وعلى طول الأنهار كان لهم أن يتوقعوا أن يجدوا اليابسة وكذلك منفذا للصيد، وذلك بالإضافة إلى العلاقات مع شبكات التجارة والتي شملت نيوفاوندلاند وجزر الهند الغربية. فلا عجب أن القرى التي بدأت بالتجمع حول أرصفة المرافئ والموانئ الصغيرة قد أسميت outports أو «بوابات خروج»: كان اتصالهم الوحيد يحدث عبر الماء، حيث كانوا غالبا أكثر ارتباطا بالموانئ على السواحل البعيدة عن ارتباطهم بأي شيء على جانبهم من الأطلنطي⁽²⁹⁾. ولأنهم كانوا قادرين على الإبحار مباشرة إلى ضفاف صيد نيوفاوندلاند من بريتاني ونورماندي، سيطر الفرنسيون على مراكز صيد نيوفاوندلاند في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. كانوا يسعون نحو مركز صيد «مائي»، حيث

(*) الأكاديون Acadians هم سلالة مستعمرين فرنسيين احتلوا أكاديا، شرق الساحل الكندي، في القرن السابع عشر. [المترجمة].

يعالجون سمك القد بتمليحه وتخليله، غالبا من دون أن يلمسوا اليابسة مطلقا. كان الإنجليز سادة لمراكز الصيد «الجافة»، والتي كانت تتطلب مراكز صيد موسمي مجهزة بمنصات تجفيف والمعروفة باسم flakes أو منصات. بحلول العام 1590 كان الإنجليز يهجرون موانئهم الساحلية الشمالية الشرقية القديمة من أجل موانئ جديدة في ويست كونتري، والتي كانت توفر منفذا أسهل للصيد من نيوفاوندلاند. بمرور الوقت سيستطيع الإنجليز طرد الفرنسيين من نيوفاوندلاند ذاتها.

ونظرا إلى حقيقة أن سمك القد يُحفظ بشكل أفضل من أي جنس أسماك آخر في شمال الأطلسي، استمر هو في كونه الصيد الأعظم. كان الإسكندنافيون يمارسون صيد الحيتان منذ القرن التاسع، وفي ذروة القرون الوسطى كان الباسكيين يتخذون من الحيتان الضخمة right whale والحيتان الرمادية gray whale مصدرا للحوم والزيت وذلك على خليج غاسكونيا. وكما هي الحالة مع سمك القد، عندما استنزفت مراكز صيد السمك القريبة من الشاطئ، نقل هؤلاء عملهم بعيدا باتجاه الغرب، لينصبوا أنفسهم أخيرا على ساحل اللابرادور، مستغلين عادات الهجرة للحيتان مقوسة الرأس bowhead whales والحيتان الضخمة وذلك من خلال مضيق جزيرة بيل. كان صيد الحيتان، مثل صيد الأسماك، ارتحاليا وموسميا. كانت سفن صيد الحيتان الباسكية تغادر الساحل الأوروبي أواخر الربيع، حيث تؤسس لمراكز تنطلق منها مراكب صغيرة (chalupas) سعيا خلف الحيتان العابرة، حيث تعيدها إلى الموانئ مثل ذلك الذي في الخليج الأحمر Red Bay لكي يجري تحويلها إلى زيت في ما كان يسمى tryworks^(*).

ينقل عندها الزيت إلى براميل ضخمة على متن السفن المبحرة إلى أوروبا. واليوم يقدر أنه بحلول أوائل القرن السابع عشر، قُتل ما يقرب من عشرين ألف حوت، ما غير في أنماط هجراتها ورفع بالباسكيين ليوجهوا انتباههم إلى صيد سمك القد⁽³⁰⁾.

كما أصبح صيد الفقمه تجاريا في ذلك الوقت، وذلك مرة أخرى، بنتائج متوقعة للدفع بمستعمرات الفقمه لمغادرة السواحل، حيث كانوا يوجدون على مدى قرون، وذلك إلى الجليد القطبي، حيث، وإلى وقت قريب، كان يجري اصطيادها من أجل فرائها. سيلقي كذلك حيوان الألفظ، المرغوب بسبب عاج أنيابه، مصيرا مشابها. فما دام الصيادون الرحل القطبيون المحليون يصطادون هذه المخلوقات من أجل تأمين الغذاء، لم يكن هناك تساؤل بشأن بقائها، لكن أصبح صيد السمك واصطياد الحيوانات

(*) هي أهم أجزاء سفينة صيد الحيتان، حيث تحتوي على قدور ضخمة لإعادة تصنيع زيت الحوت. [الترجمة].

الجبهات البحرية للأطلنطي لبدايات العصر الحديث

تجاريا، ما أسماه كالوم روبرتس «أول كارثة صيد سمك في العالم»، ولم يكن في الإمكان إيقافهما. بكل تأكيد، كان دمار القرنين الخامس عشر والسادس عشر متواضعا مقارنة بالمستوى الصناعي لصيد السمك اليوم، بيد أنه جرى التأسيس لنمط وبعواقب لم يكن لأحد، وقتها، أن يتنبأ بها⁽³¹⁾.

إمبراطوريات على طول الساحل

إن التركيز المفرط على رحلات المستكشفين البارزين قد أعمانا عن ملاحظة طرق تشكيل حافة شمال الأطلنطي والتي حدثت عن طريق المخاطرات المنسية لمئات الآلاف من صيادي السمك المزارعين المجهولين، والذين لم تكن لديهم أي نية للاستقرار على الساحل البعيد مطلقا. فإذا ما كانت المستعمرات هي النتائج النهائي لهذه العملية، فإنها لم تكن مطلقا النية المبدئية لها. لقد أبحر كولومبوس بنوايا لم تخرج عن كونها تجارية. فمن الخطأ رسم خريطة تاريخ الاستعمار للقرنين السابع عشر والثامن عشر بناء على العصور السابقة. فكما كان الوضع مع الإمبراطوريات البحرية القديمة، كانت النية هي لتأسيس مناطق معزولة تجارية تسهل حمايتها وليست مستوطنات زراعية أرضية⁽³²⁾. وعلى غمط مشابه جدا لذلك الذي للإمبراطوريات البحرية، كانت الإمبراطوريات الأوروبية لبداية العصر الحديث متمركزة بحريا أكثر منها أرضيا. فعلى مدى ثلاثمائة سنة تحكمت هذه الإمبراطوريات في سلسلة من المحيطات وممرات الأنهار، والتي على طولها كانت هناك مناطق معزولة ذات مواقع إستراتيجية مواجهة للبحر عوضا عن المناطق الداخلية المطوقة. لقد كان الاكتشاف الأولي للعالم اكتشافا للبحر. «فغن طريق وسيلة نقل بحرية، جرى افتتاح أسواق متسعة لكل أنواع الصناعة عما كانت توفره وسيلة النقل الأرضية بمفردها»، كتب آدم سميث، «وعليه فإنه على ساحل البحر، وعلى طول ضفاف الأنهار الصالحة للملاحة، بدأت الصناعة بكل أنواعها بأن تتفرع وتطور من نفسها». جلب الأوروبيون معهم توقعات حضارة نهرية وساحلية. لقد ركزت الاستكشافات الأولية على مصبات الأنهار كبوابات والأنهار كممرات للداخل، وليست كمواقع للمستوطنات الدائمة⁽³³⁾.

لقد جلب الأوروبيون معهم كمية متناثرة من الآراء الجغرافية، والحقائق، والأساطير، والتجارب، بالإضافة إلى الأوهام التي أسماها جون كيرتلاند رايت geosophy

أو «الجيوصوفيا». فمنذ العصور القديمة كان هؤلاء يتخيلون العالم بمصطلحات معزولة، جزيرة أرضية عظيمة واحدة محاطة بالعديد من الجزر الصغيرة. لقد تخيل كولومبس نفسه قافزا من جزيرة إلى أخرى وصولا إلى شرق آسيا، ولقد كانت خيبة أمل كبيرة أن وجد عائقا أرضيا يسد طريقه. بيد أن الخيال لم يستسلم بسهولة للواقع، حيث استمر المستكشفون في البحث باتجاه خطوط العرض الشمالية للعثور على ممرات إلى الهند. لقد كانت الأجيال الأولى من الأوروبيين التي وضعت قدمها في العالم الجديد من الشعوب المائية، من سكان الجزر، الأنهار، والسواحل، كما أن الأمريكيين الأصليين الذين التقوا بهم في البداية كانوا كذلك جنس حافة، مشتركين معهم في كثير من الأفكار الجغرافلسفية، متخيلين أنفسهم على جزرهم الأرضية الخاصة بهم محاطين بالبحار المطوقة لهم. لقد اعتقد مخبرو جون سميث المحليون من فيرجينيا أن العالم «مسطح ودائري مثل صينية، وهم في منتصفها». لقد أخبروه أنه باتجاه الغرب يقع بحر آخر. لقد أسمى شعب الوابانكي الذي كان موجودا في ماين نفسه People of the Dawn أو شعب الفجر، كونهم يحيون على حافة شرقية لجزيرة عظيمة أخرى⁽³⁴⁾.



خريطة لفيرجينيا بيد جون فارار، والتي تظهر كلا من السواحل الشرقية والغربية. مقدمة من مكتبة الكونغرس.

بتأكيد من الأفكار الجيوصوفية المحلية native geosophies. لم يكن مستغرباً أن اعتقد الأوروبيون أنهم وجدوا أرخبيلاً عوضاً عن قارة. فقد أخبرتهم الجيوصوفيا الخاصة بهم أن المياه تجري شرقاً وغرباً، وأن الأنهار العظيمة التي صادفوها في شمال أمريكا كانت «بحاراً ساحبة إلى الداخل» والتي كانت ستحملهم سريعاً إلى ما كان يعتقد أنها مياه داخلية، عادة ما يطلق عليها البحر الغربي، وبعدها إلى الهادي. لقد شجع المحليون المتعاونون المستكشف الفرنسي كاديلاك في إطار هذا الخيال حيث أكدوا له أن الأنهار والبحيرات سريعاً ما ستحملة إلى نقطة «يقال إن ما بعدها لا يوجد أرض». لقد أحضر جين نيكول معه ملابس رسمية مصنعة من الدمقس الصيني كهدايا للملوك الآسيويين والذي توقع مقابلتهم بين شعب الوينباغو على بحيرة ميتشيغن. كان المستكشف فيرازانو يبحث عن قطاع بري ضيق مثل باناما على خطوط العرض الشمالية في 1524، عندما ظن خطأً أن بامليكو ساوند على الجانب الغربي لجزر كارولينا المتاخمة (الضفاف الخارجية) هي البحر الغربي. لقد بقيت فكرة أن العبور إلى جزر الهند كان مجرد مسيرة بضعة أيام رُكناً إيمانياً بين مستعمري فيرجينيا، والذين تصوروا أنفسهم على جزيرة. لقد كفلت لهم امتيازاتهم الملكية الأراضي «من البحر إلى البحر»، كما كان الوضع لهؤلاء في ماساتشوسيتس، كونيتيكت، وكارولينا. تظهر خريطة نشرت في 1651 فيرجينيا على أنها معزولة، حيث الأطلنطي على جانب و«بحر الصين وجزر الهند» على الجانب الآخر⁽³⁵⁾.

وكما كان الوضع في العالم القديم، كونت الأنهار والبحيرات عالماً مائياً متواصلاً، ممتداً لآلاف الأميال بين الأراضي الداخلية. لقد بالغت الخرائط القديمة في حجم ومدى الخلجان ومصبات الأنهار، واعدة بممرات مائية عميقة في الداخل الأرضي. لقد حققت سكة حديد هدسون وسانت لورانس التوقعات، على الرغم من أن التمنيات بأن تقود أنهار فيرجينيا إلى بحيرات تجف غرباً كما شرقاً موصلة إلى الهادي، والذي كان يدعى وقتها بحر الهند الشرقي، قد خابت. فعلى مدى مئات السنوات، ووصولاً إلى رحلة لويس وكلارك الاستكشافية في 1804، سيجري استكشاف القارة بشكل أساسي عبر القوارب، حيث يعكس ذلك ليس فقط كفاءة وسائل المواصلات المائية ولكن كذلك استمرار الاعتقاد أن العالم الجديد كان أرخبيلياً عوضاً عن قارياً⁽³⁶⁾.

وكما بين ويلكومب واشبورن «غالباً ما تطلع الأوروبيون إلى ما بعد أو أغفلوا الأرض الحقيقية التي وصلوا إليها، متوقعين ممراً إلى أرض الهادي والتي بقيت خيالاً في عقولهم». كان من أول الأشياء التي قام بها فرانسيس بيلينغتون عندما ترجل عن سفينة ماي فلاور في 1620 أن تسلق شجرة ذات مشهد تجاه الغرب، حيث أبلغ أنه شاهد «بحراً عظيماً، كما كان يعتقد». ظهر بعد ذلك أن هذا البحر العظيم لم يكن سوى بركة، والتي إلى اليوم تدعى بحر بيلينغتون. وعندما وصل الأوروبيون إلى الساحل الغربي لأمريكا الشمالية قاموا بتطبيق الجغرافلسفة نفسها، وإن كانت باتجاه مغاير، حيث فكروا بمنطق الأرخييلات ساعين خلف ما أسموه مضيق أنينا، الذي كان يفترض أن يوصل شرقاً إلى بحر داخلي. لقد استكشف هؤلاء كل مصبات الأنهار الضخمة حتى تخلوا في النهاية عن فكرة ممر شرقي. بيد أنهم عانوا صعوبة أكبر في التخلي عن فكرة أن كاليفورنيا جزيرة، وهو الخيال الذي رفض الاستسلام للحقيقة حتى القرن الثامن عشر، عندما، كما حدث مع مضيق أنينا، اختفت هذه الجزيرة أخيراً من خرائط العالم. عندها فقط قبل الأمريكيون حقيقة أنهم كانوا يحتلون قارة منيعة وليس أرخبيلاً الملاحه فيه ممكنة⁽³⁷⁾.

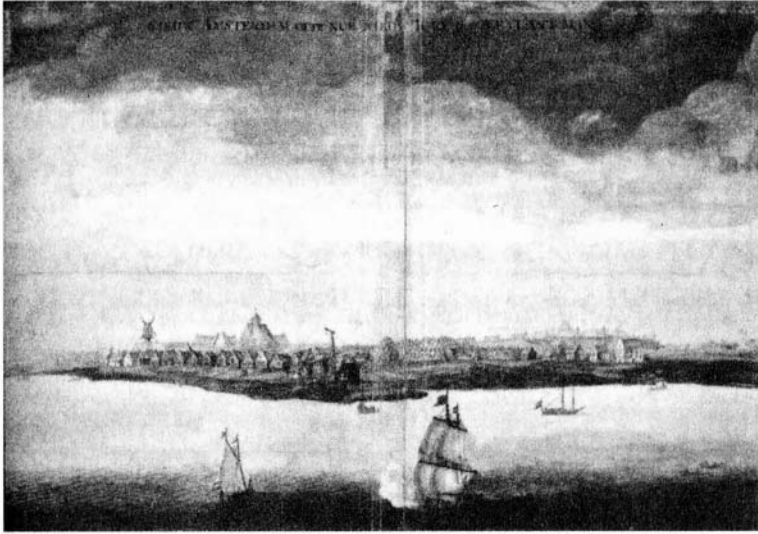
«لقد تعلق تجارب أوروبا في الفتوحات، والاستعمار، والتجارة مثل تعلق قشريات البحر بالسفينة وذلك على سواحل محيط العالم أو أنها تقصت الجزر المقابلة للسواحل والمحاطة بالخنادق البحرية،» يقول ستيفن باين. لقد كان ذلك إرثاً عن المتوسط، حيث مدن الموانئ كانت تنتمي أكثر للبحر منها إلى اليابسة. هناك، حيث الناس «يشعرون بأنهم أقرب إلى مدنهم منهم إلى دولهم وأمهم،» و(حيث) فعليا مدنهم كانت هي دولهم وأمهم وأكثر من ذلك»، كانت دولة الأمة الإقليمية أبطأ في تطورها. فحتى القرن التاسع عشر، كان يجري التحصل على أفضل مكتسبات الإمبراطورية عبر الساحل وعلى طوله وليس من الأراضي الداخلية. كانت إسبانيا الجديدة هي الاستثناء الذي ثبت القاعدة. «فالمستوطنات (القارية) كانت مثل الإسفنج الذي كان يمتص رأس المال»، لقد كانت تمثل استثماراً سيئاً إلا إذا، مثل إسبانيا الجديدة، قدمت الذهب والفضة. لقد خيبت أمريكا الشمالية آمال هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى الثراء السريع،

الجيئات البحرية للأطلنطي لبدایات العصر الحديث

وعندما استقر الهولنديون، الفرنسيون، والإنجليز، فقد فعلوا ذلك على الجزر، روانوك، سانتا كروز، سابل، جيمس، مانهاتن، أو في الأماكن التي كان يعتقد أن لها منافذ مائية على كل الجهات، مثل فيرجينيا وماساتشوسيتس. كان البحر هو حبل النجاة بالنسبة إليهم، ولم تكن أي من المستعمرات الشمالية الشرقية في العالم الجديد قريبة من الاكتفاء الذاتي، فعندما يجري عزلها عن العالم الجديد، فإنها، مثل مستوطنة روانوك، تفشل تماما⁽³⁸⁾.

في العديد من الأماكن كانت المقايضة الخرساء أو التجارة الصامتة لاتزال تدار من على أسطح السفن، سامحة للمسافرين الأوروبيين بتفادي الاتصال المباشر مع الأراضي الداخلية. تطورت الموانئ الدائمة من المراكز التجارية المؤقتة التي أسسها البرتغاليون على الجزر على طول الساحل الأفريقي ولاحقا خلال آسيا. لقد خدمت هذه الموانئ مصالحهم التجارية من دون أن تتركهم في تكاليف حماية المستعمرات الساحلية. بيد أن الهولنديين هم من حَسَّنَ تماما إمبراطورية الساحل وذلك في العالم أجمع، مستخدمين الجزر في الشرق والغرب، في فورموسا، اليابان، سريلانكا، وجافا وكذلك في الأمريكتين. كانت دونا ميرويك تسميهم الأصليين «قوم امتداد الساحل»، والذين كانوا يرون العالم ليس «بعيون الفلاح الذي يتطلع إلى الأرض، بل بعيون البحار». أشارت ميرويك إلى أن مانهاتن، مثل مركز التجارة الهولندي البالغ الصغر في ناغازاكي، كانت pied-a-terre أو مسكنا مؤقتا أكثر منها ملكية رسمية. «لقد اعتبر الهولنديون أنفسهم أهل جزر وخطوط سواحل، أهل الأراضي المغمورة والحدود المتغيرة»، والذين كانت مدنهم «جزرا صغيرة»، متصلة أكثر عن طريق الماء منها عن طريق الأرض. كانوا في العموم غير واثقين بالفلاحين، حتى فلاحهم هم. وجهت أمستردام الجديدة، والتي تأسست في 1625، وجهها تجاه البحر وباعدت بينها وبين الداخل بقدر المستطاع، مقاومة الرغبة في الزراعة حيث كان تجار الشركة الهولندية الشرق هندية يخشون أن يثير ذلك المواجهات مع الهنود المحليين. لقد تنازع هؤلاء مطولا مع قوى البحر وكانوا مرتاحين بدرجة معقولة معه. ما كانوا يخشونه أكثر شيء، بتعبير ميرويك المشهود، هو أن تغرقهم الأرض. بحلول 1660 تحققت أسوأ مخاوفهم، حيث فقدت أمستردام الجديدة ليظهر الفلاحون الإنجليز الأكثر سلطة والذين

مارسوا عليهم الضغوطات من مناطقهم النائية القريبة من الساحل. عندما تعذر الدفاع عن الجزيرة، تنازل الهولنديون عن كل حقوقهم فيها في مقابل امتلاك جزيرة صغيرة أخرى في النصف الآخر من العالم، جزيرة جوز الطيب الإندونيسية الصغيرة والتي تدعى رون، وهو القرار الذي لربما يثير حيرتنا بيد أنه كان منطقيا تماما بالنسبة إليهم⁽³⁹⁾.



منظر لأمستردام الجديدة لجوهانس فينغونز، 1664.

الصورة من ويكيبيديا كومنز.

كان أوائل المستكشفين لسواحل أمريكا الشمالية يشعرون بأنهم في موطنهم في البحر أكثر منهم على الأرض. الكثير منهم كانوا سكان جزر بخبرة ساحلية أكبر من تلك في أعماق البحر. لقد اتبعت البضائع، والناس، والأفكار مسارات متشابهة على طول الساحل. لقد تواصلت المستوطنات في شمال أمريكا بعضها مع بعض عبر المياه. تطور ساحل الهادي لاحقا، ولكن بالأسلوب نفسه. في البداية قدم المستكشفون، ومن بعدهم التجار، و فقط بعد زمن طويل جاء المستوطنون الدائمون. حتى في ذلك الوقت، كانوا يميلون إلى مواجهة البحر، حيث كانوا يعتمدون عليه في توفير البدائل وإعادة التموين. وكما يقول دان كيللي: «لقد

الجبهات البحرية للأطلنطي لبدايا العصر الحديث

جرى استكشاف ساحل الهادي كونه شريكا في حركة التجارة مع الشرق أكثر منه كأرض تستحق التعرف عليها من أجلها هي». وكونها موجهة إلى السواحل البعيدة عوضا عن أراضيها الداخلية النائية، كانت الولايات المتحدة الجديدة مزدوجة السواحل شرقا وغربا منذ البداية⁽⁴⁰⁾.

البحر الداخلي لحضارة شمال الأطلنطي

إن الامبراطوريات المائتية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر كانت أكثر اهتماما بالمنافذ منها بالممتلكات. فباستثناء إسبانيا الجديدة، لم تكن هذه الإمبراطوريات أرضية بطبيعتها بل «شبكة من مجموعة من المراكز والمواقع الإستراتيجية على طول طرق التحرك الإستراتيجية... فهي متناثرة، ضحلة في تأثيرها القاري، غير منتظمة في الترتيب الهرمي لمناطقها». كونها نتاج مبادرات خاصة وعادة إقليمية عوضا عن كونها نتاج سياسة قومية منسقة، كانت المستوطنات الإنجليزية غالبا مختلفة بعضها عن بعض كما هي كل واحدة منها مختلفة عن المستوطنات الهولندية أو الفرنسية. ولأنها عادة على خلاف مع الوطن الأم، كانت لهذه المستوطنات سياساتها الخارجية والعسكرية الخاصة بها. كانت شعوبها متعددة الأعراق، لغاتهم كانت متعددة، وثقافتهم كانت عالمية. ما كانوا يتشاركون فيه هو ما كان يدعوهم «ثقافة الضفة»، ثقافة مواجهة للبحر ومتأقلمة أكثر مع السواحل البعيدة عنها مع الداخل القريب الخاص بها. لقد كان هؤلاء ينتمون إلى الأطلنطي، ما كان يدعوهم ميينغ «البحر الداخلي للحضارة الغربية»⁽⁴¹⁾.

لقد كانت فكرة البحر الداخلي متلائمة مع الأوروبيين، الذين، بداية من تجربتهم مع المتوسط، كانوا أكثر شعورا بالأمان في المياه المطوقة منهم في المحيط المفتوح. إن أحدث شكل للبحر الداخلي شمل أكثر بكثير مما ندعوه اليوم العالم الغربي. فلقد غمر كذلك سواحل أفريقيا، والذي سيكون لثقافته تأثير هائل في الأمريكتين. ولأن هذا الشكل الجديد التف شرقا وكذلك غربا، فقد حمل معه كذلك سمة الأمريكيين الأصليين الساحليين، والذين من دونهم كانت المستوطنات والاستكشافات الأوروبية ستصبح مختلفة تماما. لم تكن الممرات في البحر الداخلي

أحادية الاتجاه مطلقا. لقد تحرك المد عبر تاريخه «ليس فقط باتجاه الغرب على الجسم الأمريكي بل شرقا على الجسم الأوروبي، وداخليا فوق، وحديثا على طول الجسم الأفريقي»⁽⁴²⁾.

لقد وصل الأوروبيون الشماليون على السواحل الأمريكية عن طريق المصادفة وليس بنية مقصودة. لقد تصرفوا كما فعل الصيادون الرحل دائما، لحقوا بفريستهم حيثما قادتهم هذه الملاحقة، ممارسين نوعا من النقل الموسمي البحري للماشية transhumance، متبعين السمك عوضا عن الحيوانات، وذلك على أساس موسمي، حيث أخذوا يذهبون لمسافات أبعد ومدد زمنية أطول، بيد أنهم دائما ما كانوا يعودون إلى موطنهم عندما كانوا يستوفون متطلباتهم. ولأكثر من قرن من الزمان، لم يظهر هؤلاء أي رغبة في ممارسة الزراعة. وعليه فإن مفهوم عصر «الاستعمار» (Colonial)، والذي يفترض الوجود الضروري للأرضي، يشوه بشكل كامل نظرنا إلى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، عندما لم يكن بالنسبة إلى الأوروبيين الشماليين «أي نية لأن يصبحوا مستعمرين - وبالتأكيد ليسوا مستعمرين فاشلين - ولكنهم كانوا أعضاء متنقلين ومؤقتي الاستقرار في موطنهم. لقد كيفوا أنفسهم مع مساحات أمريكا الشمالية من حيث احتياجات مجتمعاتهم في موطنهم، عوضا عن معاملتها كمساحات لمجتمعات جديدة»⁽⁴³⁾.

نوعان مختلفان تماما من مصائد السمك تكونا في الشمال الأطلسي في نهاية القرن الخامس عشر. لقد أدار الفرنسيون، الباسكيون، الهولنديون، الإسبان، والبرتغاليون، والذين كانوا يمتلكون مؤنا جيدة من الملح، مصائد أسماكهم المائية بعيدا عن الساحل بشكل تام تقريبا. لقد كانوا يملحون صيدهم على متن السفينة، يتبلونه ويعبئونه في البراميل، ثم يتجهون إلى موطنهم عادة من دون أن يضعوا قدما على اليابسة. كان الإنجليز يفضلون تجفيف سمك القد، لكنهم كانوا يفعلون ذلك فقط في المواسم الدافئة، عائدتين إلى موانئ موطنهم قبل أن يحل الشتاء. في كثير من النواحي كان الساحل الأمريكي يعتبر امتدادا متسعا للحياة الساحلية الأوروبية، حيث كان لا يزال مرتكزا، على الرغم من المسافات العظيمة ومدة البعد المتزايدة، على ميناء الوطن. فعلى مصائد السمك المرتحلة

الجيئات البحرية للأطلنطي لبدايات العصر الحديث

تتعلق الأفكار دوما بالعودة. وفي أواخر سبعينيات القرن الماضي أخبر رجال سفن صيد السمك الإسبان الذين كانوا يصطادون في مياه نيوفاوندلاند، والتي يدعونها تيرانوفا، جوسيبا زيولايكا أن «هناك فقط يومين سعيدين جدا في البحر: يوم مغادرتك (تيرانوفا) إلى إسبانيا، ويوم وصولك إلى الوطن»⁽⁴⁴⁾.

على السواحل الأمريكية، صادف الأوروبيون شعوبا أخرى، والذين مارسوا نوعا من النقل الموسمي البحري للأسماك على نطاق ضيق. كان للأمريكيين الأصليين كذلك فردة حذاء طويل في القارب وأخرى في الحقل. لقد كانوا يمارسون صيد السمك والحيتان على طول الساحل على مدى قرون، مستهدفين الحيتان التي تدعى بالحيتان المنجرفة والتي كان يجرفها البحر إلى الساحل، ولكنهم أحيانا ينطلقون بعيدا عن الساحل في الزوارق الصغيرة. كانت مهاراتهم كصيادي سمك ومزارعين مصدر إنقاذ لمستوطني بلايموث خلال سنوات مجاعتهم الأولى في عشرينيات القرن السابع عشر، وذلك عندما كانوا يعتقدون أن هؤلاء الوافدين الجدد سيزرعون الذرة وسيصطادون من خليج ماساتشوسيتس. سرعان ما تعلم الأمريكيون الأصليون مهارات الإبحار الأوروبية، وبدأوا استعمال القوارب المصنوعة بأيادي الباسكيين لأغراض الصيد والتجارة. وبينما كانت هناك صدمات أولية كانت المواجهات الأولى عموما لطيفة ومربحة للطرفين. في رحلته في العام 1524 صادف فيرازانو شعب ناراجانسيت المتطور الذي كان موجودا في الموقع الحالي لرو آيلند، والذين أقبلوا على سفينته بلا أي مخاوف من أجل التبادل التجاري. على مسافة أبعد شمالا، وجد فيرازانو شعب الأبنانكي أقل لطفًا، بيد أنه وبحارة آخرين أسسوا لأسطورة المدينة الرائعة الغنية نورومبيغا التي تقع في مكان ما بالمنطقة التي ندعوها اليوم ماين، والتي استمر الأوروبيون في البحث عنها خلال القرن السادس عشر⁽⁴⁵⁾.

وكما كان الوضع في أوروبا، كانت الشعوب الساحلية لشمال أمريكا متعددة، وكونهم قد تعلموا أسرار البيئة الانتقالية، فقد كانوا نسبيًا أقوياء وأغنياء كذلك. خلقت ممارستهم حرق الغابات تنوعا كبيرا للأنظمة البيئية بتأثيرات على حوافها التي كانت «مساكن طبيعية مثالية لعدد من الأجناس الطبيعية». ولقد استغل هؤلاء جانبي الساحل، حيث كانوا يتحركون موسميًا لاستغلال الهجرات السمكية

- سمك القطار في مارس، الأيلوايف، السلامون، والحفش في أبريل - وكذلك وصول سمك القد وأنواع الأسماك القاعية الأخرى في مايو. لقد كان يقدر بأن نصف مؤونة الغذاء السنوي لمابين الهندية أتت من مصادر كهذه. لقد كان يقال «إنهم يتنقلون... من مكان إلى آخر وفق غنى الموقع والموسم»⁽⁴⁶⁾.



Boat de l'Amérindien sur de l'Elleuve 1873

du port de San Francisco

Bateau du port de S^o Francisco

قارب لشعب الميووك مصنوع من نبات القصب **Bateau du port de San Francisco**
لوحة للفنان لوي كورس. الصورة من مكتبة بانكروفت، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

لم يكن الأمريكيون الأصليون الساحليون مأخوذين بتواصلهم الأول هذا، وفي الحقيقة كانت لهم اليد العليا في البداية. كان سكان ما نسيمه نيو إنغلاند الأصليون «قد تعلموا كيف يتعاملون مع الوجود الأوروبي»، حيث قدموا أنفسهم، مثل الشعوب الساحلية في الأماكن الأخرى، بوصفهم وسطاء بين البحر والداخل. لم يشرك الأوروبيون الأمريكيين الأصليين في مراكز صيدهم، ولكن عندما قاد هذا النشاط إلى تجارة الفرو أصبح هؤلاء الأوروبيون معتمدين على السكان الأصليين بشكل متزايد، حيث كان للسكان الأصليين كل الاتصالات الداخلية، كما أنهم كانوا يتحكمون في الممرات النهرية التي كانت توصل مخزوننا أكبر حجما من الجلود الحيوانية. استمر الأمريكيون الأصليون في ترحيبهم مادام لم يحاول الأوروبيون أن يتواصلوا مباشرة مع الصيادين الداخليين. ولربما استمر هؤلاء في ممارسة سيطرتهم

السياسية والاقتصادية على السواحل لمدة أطول، لولا هذه الأوبئة التي لم يكن لديهم أي وسائل حماية ضدها، والتي انتقلت إليهم عبر تواصلهم مع الأوروبيين. بحلول أوائل القرن السابع عشر، عندما قرر البيوريتانيون أخيراً استعمار ساحل ماساتشوسيتس، كان 90 في المائة من السكان الأصليين قد ماتوا⁽⁴⁷⁾.

بقيت السواحل الكندية غير مستوطنة لفترة أطول بكثير. أحياناً يقول الكنديون إن سواحلهم الشرقية ما كان لها أن تُسكن أبداً. أصبح سكان الولايات المتحدة يفكرون في ساحلهم الشرقي على أنه شاطئ، غير أن الكنديين لم يفكروا بهذه الصورة. صحيح المقاطعات البحرية لطالما كانت تنتمي إلى البحر أكثر منها إلى الأرض، بيد أننا لا بد من أن نكون حريصين على ألا نصدق أسطورة أننا كأمركيين قد قدر لنا أن نكون مزارعين، وأن تاريخنا «يبدأ برسو السفينة عند جيمس [و] بعد أن ألقت سفينة المايفلاور مراسها». في الواقع، فإن التاريخ الحقيقي لكندا والولايات المتحدة لا يبدأ هناك، ولكن بعيداً عن الساحل وعلى طول الساحل، حيث، وكما يصر بنجامين لاباري، إن أمريكا هي الأكثر بحرية بين كل القارات، على الرغم من أنه، بداية من الأمريكيين الأصليين، لطالما كانت فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل⁽⁴⁸⁾.

الجبهات البحرية

يمكن أن يقال إن السواحل الأمريكية كانت جبهة العالم الجديدة الأولى بالنسبة إلى أوروبا. مثل كل الجبهات، كانت تلك في حركة دائمة، بيد أنها كانت مميزة من حيث مجابتهتها لاتجاهين مختلفين. لقد بين والتر بريسكوت ويب أن الجبهة «ليست خطأ للتوقف عنده، ولكنها منطقة تدعو إلى الدخول». في النهاية رحبت السواحل بالدخول إلى القارة، لكنها في البداية أغرت سكانها بالسعي خلف ثروات البحر؛ فلبسنوات الثلاثمائة الأولى بعد اكتشافها، كانت تلك جبهات للاستخلاص عوضاً عن الاستيطان. فمثل جبهات التنقيب والتشجير، مرت هذه الجبهات بدورات من الازدهار والتدهور، التأهيل والإخلاء السكانيين. كانت الثروات تُخسر بنفس سرعة صنعها، لقد أتى واختفى هؤلاء الصيادون الرحل التاليون تقريباً بالسرعة ذاتها لحضور واختفاء طرائدهم⁽⁴⁹⁾.

كان الأوروبيون الذين يستكشفون خطوط العرض الشمالية للعالم الجديد متأكدين من أنهم قد اكتشفوا نوعا من الجنة المفقودة، ليس على الأرض ولكن في البحر. لقد جعلت مواسم الزرع القصيرة والتربة الفقيرة الساحل - في حد ذاته - غير ودود تجاه المزارعين، لكنه لم يكن هناك شك بالنسبة إلى العقول الإنجليزية أنهم قد اكتشفوا وفرة مائية غير معروفة على جانبهم من الأطلنطي. نادرا ما كان يبدو أنهم لاحظوا التأثير السابق للأمريكيين الأصليين على الأرض أو البحر، لأسباب ترجع في جزء منها إلى أنهم عندما استقروا أخيرا على الساحل في أوائل القرن السابع عشر، كان السكان المحليون ينقضون تدريجيا على مدى زمن، جاعلين كلا من الأرض والبحر يبدو خاليا ونقيا، طبيعة نقية جاهزة لأن تسلم ثرواتها إلى سادتها الجدد⁽⁵⁰⁾.

عندما استكشف الأوروبيون السواحل الجديدة، كانوا ينظرون إليها بعيون تجارية. لقد نظروا إلى الأشجار العظيمة على أنها خشب للصواري، وإلى الحيوانات على أنها فراء، والسماك على أنه الأكثر قيمة بين كل السلع الموجودة هناك. عندما تفقد الكابتن جون سميث خطوط العرض الشمالية في العام 1614، أشار إلى أن الهولنديين قد حصلوا على ثروات أعظم «عن طريق تجارة السمك الوضيعة» مما حصل عليه الإسبان من التنقيب في إسبانيا. «غير أن هذا هو تنقيبهم»، كتب سميث قائلا: «والبحر هو مصدر هذه الجداول الفضية لكل فضائلهم». لقد كانت نظرة سميث وقتها هي تلك التي لصياد وليست لبستاني، للمرئحل الحديث وليست لمزارع. لقد اعترف بعدم معرفته بالداخل، ولكن «حتى الأطراف، في حد ذاتها، يمكن أن تقدم طبيعيا مثل هذه الوفرة لنا، حتى إنه لا سفينة يمكن أن تعود فارغة». لقد شجعتته قرى الصيد المحلية التي صادفها على أن يحفز الاستيطان في نيو إنغلاند، حيث، وبخلاف الوضع في نيوفاوندلاند، يمكن الصيد على مدار السنة، حيث هؤلاء «الذين يصطادون أمام أبوابكم، قد ينامون بهدوء كل ليلة على الساحل سعيدين بما تقدمونه لهم، أو إذا ما رضيتم بذلك ربما يدخلون للنوم مع زوجاتكم وعائلاتكم». هنا كانت جنة عدن ثانية مبنية على فكرة الاستيلاء على الطبيعة ومتطلبة لعمل شاق، ولكنها واعدة بحياة أسهل بكثير من تلك التي في إنجلترا «إذا ما عمل رجل لمدة ثلاثة أيام من سبعة،

مكن له أن يحصل على أكثر مما يمكن أن ينفق، إلا إذا ما كان مفرطاً». لقد كانت غريزة سميث هي تلك التي لمرتلل موسر أكثر منها لمزارع مالك لأرضه⁽⁵¹⁾. قارن كل رحالة تقريبا حجم ومخزون السمك المتناقص في المياه الأوروبية لما بدا كوفرة كبيرة موجودة في الأمريكتين. لقد بدأ الوضع مع تقارير كابوت من نيوفاوندلاند، هي مفقودة الآن، والتي انتشرت في كل مكان: «هم يؤكدون أن البحر هناك يمتلئ بالسمك الذي يمكن صيده ليس بالشبك، بل بالسلال التي يجري إنزالها في الماء بوضع حجر فيها، وذلك حتى تغوص في الماء». كان سمك القد بالغ الوفرة، وكذلك كانت الحيتان كثيرة جدا حتى إنها كانت تعيق الإبحار «إن وفرة سمك البحر تقريبا لا يمكن تصديقها، وبالتأكيد ما كنت لأصدقها لولا أن رأيتها بعيني»، هكذا كتب رجل إنجليزي في تقريره. ولقد قال أحد المراقبين إن كميات السمك في مجاري المياه كانت عظيمة جدا، حتى إنه يمكن أن يمشي عبرها من دون أن يبلى قدميه. إن هذا المنظور النفعي لم يتغير كثيرا عندما كان القبطان جورج فانكوفر والقبطان جيمس كوك يستطلعان الساحل الغربي في نهاية القرن الثامن عشر. هما كذلك اعتقدا أنهما اكتشفا ثروة تجارية من السمك والخشب⁽⁵²⁾.

في الحقيقة، لم يكن هناك أي شيء نقي حول هذه البيئة، والتي مرت بمئات السنوات من الاستغلال عن طريق الشعوب الأصلية. أخيرا، ظهرت دلائل على احتباس حراري وارتفاع في نسب ثاني أكسيد الكربون بفعل بشري، وذلك بسبب تقطيع وحرق الغابات الاستوائية قبل العام 1540. تجاهل الأوروبيون الدلائل على هذا التاريخ الماضي، حيث اعتبروا، على الرغم من وجود دلائل طبيعية على الزراعة القديمة، أن العالم الجديد طبيعة نقية لم يُعبث بها، وتعاملوا مع الشعوب الأصلية على أنهم «أبناء الطبيعة» وأنهم بحاجة، كما الأرض في حد ذاتها، إلى التهذيب والتمدن. وحيث إنه لم تتح لهم الفرصة لمشاهدة الصيادين الرحل شبه الزراعيين، وهم في قمة قواهم قبل أن تهزمهم الأوبئة الأوروبية، لم يكن لدى الأوروبيين أي فكرة كم كان هؤلاء مزارعين وصيادين أكفاء. فلو أنهم قد تفحصوا تلال الصدف الضخمة التي وجدوها على السواحل الشرقية والغربية، لكانوا وجدوا أن المستويات الأدنى كانت تحتوي على محار أكبر حجما

بكثير من تلك التي في المستويات الأحدث، مما يدل على ضراوة تسببت مسبقا في تقليل أحجام المحار، والحلزونات، وبلح البحر مع مرور الزمن⁽⁵³⁾.

وعلى الرغم من أنهم استغلوا هذا التنوع في الحقول المفتوحة والغابات التي خلقتها ممارسات الحرق القديمة فإن سكان نيو إنجلاند صدقوا أنهم وجدوا غابة عذراء لم يسبق لبشر أن مسها. لقد جعلوا من أنفسهم أبطالا خارقين في قصتهم هم حول ترويض الطبيعة التي ضيعها الهنود هباء. لم يكن هناك من دلائل على أن «الهمجيين»، كما كانوا يدعونهم، كانوا من المحافظين الواعين على البيئة، لكن أعدادهم المنخفضة قد حدثت من تأثيرهم. كما أن حقيقة أنهم اعتبروا أنفسهم متصلين روحانيا بالسماك والحيوانات قد تكون حدثت من استغلالهم بدرجة ما. لكن، وبسبب أن التاريخ السابق لكوارثهم البيئية لم يُوثق قط، فقد بدا للقادمين الجدد الأوروبيين أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا مسلمين، وأن البيئة التي كانوا يعيشون فيها نقية أبدية، وهي الأسطورة الملائمة التي بدا أنها تشرعن الادعاءات الأوروبية بالحق في زراعة الأرض وتمدين السكان باسم إلههم المسيحي، البستاني العظيم⁽⁵⁴⁾.

كان الأمريكيون الأصليون على الساحل الغربي يصطادون السمك من المياه الساحلية لمدة أربعة آلاف سنة قبل وصول الأوروبيين، وبينما كانوا يتنقلون موسميا على طول الساحل، وإلى حيث مواقع صيد السمك الأفضل على أنهار السلامون، فإن معظمهم كان يعمل من مستوطنات دائمة. أحد المؤرخين يصف مهاراتهم في صيد السمك والجمع على أنها «ذات كفاءة مخيفة»، بيد أنها لم تنتشر قط من أجل أغراض تجارية. هذا النشاط كان محددًا كذلك بعدد معين من المحرمات والطقوس و«باحترام (جوهرى) للسمك الذي يحفظ الحياة»، وهو المبدأ الذي تشاركوا فيه، ليس فقط مع السكان الأصليين من الساحل الشرقي، ولكن كذلك مع صيادي السمك الأوروبيين⁽⁵⁵⁾.

عندما وصل الأوروبيون إلى الساحل الغربي في مطلع القرن التاسع عشر، جلبوا معهم مجددا الأوبئة والتهجير السكاني. بحلول العام 1850 انخفض عدد السكان الأصليين إلى أقل من 6 في المائة عن مستويات ما قبل التواصل مع الأوروبيين، ما نتج عنه ارتداد إلى الوضع الطبيعي في مخزون السمك، والذي

ترك الأوروبيين بانطباع أن الصيادين المحليين كانوا محافظين طبيعيين من دون تأثير في بيئتهم. لقد دفعت وفرة السلمون وقشريات البحر بالفكرة الخاطئة بأنهم قد وجدوا جنة عدن غنية، ما شجعهم على تحويلها منبعاً تجارياً، وأخيراً على نهبها⁽⁵⁶⁾.

فلو أنهم كانوا أقوى ملاحظة، لاستطاع الأوروبيون استبيان الآثار البيئية للممارسات المحلية من حرق للغابات، والتي خلقت بيئات حافة غنية، ولكنها كذلك ساهمت في سد المجاري المائية. الأكثر صعوبة في تمييزها كانت آثار تجارة الهادي في جلد كلب البحر، والتي غالباً ما أدت إلى تدمير أعداد كلاب البحر المحلية، وبالتالي مضاعفة أعداد قنافذ البحر التي بدورها أفسدت المواطن الطبيعية البحرية القريبة من الساحل. ومع ذلك، كان الأمريكيون الأصليون قليلي العدد ومنتشرين فوق قطاعات ضخمة من الأراضي، حيث إنهم قد يستهلكون مصدراً محلياً ما، ولكن دوماً ما كان في إمكانهم الانتقال إلى آخر. ولقد لجأ هؤلاء الصيادون الرحل، كذلك، إلى تحديد النسل بطرق مختلفة، منها الإجهاض، حيث لم يكلفوا البيئة إلى أقصى حدودها.

ثقافة أطلنطية عبر ساحلية

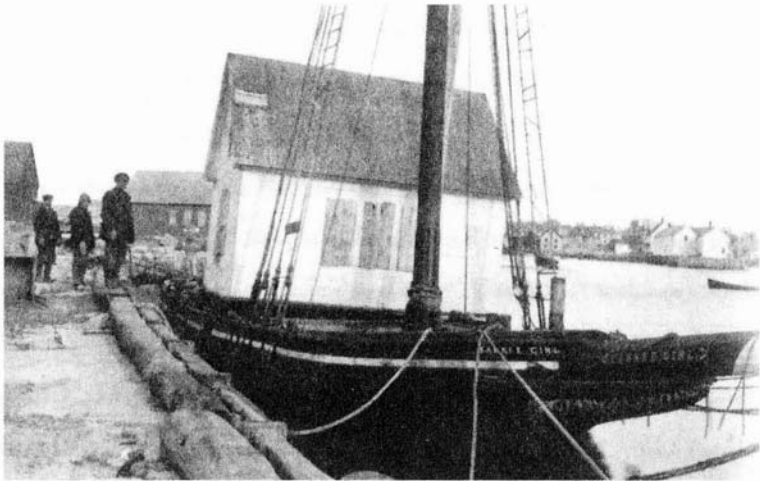
خلال فترة بداية العصر الحديث، كانت خطوط العرض الشمالية لأوروبا وأمريكا متصلة بعضها ببعض، عن طريق سواحلها. لقد جرى تصدير الثقافات الشاطئية للهولنديين، والإنجليز والفرنسيين إلى العالم الجديد، حيث كانت لديهم عوامل مشتركة بعضهم مع بعض، أكثر مما كان لهم مع سكان المناطق النائية في مواطنهم. بحلول القرن الثامن عشر، كون هؤلاء قلادة من المناطق المعزولة الساحلية والجزيرية ضعيفة الترابط، والتي امتدت حول حافة بحر داخلي عظيم. كان لديهم عندئذ نوع من الثقافة المشتركة (lingua franca)، أو لغة مشتركة، وأساليب حياة وأنظمة أغذية بل وحتى تخطيط إسكاني متشابهة. لم يكن البحر هو حبل النجاة الأساسي الوحيد فقط بالنسبة إليهم، ولكنه كذلك مصدر السلع التي ساهمت في البداية، وبأكبر قدر، في ازدهار مناطق خطوط العرض الشمالية. عميقاً في اتجاه الجنوب ستوفر تجارة الرقيق وعملية إنتاج

السكر مصدرا آخر للثروة، ولكن على مدى القرن الأول أو يزيد، أظهر الأوروبيون الشماليون اهتماما أكبر بحقوقهم الملاحية في ممرات مائية وولايات بحرية معينة عن اهتمامهم بأملآكهم الأرضية بحد ذاتها. لقد عمل الأوروبيون وفقا لمبدأ هيوغو غروتن أن المحيط «لا يمكن السيطرة عليه ولا يمكن محاصرته: لا، فهو بالأحرى يستعوز على الأرض ولا تستعوز عليه الأرض». على الرغم من ذلك، فلقد اعترف هؤلاء بمفهوم حقوق الاستخدام المحلية، وهو المفهوم المشترك بين الشعوب الساحلية حول العالم. عندما كان الصيادون من المناطق المختلفة يجدون أنفسهم يتسابقون على الموارد ذاتها، لم يكونوا يلجأون إلى حقوق الملكية الخاصة بل إلى الأعراف⁽⁵⁷⁾.

إن السمة المشتركة لكل ثقافات الضفاف هذه كانت تنقلهم الموسمي البحري (transhumance)، وهو التنقل المستمر للمجتمعات في إثر طرائدهم بالأسلوب نفسه الذي اتبعه الصيادون الرحل على مدى ألف عام. كان الأمريكيون الأصليون في نيو إنغلاند متنقلين، يتحركون بشكل موسمي، أحيانا مرات عدة في السنة. كانت بيوتهم ذات الأطر والأساسات الخشبية مغطاة بالأبسطة العشبية، أو بلحاء الشجر، وذلك حتى يكون من الممكن تفكيكها ونقلها عبر الماء. يقال إن هؤلاء كانوا يحيون ببساطة، وإنهم «كانوا يحبون ألا يكونوا مثقلين بكثير من الأدوات». في ماين، كانوا يزورون الجزر في الصيف، حيث كانوا يبقون بالقرب من البحر، حتى في الشهور الباردة. لم يقضوا مزيدا من الوقت في الأراضي الداخلية خلال الشتاء إلا عندما أصبحوا أعمق ارتباطا بتجارة الفرو الأوروبية، وذلك عندما كان الثلج يسهل عملية تتبع الحيوانات. في القرن السادس عشر تتبع صيادو السمك الأوروبيون على الساحل الشمالي نمطا مشابها. هم كذلك اعتبروا أنفسهم زوارا، متبعين لطرق موسمية، عوضا عن تأسيس جذور دائمة. بالنسبة إليهم، كانت الأرض تستخدم كمنطقة إعداد وتحضير، وليس لكي يجري الاستحواذ عليها كملكية، وهو الانطباع الذي لا يزال سائدا في نيوفاوندلاند⁽⁵⁸⁾.

لقد كانت بيوتهم غالبا، مثل تلك التي للسكان الأصليين، مجهزة مقدما، فهي مصنوعة بشكل يسهل نقلها بالماء، أو عبر جليد الشتاء. في قرية تيلتينغ الساحلية المعزولة في نيوفاوندلاند، هذه الممارسة، والتي يطلق عليها launching

أو «الإطلاق» لاتزال شائعة. في ماين كانت عملية نقل البيوت شائعة كذلك. وفي خلال حرب الثورة Revolutionary War، كان Tories أو المحافظون الهاريون من كاستين، وماين، يجلبون منازلهم معهم إلى سانت أندروز، نيو برونزويك، حيث لاتزال هذه المنازل مصطفة على الميناء. كانت المنازل في كيب كود تنقل كذلك ويعاد تصنيعها. لقد وجد روبرت فينتش أن السكان تعاملوا مع «بيوتهم بشكل أقل على أنها مقرات عائلية، يجري تأسيسها للأزمة القادمة، منها عن كونها ملاجئ مؤقتة، مثل الأصداف التي يستعيرها السلطعون الناسك، فتلك يجري نقلها وتبادلها، وفق الموقع والغاية، وكما تتأق الحاجة»⁽⁵⁹⁾.



مبنى مدرسي يجري زجه إلى الأرض الساحلية في مدينة فاينالهافين،
ماين. الصورة من جمعية فاينالهافين التاريخية.

«لم يأت الرب بمعجزة على أرض نيو إنغلاند. لقد قدم البحر»، كذلك كتب سامويل إليوت موريسون. لقد كان المستعمرون الانفصاليون، والذين وصلوا في العام 1620 شعوبا داخلية بالدرجة الأولى، مزارعين وحرفيين، غير مجهزين للتعامل مع الأرض، وبدون أي مهارات إطلاقا في استغلال البحر. لم يكن ركاب المايفلور بحارة. لقد كان عبورهم إلى أمريكا كابوسا، ولم تتجدد لديهم الرغبة

في العودة إلى البحر، ولكن كما قال دانييل فيكيرز: «لقد أصبحوا، انطلاقاً من الضرورة، شعبا بحريا». وحيث إنه لم تكن لأي منهم مهارات بحرية، فلقد تبادلوا مع السكان الأصليين من أجل السمك. لقد تمكن هؤلاء من البقاء على قيد الحياة خلال «سنوات الجوع الشديد» بمساعدة السكان الأصليين، ولكن، حتى عندما بدأوا في حصاد فوائض من الذرة، اكتشفوا أنهم لم يكن لديهم محصول تجاري للدفع من أجل الضروريات المستوردة من أرض الوطن. وكونهم كانوا لايزالون في حاجة إلى البضائع الحيوية، كانت الخطوة التالية هي دعوة غير الانفصاليين من صيادي السمك من مقاطعة دورست، والذين كانت لديهم خبرة سابقة في مصاد السمك المتنقلة، للاستقرار على السواحل الصخرية في ماربلهيد. لم تكن مصاد السمك متميزة عن مجتمعات الزراعة الداخلية ماديا فقط، ولكن ثقافيا كذلك. لقد كان يقال إن «البحارة وصيادي السمك كانوا يبغضون عموما الاشتراك في أي وظيفة على الأرض. كانوا يفضلون التسكع على الساحل والحصول على قوتهم بشكل غير منتظم من المحيط. إن البحار عندما يتعد عن المياه يصبح مثل سمكة خارج نطاقها الطبيعي. فالجبل والغابة ليس لهما سحر عليه». حلم هؤلاء الذين استقروا في المنطقة التي ستصبح معروفة باسم بوسطن في ثلاثينيات القرن السابع عشر بحياة رعوية، غير أنهم أجبروا - عن طريق طبيعة الأرض العنيدة - على التوجه إلى البحر، ليستثمروا ثروتهم أخيرا في صيد السمك والتجارة الساحلية⁽⁶⁰⁾.

لم يكن الصيادون الذين جلبوا من ساحل إنجلترا انفصاليين، ولكنهم كانوا رجال كنيسة إنجلترا Church of England، والذين كان يعتبرهم البيوريتانيون أنهم «زمرة شريرة سكية»، حيث أسماهم جون وينثروب «أناسا مزعجين». مع مرور الوقت سيستقر صيادو السمك هؤلاء، ولكن أبدا ليس بطريقة استقرار جيرانهم الداخلين. الرجال خصوصا استمروا في كونهم رحالة موسمين، مراوحين بين «أسفل الشرق» إلى ساحل ماين والمقاطعات البحرية في كندا Maritimes في الصيف. في ماساتشوسيتس وماين احتل هؤلاء الأماكن التي كانت عديمة

الفائدة بالنسبة إلى المزارعين، بيد أن حقوق استملاكهم كانت غير ثابتة بالنسبة إلى المناطق النائية المباشرة لأماكنهم، والتي كانت مناطق عمومية، حيث يمكن للجميع جمع الخشب فيها. كان هؤلاء مهتمين أكثر بالبحر عن اهتمامهم بالإقطاعات الأرضية، حيث كانوا يطوفون بالسواحل والجزر، ناقلين البيوت ومؤسسين لمراسي الصيد في شهور الصيف، ثم مغادرين في الخريف لكي يبيعوا صيدهم إلى التجار الإنجليز وتجار نيو إنغلاند، ليسددوا دينهم قبل حلول الشتاء. في البداية، كانوا يميلون إلى الانتشار على طول الساحل، كل بسفينته وبقاربه الصغير. لم تأت موانئ المياه العميقة وقرى صيد السمك سوى لاحقا، حيث إن معظم رحلاتهم كانت تحدث على مراكز صغيرة عن سفن البحار العميقة. كانت تلك لاتزال حياة بحرية أولية، يحيها هؤلاء على طول الساحل وليس عبر قطع المحيط⁽⁶¹⁾.

كانت المجتمعات الساحلية حول حافة شمال الأطلنطي فقيرة نسبيا، بروابط مجتمعية وعائلية ضعيفة، وثقافة مختلفة عن تلك التي لجيرانهم الداخليين. غالبا، كان صيادو السمك من الشباب الأعزب، الذين، كما يقول كوتون ماثير، كانوا يتكلمون اللغة الوثنية للحظ الجيد (Good Fortune)، متحدثين، كما كان يفعل صيادو السمك في كل مكان، حول حظ السمك أو (Luck of Fish). نادرا ما كان هؤلاء الرجال يستمرون في صيد السمك طوال أعمارهم، هم يستقرون أخيرا، يتزوجون وينجبون الأطفال، ثم يرسلون أبناءهم هم إلى البحر. في القرنين السابع عشر والثامن عشر اللاحقين، كان للشعوب الساحلية في ماين وماساتشوسيتس مزارع «مياه مالحة» صغيرة، نادرا ما تكون بحجم يوفر لهم عيشهم مدى الحياة. كانوا يلتفتون بعدها إلى صناعة القطن، غير أن «الإبحار كان الدواء الرئيسي لبطالة الشباب»⁽⁶²⁾.

لم يصبح صيد السمك مهنة إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ فإلى وقتها استمرت الشعوب الساحلية في وضعها فردة حذاء طويل على الأرض والأخرى في القارب، وهو ما عزز الفرق بين الساحل والأرض النائية، وذلك حتى

نهاية القرن الثامن عشر الذي بدأ بدخول مرحلة الحياة الصناعية الأولية، وهو انتقال إلى عصر جديد حيث ينطلق صغار السن، من الذكور والإناث، للسعي خلف حظوظهم في المدن الصغيرة والكبيرة. ومع ذلك، بقي البحر بالنسبة إلى العديد من الأمريكيين الساحليين، وكذلك الأوروبيين، الجبهة الحقيقية، حيث كان ذلك أحد الأسباب التي دفعت بآليكس دو توكيوفيل ليكتب عن الأمريكيين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر: «لا أستطيع سوى تصديق أنه ذات يوم سيصبحون أول قوة بحرية في العالم. لقد ولدوا ليحكموا البحار، كما ولد الرومانيون ليستولوا على العالم»⁽⁶³⁾.

على مدى ثلاثة قرون، كانت أراضي الحافة لشمال الأطلسي قد تشكلت أكثر عن طريق البحر منها عن طريق اليابسة. كانت السواحل تنتمي إلى المياه، حيث كانت تسمى نسبة إلى ما يقع خلف الساحل: وعليه جاءت تسمية موانئ كيب كود وماينز بار. قبل أن يُستكشف الساحل من اليابسة، كان معروفا فقط من البحر، وعن طريق ما كان موجودا في البحر، كان المستكشفون الأوائل مهتمين أكثر بكثير باكتشاف ما كان مختبئا أسفل أسطحه وفي أعالي الأنهار عنهم من اهتمامهم بتخطيط المناطق الأرضية. اليوم، غالبا ما يكون الوضع معكوسا، حيث الأرض تعرف البحر، بيد أنه لاتزال هناك أماكن لم يتغير سوى أقل القليل فيها عبر القرون. فحتى بعد أن تحول المزارعون الصغار لجزيرة هاريس الأسكتلندية إلى الأنشطة الأرضية حصريا، وذلك خلال القرن التاسع عشر، فإنهم استمروا في الحديث حول التحرك «في» التجهيز للذهاب إلى البحر والتحرك «خارجا» عند العودة إلى اليابسة. في قرى صيد السمك في نيوفاوندلاند، لايزال الاستدلال والتوجيه يحدثان عن طريق المياه. لا تعني النقاط الأساسية للأرض Cardinal points، سوى أقل القليل عندما يُوجَّه كل شيء إما إلى «أعلى الخليج» up the bay وإما إلى «أسفل الميناء» down the harbor. حياتهم على الأرض ما هي إلا امتداد لحياتهم في البحر. يتحدث السكان المحليون عن «الصعود على متن» climbing aboard سياراتهم و«الدخول إلى» hauling in موقف السيارة.

الجيئات البحرية للاطلنطي لبدابات العصر الحدت

تسمى زارة الجران «الطواف أو السفر حول» أو cruising، وكما رأنا مسبقا، ىشار إلى نقل الببوت على أنه «انطلاق» launching. وبنما هو شائع الآن تسمية الشرفات باسم مصطبات فى كل مكان، فإنه فقط فى نىوفاوندلاند لاتزال تلك تسمى جسورا bridges⁽⁶⁴⁾.

لىست الجغرافيا الساحلىة هى فقط التى تختلف، ولكن كذلك الزمن الساحلى. من غير المفاجئ لنا أنه فى نىوفاوندلاند، كما هو الوضع فى ماىن وأماكن ساحلىة أخرى، الوقت «لىس ممتدا خطيا ولكنه منبسط، مسحوب بتيارات جذب وطرء مركزىة. فكما سىر السنة، كل الأشياء تنطلق من وتعود إلى هذا المكان الأوحء». وعلى فلا غرابة فى أن المؤرخىن كانوا يعانون فهم الأماكن التى لا تتدرج مرتبة فى سردهم الخطى. لقد كان على الساحل أن سجل قى. إس. إلبوت زما «لىس بزمننا... زما أقءم من زمن الساعات الدقىة...»، نحن نتجاهل مفاهىم الشعوب الساحلىة حول المكان والزما ن خاطر فى تجاهل، فكما المء والجزر والتىارات التى هى معروفة بجرورها ملاك الأراضى الغافلن، فإنه لا بد من فهم التءفق الخفى للتارىخ الساحلى إذا ما أردنا أن نتعلم العىش بشكل ثابت مستءام كما فعلت الأجلال السابقة⁽⁶⁵⁾.

لقد كان ىقال إن «المالحىن القءماء old salts وحدىى القءوم مثل جونى jonnies-come-lately يتءءئون بشكل مءتلف عن البحر، ببء أن هؤلاء الذىن يعرفونه بأفضل شكل لا بءءون حاجة إلى الءءىء عنه مطلقا». تأبى معظم الكتابات عن السواحل من أقلام ملاك الأراضى، ولكن على الرغم من ذلك، فإنه من الممكن فهم كىف لهؤلاء الذىن ىسكنون طرف البحر أن يفكروا فىه. فى ماىن هم «أكثر مىلا إلى التصءىق بالقضاء عنهم من التصءىق بالقءر؛ ولأن ىركزوا [انتباههم] على ءورات الحىاة عنهم عن التركزى على المتغىرات المستمرة». هؤلاء الذىن تعلموا أن يعىشوا مع ولىس فقط على السواحل، يعرفون أنه من الحماقة الاعتقاء بأنهم ىسبىرون بالكامل على أقءارهم. لم ىكن هؤلاء قءرىن، ولكنهم ىحترمون المء والجزر والتىارات التى تحءء إىقاع ومستوى عالمهم. من

هذا المنطلق هم لايزالون مشابهين للجامعين القدماء، حراس طرائد أكثر منهم بستانيين، والذين يعتبرونه قدرهم أن يحولوا الطبيعة. يؤمن المؤرخون، الذين عملهم هو سرد القصص الدرامية ذات التغيير الخطي لمستقيم، كذلك بالقدر، وهذا هو أحد أسباب تباطؤهم في منح الطبيعة، والسواحل والشعوب الساحلية، مكانا في روايتهم. نتيجة لذلك، فقد فشل هؤلاء المؤرخون في سرد جزء مهم من التاريخ الإنساني⁽⁶⁶⁾.

استيطان السواحل

شيء بارد هي الخريطة، غير
لطيفة ومملة، وليدة الفرجار ولوح
الرسام المحترف. لا يظهر الخط
الساحلي هناك، تلك الخريشة غير
المنتظمة بالحبر القرمزي، لا رمل
ولا بحر ولا صخور، إنها لا تخاطب
أي بحار.

بيريل ماركهام⁽¹⁾

لا وجود للخطوط الساحلية في الطبيعة، إنها
نتاج مبادرة إنسانية، جرى تخيلها في البداية،
ثم اكتشافها، ثم تسميتها، وأخيرا استطلاعها
واستيطانها. وبما أنني مؤرخ، فإن مهمتي هي
أن أسرد ليس قصة شيء مادي بل قصة عملية
ثقافية، وهي العملية التي عن طريقها ظهر
فهمنا الحديث للسواحل. إن الكلمة، المشتقة من
أصلها اللاتيني *costa*، تعني أصلا جانب (Side)

«لم تنتبه الشعوب الساحلية
إلى الخطوط»

الشيء: جانب قطعة اللحم، جانب الجسد الإنساني، جانب أي قطعة من الأرض أو الماء. لقد اكتسبت الكلمة معناها الحديث فقط مع أواخر القرن الثامن عشر، حيث أصبحت وللمرة الأولى «the coast» أو الساحل، ليس فقط جانبا لشيء آخر ولكنه مكان بحد ذاته. لقد كان في ذلك الوقت كذلك أن دخلت كلمة coastline أو الخط الساحلي إلى مفرداتنا، معطية شكلا لذلك العالم حيث تلتقي اليابسة بالبحر، خالقة شيئا مختلفا تماما عن سواحل العصور السابقة⁽²⁾.

لم يخلق أسلافنا فرقا حادا بين الأرض والماء كما نفعل نحن الآن. لقد كانوا يفضلون رؤية الكوكب على أنه terraqueous أو بري - مائي، وهو المصطلح الذي كان يستخدم بشكل متكرر في القرن السابع عشر. فحتى وقت قريب، قاومت السواحل الثبات الذهني والمادي. لطالما اقترب البحارة منها بخوف عظيم، حيث يعرفون أنها أكثر فجائية وغدرا من البحر بحد ذاته. لقد كان يقال عن سواحل نوكا سكوشا - اليوم تعتبر واحدة من أجمل المناظر الطبيعية في العالم - إنها كانت منفرة للزوار القدماء، هي من الأماكن «التي تتحول العين عنها باستياء مؤلم». ولكن لم يكن السكان بحد ذاتهم أقل تنفيرا، والذين حتى القرن التاسع عشر كان سكان الأراضي الداخلية يعتبرونهم برابرة، مشهورين بسوء سمعتهم بأفعال «الزنا، وتعدد الزوجات، وسفاح الأقارب، والسكر...» وفقا للجغرافيا الإنجليزية التي سادت حتى ذلك الوقت، فإن الرب قد أتلف الأرض التي كانت في يوم سوية كعقوبة على آثام البشرية، حيث سخر البحر في مواجهة الأرض وحط من السواحل إلى «لا شيء سوى الخراب». إن السواحل الصخرية التي نعتبرها الآن حصونا طبيعية، باعتبارها خط دفاعنا الأول، كانت حينها تُرى على أنها نقاط ضعف، ومصادر قوية للأوبئة والموت. لقد كان الأشخاص المتربطنون بالسواحل يُعتبرون بهمجية البحر بحد ذاته، وعليه يجب تفاديهم ما أمكن. وحتى اليوم، هناك شيء مختلف حول السواحل. فبالنسبة إلى شونا ماكيب: «مثل كل الأراضي الرطبة، يعتبر خط الساحل أو «أرضا صلبة» terra infirma، متكلسة ومحددة بالقدر نفسه، ليست بياسة ولا ببحر، هشة ومرنة في الوقت نفسه، ترمز بالتساوي إلى الموت والبعث، والعزل والحميمية»⁽³⁾.

السواحل غير المستوطنة

باستثناء إسبانيا، لم تكن هناك قوة إمبريالية أوروبية حديثة مهمة بامتلاك خط ساحلي مستمر، حتى الجهد الإسباني كان قليلا جدا نسبة إلى الطموح. بدلا من ذلك،

أسس الهولنديون، والإنجليز، والفرنسيون مقاطعات ساحلية أو نهريّة معزولة، ومراكز تجارية يستطيعون إدارة التجارة منها. لقد استوطن هؤلاء أماكن متنوّعة ومنفصلة - جزرا، وخلجان محمية، وأنهر عريضة، وأي مكان يسهل الوصول إليه عبر الماء. وكإمبراطوريات تجارية وليدة البحر، لم يكن لديهم اهتمام كبير بالأرض بحد ذاتها. عندما بدأ الإنجليز باستيطان نيو جيرسي في القرن السابع عشر، تجاهلوا تماما الشواطئ التي أتت أخيرا لتحديد الولاية وتجعل من عقارها الأثمن بين عقارات العالم⁽⁴⁾.

كانت الأراضي ذات أهمية بالنسبة إلى الهولنديين والإنجليز والفرنسيين فقط لمجرد أنها تعطي منفذا للمياه والبضائع من خشب، وفرو، وسمك، وهي التي جذبتهم إلى العالم الجديد أصلا. في القرن السادس عشر، عسكر هؤلاء على السواحل لكنهم لم يكونوا مستعمرات دائمة. وحول ماين كان يقال «كانت اليابسة فكرة متأخرة، شيء يوضع له طرف». إن صنع هذا الطرف كان عملية ممتدة ومتنازعا عليها، عملية تصورها ثورو إلى منتصف القرن التاسع عشر على أنها بالكاد بدأت، وأنها لم تنته حتى إلى هذا اليوم. في البداية حدثت زيارة وجرى تخطيط نقاط قليلة فقط على طول الساحل، تحديدا الموانئ العميقة ومصبات الأنهر، في حين جرى تجاهل البقية. لقد كانت سواحل أمريكا الشمالية حقا terra infirma أو أرضا صلبة، عتبة توفر منفذا ولكنها تقاوم الاستيطان. لم تكن هناك ضرورة إقليمية فاعلة في أمريكا الشمالية مثل تلك الفاعلة في إسبانيا الجديدة. لقد أدار القادمون الجدد ظهورهم إلى المناطق النائية ليواجهوا البحر حيث بقوا أكثر قربا وارتباطا بأوروبا عن الداخل الأمريكي. لم يصبح المستوطنون حضارة قارية لا شاطئية إلا بعد أن فازوا باستقلالهم وبدأوا عملية بناء أمة⁽⁵⁾.

حتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت الضرورة المائية هي المسيطرة. ففي عصر التنقل المائي، لم يكن لأي مكان دون منفذ للمياه، نهري أو محيطي، أي فرصة في البقاء. فكما كان آدم سميث يعي جيدا، أن من التجارة والإنتاج معا يعتمدان تماما على المياه. لم تجلب هذه المياه المواد الخام والبضائع التي اعتمدت عليها التجارة فقط، لكنها كانت مصدر القوة التي أدارت الرحى والأجهزة الميكانيكية والتي بدورها حركت التطور الصناعي الأولي. فقبل أن تتجه الصناعة إلى القوى البخارية، كانت مرتبطة بالمياه. لقد وجد الهولنديون ما كانوا يبحثون عنه على مصب نهر الهدسون المتسع. لقد استفاد الفرنسيون، وهم شعب نهري عظيم، أكبر استفادة من الممرات المائية الداخلية،

فيما كانت أوائل المستعمرات البريطانية غالباً على الجزر. أدارت المستعمرات الأولية في أمريكا الشمالية ظهورها إلى الأراضي الداخلية النائية. لقد كانت المستعمرات الأمريكية لإنجلترا توصف بأنها «متشظية، هشة في تأثيرها القاري»، حيث إنها أكثر ارتباطاً بكثير بالبلد الأم عنها ببعضها البعض، كانت تبدو مثل الجزر أكثر منها أراضي يابسة⁽⁶⁾.

إن فكرة الساحل كحد خطي مستمر بين الأرض والبحر لم تصل حتى بدأت جهود بناء الأمة لولاية إقليمية مستقلة جديدة، مؤسسة على نوع جديد من الرأسمالية التي كانت أقل اعتماداً على التجارة منها على الزراعة والإنتاج الصناعي. عندها، ولأول مرة، جرى تخيل السواحل على أنها مستمرة، كحواف لشيء أعظم يدعى تحديداً قارات. لم يظهر مفهوم القارات حتى اكتشاف الأمريكتين، ولم يحدث سوى في القرن التاسع عشر أن تحول مركز الجاذبية السياسية والاقتصادية من السواحل إلى المناطق الداخلية. حتى وقتها، كانت الأرض المتاخمة لساحل أو ميناء تدعى hinterland أو أرضاً نائية وكان يفترض أنها تنتمي إليهما عن كونها تنتمي إلى القارة بحد ذاتها⁽⁷⁾.

إن فكرة القارة ومفهوم «الخط الساحلي» قد ظهرا متزامنين. كانت السواحل في البداية ترسم من البحر، بحيث لا توجد طريقة سهلة للوصول إليها من الأرض، في حين لم تعكس مخطوطات البحر فقط اهتمام ملاك الأراضي بل البحارة أيضاً الذين يسعون إلى العثور على موانئ آمنة وأراضٍ محمية. لقد صوروا الساحل الذي يقع بين البينين على أنه رتيب ساكن. بالنسبة إلى البحار كانت تلك أرضاً سائبة، مجهولة وبالتالي خطيرة، هي شيء يجب الابتعاد عنه. وكما كان يعرف كل القباطنة الساحلين، «إن أمن مسافة بين النقاط نادراً ما تكون خطاً مستقيماً». يصغي مسار البحار إلى التيارات، والرياح، ولسمات الأشياء أسفل المياه التي لم يكن ممكناً إيجادها على أي خريطة، حيث إنها معروفة فقط للمحليين، الذين كان يعتمد عليهم لقيادة السفن الأجنبية المقتربة من السواحل المجهولة⁽⁸⁾.

«إن المشاهد الطبيعية بلا أسماء للأماكن محيرة مربكة»: هكذا يكتب بول شيبارد، وهذه «التي هي بلا قوالب تصنيفية، سيئة جداً». يتفق جيمس هاملتون باترسون مع فكرة أن طريقة ترويض مشهد طبيعي مخيف تكون بإخضاعه لسلطة اللغة. إن إعطاء المياه مسميات ساعد في تهدئة مخاوف البحارة القدماء. لقد تغلبت أوروبا تدريجياً على رعب الفوضى المطوقة التي أسماها القدماء Oceanus أو المحيط وذلك

عن طريق تسمية وتخطيط البحار القريبة من السواحل. لقد أسماوا هذه البحار على أسماء الأراضي المجاورة - بحر فرنسا، بحر إسبانيا - بيد أنه قد مضى وقت طويل قبل أن تجري تسمية الجسم المائي الذي ندعوه الأطلنطي أخيراً، متبوعاً بالهادي. حتى بعد أن جرى إنجاز ذلك، كل من هذه المحيطات بقي مجهولاً ضخماً، شيئاً يجري قطعه وليس هدفاً للوصول إليه بحد ذاته⁽⁹⁾.

الخطوة التالية كانت تسمية أكثر أجزاء البحر خطراً، ذلك الذي يقترب من الأرض. بالطبع فإن سواحل أمريكا لم تكن قط بلا أسماء، بيد أن الأوروبيين قد شرعوا في تبديل الأسماء الأمريكية الأصلية الوصفية - Far Away Island أو الجزيرة البعيدة، Burned Place أو المكان المحروق - بمصطلحات أكثر ألفة وأقل إرباكاً، بيد أنهم في البداية تركوا كذلك الساحل المستقيم من دون تعريف. عندما ازداد الازدحام الساحلي خلال القرن الثامن عشر، ارتفعت نسبة التسمية كذلك. فكما بين هوراس بيك: «لا يمكن تسمية الصخور حتى يجري إيجادها، الطرق المعتادة لإيجادها - من أجل غرض التسمية - كان بأن تطلق سفينة باتجاهها». لقد أنتجت الحوادث المؤسسة كلمات عامة طريفة أطلقت على بقع من ساحل ماين. فقد دعي نتوء من جزيرة مونيهيجان باسم Cold Arse أو المؤخرة الباردة، فيما سميت سلسلة الصخور بالقرب من جزيرة كرانبري العظمى مبدئياً باسم Bunker's Whore أو مومسبنكر وذلك نسبة إلى امرأة غرقت بينما كانت تجدف باتجاه سفينة الكابتن بنكر لتصعد على متنها. لاحقاً، التزاماً بالمعايير الفيكترورية، تحول هذا الاسم إلى Bunker's Ledge أو نتوء بنكر، فيما أعيدت تسمية المؤخرة الباردة باسم Ragged Island أو الجزيرة الشعثاء⁽¹⁰⁾.

وفي أعقاب رسامي الخرائط ظهر الفنانون، ولاحقاً كذلك المصورون الذين سيجمدون زمنياً الطبيعة الانسيابية للساحل. في البداية، عمل الفنانون من على متن السفن، عائدين بأنظارهم في اتجاه الأرض، مؤطرين المرسى والخط الساحلي في انسجام مع التقاليد الأوروبية في رسم الموانئ. وعليه فقد صُورت الأماكن البعيدة والمحمية على أنها أقل إرعاباً. وقد جرى تطويع موانئ مختارة قبل أن يتخلص من مخاوف بقية الساحل بزمن طويل. فقط إزاء نهايات القرن الثامن عشر بدأ الفنانون في جعل الأجراف والسواحل الصخرية مواضع لأعمالهم، وقد كان في وقت لاحق أن واجه هؤلاء البحر المفتوح في محاولة لتصوير قواه وعظمتها اللامتناهيين⁽¹¹⁾.

إخضاع الساحل

كان الساحل، في معظم التاريخ الإنساني، كما يصفه بول كارتر «متقطعاً بعناد، سحيقاً، غير عقلائي، مستحيل الإصلاح». لقد كان الساحل ينتمي إلى البحر وعليه فقد كان يعتبر خارج نطاق السيطرة البشرية. لقد استغلت البشرية سماته الطبيعية على مدى ألف سنة، ولكن فقط نسبة صغيرة جداً من الساحل وفرت ميناء آمناً، خاصة بالنسبة إلى السفن الشراعية الأضخم حجماً. لقد صدم زلزال لشبونة العظيم العام 1755 أوروبا حتى تعي مدى إمكان أن تكون حتى أعظم موانئها البحرية مكشوفة وضعيفة. إن الدمار الذي صنعه التسونامي الناتج عن الزلزال، والذي تضخم بحكم هيكله ميناء لشبونة، كان بعظمة ذاك الناتج عن الزلزال بحد ذاته⁽¹²⁾.



عرض لأثار زلزال وتسونامي لشبونة العام 1755. تم نشرها في 1756. الصورة مقدمة من مجموعة كوزاك، الأرشيف الإلكتروني لمؤسسة NISEE لهندسة الزلازل، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

لم تجد سفينة المايفلور أي مرسى على ساحل ماساتشوسيتس؛ لذا كان عليها أن تلقي بمرساها مقابل بلاموث وتبقي ركابها على متنها حتى يتمكن المهاجرون من بناء موقع يمكن سكناه. لم يترك هؤلاء أي أثر أو دليل على كونهم هبطوا إلى الساحل على الصخرة التي ستولج بها الأجيال القادمة على أنها مكان المنشأ في التاريخ الأمريكي. في الحقيقة، لقد أجبروا على بناء جسر على الصخور وذلك حتى يتمكنوا من التحميل هناك. الأنهر كذلك أثبتت أنها ليست بأكثر ترحيبا، فالاختراق الإنجليزي للدخل توقف على خط المنحدر حيث أوقفت التيارات المائية القوية تقدمهم أعلى النهر. لقد تفادى الفرنسيون التيارات النهرية عن طريق حملهم للمراكب والأدوات عبر اليابسة، بيد أن الإنجليز استخدموا سفنا أثقل والتي لم تكن لتتحرك حتى تعلموا بناء القنوات وتوظيف أبقالها. لم يحدث ذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر، عندما بدأت المواقف تجاه الطبيعة بحد ذاتها تتغير، وفكرة هندسة الساحل، واستصلاحه من أجل أغراض منفعية، بدأت بالبروز⁽¹³⁾.

إن المقدرة على «التفوق بالحيلة على الطبيعة، وإخضاعها» كانت ولوقت طويل حلم مخططي المدن الأوروبيين المثقفين الذين كانوا يفكرون في توفير منفذ أسهل للبحر لمدن مثل بوردو. في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، بدأ هذا الحلم بالتحقق عن طريق المسح والتخطيط، راسمين خطوطا حيث لم يكن للبشر وجود من قبل، صانعين «طرفا محايدا» جديدا تماما متوافقا مع المنطق الديكارتي للبحارين قليلي الخبرة^(*). كان ذلك أول جهد مبذول لإعادة تشكيل الساحل وفقا للتصميم المنطقي، ومن هذه النقطة فصاعدا أصبح الاقتصاد الرأسمالي وولايات الأمة أكثر إصرارا على جعل الساحل متوائما مع احتياجاتهم، وهو المجهود الذي يتعارض مع الطبيعة ويتناقض مع التاريخ السابق للسواحل والسكان الساحليين. بحلول نهاية القرن التاسع عشر، كانت هذه الحملة الذهنية والمادية العصرية قد اكتملت بشكل كبير. لقد جرى ترويض البحر، وتحجيم «حوافه الخطرة إلى مجموعة من الإحداثيات التي يمكن قياسها». ليس فقط تحويل الساحل بشكل كامل، ولكن جرى كذلك تهجير

(*) المنطق الديكارتي إشارة إلى نظام الإحداثيات الذي طوره رينيه ديكارت؛ حيث يجري تحديد أي نقطة في نظام من خلال تعيين علاقتهما بما يقابلها من جهة المحور الأفقي، ومن جهة أخرى المحور العمودي، على مستوى هندسي مسطح. [المحرر].

سكانه الأصليين بصورة عامة. النتيجة كانت الاختفاء، «الحقيقي والرمزي، لإنسان الساحل، Homo littoralis»⁽¹⁴⁾.

اليوم، عندما تقترب الأغلبية منا من أي ساحل، نفكر نحن في خط يفصل الأرض عن الماء. بيد أن الخطوط المستقيمة، وكما يذكرنا تيم انجولد، غير موجودة في الطبيعة. واقعياً، السواحل متلاشية، متكسرة ومفتتة. الخطوط الساحلية هي قصص خيالية مناسبة لنا، «أيقونة افتراضية لعصر الحداثة، إشارة إلى انتصار التصميم المنطقي المفيد على تقلبات العالم المادي». بالنسبة إلى علماء البيئة مثل راتشيل كارسون، «دائماً ما يبقى طرف البحر حداً مراوفاً عصياً على التعريف»، بيد أن تلك حقيقة ضائعة بالنسبة إلى هؤلاء من الذين نشأوا في عالم قد تغطى تماماً بالجسور والأنفاق وجرت هندسته بشكل تام، حتى إن، وبكلمات ويليام بنتينغ، «تقسيم الأرض لم يسبق لها أن قلت أهميتها عما هي عليه اليوم». وكما يشير بنتينغ، الوصف نفسه يمكن أن يقال عن تقسيم البحر، الذي حتى في المدن البحرية، هو «مستج بالطرق السريعة ومنسي بشكل كبير»⁽¹⁵⁾.

لطالما كان الساحل يُستكشف باللمس والشعور، وبالاستماع إلى أصوات الأمواج تتكسر على النتوءات غير المرئية أو باشتمام الأرض. بداية من القرن الثامن عشر، بدأ البصر يحل محل الحواس الرئيسية الأخرى وذلك عندما جرى دفع ما أسماه مارتن جاي «نظام الرؤية الأفقية لعصر الحداثة» إلى المقدمة. وعلى نقيض الطرق الأخرى للتعرف على العالم، فإن البصر يباعد بالمسافة بين المشاهد والمرآب. إن ثقافتنا البصرية، التي تعتمد بشدة على الرسم الخرائطي لمعرفة الطرق، قد كيفتنا لرؤية الخطوط في الطبيعة حيث لا توجد فعلياً. وبسبب طبيعتها المادية، فإن الشواطئ معروفة بصعوبة قياسها وتخطيطها. يُخبرنا علماء البيئة بأنه يجب معاملة هذه الشواطئ على أنها مناطق متسعة حيث الماء واليابسة لا يفترقان، بيد أننا نصر على رؤيتهما من منظور ديكارتي والذي يفرض ثنائيات binaries⁽¹⁶⁾.

بكل تأكيد، لا يزال هناك من هو عارف بوضعية البحر، ومطلع كذلك على وضعية الأرض وعليه أن يقاوم أي تقسيم ساذجة بين الاثنين. لا يزال هناك سكان ساحليون يعتمدون على البحر من أجل كسب رزقهم، والذين يمثل لهم الساحل مكاناً للإحساس والرائحة والصوت كما هو للإبصار. هؤلاء يمكن أن يوجدوا على كل ساحل، وإن كان

بأعداد متناقصة. بالنسبة إلى الأغلبية منا، فإن البحر هو المجهول العظيم. يظهر البحر في الإعلام فقط عندما تكون هناك كارثة. لم تحمل صحف المدن الكبرى أخبار السفن منذ ستينيات القرن العشرين، وفيما عدا موسم الأعاصير، نادرا ما تعرض خرائط الطقس ما يحدث في البحر. وبكلمات ألان سيكولا: «إن النظرة المحدقة المدنية لم تعد تقع بعد الآن على خط الساحل، وفراغ معرفي يتبع ذلك». لاحظ بول ثيوكس، مقيم في كيب كود، أن «الغريب الذي يتمشى أو يقود سيارته إلى الساحل... دوما ما يرى تقسيمات»، بينما «لا يفرق المحلي بين الأرض والماء، ويستمر منطلقا، في الواقع يشاهد هو ذهنيا أسراب السمك والتيارات الملتفة والسفن الغارقة والصخور التي لا تظهر سوى في وقت الجزر- هي ليست عوائق بل سمات»⁽¹⁷⁾.

إن الساحل في عقلية الإنسان المحلي أقرب بكثير إلى ذلك الذي كان مسيطرا حتى القرن الثامن عشر، عالم مائي حيث الفرق بين الأرض والبحر ضبابي، عادة ما يكون «مملكة مستنقعية (والتي) ليست بمشهد أرضي ولا مشهد بحري». بيد أن الغريب الذي يتقمص الرؤية الحدائية، مختبرا السواحل على أنها حدود، يقف على الساحل، مشاهدا فقط سطح البحر، يستمر في جهله بالسمات الخفية التي يمكن أن تعرف فقط من خلال التجربة المباشرة والمعرفة المحلية. فهذا الشخص، أو هذه، غالبا ما يتجاوز ما يربط الأرض بالبحر، حيث، ونظرا إلى جهلهم بالمفردات القديمة لمثل هذه الأماكن - guzzle أو الإسراف في الوقود، creek أو الجدول، gutter أو القناة، bore أو ارتفاع المد، wrack أو الحطام - فإن ملاك الأراضي لا يستطيعون تسمية وبالتالي في الأغلب لا يستطيعون فهم ما يقع بينهم وبين المحيط المفتوح. فمثل خارطة الطريق التي أوصلتهم إلى البحر، يسجل الغرباء كل ما يقع عبر الساحل كمساحة خالية، ذاك الأزرق المتوحش⁽¹⁸⁾.

صُنْعُ السَّاحِلِ الْحَدِيثِ

كانت عملية استيطان الساحل أكبر بكثير من مجرد عملية تأهيله بالسكان. لقد كانت تعني كذلك وضع هذه السواحل على الخرائط وهندسة سماتها لتناسب أهداف المدينة واقتصادها. فما كان يوما طرف البحر، معرفا بمدى وصول المياه، أصبح ساحل البحر، سمة من سمات الأرض. وما كان عتبة مفتوحة في كلا الاتجاهين أصبح

حدا صلبا. كل سنة تصرف الحكومات حول العالم المليارات محاولة «إصلاح» سواحلها، مجبرين إياها على الامتثال للخطوط التي رسموها في الرمال. بنت الحكومات السدود المضادة للأمواج، والخواصر الأرضية، والأرصقة، وجرفت جبالا من الرمل، وسحبت مزيدا كذلك لتعوض ما جُرف. وباسم حماية الساحل، دمرت الحكومات مصبات الأنهار والأراضي الرطبة، مزعزة في الواقع النظام الساحلي بتشجيعها عوامل التعرية المدمرة والفيضانات الناتجة عن التدفقات البحرية المفاجئة. وكما تظهر العلوم الساحلية الحالية، سيكون من الصعب تخيل نشاط أكثر ضررا يُنفذ باسم حماية طبيعة سواحلنا.

لقد بدأ استيطان سواحل أمريكا الشمالية بشكل جدي في القرن الثامن عشر ووصل أوجّه في أواخر القرن التاسع عشر، عندما جرى استكشاف وتأهيل الداخل القاري لأول مرة. لقد كان الاستيطان هذا أكثر بكثير من مجرد العملية المادية من حيث جعل قرى صيد السمك دائمة، وصنع مرافئ بموانئ ثابتة، وبناء المنارات والحصون. لقد كانت هناك العملية الذهنية كذلك لإعادة تصور العلاقة بين البشر والطبيعة وكذلك بين الأرض والبحر. إن الرغبة في استقرار شكل الساحل أخيرا وإلى الأبد كانت على الأقل بأهمية استقرار البشر على طول خطوط السواحل.

من وجهة نظر البحار، الساحل هو أخطر جزء من البحر، وما كان يسمى على مدى قرون «الساحل المستقيم» هو الأكثر رعبا بينها جميعا. فكما رأينا، كان البحارة القدماء يبحرون من ميناء إلى آخر، ومن مصب نهر إلى آخر، محاولين تجنبه. فما يعتبر اليوم في سوق العقار الأكثر جاذبية بين الممتلكات - الشاطئ - كان يعتبر في حينها terra nullis، فراغا يجب تجنبه. لقد جرى تخطيط الموانئ ومصبات الأنهار في البداية من على متن السفن، وذلك لتسهيل الأمر على البحارة. فحتى القرن الثامن عشر، كانت المخطوطات تعكس رؤيتهم، بتركيز على الموانئ ومصبات الأنهار، بالكاد مصورة الساحل المستقيم. لقد جرى تخطيط الساحل المستقيم من أجل جمهور مختلف، هو ملاك الأراضي. إن استطلاع السواحل كان مشروعا مستنيرا مدفوعا بالضرورة الأرضية لتحديد خطوط الممتلكات وتثبيت الحدود لولايات الدولة الداخلية الناشئة. فقبل أن تكون هناك مساحة، لا بد من وجود حدود. كانت الخطوط الساحلية نتاج الضرورات السياسية لولايات الدولة المشغولة بتعزيز ودعم نفسها.

كانت المملكات القديمة مكتفية بترتيب مراكزها، تاركة سواحلها وحدود أراضيها مشوشة. وكانت الحدود القديمة «لا تعنى بتحديد الإقليم وبدء علاقة مؤثرة مع العالم الخارجي على قدر ما كانت تعنى بعزل وحماية شيء في الداخل». لم تنتبه الشعوب الساحلية للخطوط. ففوق رأي مايكل بيرسون، «شكّل الساحل جبهة ليس الغرض منها أن تفصل وتحتوي، لكنها بالأحرى تجد معناها في كونها منفذاً». لقد تحرك إنسان الساحل بسهولة وبدافع من الضرورة عبر وعلى طول منطقة شملت الأرض والماء. لقد كانت خطوط السواحل لما قبل العصر الصناعي توصف بأنها مناطق للنقل والإرسال، وأنها حواف عوضاً عن مناطق فاصلة. لقد كانت تلك جبهات مفتوحة والتي واجهت كلا طرفي الأرض والبحر، ميسرة الحركة وليست معيقة لها لأجناس البشر والحيوانات⁽¹⁹⁾. كانت السواحل مناطق حدودية قبل أن تكون حدوداً بزمن طويل. كانت أراضي محايدة حيث يمكن للتجار من مختلف البلدان أن يلتقوا على أسس متساوية. باختصار، قربت السواحل بعض الشعوب من بعض بدلا من أن تفرقهم. في بداية العصر الحديث لم تكن السواحل أول خطوط الدفاع، حيث كانت المملكات تفضل أن تتمركز عميقاً في الداخل. لقد طوّرت فكرة الساحل المحصن فقط في القرن التاسع عشر، عندما أصبح التحصين الساحلي في الولايات المتحدة هو أضخم إنفاق عسكري سلمي. إن العصر البريطاني العظيم للدفاع الساحلي بدأ خلال الحروب النابليونية وقد أدى إلى بناء ما يزيد على مائة من أبراج مارتيلو. عندما روع نابليون الثالث، ابن شقيق بوناپارت، البريطانيين دافعا بهم إلى حلقة أخرى من البناء في الستينيات من القرن التاسع عشر، أصبحت الأبراج، التي كانت ضعيفة أمام الأسلحة المدفعية الجديدة، تعرف باسم حماقات بالميرستون. إن الأبراج الخمسة والعشرين التي لاتزال تقف على الساحل لا توفر أي دفاع حقيقي لكنها محفوظة كجزء من التراث الساحلي البريطاني⁽²⁰⁾.

ولادة المرفأ

في عصرنا الحالي للتجديد الضخم لخط الساحل، وحين تستغل كل مدينة ذات منفذ للماء هذا التجديد كمصدر للثراء السكني والاقتصادي، فإنه يصبح من الصعب تصديق إن كان هناك وقت أدارت فيه المدن ظهورها إلى البحر، مبعدة نفسها قدر المستطاع عما كان يعتبر من صفاته الخطرة المهيمنة. بالنسبة إلى شمال أوروبا، لم يتحقق الصلح بين المدينة

والبحر حتى تحقق التوسع في التجارة عبر البحار في بداية العصر الحديث. لقد كان في حينها أن وزعت أمستردام نفسها حول ممراتها المائية، وأصبح الخط الساحلي مركزا للحياة الاجتماعية للباريسيين واللنديين. خلال الفترة نفسها، تخيل المصممون المدنيون إحصار البحر إلى المدينة أو المدينة إلى البحر، وذلك على الرغم من أن هذا العداء القديم بين النظام المدني والفضي البحرية لم يختف تماما، خصوصا على طول الساحل الأطلنطي. إن الأساطير حول المدن الغرقى لطالما لاحقت الخيالات الأوروبية. كان يعتقد أن مدينة أفلاطون الخيالية، أطلانتس، موجودة في المتوسط بداية ثم بعد ذلك في الأطلنطي، والأساطير المحلية، مثل تلك التي تدور حول مملكة ليونيس الغارقة، والمستقلية في مكان ما بين كورنويل وجزر سيسيليا، كذلك قد تلاعبت بمخاوف هؤلاء الذين يحيون على طول الساحل. مثل أطلانتس، كانت ليونيس حكاية تحذيرية لأناس ساء مصيرهم بسبب فسادهم. كل من كان يعيش بالقرب من ساحل ما كان يعرف بقرى ومدن قد دُمرت بشدة بسبب العواصف، وأخرى، مثل دونويك، التي اختفت تقريبا تماما. إن الربط بين البحر والموت والخراب استمر ثابتا في العقول الغربية حتى نهايات القرن الثامن عشر، وذلك عندما تغلب إغراء البحر أخيرا على مساوئه. لقد اجتمع البحر بالمدينة في وقت متأخر، ومن البداية كانت تلك تركيبة غير مستقرة لم يتجاوز وجودها القرن العشرين. واليوم، لا وجود لمدينة المرفا، ففي عصر سفن الشحن، أصبح المرفا والمدينة كيانين منفصلين مجددا⁽²¹⁾.

لقد كانت ولادة المرفا نتاج ذات القوى الاقتصادية التي استوطنت السواحل في بداية العصر الحديث. فعلى الرغم من وجود الموانئ صنعة الإنسان في العالم القديم، فقد أصبح شائعا الاعتماد على الموانئ الطبيعية وضاف الأنهر. تركت مواقع الرسو ومواقع التجارة المؤقتة القليل من الأثر على وجودها. في أوروبا الشمالية كانت المرفأ الصخرية والأرصفة الممتدة داخل البحر شديدة الندرة، ولم تصبح أرصفة التحميل شائعة إلا في القرن الثامن عشر. إن زوار سيغتونا اليوم، والتي كانت ذات يوم أكثر المواقع التجارية في السويد ازدحاما لكنها اليوم أصغر مكان في السويد لا يزال يشار إليه على أنه مدينة، يعانون صعوبة في تخيل أمجاد هذه المدينة الماضية. وجود مطار أرلاندا الدولي بقرب المدينة فقط هو ما حفظها من الزوال التام. توجد آلاف مما كان ذات يوم مرفأ مزدهرة وحيث لا يوجد فيها أي شيء اليوم. لقد كانت تلك أكثر بعض الشيء من كونها شواطئ أو شقوقا في الجروف حيث يمكن إلقاء المواد المشحونة على أظهر القوارب المنتظرة. على ساحل كاليفورنيا، هناك دزينات مما كنا ندعوه ذات يوم «مرفأ حُفر الكلب»، هي

موانئ بالكاد تكفي، كان يقال، لكلب لكي يلتف حول نفسه فيه. معظم هذه الموانئ قد اختفت من دون أن تترك أي أثر، ومن غير اسم حتى ليذكر بوجودها السابق⁽²²⁾. في شمال أوروبا، انتقلت المرافئ تدريجياً باتجاه السواحل، حيث أصبحت أقرب إلى المدن في حد ذاتها، مبعدة نفسها عن نظائرها من المدن الداخلية. لقد كان هناك تكاثر للمرافئ الصغيرة في القرن الثامن عشر، فقط ليجري استبدالها بالقليل من الموانئ الضخمة بحلول نهاية القرن التالي. في العالم الجديد، كان كل من الأمريكيين الأصليين والأوروبيين يفضلون «المراسي» Landings كمواقع تجارة، محتفظين بمجتمعاتهم الدائمة على درجة من البعد عن البحر، والتي تعتبر إشارة إلى الاحترام الذي تحمله كل الشعوب الساحلية تجاه القوى المدمرة للمحيط والخوف من هؤلاء الذين قد يصلون بشكل مفاجئ عن طريقه. كانت الشعوب الأصلية تفضل تجديد زوارقها إلى حيث السفن الأوروبية، مقايضين إياهم على المياه بدلا من المخاطرة بالسماح لهم بالرسو. في معظم الوقت، كان قباطنة السفن سعيدين بهذا الترتيب، حيث كانوا أكثر حماية لسفنهم المسلحة أو الجزر المحصنة⁽²³⁾.



مرقاً حفرة الكلب على ساحل كاليفورنيا الشمالي.

الصورة مقدمة من مكتبة الكونغرس.

في شمال أمريكا، ظهرت المدن أولاً على الساحل عوضاً عن الداخل. كل المدن الشمالية أمريكية الاستعمارية الرئيسية كانت مبدئياً مرافئ بحرية، أنشئت من أجل أغراض التبادل و فقط لاحقاً طورت مؤسساتها الدينية والمدنية التي كانت بذات براعتهم التجارية. وعلى العكس من إسبانيا الجديدة، لم يكن مركز الحياة المدنية في أمريكا الشمالية هو ميدان المدينة أو ساحتها العامة ولكن كان المركز هو الميناء، الذي كانت تقابله كل المباني العامة والخاصة الرئيسية، والذي كان يخدم على أنه «غرف خارجية ضخمة» التي كانت كل الطرق تقود إليها وكل الانتباه يتوجه نحوها. فمن البداية، مَدَّ سكان هذه المدن أياديهم ليعانقوا البحر، حيث بنوا المرفأئ وأرصفت الموانئ. في البداية، لم تكن مدن أمريكا مألحة المياه امتداداً للأرض بقدر ما كانت امتداداً للماء. فقط لاحقاً تسببت الضرورات الأرضية بملاء المدن بالمرفأئ والموانئ، وهي الحركة التي قاومها في البداية البوسطونيون (سكان بوسطن) على أساس أنها أعاققت «طريقاً (مائياً) سريعاً أعظم من أي طريق سابق جرى تخطيطه أو إنشاؤه عبر مفوضية أي مدينة أو مقاطعة... لقد جرى تخطيطه وصنعه بواسطة الخالق العظيم نفسه»⁽²⁴⁾.

فعلى جانبي الأطلسنطي، لم تكن المرفأئ البحرية الأولى تنتمي إلى الساحل بقدر كونها تقع على الساحل. كان العديد منها يقع على جزر حقيقية، وأخرى كانت تقع على أشباه الجزر. كل تلك كانت منفصلة عن الأراضي حولها. كانت للمرفأئ، مثل مرفأ بوسطن، أراضٍ نائية ضحلة المياه، وبعضها الآخر لم يكن له أي منها مطلقاً. كان للمرفأ الفرنسي على جزيرة كيب بریتون، القلعة الفرنسية عند لويزبورغ، القليل من الاتصال مع ساحل اليابسة الصخري أو مع الغابة المخيفة في الداخل. «إن الأراضي النائية الحقيقية للويزبورغ»، كتب جون ماكنيل: «ومصدر ثرواتها يقع عبر الساحل». في بداية العصر الحديث، كانت المرفأئ البحرية متصلة بشكل أكبر بالمرفأئ الأخرى أكثر من اتصالها بأراضيها النائية، فتلك كانت بطبيعتها *entrepôts* أو مراكز تجارية، وهي كلمة مشتقة من الكلمة الفرنسية التي تعني «warehouse» أو «مخزن». كانت المرفأئ تفهم في البداية على أنها مراكز تجارية حيث يمكن أن يجري تصدير واستيراد البضائع التجارية عن طريق المياه من دون دفع ضريبة الاستيراد⁽²⁵⁾.

إن أمستردام الجديدة الهولندية كانت مجرد مركز تجاري، لا تنتج شيئاً ذاتياً للتصدير. سيمر وقت طويل قبل أن تطور خليفتها الإنجليزية، نيويورك، علاقة مع الأرض في حد ذاتها. كان ذلك واقعا كذلك بالنسبة إلى المواقع الفرنسية الأولى في سانت كروا وبورت رويال. لم ينو البيوريتانيون الذين استقروا في بوسطن في العام 1630 أن يجعلوا منها مرفأ، ولكن عندما فشل حلمهم في تكوين اقتصاد رعي داخلي، التفتوا مجدداً إلى البحر ليكسبوا المال من صيد السمك والتجارة الساحلية. كل هذه المرفأ القديمة كانت عقداً في شبكات معقدة حيث كانت الأرباح تصنع من البضائع المتبادلة وليس من تصدير واستيراد الأشياء من الأراضي الداخلية في حد ذاتها. فلو أن هذه المرفأ وُجدت فقط لتقوم بأعمال تجارية مع الأراضي النائية قليلة السكان التي هي في بدايتها قليلة الإنتاج، ما كانت لتكون قادرة على البقاء أصلاً⁽²⁶⁾.

كمراكز تجارية، كانت المرفأ البحرية أماكن مقصودة في حد ذاتها. مع ذلك، أصبحت هذه المرفأ أخيراً نقاط عبور إلى دولهم. بمرور الوقت، جرى استبدال المخازن بالمصانع حيث إنها أضافت الإنتاج لنشاطاتهم التجارية، أصبحت المرفأ أقل شبهاً بالجزر عبر الساحل وأكثر ارتباطاً بالأراضي الرئيسية، أولاً عبر القنوات، ولاحقاً عبر الطرق، وأخيراً عن طريق سكك الحديد. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، لم تعد تلك تنتمي إلى البحر لكنها أصبحت نقاط عبور بينه وبين الداخل. ازدهرت نيويورك عندما أصبحت مرتبطة بالغرب الأوسط عن طريق قناة إيربي في عشرينيات القرن التاسع عشر. وجدت بوسطن نفسها، من دون وسائل اتصال مائية مشابهة باتجاه اليابسة، في وضع سيئ حتى أنقذت عن طريق السكة الحديد⁽²⁷⁾.

صناعة الواجهاث المائية

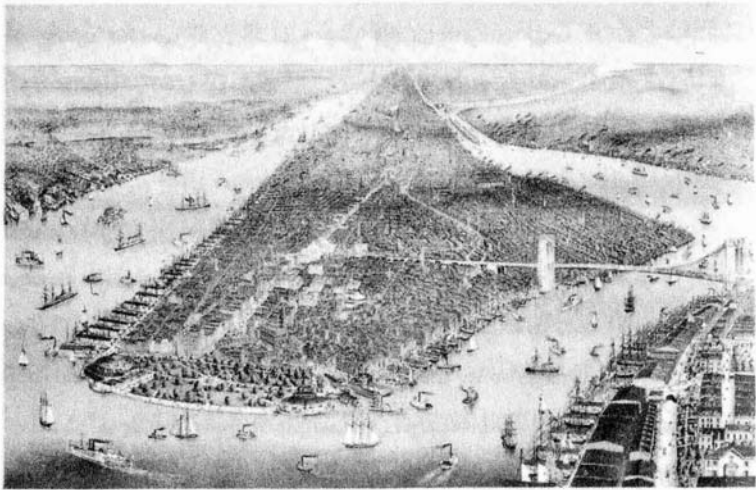
في البداية، استغل البحارون السمات الطبيعية، ولكن لم يمر وقت طويل قبل أن يبدأ سكان المرفأ «بتحسين» منافذهم للماء، حيث بنوا أرصفة الموانئ ومد الجسور لتحل محل مراسي المياه الضحلة القديمة. في لندن، سبب التوسع الضخم في التجارة الساحلية في القرن الثامن عشر اكتظاظ نهر التايمز حتى إن المدينة أصيبت

بهستيريا بناء أرصفة التحميل. تطلبت السفن المتعاطم حجمها تغييرات والتي سرعان ما تسببت في استبدال البيئة الانتقالية القديمة بحافة من نوع جديد، التي جرى وصفها بالمصطلح المخترع حديثاً waterfront أو الواجهة المائية، والذي وضع فاصلاً أكثر حدة بين الأرض والماء. بيد أن هذه الأعمال الفذة الصناعية تدخلت في نشاط الحثّ الطبيعي لتيارات المياه عند مصبات الأنهار ومياه الأنهار المتدفقة، مما أدى إلى تراكم الرواسب النهرية وبالتالي ضرورة إزالة الموانئ. لقد سبب تطويق نهر التايمز بالسدود إغلاق طريق فيضانه نحو السهول وهو ما سبب فيضانات متكررة في المدينة. في اليابان، أدى تعميق الموانئ وتقويم القنوات إلى زيادة سرعة وحجم الأعاصير، التي بدورها استوجبت خلق مصطلح جديد، tsunami أو التسونامي أو «موجة الميناء»، وذلك للتفريق بينها وبين سلوك البحار عندما تقترب من السواحل عن طريق الأنهار المتعرجة والأراضي الرطبة الساحلية⁽²⁸⁾.

وحتى عندما مدت المرفأئ ممراتها باتجاه البحر، فإنها أصبحت أكثر ارتباطاً بأراضيها النائية، لتتقسم أخيراً بين المقيمين الذين كانوا يكسبون قوتهم عن طريق البحر وهؤلاء الذين كانوا منتظمين في أنشطة أرضية خاصة. لقد أصبحت تلك أقل شبيهاً بالجزر وأكثر قارية، وذلك إما عن طريق مد الجسور وإما ببناء الأنفاق. ومع بناء جسر بروكلين في العام 1883، فقدت مانهاتن طبيعتها الجزيرية. لقد كان يقال إن «القارة قد امتدت حتى إن الشخص يمكنه، بقديمين جافتين ومن دون استخدام العبارات، أن يزور كل مدينة من الأطلنطي وحتى Golden Gate أو البوابة الذهبية». بحلول ذلك الوقت، وباستثناء خطوطهم الساحلية، أصبحت مدن المرفأئ جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الرئيسية، الحافة الصلبة من القارة⁽²⁹⁾.

بالتأكيد، بقيت المرفأئ الصغيرة، التي فاق عددها الموانئ العميقة بكثير وذلك حتى القرن التاسع عشر، بيئة انتقالية، تربط الأرض بالبحر. في أيامها الأولى، لم يكن لمدينة سيلم خط ساحلي واحد ولكن عدة خطوط، وذلك لأنها ومثل العديد من المستوطنات الأخرى على ساحل ماساتشوسيتس، كانت محاطة بالمياه. كان الناس ينتقلون عبر القوارب، وكل الشوارع كانت تقود مباشرة إلى المياه. كان التجار، الذين غالباً ما كانوا يصحبون سفنهم إلى البحر، يعيشون أقرب ما يمكن إلى المياه.

كانت الزراعة وصيد السمك لايزالان متلازمين في كل مكان، وقليلون فقط هم من جعلوا من البحر مهنتهم مدى الحياة. فقط في المرفأئ الأكبر حجما في أوروبا وأمريكا الشمالية ظهر شيء مثل رجل البحر أو الصياد المتخصص تماما، وحتى عندها فإن فكرة «البحرية» كانت تعني مجاورة البحر عوضا عن الانتماء الكامل إليه. هؤلاء الذين كانوا يصطادون السمك مارسوا المهنة موسميا أو أنهم خرجوا للبحر لسنوات معدودة خلال شبابهم، وعليه فإنهم لم يكونوا نسلا منفصلا لكن في الواقع يصعب تمييزهم عن الآخرين المنتمين إلى الشعوب الساحلية حول حافة الأطلنطي بأكملها⁽³⁰⁾.



نظرة تحليقية لمانهاتن. كورير وأيفز، 1884. الصورة مقدمة من كوريس.

في البداية، أرسل سكان المناطق مثل بوسطن، وفيلادلفيا ونيويورك أبناءهم إلى البحر ليتعلموا التجارة. أصبح أكثرهم اقتدارا قباطنة سفن وتجارا رحلا حول العالم. لقد كان الخروج إلى البحر في البداية يعتبر مرحلة في الحياة أكثر منه إشارة إلى مستوى طبقي. ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، أصبح كل من صيد السمك والخروج إلى البحر عملا مستمرا مدى الحياة. ظهرت التقسيمات الطبقيّة على الخط الساحلي، وبحلول أواخر القرن التاسع عشر ظهر في كل مكان «بروليتاري

أعماق البحار»، الذي يجري توظيفه بشكل متزايد عن طريق المرافئ الأجنبية عوضاً عن تلك الموطنية. لقد كان عند تلك النقطة أن بدأت المدن تدير ظهورها لخطوطها الساحلية. فما كان مركزاً للتعارف وفخر المدينة أصبح ينظر إليه كوجود غريب، ومنطقة خطيرة والتي، مثل البحر في حد ذاته، يجب أن تبقى على بعد مسافة آمنة. إن الحياة الساحلية للبيئة الانتقالية القديمة قد تمزقت إرباً حيث أصبح الخط بين البحر والأرض محفوراً بشكل أعمق وغير مسبوق حول الأطلنطي. ومثل النيويوركيين واللندنين، تجنب الباريسيون الخطوط الساحلية العاملة وهؤلاء العاملين هناك. لقد فضل البرجوازيون المدنيون الآن البرك الصناعية والنوافير عن النهر الذي يجري خلال المدينة⁽³¹⁾.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت الطبقات المحترمة تبتعد عن أرصفة الموانئ، والمدن مثل نيويورك كانت تنغلق على نفسها. لقد انقطع أعضاء طبقة التجار، الذين استفادوا كثيراً من التجارة البحرية، عن الذهاب إلى البحر فيما عدا الإبحار بيخوتهم خلال ساعات الترفيه. لقد كان في ذلك الوقت تقريباً أن تحولت أرصفة الموانئ إلى أماكن استجمام في أيام الأحاد. وكما بين أحد البوسطنيين: «إن أرصفة موانئنا.. كانت في الحقيقة متنزهات مائية للناس، ولم تكن تخلو من دروس حول الأشياء. في أيام الأحاد اللطيفة كانت عائلات بأكملها تتجه إلى هناك. في أيام الإجازات والمناسبات الاحتفالية الخاصة، كانت هذه الأرصفة جذابة جداً». بيد أن أهل المدينة المهذبين كانوا يتفادون الواجهة المائية الساحلية في عطل نهاية الأسبوع، حيث أصبحت هذه منطقة مختلفة، وعالماً بين عالمين، ومثل السواحل الحدودية القديمة، كان مسكوناً بمخلوقات غريبة، هذه المرة من النوع الإنساني. لقد كان هناك أن وُجد «الجديد، والحيوي، والمتغير والغريب». هناك تكدس الغرباء، والمهاجرون، وهؤلاء الساعون خلف مجموعة من النشاطات غير المشروعة: التهريب، والاختلاسات، وتجارة المخدرات، والتجارة بالبشر. بالنسبة إلى المواطنين المهذبين، أصبح خط الساحل منطقة ممنوعة عليهم، «مرتعا مخيفاً للمنبوذين»، ومكاناً يرتاده المدمنون، والمثليون، والمومسات. كان الذكور البرجوازيون يستمتعون بامتياز ارتياد الأماكن الفقيرة عند الحدود المدنية للبحر، بيد أنه لم يكن لامرأة محترمة أن تشعر بالراحة هناك، فيما عدا الصعود إلى عبارة أو سفينة فارهة عابرة للأطلسي⁽³²⁾.

كان العصر العظيم الصعود للواجهة المائية البروليتارية، تقريبا بين العامين 1850 - 1950، مميّزا بسبب بيئته الفريدة والمتأثرة بشدة بالتلوث الناتج من اعتياد سكان المدن على التفكير في البحر على أنه حوض عظيم يمكن تفرّغ كل شيء فيه. سرعان ما خسرت المرافئ البحرية أطرافها الناعمة عندما دمر الحفر ودفن النفايات الأراضي الرطبة التي كانت مصدرا للحياة. عندما استطلع هنري هيدسون لأول مرة ما كان سيصبح لاحقا ميناء نيويورك، فإنه وصفه على أنه جنة عدن، فائض بالسمك وقشريات البحر، بما في ذلك أعظم تجمعات للمحار في العالم، والتي هي قادرة على تنقية كل المياه في الخليجان المحيطة خلال بضعة أيام فقط. ومثل كل الشعوب الساحلية، فإن هولنديي القرن السابع عشر حصدوا هذه الثروة وجعلوها ذات فائدة اقتصادية. وحتى القرن العشرين، كانت المدينة تتغذى على حصاد سواحلها. «كان المحار هو الرابط بين نيويورك والبحر وهو الرابط الذي ضاع تدريجيا»، مع ذلك. اليوم تقريبا كل ما يقدم على نصف المحارة في مانهاتن يؤتى به عبر الجو من حول العالم⁽³³⁾.

بعد منتصف القرن التاسع عشر، تحولت المدن العظيمة ثقافيا، إن لم يكن كذلك فعليا، إلى مدن مغلقة. فالعوالم المائية التي كانت ذات يوم مألوفة أصبحت الآن تعرف بشكل أقل عن طريق الخبرات المباشرة أكثر منها عن طريق الأدب والفن. ولكنه في ذلك الوقت أصبح سكان الأراضي الداخلية مبهورين بالبحر كما لم يكونوا من قبل، معيدين اكتشافه ولكن من زاوية مختلفة تماما، ليس عن طريق العمل بعد الآن ولكن من خلال أوقات الترفيه. وكما ذكر سابقا، في 1850، كان النيويوركيون، الذين لم يعد لمعظمهم أي روابط مع البحر، يتدفقون إلى الخط الساحلي في عصوريات الأحاد. «تقريبا كل الرجال.. في وقت ما، كانوا يحتفظون عن قرب بالمشاعر نفسها تجاه المحيط التي هي لي»، كما كتب هيرمان ميلفيل. لقد كان مذهولا فعلا بما شاهده على خط ساحل مانهاتن: «منصوبين مثل الحراس الصامتين حول المدينة بأكملها، يقف الآلاف والآلاف من الرجال الفانين مأخوذين بخيالاتهم المحيطية. البعض منهم يستند إلى الركاب، وآخرون يجلسون على رؤوس الجسور المائية، البعض ينظر إلى ما بعد متاريس السفن المقبلة من الصين، وآخرون مرتفعون عاليا على الأشرعة والصواري، كأنهم يكافحون من أجل اختلاس نظرة

أفضل باتجاه البحر. بيد أن هؤلاء جميعهم رجال يابسة، ممن يقضون عطلهم الأسبوعية بين الخشب والجبس - مربوطين إلى مناظدهم، مثبتين إلى منصاتهم، متعلقين بمصطباتهم، كيف إذن حدث ذلك؟ هل اختفت الحقول الخضراء؟ ماذا يفعلون هنا؟»⁽³⁴⁾.

لا يزال سؤال ميلفيل يستصرخ إجابة. لقد كان يعتقد دافعا قديما، الدافع نفسه الذي سبب إيقاع نركسوس في غرام عارم بصورته المعكوسة في المياه حتى إنه غاص خلفها وغرق. بالنسبة إليه، قدم المحيط «صورة لا يمكن إدراكها لطيف الحياة». لقد اعتقد تي إس إليوت أن البحر ألمح إلى «خلق سابق آخر»، وهو التصور الذي شاركه فيه هنري ديفيد ثورو، وراثشيل كارسون، وكل هؤلاء الذين يتفوقون مع ميلفيل في أن «التأمل والمياه متزاوجان إلى الأبد»⁽³⁵⁾.

نصف حياة قرية صيد السمك

لم يكن لدى هؤلاء المرتبطين بالبحر بشكل يومي الوقت للتحديق في المياه. لم تصل هذه العادة إلى قرية صيد السمك حتى القرن العشرين، عندما استبدلت الخطوط الساحلية العاملة حوض القوارب marina. مع استثناءات قليلة، أصبحت هذه أماكن حيث «تعرض وتمارس جوانب من صيد السمك، ولكن حيث لم يعد السمك يصطاد أو يباع محليا». إن الصورة النمطية لقرية صيد السمك، بأكواخها حسنة التجهيز، وخطوطها الساحلية المرتبة، وسكانها اللطفاء، تقدم صورة زائفة لمجتمعات صيد السمك من الماضي. نحن نُصر على أن نُسبغ على قرى صيد السمك قديما مصطنعا، مسندين إلى سكانها، الذين اعتدنا نعتهم باسم «fisherfolk» أو «الصيادين»، أصولا جينية كاذبة إلى حد بعيد. تلك هي طريقة أخرى استوطننا بها الساحل، في هذه الحالة، من خلال أوهام نتجت من النظر إلى الماضي⁽³⁶⁾.

لقد كان هناك عدد قليل جدا من قرى صيد السمك الدائمة قبل بداية العصر الحديث، ولم يكن حتى القرن الثامن عشر أن أصبحت هذه القرى شائعة أصلا. فقط عندما أصبح صيد السمك مشروعا تجاريا ظهر شيء مثل مجتمعات صيد السمك، وحتى في وقتها، بقيت تلك «مجتمعات متقلبة»، تتبع السمك، وثوراتهم

تندفق وتنحسر كما هي الحركات غير المتوقعة للفريسة التي كانوا يعتمدون عليها. كانت حياة مجتمع صيد السمك الصغير عادة قصيرة، وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، جرى تجاوزها بوجود المرافئ الكبيرة الحجم، وذلك عندما أصبح صيد السمك مهنة يومية كاملة وفي الأغلب بروليتارية في أعماق البحار⁽³⁷⁾.

حتى عندما تكونت القرى في الموانئ المناسبة على طول الساحل، أبقى سكانها على المسافة بينهم وبين البحر نفسه، موجّهين أكوأخهم باتجاه اليابسة متى تيسر ذلك. كان أول من احتل الشاطئ وبنى مساكن مقابلة للبحر هو سكان اليابسة من الطبقتين العليا والوسطى الذين كانوا مقتنعين بالقيمة الشفائية لماء وهواء البحر. بسبب إغراءات المنتوجات الصحية الداخلية بعود مسرفة بعلاجات إعجازية في منتصف القرن الثامن عشر، بدأ الإنجليز المعتلون والمصابون بوسواس المرض في التدفق إلى أماكن مثل سكاربورو، وبرایتون، ومارجيت، حيث كانوا يدخلون البحر ويخرجون منه بواسطة أجهزة سباحة حديثة الاختراع، ويقضون ساعات لامتناهية يمشطون الشاطئ ويشاهدون معالمه، وهي الأنشطة التي كانت غريبة تماما على السكان المحليين، الذين، كما بينت جين أوستين، تبادوا المياه فيما عدا عند كسب الرزق منه. بالنسبة إليهم «لم يكن البحر خفيا فقط - حتى صوته ورائحته كانا ينقطعان تماما فيما عدا خلال سوء الأحوال الجوية. إن المناظر البحرية متروكة فقط لأهل المدينة، الذين لم يختبروا تهديداته قط. البحار الحقيقي يفضل أن يبقى محبوسا أرضيا عوضا عن مواجهة المحيط»⁽³⁸⁾.

إن حقيقة قرية صيد السمك تسير باتجاه معاكس لكل الصور النمطية التي استثمرت بكل حرص خلال القرنين الماضيين. فكما تبين، أنها ليست نوعا من البقاء لنمط ما قديم من أنماط الحياة مطلقا. على العكس تماما، كانت القرية ظاهرة حديثة تماما، هي نتاج التحولات الاقتصادية العظيمة للعصر الحديث، أولا للثورة الزراعية ثم الصناعية، التي في البداية حركت عددا كبيرا من التنقلات للناس من الداخل باتجاه السواحل. إن الفقراء المطرودين والملوك الصغار الذين فقدوا ممتلكاتهم على الأرض اتجهوا إلى صيد السمك بدافع من الحاجة، في الأغلب كملاذ أخير، وذلك منذ القرن السادس عشر فصاعدا. تكرر هذا النمط عندما اتجه مستوطنو العالم الجديد، بعد أن اكتشفوا عدم إمكان كسب قوتهم من الأرض، إلى البحر بدافع من اليأس.

وكما عبر، بطريقة لا تنسى، سامويل إليوت موريسون عن الوضع: «لم ينفذ الرب معجزة على أرض نيو إنجلاند. لقد قدم البحر. إن الحاجة الملحة خلقت بحارة ممن كان يجب أن يكونوا مزارعين... لقد اتجهت ماساتشوستيس إلى البحر، إذن، ليس بدافع الاختيار، بل بدافع الضرورة»⁽³⁹⁾.

لم يكن الأشخاص العاملون منجذبين إلى البحر بقدر ما كانوا مساقين إليه. لقد كانت أحداث داخلية بقدر ما هي أحداث في البحر السبب في استيطان السواحل. في أسكتلندا، كان ملاك الأراضي العظماء الذين امتدت أملاكهم حتى السواحل مشغولين بصنع «fish-touns» أو قرى صيد السمك في القرن الثامن عشر وذلك عن طريق إجبار مستأجريهم على أن يحصلوا على مبالغ الإيجار من العمل في البحر. لم تظهر قرى صيد السمك المستقلة هناك حتى بداية القرن التاسع عشر، وبقيت تلك فقيرة ومعتمدة على تجار السمك. خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جرى تقييد مجتمعات صيد السمك وحصرها في الموانئ بشكل متزايد، حيث أبعدت عن الشواطئ بدفع من أحدث المهاجرين من الداخل، والمصطافين. اليوم، هم يفقدون حتى أماكنهم في الموانئ، مدفوعين إلى الأراضي الداخلية بسبب ارتفاع قيمة الأملاك وقوانين المناطق المقسمة⁽⁴⁰⁾.

منذ أقدم الأزمنة، كانت قرى صيد السمك نتاج الأسواق التجارية، سواء الداخلية أو تلك التي هي عبر البحار، وعليه فقد كانت معرضة لتذبذب العرض والطلب. لقد كانت تلك القرى غير مستقرة بشكل كبير وعرضة للفشل، كما كان سكانها متنقلين وغير مستقرين، ومستعدين لتجاوز القرية أو العودة إلى الزراعة عندما كانت الظروف تتطلب ذلك. في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، افتقدت هذه القرى الاستمرارية المجتمعية أو الأسرية. أما شهرتهم بزواج الأقارب فقد أتت بعد ذلك بزمن بعيد، حيث، كونهم ليسوا «جنسا مختلفا» مطلقا، كانوا مثل الشعوب الساحلية القديمة الذين كانوا يتنقلون ذهابا وإيابا عبر خط المد وذلك على مدى حياة كاملة، جامعين بين الزراعة وصيد السمك: رجال كل أنواع العمل والتجارة الذين كانت سماتهم المميزة هي تكييفهم وليس تفردهم. في بداية القرن التاسع عشر، كان شعب ماين الساحلي من بين أكثر الشعوب على الأرض سفرا وعالمية. «في الأيام الغابرة، جزء لا بأس به من أفضل الرجال هنا كانوا يعرفون مائة

مرفأً وشيئا عن طريقة معيشة الناس فيها»، هكذا أشار القبطان ليتل بيچ، إحدى الشخصيات الخيالية لسارا أورن جيويت. كان هؤلاء كذلك أحد أكثر الأجزاء السكانية تطورا في أمريكا، حيث كانوا يزدرون كل ما هو قديم لمصلحة الجديد. في أوروبا كذلك، كان البحارة يشكلون مؤشرا إلى الاتجاهات الجديدة في الملبس والحديث. عندما كون هؤلاء جزءا معقولا من الثروة، بنوا منازل جديدة وجهزوها على طرز المدينة الحديثة. كانت ردهاتهم مملوءة بالقطع الغريبة الدخيلة - الببغيات، بيض النعام، المرجان - كما أنهم كانوا يأكلون من أواني الصيني المستوردة. حتى شواهد أضرحتهم كانت جديدة»⁽⁴¹⁾.

إن مفهوم «الصيادين»، مثل الفكرة النمطية حول الفلاحين الفقراء، كانت نتاج الرومانتيكية الروسية Rousseauist لأواخر القرن الثامن عشر، التي دشنت رحلة طويلة للناس، داخل وخارج أوروبا، غير ملوثة بالحضارة. فكما اتجه الجيولوجيون إلى أجراف البحر المتآكلة بحثا عن دلائل أحفورية لأزمان سحيقة، مشط متخصصو الآثار السواحل والجزر بحثا عما اعتقدوه ينتمي إلى أسلافهم الذين يمكن أن يربطهم بماضيهم البعيد. خلال هذه العملية، جرى استبدال صور القرصان والباحث عن السفن الغارقة التي كانت منتشرة في القرن الثامن عشر بتلك التي كانت لفريق قارب الإنقاذ الشجاع ولحارس المنارة. لقد جرى ترويض صورة جاك تار، المرتبطة بالصخب والشجار والتطرف في إنجلترا القرن الثامن عشر، تماما بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حيث أصبح البحارة رموزا للوطنية البريطانية⁽⁴²⁾.

في أعقاب خسارتها للمستعمرات الخارجية، التفتت بريطانيا إلى عملية استيطان سواحلها بحد ذاتها لأسباب سياسية وكذلك اقتصادية. في العام 1786، أنشئت جمعية المصائد البريطانية بغرض إنشاء قرى صيد سمك نموذجية بحيث تخفف من حدة فقر البحارة غير العاملين والملاك الصغار المجريدين من أملاكهم. معظم هذه القرى - توبرموري، وأولابول، ولوج باي، وبولتيني تاون - كانت تقع في أسكتلندا، حيث أخرجت التصفيات الآلاف من أراضيهم. لقد وفرت كل منها خدمات ولوازم لصيد السمك، كما وفرت كذلك أرضية مناسبة لرعاية هذا العمل الإضافي. في لوج باي، أضعف المنفذ الأرضي عمل المسمكة عندما تحول السكان كلهم إلى الزراعة، ولكن في أكثر هذه المجتمعات نجاحا، بولتيني تاون، الواقعة في المنطقة

التي تسمى اليوم مدينة ويك، استمر اقتصاد بيئي انتقالي من العام 1803 حتى العام 1893، بما يقارب سبعة آلاف مقيم خلال موسم صيد السمك⁽⁴³⁾.

إن البحار البريطاني، الذي كان ذات زمن مصدرا لكثير من القلق، أخذ في التحول سريعا إلى مادة للتوق إلى الماضي، مقدما بصورة نمطية في الفن ومصورا في مواقع قديمة ليس لها سوى أقل القليل من الارتباط بظروف عمله الحقيقية. في الولايات المتحدة الجديدة، أخذت عملية التحويل الفولكلوري زمنا أطول لتتطور، لكن بحلول 1880 جرى تشكيل صورة «المالح القديم» بشكل مشابه، لتنتهي أخيرا كل آثار عملية التحويل البروليتاري التي طغت في كل مكان كان الصيد فيه الاختيار الأوحده للإنسان الفقير. وكما قال جون ستيلجو: «بحلول العام 1910 أصبحت الشعوب الساحلية عينات أو شخصيات، وهي الصورة المتبقية، في الخيال الشعبي على الأقل، إلى اليوم»⁽⁴⁴⁾.

إن الفلاح الفقير وقرى الصيد الموضوعة في قوالب مثالية كانوا جميعا نتاج الخيالات الخصبة للفنانين والكتاب، إنهم الغرباء غير المنتمين الذين سيطروا على مناطق طبيعية معينة ممثلين لطريقة حياة لا يمكن وجودها في المراكز المدنية الحديثة. في إنجلترا، أصبحت القرية الريفية هي روح الإنجليزية، بينما في أسكتلندا كان مرفأ صيد السمك هو الذي أصبح يمثل نوعا معينا من الأسكتلندية الأصلية. في المناطق البحرية الكندية ونيو إنجلاند، أصبحت مجتمعات صيد السمك كذلك حاملة للتراث الإقليمي، وحتى القومي. بلغت العملية ذروتها في 1920 و1930، عندما أصبح الاقتصاد العالمي مضعضعا. لقد بدا لكثيرين ممن يعرفون الشعوب الساحلية فقط من الزيارات الصيفية للسواحل والجزر، أنهم كانوا أكثر تجذرا، وأصحاب سلالة أنقى من شعوب المدينة. وعلى الرغم من أن الصيادين شكلوا نسبة أصغر من السكان العاملين في جزيرة كيب بریتون في نوفا سكوشا من عمال المناجم والمزارعين، فإنهم أصبحوا رمزا لكل ما يستحق أن يحافظ عليه هناك. الوضع نفسه ينطبق على أهالي ننتاكيث وشعوب قرى صيد السمك الصغيرة في نيوفاوندلاند⁽⁴⁵⁾.

من المفارقات أنه في أعقاب انهيار صناعة صيد السمك، أصبح لقرية صيد السمك هذا النوع من التحكم في الخيال الحديث. لم تحصل جلوسيستر، واحدة

من القليل من المرافئ البحرية التي رفضت أن تموت بصمت، قط، على هذه القيمة الرمزية لمرافأ روكبورت القريب، الذي جعلت منه أرصفتها المهجورة ومراكبه الشراعية المغطاة بالعفن مصدر جذب للفنانين. في أعقاب انهيار صناعة صيد الحيتان في منتصف القرن التاسع عشر، بحث النخبة التجارية في نتاكيث باستماتة عن استخدامات جديدة لأرصفتها المهجورة ومساكنها المتآكلة. لقد تبين أن التاريخ كان سلعة بإمكانها تنشيط أسواق السياحة والعقار. وبحلول القرن العشرين، استطاعت الصناعة السياحية المحلية أن تخفي التاريخ البغيض لصيد الحيتان خلف المظاهر الجذابة للمنازل الكولونية المجددة، مقنعين السياح بأن «التاريخ قد توقف تقريباً منذ نصف قرن مضى»⁽⁴⁶⁾.

إن السواحل، كما الجزر، أصبحت الآن تقدم على أنها أماكن توقف فيها الزمن. عندما ذهب الرسام الأمريكي مارسدن هارتلي باحثاً عن نسخة دنيوية للأبدية، فقد اعتقد أنه وجدها على الساحل الشرقي لنوفا سكوشا. كان يعتقد أن الشعوب الساحلية هم بقايا زمن أقدم، وقد كانوا مثيرين للإعجاب بسبب ذلك. وعلى الرغم من ميولهم التنقلية، كانوا يصنفون على أنهم «سكان أصليون»، مكتسبين صفات المكان حيث تلتقي الأرض بالماء. في فرنسا، كانت الشعوب الساحلية تعامل على أنها غريبة ومثيرة، حيث كانوا يتخلون عنها بدايةً، ويشبهونها بالناهيتين والأستراليين الأصليين. بيد أنهم لم يعودوا معتبرين همجاً، حيث إنه حتى عندما تخلصت السواحل من سمعتها كأماكن خطيرة، كان سكانها يُعاد تخيلهم على أنهم صيادون ظرفاء غرباء، شخصيات بريئة غير ضارة. بحلول نهاية القرن التاسع عشر، كان شائعا العثور على سياح فرنسيين يؤدون دور الصيادين بالطريقة نفسها التي لعب بها الأمريكيون من دون الهنود، كطريقة للتخلص من قيود الحضارة وللتواصل مع نفوسهم القديمة. أصبحت الشعوب الساحلية، المرسومة والمصورة ولكن نادراً ما تفهم حقيقة من قبل السياح والذين تقع هذه الشعوب تحت نظراتهم المحدقة، أصبحت هذه الشعوب، مثل قرى صيد السمك، منمطة بشكل متزايد، ممتثلة للأعراف المتجانسة لتجارة السياحة. في روكبورت، وهي قرية الفنانين المفضلة، تغير الكثير ولكن جرى الاهتمام بأن يبقى بيت صيد أوحدهم والواقع على رصيف برادلي على حالته تماماً وذلك من أجل رسامي هذا النوع من المواضيع. عندما جرى تحطيم

ما كان يعرف باسم Motif Number 1 أو «الرسم رقم 1»^(*) عن طريق عاصفة في العام 1976، جرت إعادة بنائه بسرعة كبيرة، كونه أيقونة ثابتة ليس فقط لروكبورت ولكن لكل قرية صيد سمك على ساحل نيو إنغلاند⁽⁴⁷⁾.

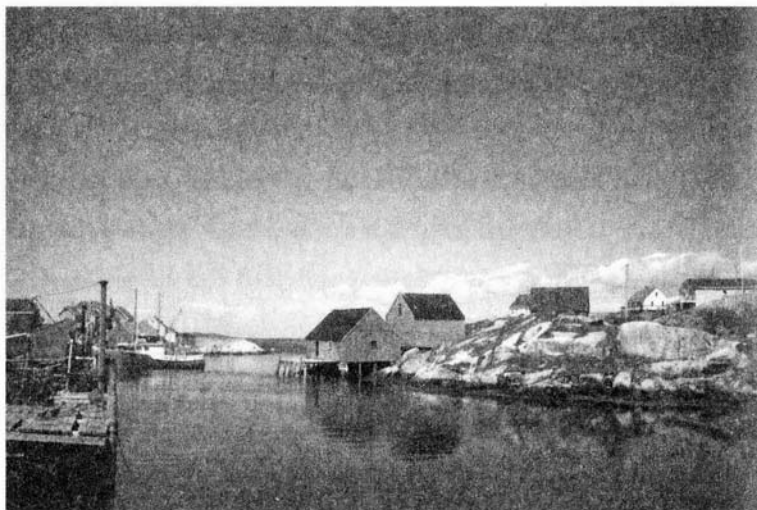


أيقونة الفنانين Motif Number 1. روكبورت، ماساتشوستس.
الصورة من ويكيبيديا.

لقد استرعت منطقة جون بيجي في نونافسكويا، والتي هي ربما أكثر الأماكن رسماً وتصويراً على ساحل أمريكا الشرقي، انتباه كندا في العام 1944 عن طريق كتابات جاي. اف. بي. لايفزي، وهو رجل إنجليزي ولد على جزيرة آيت، والذي وجد هناك «عالمًا بشريًا نابضًا صغيرًا مثبتًا على بحر مضطرب». بيد أنه كان الرسام الكاتب ويليام إي. ديجارث، الذي بدأ بالاصطياف في الجون في 1930 ثم انتقل إلى هناك بشكل دائم في 1955، الذي قدم الأكثر ليحقق الرؤية الرؤوية للافزلي. كان ديجارث فنلنديًا ساحليًا بخلفية سويدية والذي هاجر إلى كندا في العام 1926. كونه تدرّب على أن يكون رسامًا، فإنه خصص حياته ليجد ما كان يسميه «أجمل مكان على الأرض». لقد

(*) نموذج مطابق لكوخ صيد قديم، يرتاده الفنانون كثيرًا لرسمه. يقع في ولاية ماساتشوستس الأمريكية. [المحرر].

حدد هذا الموقع على حافة خليج سانت مارجريت بين مجموعة من المنازل لاتزال بلا كهرباء أو سبابة داخلية، وإن كانت تسهل القيادة إليها من مدينة نونافا سكوشا الرئيسية، هاليفاكس. وبحنين عميق إلى «عصر ماضٍ للبحر»، صادق ديجارث القطاع المتضائل من صيادي السمك المحليين وبدأ بتحويل المكان من خلال رسوماته ومن خلال كتيب أخرجه اسمه This Is Peggy's Cove أو «هذه منطقة جون بيجي». إن اسم منطقة الجون قد جرى اشتقاقه من الخليج الذي كان جزءاً منه، بيد أن ديجارث اخترع بيجي خيالية، امرأة نجت من حادثة غرق سفينة والتي يفترض أنها أعطت اسمها للجون عندما تزوجت أحد منقذيه المحليين. كان السكان المحليون مقتنعين بأن ديجارث «قد اخترع القصة»، قائلين «لا بد أنه فعل، فلم يسمع أحد آخر بها مطلقاً». غير أنهم لم يعترضوا كثيراً، لأنه بحلول خمسينيات القرن العشرين كانت السياحة قد حلت محل صيد السمك كمصدرهم الرئيسي للدخل. أصبح ديجارث المتعهد المسؤول عن شهرة القرية وثروتها وذلك حتى وفاته في 1983⁽⁴⁸⁾.



الخط الساحلي في جون بيجي، نونافا سكوشا. الصورة من ويكيبيديا.

إن ظهور جون بيجي ومثيلاتها حول الأطنطي كان النتاج النهائي لعملية طويلة من الاستعمار الثقافي، والتي مع أواخر القرن التاسع عشر كانت قد محت تماماً الرؤية

القديمة للسواحل على أنها قبيحة ومشؤومة. إن تمكن لايفزي وديجارث من تخيل الشعوب الساحلية والذين كانوا بالكاد متمسكين بوجودهم المتقلقل على أنهم أكثر استقراراً من جيرانهم الأرضيين ما كان سوى عمل فذ لخيلاتهم النشطة. «جزيرة الهدوء، ملجأ ودود من كل اضطرابات العالم»، كان ذلك ما كتبه لايفزي بشأن مكان كان في الواقع يختبر انهياراً اقتصادياً وتناقصاً سريعاً في السكان. اليوم القليل من المراكب فقط بالكاد تترك الميناء، بيد أن الصورة النقية لقرية صيد السمك محافظ عليها عن طريق القوانين التنظيمية من ستينيات القرن العشرين والتي تضمن عدم تغير الصورة المرئية لجون بيجي، مهما كان يحدث لعملية صيد السمك نفسها⁽⁴⁹⁾.

تقلد الحياة الآن الفن، حتى على حساب الحياة نفسها. فمن أسكتلندا إلى نيوفاوندلاند، تستمر قرى صيد السمك بل تزدهر مع غياب عملية صيد السمك. إن المقاطعة الساحلية لمنطقة كي تعتاش على التجارة السياحية، حيث إن شعارها هو «مستقبلنا موجود في ماضينا». لقد اختفت العديد من مستوطنات صيد السمك، بيد أن أخريات أعادت صنع نفسها على أنها نسخ جميلة نظيفة من شيء لم يكن له وجود فعلياً مطلقاً. فكما لاحظ جان جوس: «أن الطبيعة البحرية جذابة فقط في الماضي أو من على مسافة... حيث إن طبيعتها «الرملية» عن قرب غير ملائمة لاحتياجات الطبقة الوسطى»⁽⁵⁰⁾.

إن صور صيادي السمك الذين يستحضرهم الفنانون والكتاب بداية من أوائل القرن التاسع عشر قد حملت أوجه شبه قليلة لهؤلاء الذين عملوا على السواحل. لدينا توصيفات حقيقية قليلة للعمل البحري، خاصة للعمل الخاص بالنساء والذين كانوا جزءاً لا يتجزأ من هذا الاقتصاد. هناك كذلك عدد أقل من الأشكال الجديرة بالتصديق في المشاهد البحرية عنها في المشاهد البرية. لقد كانت السفينة، والتي هي مصدر فخر التاجر، غالباً في المقدمة. إن الحياة في أعالي البحار لطالما ألهمت الفنانين والكتاب، بيد أن صيد السمك من على الساحل والنقل الساحلي فشلاً في تأجيج خيالهم. في البداية، هؤلاء الذين كانوا يستكشفون الساحل من البحر قد تجاوزوه لما يقع بعده على الأراضي الداخلية. «بالنسبة إلى المشاهد اللبيق القديم»، كتب إيان ماكاي، «كان خط الساحل قبيحاً وغير مثير للاهتمام والصيادون بدائيين، منبوذين من «مسيرة التقدم» جديرين بالشفقة. لم تكن الخطوط الساحلية في روكبوند وصيداها ذوي اللحى الشائبة

لُترى على أنها رموز ملهمة لنوفا سكوشا». غير أنه جرى لاحقا تحويل السواحل وبقايا السكان الذين عاشوا عليها إلى حصون لمجتمع كان، في عيون أشخاص مثل ليفزي وديجارث، قد جرى تقويضه على مدى قرن من الصناعة والتمدين. إن ما وصفه جين ديدير أرباين على أنه عملية ممتدة عبر قرن كامل «إنهاء همجية» *desavaging* الشعوب الساحلية قد أتت بالمعجزات. إن الأشخاص الذين كانوا يوصفون بأنهم بجموح السواحل نفسها أصبحوا اليوم يصورون عن طريق برنارد ديفوتو على أنهم «أشخاص من صخر الغرانيت»، إنهم يانكي منطقة ماين ذوو الشخصيات التي لا تهتز والذين يستطيعون مقاومة كل عواصف الحداثة، بما فيها كارثة الكساد العظيم. عندما ذهب الفنان الأمريكي مارسدن هارتلي إلى نوفا سكوشا في 1935، فإنه، مثل ليفزي وديجارث، كان يبحث عن «حجر ثابت في عالم متغير»⁽⁵¹⁾.

نهاية اليابسة

بالنسبة إلى راتشيل كارسون، «الحد الفاصل بين البحر والأرض هو السمة الأكثر سرعة في المرور والأسرع زوالا على الأرض». وعلى مدى ألف سنة، كانت كذلك الأكثر خطرا. فحتى وقت متأخر مع بداية القرن التاسع عشر كانت بريطانيا تخسر تقريبا ألف سفينة سنويا، أغلبها تحطم بالقرب من الساحل والكثير منها في المرافئ بحد ذاتها. إن بناء الموانئ والسدود الدائمة والتي جعلت المرافئ عند خطوط المد أكثر فتنة وإغراء قد جعلتها كذلك أكثر غدرا وذلك بسبب تقليل عملية التعرية الطبيعية، وتضييق القنوات، ورفع مستويات المد. لقد أطلقت هذه التهديدات تجاه الازدهار الساحلي أول مجهود ثابت ضخم لفهم البحر، وهو المجهود الذي تركز أولا على عملية المد والجزر و فقط لاحقا تحول إلى علم أعماق البحار⁽⁵²⁾.

بحلول نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت السواحل التي كانت ذات يوم أرضا مجهولة من بين أشهر ملامح الأرض. أصبح تحطم السفن بالقرب من الساحل نادرا، حيث فقد الساحل ارتباطه بالخطر ليصبح مكانا للترفيه. وكونها لم تعد أراضي حدودية أو جبهات، فقد جرى إعلان السواحل البحرية على لسان اللورد كرزون «الأكثر عنادا وفاعلية، والأقل قابلية للتغيير» بين كل الحدود تحديدا لأنها بدت طبيعية جدا. على مدى أقل من قرن، فإن عملية الاكتشاف والمسح والتسمية كان لها تأثير تطبيع

السواحل وأقلمتها مع الناس، حتى إنها حفرتها في أذهان الأشخاص الداخليين. لقد أفرغت السواحل من أهميتها التاريخية الأصلية لتصبح أماكن يبدأ عندها التاريخ أو ينتهي، ولكن ليس بعد أماكن حيث كان يصنع فيها هذا التاريخ⁽⁵³⁾.

في 1835 كان لا يزال ممكنا بالنسبة إلى أليكس دو توكوفيل أن يتخيل مستقبلا بحريا لأمريكا. مع نهاية القرن كانت الأمة تنظر إلى نفسها، كما فعلت معظم القوى الأوروبية العظمى والتي كانت أمريكا تقارن نفسها بها، كأمة قارية. لقد جرى الاستيلاء على كل من الجغرافيا والتاريخ عن طريق ما أسماه دنيس كوزغروف «نظرة الأقلية» (territorializing)، والتي كانت مبنية على أن الأمم بطبيعتها وحدات حدودية، مركزية، أرضية. إن أراضي الرسو في جيمس تاون وبلايموث قد أصبحت مناطق الأصول الأسطورية لأمريكا. إن السواحل الصخرية والتي خشي البحارة ذات يوم الهبوط عليها أصبحت الآن أسسا مبجلة لمزار الأمة. لقد أصبحت صخرة بلايموث، والتي لا توجد أي إشارة إليها في سجلات الهجرة الأولية والتي في الحقيقة قد أزيلت من الساحل بحلول العام 1774، رمزا للمنشأ. وعندما أعيدت إلى مكانها الأصلي في 1859، ومع نهاية القرن أصبحت موقعا سياحيا قوميا⁽⁵⁴⁾.

بحلول ذلك الوقت كان التاريخ قد اتخذ منحى أرضيا، فلم يعد متحركا عبر السواحل، أو، كما يقولون في نيو إنجلاند، «أسفل الشرق»، ولكن من الشرق إلى الغرب بشكل حازم. لقد كان هناك زمن في بداية القرن التاسع عشر عندما تخيل الأمريكيون أنفسهم يدخلون إلى الهادي ليستكملوا أقدارهم، بيد أن الجبهات البحرية كانت مغلقة كما أن «إمبراطورية الحرية» لجيفرسون ستوقف متعثرة على الساحل الغربي عوضا عن التقدم فوريا إلى هاواي وما بعدها. لقد أشار جوناثان رابان إلى أن «الناس التي تعيش على القارات تعتاد اعتبار المحيط على أنه نهاية الرحلة، إنه النقطة في نهاية السفر الطويل. عندما وصل الأمريكيون الشماليون إلى الهادي لم يكن هناك شيء يستوجب عمله سوى بناء ولاية كاليفورنيا الواقعة في نهاية العالم⁽⁵⁵⁾.

إن أحد أبعاد سطوة وسيطرة انتصار رؤية الأقلية كان عدد «نهايات الأرض» التي بدأت تلوح على سواحل أوروبا وأمريكا. أكثرها شهرة، والواقعة على نتوء خليجي يقع جنوب أقصى الغرب من كورنوال، سُميت في وقت مبكر في القرن الرابع عشر باسم Landesynde أو لانديسند، والذي يعني «نهاية الأراضي الصلبة».

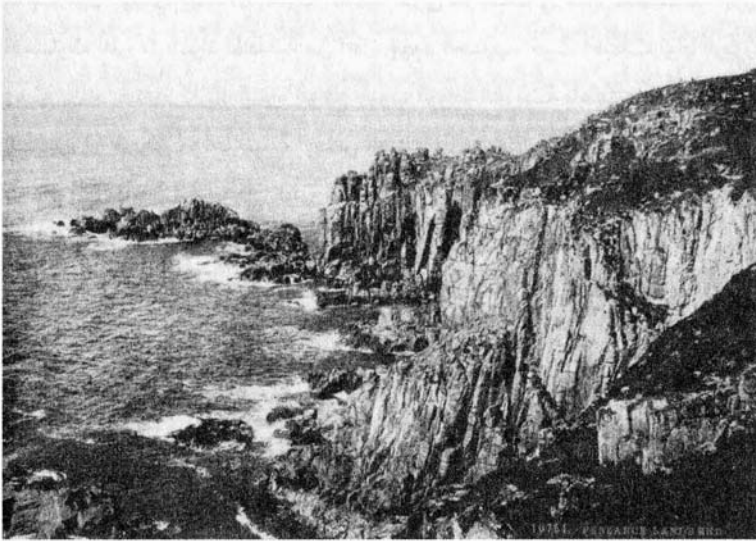
نهايات أرضية أخرى، مثل كيب فينيستير في إسبانيا وفينيستير في فرنسا، هي كذلك مواقع غربية. وكذلك هي نهايات الأرض في كاليفورنيا، واحدة في الباجا، والأخرى في بريسايديو بوينت غرب سان فرانسيسكو⁽⁵⁶⁾.

بحلول بداية القرن العشرين، أصبح الساحل الغربي جبهة أمريكا الأخيرة. لقد كان مناسباً أن المعرض الدولي لباناما-الهادي قد جرت استضافته في سان فرانسيسكو في 1915. ومن أجل هذا المعرض، قام جيمس إيرل فريزر بنحت محارب هندي منهك منهار على حصانه من مادة الجص، وهو رمز للهزيمة الأخيرة للهنود على أيدي حضارة البيض المقبلة. لقد كان عمل End of the Trail أو «نهاية الأثر» صورة غاية في الشعبية، حيث خطط فريزر لأن يغطيه بالبرونز ويضعه مواجهاً الغرب على بريسايديو بوينت، عالياً فوق الهادي. بيد أن الحرب العالمية الأولى تدخلت في هذه المخططات. جرى الاستيلاء على كل المواد المعدنية من أجل جهود الحرب، حيث أحبطت نوايا فريزر. ومع ذلك، يحتفظ ذلك النتوء الواقع جنوب البوابة الغربية بأهميته كموقع لنهاية الطريق، إن لم يكن موقعا لنهاية الجنس الهندي، بالنسبة إلى الكثير من الأمريكيين.

إن الميل ناحية الغرب كان مغروساً بعمق في الثقافة الغربية. لقد نظر السلتيون غرباً باتجاه البحر بحثاً عن أرض الموتى الخاصة بهم، ووضع الرومان أبطالهم الموتى على جزر في البحر الغربي، والمسيحية، والتي كانت مواقعها المقدسة تقع أصلاً في الأراضي المقدسة الشرقية، أصبحت تتوقع البعث الثاني للمسيح أن يكون في الغرب، حيث ليس فقط الأرض ولكن الزمن كذلك كان يعتبر منتهياً. في أذهان المعتقدين، تحرك الخلاص من الشرق إلى الغرب، مصطحباً نهاية الزمان معه. لقد أصبح الغرب مرتبطاً بالموت ولكن كذلك بالبعث. في الفكر المسيحي، كانت النهايات دوماً مرتبطة بالبدايات الجديدة. لقد وجد جون ويسلي، الذي زار نهاية أرض إنجلترا في 1743، الساحل هناك على أنه «منظر مربع» ولكنه توقع، وطبقاً للجغرافيا الإنجيلية لذلك الزمن، أن بشاعته، والتي هي نتاج الخطيئة الأولى، «ستذوب عندما يظهر الرب يوم الحساب»⁽⁵⁷⁾.

وفي حين أنها كانت ذات يوم مواقع وصول لليابسة بالنسبة إلى البحارة، فإن نهايات الأرض هذه لم تكتسب معانيها من سكان الأراضي الداخلين حتى حلول القرن التاسع عشر، وذلك عندما أصبح للسواحل منفذ من الأرض. عندما أطلق ريتشارد آيتون والرسام ويليام دانيل رحلتها الاستكشافية لساحل إنجلترا الذي

أسمياه «المهمل المجهول» في 1813، فإنهما خططا للذهاب عبر البحر ولكنهما وجدا الرحلة غاية في الخطورة وقررا عوضا عن ذلك أن «يبحرا على ظهور الخيل»، فاتحين الشهية للسفر باتجاه الساحل والذي تزايد عبر الوقت. وبينما هو ليس واضحا تماما لم اختارا أن يبدأ رحلتهم عند Land's End أو نهاية الأرض، فإنه من المؤكد أن المكان كان قد اكتسب منذ زمن معنى خاصا بالنسبة إلى الجماهير التي «كانت تمعن النظر باتجاهه، ناحيتين أسماءهم على الأرض، ثم مغادرين، بذلك الشعور بالرضا الكامل والذي يجب أن يحظى به الإنسان الذي يعتقد أنه فعل كل ما يمكن فعله». لقد اتبع آيتون ودانييل «العرف المعتاد بالذهاب إلى الحافة القصوى لتلك النقطة» قبل الاستمرار حول الساحل باتجاه عقارب الساعة⁽⁵⁸⁾.



Land's End أو نهاية العالم، كورنوال. الصورة من مكتبة الكونغرس.

من الممكن أنهم كانوا شهودا على بقاء طقس قديم، إذ إنه، وكما لاحظ ديليو. إتش. هيدسون بعد ذلك بمائة سنة أن «الربط القديم للمكان يستمر، وإذا ما جرى توقيت الزيارة بشكل صحيح، لربما استطاعوا استثمارها في استجلاب جاذبية ومهابة هي ليست لها في الواقع». ولكن إذا ما كان هناك

أي معنى سلتي أو مسيحي مرتبط بنهاية الأرض في كورنويل، فإنها سرعان ما ستستبدل بروابط رومانتيكية والتي كانت لها أصول شديدة الاختلاف وتامة الحداثة. عندما بدأ آيتون ودانييل رحلتهم، كان الساحل يشكل إلى حد كبير أرضاً مجهولة للجمع فيما عدا بالنسبة إلى المحليين. على سواحل إنجلترا فقط المنتجعات الأنيقة الحديثة هي التي اجتذبت الزوار. كان ما بقي من الساحل يعتبر مكاناً غير صحي وخطراً لدرجة أن المنارات وأبراج المراقبة فقط هي ما كان لها وجود هناك. كان هؤلاء المسافرون الشجعان مستكشفين حقيقيين للمجهول، متحمسين «لعرض عظمة مشهده الطبيعي، ووظائف وسلوكيات الناس، وأساليب الحياة في أكثر أجزائه برية». فحتى ذلك الوقت، كانت البرية تحديداً، هي التي يجري تجنبها. الآن، أصبحت تلك الصفة هي الأكثر جاذبية للساحل. فهذه الأرض بعينها الأرض terra nullus التي لا تنتمي إلى أحد والتي يوماً كانت طاردة أصبحت الآن جاذبة، تاركة مجالاً واسعاً لزوارها لأن يستثمروها بأكثر خيالاتهم جموحاً⁽⁵⁹⁾.

في خلال القرن التاسع عشر، أصبحت نهاية الأرض في كورنوال واحدة من أشهر المناطق في بريطانيا، يرتادها عشرات الآلاف القادمين عبر الطريق الأرضي أو القطار طاعة لما أصبح في حينها تقليداً في الذهاب إلى آخر الحافة. من شهد هذا التقليد شبهه بالحج. قارن ويلكي كولنز منطقة نهاية الأرض بإسرائيل بيد أنه لم يستطع استبيان أي دوافع دينية واضحة عند الحجاج. وصف ديليو إتش هدمسون هدف الوصول هذا بمصطلحات دنيوية تماماً، على أنها «الهدف الأعظم والأخير لرحلة إلى الإقليم الواقع في أقصى حدود الغرب في إنجلترا، إنها الشمال الأقصى (Ultima Thule) الخاصة بها أو هي منطقة أقصى شمالها». بالنسبة إليه كانت منطقة نهاية الأرض «اسماً يفاجئنا بأكثر قدر في طفولتنا عندما كنا ندرس جغرافيتنا، والتي تملأ الذهن بأشخاص خياليين وصور حول أرض قاحلة موحشة وأحلام حول نتوء خليجي منعزل، إنه المكان حيث آخر إنسان في إنجلترا سيكون موجوداً في انتظار الموت في نهاية العالم»⁽⁶⁰⁾.

بحلول أواخر القرن التاسع عشر أصبحت منطقة نهاية الأرض غاية رئيسية للمسافرين بشكل يومي، البعض منهم قادم من مناطق بعيدة بعد المستعمرات

في حد ذاتها فقط ليقفوا، وإن كان للحظات قليلة، في مواجهة الشرق على هذا الجرف البحري الناقء والمهترئ قبل أن يعاودوا الصعود على قطاراتهم عودة إلى مانشستر، لندن. «لطالما أردت رؤية منطقة نهاية الأرض، والأمر كذلك بالنسبة إلينا جميعا»، هكذا نقل هدسون عن أحد الرجال العاملين، «لقد أتينا لرؤيتها ولا شيء آخر». كان العديد من الزوار كبارا في السن يرتحلون إيفاء بوعد رعوه منذ الطفولة، على أن يقوموا بالزيارة قبل أن يوافيهم الموت. وبمجرد أن يقضوا هذه الزيارة، فلا سبب لديهم لأن يتباطأوا ولا لأن يعودوا إلى ذات المكان. بالنسبة إلى القلة الأغنياء هناك فندق يطل على البحر، ولكن بالنسبة إلى الأغلبية كانت زيارتهم تمتد فقط لدقائق قليلة⁽⁶¹⁾.

لقد عبّر السكان المحليون عن دهشتهم من هذا التصرف. فهؤلاء الذين عاشوا بالقرب من المنطقة كانوا يعرفونها على أنها خطرة مشؤومة. «لم يسبق لي أن رأيتها ولا أود في يوم أن أفعل»، هكذا أخبر رجل من كورنوال هدسون. فأيا كان المعنى المحلي الذي كان للمنطقة، فإن هذا المعنى فقد الآن. لقد أصبح المكان ينتمي إلى المساحة الخيالية للأمة، وهو مكان أصبح يعرف خلال القرن التاسع عشر عن طريق سواحله من الجنوب إلى الشمال كما من الشرق إلى الغرب. لقد أطلق هدسون على منطقة نهاية الأرض اسم «ملكية قومية»، جزء غير قابل للمصادرة من تركة الأمة البنيوية. ففي العصر الذي أصبحت فيه مواقع طبيعية معينة مقدسة من خلال خرائط الفصل المدرسي وطوابع البريد وأصبحت تذكر للمرة الأولى في النشيد الوطني، أصبحت السواحل رموزا للهوية والأمن القوميين⁽⁶²⁾.

لقد مارست السواحل دورا بارزا بنحو متزايد في بروز جغرافيا قومية مترابطة. في 1832 كان لا يزال ممكنا بالنسبة إلى دانييل ويبستر أن يقف في ردهات الكونغرس الأمريكي معلنا: «ماذا عسانا أن نأمل فعله في الساحل الغربي، ساحل يمتد إلى ثلاثة آلاف ميل، صخري القاعدة، كثيب، سيدي الرئيس. لن أصوت أبدا على صرف سنت واحد من خزانة الأمة لتقريب الساحل الغربي إنشا واحدا من بوسطن عما هو عليه الآن». على الرغم من ذلك، وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت السواحل تعرف أمريكا. فالأمم التي ليس لها منفذ إلى البحر أصبحت تشعر بنقصها. لقد عوّضوا هذا النقص بأن شكلوا قوات بحرية، معظمها يعمل فقط على الأنهر

والبحيرات. لايزال لبوليفيا، والتي فقدت منفذها على الهادي خلال الحرب المعروفة باسم حرب الهادي في أواخر القرن التاسع عشر، أكبر هذه القوات البحرية. تَنحصر مهمة هذه القوات في الوقت الحالي في القيام بدورات حراسة في بحيرة تيتيكاكا، بيد أن هذه القوات تبقى ذات أهمية رمزية عظمى للبوليفيين، الذين انتعشت آمالهم طويلة الأجل بالعودة إلى البحر في 2010 عندما أقرت اتفاقيات المنفذ مع بيرو⁽⁶³⁾.

لقد استخدمت عبارة «من الساحل إلى الساحل» أول مرة لوصف الولايات المتحدة خلال خمسينيات القرن التاسع عشر. عندما ألقت كاثرين لي بيتس «أمريكا الجميلة» في 1893، كانت من فورها قد هبطت على قمة بايك، والتي منها «كل سحر أمريكا بدا معروضا هناك في هذا المدى الشبيه بالبحر». إن هذه «الأمواج الكهرمانية (المتألقة) من القمح» قد استحضرت سخاء المحيطات، بيد أن خيال بيتس قد امتد فقط من «بحر إلى بحر لاعم»، حيث إنه بحلول ذلك الوقت عرفت الولايات المتحدة نفسها ليس على أنها أمة بحرية ولكن أمة قارية. في 1879 دفع رجل من كورنوال يعرف باسم روبرت كارلايل بعربة يدوية من منطقة نهاية الأرض إلى منطقة جون أوغروتس في أقصى شمال أسكتلندا. ومنذ ذلك الوقت، فإن تقصي مساره أصبح شيئا من التقليد الوطني. إن ربط الحواف أصبح استعراضا لبطولة شخصية ولكن كذلك شهادة على الوحدة القومية. إن «مرتحلي النهاية إلى النهاية» الذين يسيرون، ويقودون الدراجة، أو يقودون السيارة على هذا الطريق يتنافسون فيما بينهم على أرقام السرعة القياسية، بيد أن الرحلة تمثل كذلك نوعا من الحج القومي وكذلك، شَبها بمثيلاتها من الرحلات الدينية، هي مصدر للهوية الجمعية لهؤلاء الذين يقومون بها. لقد أصبحت السواحل توفر نوعا من التماسك الذي لم يستطع الداخل أن يوفره. فكما اكتشف بول ثيروكس عندما قام لاحقا بتقليد طواف آيتون ودانييل، «بريطانيا ما هي إلا سواحلها». لم تعرف دولة أخرى بسواحلها كما عرفت هذه الأمة الجزيرية، بيد أنه في كل مكان حول حافة الأطلنطي ما كان سابقا يعتبر مناطق غريبة معزولة أصبح اليوم يحتضن على أنه مصدر للفخر والمتعة القوميين⁽⁶⁴⁾.

بحلول نهاية القرن التاسع عشر، اتخذت السواحل مظهرًا جديدًا تمامًا. فهذه السواحل التي كان لها ذات يوم جغرافيا سلسة وكانت مأهولة بأجناس حافة

متنقلين، أصبحت الآن متحجرة زمانيا ومكانيا. لقد توقفت تحركاتها وبدأ أن الزمن توقف. إن الساحل القديم اليوم ليس إلا حطاما، يعلوه ما يصفه جون غير بأنه «ساحل ومرفأ ثان مكون من محلات الآثار القديمة والهدايا، والمطاعم، والمقاهي، والحانات، حيث يشرب الناس نبيذ الجن على أضواء الشموع، محاطين بآلات الحرث، وشباك السمك، والنظارات المكبرة وغيرها من الأشياء الأثرية الخاصة بأسلوب حياة شاق ومنظم والذي لا يعرفون شيئا عنه». اليوم أصبح ديكور الساحل الثاني على الأغلب مصنعا وليس أثريا. يتحدث جون ماكيني عن انتشار المتاجر على ساحل كاليفورنيا، الذي تطور إلى الحد الذي «أصبح معه الزوار غير قادرين على الوصول إلى الخط الساحلي، وغير قادرين على رؤية السواحل بسبب المتاجر». وحتى «الشاطئ الزجاجي» الذي يباع في محلات الهدايا يأتي ليس من الساحل ولكن من المصانع الداخلية. إن سيرالية الساحل الثاني تزداد وضوحا يوما بعد يوم، إنه صناعة خيالات سكان الأراضي الداخلية، وهو مستمر بدفع من حاجاتهم ورغباتهم. لقد استحوذ هؤلاء على مدخرات الساحل الأول واستخدموه ليشرعنوا جغرافياتهم الأسطورية ورواياتهم التاريخية الخيالية⁽⁶⁵⁾.

الاكتشاف الثاني للبحار

يعتبر البحر أحد أكثر الرموز «عالمية» في الأدب، إنه من دون شك الأكثر تلونا.

جوناثان رابان⁽¹⁾

لقد جرى اكتشاف المحيطات مرتين. في عصر الاكتشاف الأول، كانت البحار تستكشف وتخطط على أنها وسائل للوصول إلى الأراضي البعيدة، غير أن القليل من الانتباه كان يعزى إلى المياه بحد ذاتها. لقد كان يقال إنه «بالكاد تركت أعماق البحر أثرا... حتى مستكشفو المحيطات كانوا أكثر تكييفا مع الأرض منهم مع المحيط، لقد استخدموا البحر فقط كطريق سريع لبلوغ الأرض اليابسة التالية». لقد كان ذلك اكتشافا عن طريق البحر أكثر منه اكتشافا للبحر. لقد كان العلم في بداية العصر الحديث يعرف عن السماوات أكثر مما يعرف عن المحيطات، ومزيد من الانتباه كان يعزى إلى استخراج الثروات من

«مع مرور الوقت، سيقف العلم على قدمين بحريتين»

البحر، تحديدا السمك، عنه تجاه المياه بحد ذاتها. لقد كان كل ما يقع تحت السطح - في الأعماق - يعتبر هاوية لا يسبر غورها، لا يمكن اختراقها ولا فهمها، منطقة ميتة مظلمة تحاصر كل ما يغرق تحت سطحها، وهي لا تظهر أسرارها مطلقا. حتى القرن التاسع عشر، يقول جيمس هاملتون - باتيرسون، كان فهمنا للبحر «صناعيا بكل ما في الكلمة من معنى... سطح يمكن الإبحار عليه، من دون شك، فوق الهاوية»⁽²⁾.

أنتج الاكتشاف الثاني للبحر، الذي بدأ في القرن التاسع عشر، توسعا ضخما في معرفة البحر بحد ذاته، الآن كمخلوق حي ثلاثي الأبعاد بتاريخ وجغرافيا خاصين به. لقد حقق الزمن الحديث ما لم يحاول القيام به أي عصر آخر: اكتشاف أعماق البحار. في الوقت ذاته، جلبت هذه المحاولة اكتشافا آخر، وهو اكتشاف أدبي فني بقدر ما هو علمي، عصر نهضة رمزي وليس فعليا، والذي كانت له تداعيات مماثلة إن لم تكن أكبر حجما بالنسبة إلى الثقافة الشعبية في العصر الحديث.

منذ العصور القديمة، كانت المحيطات تعتبر غريبة تماما عن بني البشر. كان الشخص يخرج إلى البحر بدافع من الضرورة وليس الرغبة. كانت الرحلة «شرا ضروريا، هي رحلة عبور ذاك الذي يفصل ويقصي»، كتب دبليو. إتش. أودن. لقد كان القدر، وليس الاختيار، هو الذي دفع أوديسيوس عبر الساحل. وطوال الرحلة كانت فكرة «nostos»، أو العودة إلى الديار، وليس البحر، هي المسيطرة على وعيه. بالنسبة إلى مسيحيي العصور القديمة، كان البحر يقارن بالصحراء، التي ألهمت أول جيل من رجال الكنيسة. لقد أطلق القديس بريندان قاربه في فراغ البحر الضخم على أمل أن يجد الرب هناك. كانت تلك رحلة peregrinato. رحلة عناء، المقصود بها اختبار الإيمان تحت أكثر الظروف صعوبة⁽³⁾.

لقد حذر إيراسموس من أنها «حماقة أن تثق بالبحر»، كما كتب جون دون في العام 1619 أن «البحر ليس مكانا للعيش، بل ممر إلى حيث أماكن معيشتنا». لقد كانت تلك هي الطريقة التي فهم بها ويليام برادفورد محنة المايفلور. بالنسبة إليه كانت الرحلة «بحرا من المشاكل»، غير أن احتفاظه بوصف «بشعة وبرية خربة» للأرض التي كانت قبلة الحجاج كان ذا مغزى. فبالنسبة إلى هؤلاء المسيحيين، كانت الرحلة هي مواجهة ليست مع الطبيعة ولكن مع ما وراء الطبيعة. لقد كانت الرحلة إلى أمريكا بحد ذاتها ضربا من العبادة وذلك بطاعة القوة الإلهية، وليست فعلا إراديا حرا كما سيعتقده المراقبون الأكثر دنيوية في رؤيتهم لاحقا⁽⁴⁾.

لم يكن البحر خطرا فقط بل بشعا كذلك، غير جدير بالتناول الفني أو الأدبي. بالنسبة إلى شكسبير كان البحر خلفية عوضا عن كونه مادة أساسية. لقد كان الرسم والرواية حول البحر في بداية العصر الحديث فقيرين بشكل يثير الدهشة خصوصا بالنسبة إلى المحيطات بحد ذاتها. كان التركيز وقتها يكاد يكون كاملا على السفن وعلى مهارات الرجال الذين كانوا يشغلونها، حيث البحر بحد ذاته يكاد يكون فكرة لاحقة. في روايات البحر للقرنين السادس عشر والسابع عشر، تركز الاهتمام، كما كان في اللوحات البحرية، على تفاصيل مهارة البحار. بعد العام 1750 قل الاهتمام بعمال البحر الكادحين بشكل كبير حيث أصبحت الرواية الإنجليزية منغلقة أرضيا، «مقسمة إقليميا» إذا جاز التعبير. عندما أعيد إحياء روايات البحر في القرن التاسع عشر، فإنها كانت مهتمة بنفسيات الرجال أكثر من اهتمامها بعملهم في البحر⁽⁵⁾.

لقد بدأ البحر بحد ذاته يبرز بقوة فقط عندما تمت السيطرة على الأرض أخيرا. لقد استغرقت العملية من الوقت تقريبا حتى القرن العشرين ليجري استكشاف كل القارات واستيطانها. حتى ذلك الوقت، كانت المناطق خلف السواحل يشار إليها على أنها مناطق نائية hinterlands حيث كانت مرتبطة بالرجعية والتخلف. بوصول القرن العشرين، انعكست مواقع السواحل والمناطق الداخلية، حيث الأولى، توصف اليوم بأنها «قلب الأرض»، قد أصبحت مركز الجذب الاقتصادي والسياسي. لقد كانت أول مرحلة للتطور الرأسمالي تجارية وبحرية، أما الثانية فكانت زراعية وصناعية، وأرضية تماما. عندما أفسح عصر الملاحة العظيم الطريق للعصر البخاري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تراجعت البحار بينما فتحت القارات أبوابها. لقد كان القدر الآن مع الأرض وليس مع الماء وذلك لأول مرة على مدى قرون. لم يكن العصر الصناعي الجديد مرتكزا فقط على تجارة البضائع بل على تصنيعهم، ما أعطى أفضلية للأراضي الضخمة بسكانها القادرين على مواكبة الإنتاج والاستهلاك الضخمين. لم يكن لدولة أن تكون أرضا نائية، حيث إن المستقبل آنذاك كان للأراضي المركزية التي وصفها الجغرافي هالفورد جاي. ماكيندر في العام 1904 بالمحاور المستقبلية لتاريخ العالم⁽⁶⁾.

غير أنه حتى عندما استدارت الشعوب عن البحر كمكان للعمل والقوة، فإنها عادت إليه، كما لم تفعل من قبل، وذلك كمكان للترفيه الجسدي والروحاني. في القرن التاسع عشر بدأ البحر بحد ذاته، على عكس السفر والبحارة، في الدخول إلى الفن

والأدب بطرق حديثة وغير مسبوقه تماما. ففيما أسمته مارجریت كوهین «تسامي البحر»، أعطي البحر مكانة ثقافية جديدة، وقوة جمالية عليا. لقد أصبح المحيط ينبوعا من الصور والرموز - حيث السفن المحطمة هي الأكثر انتشارا فقط - والتي استمرت في السيطرة على الثقافة الغربية إلى اليوم. حتى عندما انخفضت أرقام هؤلاء الخارجين إلى البحر لكسب قوتهم بصورة كبيرة، بدأ مزيد من الناس في وصف حياتهم على أنها رحلة بحرية. وكما وصف أحد الطلبة المهتمين بهذا التحول في الأحداث بأن هؤلاء الذين «يعيشون على الأرض يفضلون مع ذلك، في خيالاتهم، أن يصفوا حالتهم العامة في هذه الدنيا بمصطلحات الرحلة البحرية». في الوقت ذاته، فإن القيم التي كانت ذات يوم مرتبطة بالأرض، لا سيما البرية، قد تحولت إلى ما عبر الساحل. إن الطبيعة النقية، التي أصبحت بحلول ذلك الوقت نادرة في الأراضي الصناعية، قد وجدت ملجأها في المحيطات، فيما الغموض الذي كان مرتبطا ذات يوم بما يعرف باسم terra cognita أو الأرض المجهولة قد انتقل إلى الأعماق. في الوقت ذاته، فإن الجلال، الذي كان مرتبطا في السابق بالجبال والغابات، أصبح مرتبطا بمياه الأنهار المتدفقة (Whitewater)⁽⁷⁾.

البحر بوصفه ذوقا مكتسبا

أصبح البحر في بداية العصر البحري العظيم أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ولأول مرة، جزءا من الثقافة الأرضية الغالبة. بعد ذلك، ولأول مرة، تبنت الطبقات الوسطى الأمريكية والأوروبية ما أسماه هنري ديفيد ثورو «صبغة بحرية». بالنسبة إلى بعض الشباب مثل ريتشارد هنري دانا، كان الإبحار بالصاري (Mast) المرفوع هو طقسا للعبور. وقد نشأ ولع بالإبحار باليخوت على كلا طريقي الأطلسي، حيث أصبحت الرياضات المائية منتشرة جدا. خلال نصف القرن التالي، الملايين من أهل بلد دانا، الذين وصلوا في البداية عبر البحر، سيلتفتون إليه بخيالاتهم، والبعض منهم بأجسادهم. بداية من منتصف القرن التاسع عشر كان هناك عادة رجال من ذوي العقيدة الإنجيلية، والذين مارسوا الإبحار ليس للوصول إلى مكان ما بل لاسترداد ذلك الشعور بالاستقلال الرجولي والتوجه الأخلاقي الذي لم يعودوا قادرين على إيجاده في حياتهم اليومية على الأراضي الداخلية. يقول جوناثان رابان إنه «نادرا ما كانت رحلات القوارب الصغيرة تغيب عن نظر مجتمع كانوا

يحاولون تنظيمه، فهم قد استخدموا البحر لإثبات شيء ما للأرض». غير أن أغلب هؤلاء الذين عادوا إلى البحر لم يبتعدوا مسافة أكبر عن الساحل. وحتى اليوم، فإن معظمنا يتحصل على صبغته البحرية ليس على الماء ولكن على الشاطئ⁽⁸⁾.

غير أنه حتى هؤلاء الذين لم يسبق لهم أن تعدوا خط المد قد تبناوا الرموز البحرية وجعلوا من البحر رمزا للحياة على الأرض. لقد وقع هؤلاء في حب القارب للعبة وبذلة البحار، وبدأوا استعمار الساحل لأسباب ترفيهية وكذلك لأسباب صحية، كما أنهم ملأوا قاعاتهم التي تقع في المدينة أو في ضواحيها بأحواض السمك والمشاهد البحرية. وكما قال أحد المؤرخين: «خلال القرن التاسع عشر، تغلغل المحيط في عقول، وبيوت، وأحلام، وحوارات الأناس العاديين». لقد فعل المحيط ذلك من خلال فن رسم المناظر البحرية، من خلال أدب المغامرات، ومن خلال طرق أكثر اعتيادية ويومية: جمع السمك الاستوائي، والصدف، والمرجان، وعظام الحيتان المنقوشة. «عادة ما يبدو أنه كلما أصبح الناس أكثر تمدنا»، كتب جيمس هاميلتون - باتيرسون، «أرادوا أن يحوطوا أنفسهم أكثر بتعويدات الطبيعة على حوائطهم، وعلى أرففهم، وفي حلقات مفاتيحهم»⁽⁹⁾.

في القرن التاسع عشر، بدأ الناس في العودة إلى البحر بحثا عن قيمة شعروا بأنها مفقودة في البيئة الصناعية الجديدة، شيء أطلقوا عليه برية. ظهرت الرغبة في اختبار الطبيعة غير المروضة في القرن الثامن عشر بين مجموعة من الذواقة الأوروبيين والذين بالنسبة إليهم كانت قوة البحر الرائعة، كما شاهدوها من على اليابسة الآمنة، محفزا ذهنيا وعاطفيا قويا جدا. إن الهلع والدهشة اللذين ربطهما الأشخاص المتدينون بالقوى الخارقة للطبيعة، جرى الآن تحويلهما إلى الطبيعة بحد ذاتها. في العام 1712 كتب جوزيف آديسون حول «الرعب اللطيف» الذي تثيره العواصف: «بين كل الأشياء التي رأيتها، لا شيء يؤثر في الخيال مثل البحر أو المحيط... إن محيطا مضطربا، بالنسبة إلى إنسان يبهر فيه، هو، كما أعتقد، أضخم مادة يمكن له أن يراها تتحرك... من الطبيعي أن تثير مثل هذه المادة في داخلي فكرة وجود عظيم فتقنعني بوجوده على قدر ما يفعل البرهان الميتافيزيقي». في فرنسا، كان دنيس ديديروت منجذبا إلى الساحل لأسباب مشابهة، فيما فضل الإنجليزي إدmond بيرك البحر على اليابسة كذلك كمنشط للعقل والروح. لم يختبر ذلك شخص أفضل من جول فيرن، الذي كتب: «إن العقل الإنساني يستمتع بالمشاهد الضخمة للكائنات التي تفوق الطبيعة. والبحر هو الوسيلة الأفضل، هو البيئة الوحيدة حيث مثل هذه

المخلوقات الضخمة - والتي مقارنة بها تعتبر الحيوانات الأرضية، كالفيل ووحيد القرن، كأنها أقزام - يمكن لها أن تتكاثر وتتطور»⁽¹⁰⁾.

إن الخيال الرومانطيسي لبداية القرن التاسع عشر، الذي كان يركز في البداية على هيبة الجبال، تحول أخيرا إلى الساحل الجامح، مكان كان الجميع يتحاشاه سابقا ما عدا هؤلاء الذين كانوا يكسبون عيشهم عليه. فإذا ما كان يتوقع من جيشان البحر في العصور الأقدم أن يذكر بصور من الطوفان الوارد في الكتاب المقدس، من الموت والخراب، الآن، وفي عصر أكثر دنيوية، فإن المياه نفسها تعد ببعث جسدي وروحاني. كانت سواحل بريطانيا وفرنسا بحلول ذلك الوقت مسطرة بالمنتجعات التي تقدم بركات مياه البحر، في البداية فقط للطبقات الراقية، ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قدمتها للطبقات الوسطى كذلك. في القرن العشرين، لحقت العامة بهؤلاء إلى أكثر أماكن الاستمتاع حدائة وعصرية، الشاطئ.



عرض وينسلو هومر للهيئة الساحلية في براوتس نيك، اللوحة بعنوان دريفت وود، 1909.

حقوق النشر لمتحف الفنون الجميلة، بوسطن.

إن التجربة الجسدية المباشرة للبحر استبدلت بألفة خيالية ليست أقل وضوحا ولا سيطرة. فحتى القرن الثامن عشر، كان البحر بحد ذاته غير مرئي بشكل كبير، حيث كان مثيرا للاهتمام لما يحتويه من السمك، ولما يربط من أراض وليس لذاته، حيث نادرا ما كان يظهر في طليعة الفن أو الأدب وذلك حتى جعلت منه الحركة الرومانطيقية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر موضوعا مناسباً للثنتين. لكن بمجرد الوصول إلى هذه النقطة الحاسمة، سرعان ما أصبح البحر مدموجا في الفنون الشعبية. بعدها، سرعان ما أعطت التصويرات الخيالية للبحر شكلا لحقائق ملاحية بحرية جديدة. فضلا عن ذلك، أصبح البحر هو خشبة المسرح حيث يجري تمثيل الحالة الإنسانية بأكثر الأساليب ميلودرامية. فالأحلام والكوابيس التي كانت في السابق تُعكس على المناظر الطبيعية الأرضية أصبحت الآن منصبة على المناظر البحرية. حتى عندما أصبحت المحيطات لأول مرة مادة للعلم، كان البحر يمر بجولة أسطورية أخرى⁽¹¹⁾.

مع مرور الوقت سيقف العلم على قدمين بحريتين، بيد أن علم المحيطات كان آخر المعارف الجديدة الوليدة، وحتى اليوم فإن جزءا صغيرا جدا من أعماق المحيطات، على الأكثر 5 في المائة، هو فقط المعروف بشيء من التفصيل. إن المفاهيم الشائعة حول المحيطات لاتزال نتاج الأفلام والروايات أكثر منها نتاج الأبحاث. يبقى البحر، كما كان في الكتاب المقدس، أقصى درجات «الأخر»، غير أنه الآن ظاهرة طبيعية عوضا عن فوق طبيعية. وكما كان الوضع خلال الاكتشاف الأول للبحر، رسم الخيال الطريق الذي سيتبعه المستكشفون. سيستشف العلم طريقه من كتاب مثل جول فيرن وهيرمان ميلفيل، اللذين كانا من أوائل من تحرك عبر الساحل ليس لاستكشاف طبيعة البحر فقط بل لاستكشاف الطبيعة الإنسانية كذلك⁽¹²⁾.

وفيما كان هامشيا ذات يوم بالنسبة إلى الثقافة الغربية، انجذب البحر الآن إلى مركز الوعي الجمعي لهذه الثقافة، حيث أصبح رمزا رئيسيا لكل السلوك الإنساني. لقد وصف رابان البحر بأنه أكثر الرموز تلونا وذلك لأنه «ليس مادة معرفة... إنه، بالأحرى، السائل الأعظم والعنصر الأكثر عنفا، يعيد تشكيل نفسه من جديد من أجل كل مياه ومن أجل كل جيل». خلال القرن التاسع عشر اتخذ البحر موقعا

جديد تماما في الجغرافيا الأسطورية للثقافة الغربية. فما أشار إليه جوزيف كونراد على أنه «البحر الخالد» أصبح ملجأ للآمال والمخاوف التي لم يعد من الممكن استيعابها على الأرض⁽¹³⁾.

حتى عندما أصبح معظم الأمريكيين والأوروبيين أقل ارتباطا جسديا بالمحيطات، فإنهم أصبحوا أكثر قربا منها ذهنيا وخياليا. لطالما كانت للمياه قوى مقدسة، لكن الآن ولأول مرة قدم البحر نوعا من التوبة الدنيوية. لقد أصبح رمزا للأبدية، ومصدر راحة لهؤلاء الذين، وعلى إثر فقدانهم الإيمان بالفكرة الإلهية للحياة الأبدية، أصبحوا يرون في ما يبدو تدفقه السرمدي دليلا على خلود الطبيعة وأبدية الحياة. هناك في المكان الذي تلتقي فيه الأرض بالماء، لم يكن للوقت والتاريخ أي سيطرة. أصبحت الأرض مرتبطة بالحدود، وبالبدايات والنهايات، غير أن البحر أتى ليمثل الثراء، ما يبدو أنه مصدر متجدد لانهائي، وجبهة جديدة تماما للاستكشاف والاستغلال. بالنسبة إلى جوزيف كونراد، الذي كان يحتقر ما حدث للأرض في العصر الصناعي، كان البحر هو الاختيار العملي الأوحى. فقط في زمننا هذا جرت مقارعة أسطورة البحر اللامتناهي بالنتائج المثبتة للتلوث وبالنهب غير المقنن لمياه العالم، ولكن مع ذلك، تستمر فكرة البحر الخالد في الثقافة الشعبية⁽¹⁴⁾.

آفاق جديدة

كان الاكتشاف الثاني للبحر من إنجاز سكان الأراضي الداخلية مثل هنري ديفيد ثورو وراثشيل كارسون وليس إنجاز البحارة، وهما من الكتاب الذين كانت خبراتهم العملية بالمحيط محدودة ولكن كان خيالهم لا حد له. لقد أتوا إلى البحر ليكتشفوا ليس ذلك الكامن وراءه فقط بل وذاك الكامن في دواخل أنفسهم. بالنسبة إلى الأجيال الأقدم كان البعد الملهم للدهشة هو البعد العمودي، خصوصا السماوات في الأعلى. حل مراقب المياه مكان مراقب النجوم، حيث اتخذ البعد الأفقي معنى جديدا وحيث أصبح الأفق بحد ذاته جهات للخيال، خصوصا بالنسبة إلى هؤلاء الفنانين الذين توافدوا إلى الساحل لأول مرة. في البداية كانت طبيعة البحر الشرسة هي التي اجتذبتهم، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا عمقه الزمني كما عمقه المكاني. على الأرض، بدأ أن التغيير الصناعي قد عزل الماضي، ولكن البحر، الذي يشار إليه الآن

بشكل متزايد على أنه «أبدي» أو «خالد»، بدا أزلما، مُستودعا لذلك الذي اختفى من فوق الأرض. حاجج جول فيرن بأنه، ولأن البحر لا يتغير أبدا، «لم لا يكون البحر قد احتفظ، في أعماقه المجهولة، بالبعض من هذه العينات العملاقة للحياة لعصر آخر؟» كما أن أناس البحر، والبحارة والصيادين، الذين كانوا سابقا غير مرئيين بالنسبة إلى الفنانين والشعراء، أصبحوا وبشكل مفاجئ ذوي أهمية كبقايا لما هو قديم وبقا. إن المنظر البحري، والذي كان ذات يوم نوعا فنيا ثانويا، أصبح رئيسيا خلال القرن التاسع عشر، مستحضرا مناظر للحياة البحرية في ردهات هؤلاء الذين لم يقتربوا قط من الساحل فضلا عن الدخول إلى البحر⁽¹⁵⁾.

في إنجلترا، وحيث بقي النزر القليل من البرية الداخلية، اجتذب البحر «المتوحش» الرومانطيين منذ وقت مبكر. في أمريكا، حيث الوفرة الكبيرة في الأراضي غير المروضة، استغرقت رحلة البحث عن التجارب الروحانية المهيبة وقتا أطول حتى تضع تركيزها على المحيط. ومع ذلك، خلال القرن التاسع عشر، أصبح الاتساع غير المحدود للبحر أكثر جاذبية من أي وقت مضى. إن «ضخامته الأفقية»، مرفقة بحركته المستمرة وبأعماقه الغامضة، كانت لها جاذبية عظيمة على كلا طرفي الأطلسي. أصبح البحر مرآة سيستخدمها سكان الأرض للتفكير في حالتهم الشخصية. ستستخدم المجتمعات المتجهة إلى التصنيع بسرعة كبيرة، وخصوصا رجال هذه المجتمعات، البحر لتقدير أنفسهم، ولاختبار لياقتهم ورجولتهم في عالم لم يعد يقدم لهم تحديات كافية⁽¹⁶⁾.

حتى عندما قل التشارك الفعلي مع البحر، فإن وجوده الرمزي والمجازي ازداد قوة. يخبرنا هانز بلومينبيرغ أنه في العصر الذي كانت فيه سفن الدول تتهددها الثورات، تألفت فيه رمزية حطام السفينة بشكل غير مسبوق. في العصر الفيكتوري، اكتشفت كذلك الجموع الإنجليزية نفسها متأخرا على أنها شعب بحري. إن مهنة البحار العمومية، والتي كان يجري تفاديها سابقا على أنها شيء يقترب من العبودية، أصبحت الآن تجمد على أنها محترمة وبطولية. وبينما أصبح التواصل مع الأرض أساسيا للشعور بالقومية إبان القرن التاسع عشر في فرنسا وألمانيا، كان البحر في بريطانيا هو الذي أثار المشاعر الوطنية القوية. لاحظ روبرت لويس ستيفنسون أنه «إذا ما تمنى رجل إنجليزي مثل هذا الشعور

(الوطني)، لا بد له أن يكون عن البحر... إن البحر هو نهجنا وحصننا، لقد كان موقعا لأعظم انتصاراتنا ومخاطرنا، ولقد اعتدنا من خلال وصلاتنا الشعرية الغنائية أن ننسبه إلى أنفسنا». خلال العصر الفيكتوري، سيصنع الإنجليز هيكلا معظما من الأبطال البحارة وسيسبغون على جاك تار^(*) نبلا لم يتمتع به أي جيل سابق من البحارة قط⁽¹⁷⁾.

حينئذ اعتبر البحر «الموطن الطبيعي للرجل الإنجليزي»، وحقا مكتسبا بالولادة بالنسبة إلى الأمة، ودعوة وتبريرا للتوسع الإمبريالي. إن الطبيعية الجزيرية لبريطانيا، والتي كانت سابقا تُرى على أنها عيب، أصبحت «قرارا حكيما من العناية الإلهية»، فهي تحمي من الغزو الخارجي كما أنها وسيلة للنفاذ إلى العالم الأوسع. «نحن نمتلك بحرا رائعا»، أعلن تشارلز ديكنز، «صحيا لكل الناس، مفيدا للجسد، مفيدا للذهن». وعلى الرغم من أن عصر الرحلات العظيمة قد ولى منذ زمن، فإن البحر قد زود الإنجليز برؤية لأنفسهم تردت إلى الماضي باعتبارهم «أمة» بطله بشكل لا يمكن لمحيطهم الأرضي الضعيف أن يقدمه أبدا. وفي أمريكا كذلك، تطور هناك ما كان «بشكل جوهرى ثقافة ساحلية بحرية الوعي وبتقليد أدبي متطور يستقر في الدوافع الرومانطيقية»⁽¹⁸⁾.

غير أن البحر كان يؤدي دورا على مستوى شخصي كذلك، كرمز مجازي للحياة بحد ذاتها. ففي عصر بدا فيه كل شيء في حالة من التغير، صور البحر وبشكل مجازي تدفق الحياة. «هنا»، كتب جاي. جي. فرانسيس حول شاطئ البحر: «نحن نفكر بشكل أفضل من تفكيرنا من على أي مشهد أرضي، يستطيع الرجل أن يتأمل ويستلهم». كان المد مذكرا بالطفولة والشباب، فيما الجزر بالكبر، بينما خط الأفق «يحكي عن مستقبل مضمون، عن أبدية ثابتة». والآن وقد أصبح كل شيء يرى على أساس التغيير والتطور، أصبحت الرموز البحرية توجد في كل مكان في الفن كما في الأدب. تقليديا، كانت الصورة المفضلة لمسيرة الحياة هي Ages of Man أو «أعمار الإنسان» والتي هي عبارة عن سلم يصعد ويهبط وتبدو عليه كل مرحلة من مراحل الحياة من الولادة وحتى الموت ساكنة. فيما قبل القرن التاسع عشر، كانت رحلة الحياة تقدم بشكل أرضي على أنها

(* مصطلح إنجليزي شائع يشير إلى رجال البحر. [الترجمة].

شارع أو طريق، غير أنه في العام 1842 قدم الفنان الأمريكي توماس كول أربع لوحات أسماها «رحلة الحياة» Voyage of Life والتي سرعان ما أصبحت أكثر تمثيل لمسيرة الحياة شهرة. في هذه اللوحات يظهر أشخاص يمثلون الطفولة، والشباب، والرجولة، والشيخوخة على متن قارب يبحر في نهر سيقود أخيرا إلى البحر، ممثلا الموت⁽¹⁹⁾.

الآن، اتخذت فكرة الرحلة البحرية أهمية جديدة تماما. لقد كانت هي الرحلة بحد ذاتها، وليس موقع الوصول، التي أعطت للحياة معنى. فما كان مرتبطا في السابق بالقدر، ويخاض فقط بسبب الضرورة، أصبح الآن هو طموح كل شاب. أصبح البحر مرتبطا بالنماء، بينما الأرض مرتبطة بالجمود. وما كان ذات يوم الملاذ الأخير بالنسبة إلى الفقراء، أصبح الخروج إلى البحر ولأول مرة ينظر إليه على أنه نشاط مشرف. ففي كل من إنجلترا وأمريكا الشمالية أصبحت الرحلة البحرية بالنسبة إلى نخبة معينة طقسا افتراضيا للعبور، حيث يميزهم هذا الطقس ليس فقط عن رجال اليايسة العوام، لكن على ما يبدو أنه كان الأهم، عن كل النساء. من المفارقات أنه حتى حين أعيد تصور البحر على أنه أمومي والسفينة على أنها أنثى أصبح الإبحار أكثر حصرا على الذكور عما كان عليه في القرون السابقة. وفي تغيير تام لمفهوم القدماء لفكرة العودة إلى الديار، أصبح البحر هو الموطن الآن. بالنسبة إلى الرجال، فالخروج إلى البحر استحضّر شعور الارتواء الرجولي، بالنسبة إلى النساء، في «مجاورة البحر المحتضن الأمومي، تزدهر الغرائز الأنثوية». وحيث أصبح البحر يُرى على أنه رحم كل الحياة، أصبح الساحل هو الحاضنة، حيث أخذ يرتبط بشكل متزايد بالطفولة عندما أصبحت عديد من الطبقات الوسطى الفيكتورية تسافر بشكل أسري لقضاء عطلاتها هناك. فقبل أن يجنسن الشاطئ، جرى توليفه، حيث أصبح محيطا ينتمي إلى الأمهات والأطفال، ويتذكره الرجال بحنين كجنة مفقودة من الطفولة لطالما اجتذبتهم باستمرار ككبار⁽²⁰⁾.

إن الجيل ذاته الذي أسس لفكرة الزمن العميق لنظرية التطور كان على الاهتمام نفسه بأعماق المحيط. إن الألغاز التي كان يعتقد ذات يوم أنها موجودة على الأرض انتقلت الآن عبر الساحل. أصبح البحر هو البرية الجديدة والجبهة

الجديدة، والأفق القادم للطموحات الإنسانية، يحمل على عاتقه ثقل تحقيق الأمنيات والأحلام والتي كانت تستثمر على الجبهات الأرضية ذات يوم. إن قدرة خيال البشر على تجاوز قواهم في الملاحظة تعني أنه حتى عندما سبر العصر الثاني للاستكشاف أغوار البحار بأعماق أكبر، أصبحت المحيطات هي آخر موقع للجغرافيا الأسطورية، والتي، كما تذكرنا ميرتشا إيلاده، هي الجغرافيا الوحيدة التي لا يستطيع أن يستغني عنها الإنسان⁽²¹⁾.

كيف أصبح البحر برياً؟

لقد كان البحر مرتبطاً ولزمن طويل بالبرية، ولكن ليس النوع الذي اجتذب الجيل الرومانطيسي. إن الكلمة Wilderness أو البرية، هي واحدة من تلك الكلمات المتحولة، دائماً التغير في المعنى والتطبيق. وحيث إنها ارتبطت بالأماكن غير المناسبة للحياة البشرية، فإنها انطبقت على الأراضي المقفرة، خصوصاً الصحاري والغابات الخطرة، وذلك قبل أن ترتبط بالبحر بحد ذاته. لقد أصبحت البرية مكاناً لاختبار عمق المشاعر والتي كانت مقدرة جداً بين أجيال من الرومانطيين الأوروبيين والأمريكيين. خلال القرن التاسع عشر، لم تعد البرية شيئاً مخيفاً يجري تفاديه بل أصبحت مكاناً يجري التمتع فيه وتستوجب حمايته. في العديد من الثقافات يرتبط البحر بقوة تفوق الطبيعة. فالبحر غالباً ما يكون موقعاً للموت، أو للخالدين. كان ذلك حقيقياً لكل من الصين وأوروبا الوثنية. لقد عرفت المسيحية البحر على أنه مملكة الشيطان، غير أنها احتفظت بالقوى العظمى للرب. في جغرافيا الكتاب المقدس تطيح المياه إرادته، حيث تبقى غامضة لا يمكن التنبؤ بظروفها. فلم يكن حتى القرن الثامن عشر أن أصبح ممكناً تصور أن المحيطات قد تكون معرضة لقوانين الطبيعة، بل مضى وقت أكثر قبل أن يجري تفصيل هذه القوانين عن طريق علم المحيطات الحديث. حتى ذلك الوقت، شعر البشر بأنهم في موطنهم الطبيعي فقط على الأرض. كانت الوحوش لاتزال تظهر كرسوم على الخرائط البحرية وذلك بعد أن اختفت من خرائط الأراضي الداخلية بزمن طويل. لطالما كان يجري دفع المخاوف إلى أطراف العالم الذي يعرفه البشر، وفيما أصبحت القارات معروفة أكثر، أصبحت

المحيطات مستودع المخاطر التي لم يعد يمكن تخيل وجودها على الأرض. هناك تكمن الحيتان البيضاء وأسماك القرش القاتلة، التي سترتفع قيمتها في الثقافة الشعبية مع مرور الوقت، في البداية في الأدب ولاحقا في الأفلام. لقد استمرت الأعماق في الاحتفاظ بأسرارها لوقت أطول بكثير مما فعلت حتى أكثر بقاع الأرض انعزالا، مبيحة نشاطا أعظم بكثير للخيال. كانت المخاوف والخيالات تتعاظم كلما ابتعد الإنسان عن الساحل، حيث كانت تلك «مرجعية متكررة للأشخاص الذين لم يسبق لهم أن عملوا في البحر أو عاشوا على الساحل»⁽²²⁾.

وفيما تعدت الحضارات على الأراضي حول العالم، لم يعد للبدائي النقي من مكان للذهاب إليه سوى البحر. بحلول نهاية القرن التاسع عشر - وإلى اليوم - كان يعتقد أنه، بين كل الأماكن على هذا الكوكب، كانت المحيطات الأقل تأثرا بالبشرية. إن الإشارات المتكررة إلى «البحر الأبدي» تجعله يبدو كأن مياهه تبقى أبعد من وصول الزمن إليها، وهو الوهم الذي أسهم في غياب المحيطات عن المعالجة التاريخية الجادة، وعن المؤرخين البيئيين. كانت البرية تجتذب تحديدا سكان المدينة والذين كانوا يبحثون فيها عن مصادر للإلهام الاجتماعي والشخصي التي كانوا يشعرون بأنها تنسَلُّ من بين أيديهم في المجتمع الصناعي الرأسمالي. ومع الشعور بفقدان التواصل مع الطبيعة، بحث الأوروبيون والأمريكيون عن مساحات، حيث أنقى أشكال الطبيعة يمكن إيجادها وحمايتها. كانت الجبال والغابات، والصحاري أول ما أُشير إليه وفُهم على أنه برية. كان البحر آخر ما جرت حمايته، عموما لأنه بدا غير محدود بشكل كبير حتى إنه لا يمكن أن يتعرض للخطر. وبينما جرى استكشاف القارات تماما، فإن الجبهات الأرضية أصبحت قليلة. فقط في الولايات المتحدة وكندا كان هناك مجال للبرية، ولكن بحلول نهايات القرن التاسع عشر أصبح الأمريكيون الشماليون ينظرون كذلك إلى أعماق البحار على أنها «فراغ عظيم، صُور بشكل مثالي على أنه مجتمع خارجي، ومنطقة برية من الطبيعة التي كانت متناقضة مع الأماكن الاجتماعية على الأرض التي يمكن تخطيطها، والتحكم فيها، وتطويرها»⁽²³⁾.

لقد كان الأمريكيون الأصليون مثل شعب الماين والوابانكي من بين أوائل مكتشفي البحر كجبهة جديدة، جرى دفعهم بعيدا عن الساحل في البداية

عن طريق المستوطنين الأوروبيين ومن ثم تهجيرهم من مناطق الجمع والصيد الداخلية الخاصة بهم عن طريق التوسع الأبيض في الزراعة وفي عملية قطع الأشجار. وحيث إنه جرى سدّ أنهار سمك السلمون بسدود بنتها شركات قطع الأشجار، لم يكن لدى الواباناي من خيار سوى العودة إلى الساحل لصيد السمك. وهناك اكتشفوا فرصا تجارية جديدة تفتحت لهم عن طريق السياحة الساحلية⁽²⁴⁾.

لقد ازدادت الأعداد الساحلية للواباناي في نسبة وتناسب مباشرين مع ارتفاع عدد زوار الصيف البيض. بداية من منتصف القرن التاسع عشر، كان هؤلاء يخيمون مجددا على السواحل التي كانت على مدى مئات السنوات بقاع صيد وتجميع لأسلافهم، ولكن هذه المرة هم يستغلون مهاراتهم في كسب قوتهم من أجل أغراض تجارية. فبحصادهم للعشبة الحلوة sweetgrass، أسسوا تجارة صنع سلال قوية. لقد عادوا إلى صيد الفقمة من أجل صنع نوع من الأحذية، فيما أصبح صيد خنازير البحر، الذي كان في السابق نشاط كسب معيشة ثانويا، ومشروعا تجاريا رئيسيا، مزودا المنارات والزراعة الميكانيكية بمصدر ثمين لنوع ممتاز من زيت الإنارة والتشحيم. وعليه، لقد كان الأمريكي الأصلي «يستفيد من الآليات نفسها التي دفعت به وأنشطته خارج الغابات». ومع ازدياد القيود بسبب قوانين الأعمال، اتجه هنود ماين إلى البحر كآخر بركة بالنسبة إليهم. لقد كان يقال إنه «عندما أصبحت الغابات مراعي، عندما أدارت أنهار السلمون المناشير، ذهبوا (هم) إلى البحر حيث لا توجد أسيجة، وفؤوس، أو محاريث»⁽²⁵⁾.

لقد كانت هي ذات اللحظة التي اكتشف فيها هنري ديفيد ثورو البحر على أنه بركة. لقد توصل إلى ذلك نتيجة لزيارتين إلى كيب كود، الأولى في العام 1849، والثانية في العام 1855، ثم نشر تجاربه خلال الستينيات من القرن التاسع عشر، حيث كتب أن «المحيط هو بركة تمتد حول العالم، إنه أكثر توحشا من غابة البنغال وهو مملوء بالوحوش». لقد التصق هذا التوصيف المجازي، كما فعل مفهومه حول البحر على أنه غير محدود ونقي، يقف خارج حدود التاريخ. إن مفهوم البحر على أنه بركة لم يكن شيئا تعلمه ثورو من البحارة الذين قابلهم عندما كان يقيم مؤقتا في كيب كود، فمثل هذا المفهوم كان غريبا تماما بالنسبة

إليهم. لم يتعامل ثورو مع الماء في أي وقت، كل ملاحظاته كانت من الساحل، مما صنع منه متسكع السواحل الأول في أمريكا. بيد أنه كان يعتقد أن طرف البحر كان يطل على عالم جديد تماما، وجبهة جديدة للنمو الروحاني. أصبحت المحيطات بالنسبة إليه نسخة أكبر وأكثر إلهاما من بركة والدين. فبالنسبة إلى ثورو وكذلك للواباناي، كان البحر مكانا بلا أسيجة⁽²⁶⁾.



منظر من الساحل لمخيم هندي عند ميناء بار، ماين، 1881. الصورة لكيلبيرن بروذبرز،

مقدمة من متحف آي، ميناء بار.

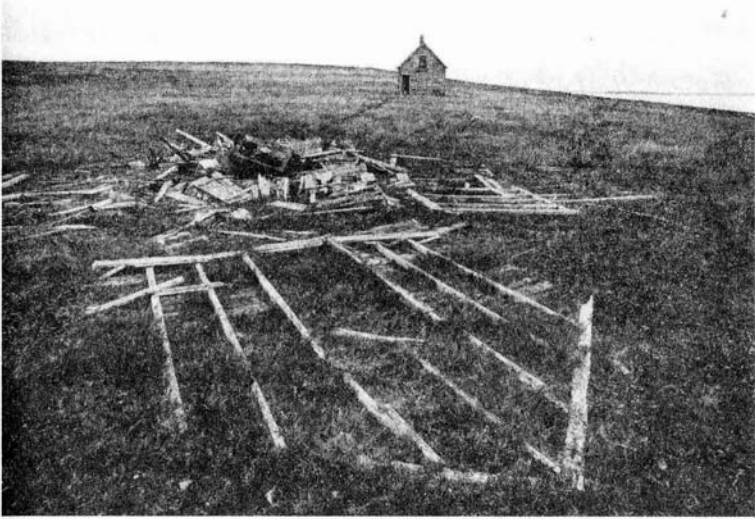
لطالما كان البحر مرتبطا بالمخاطر والموت، بيد أن حطام السفينة أصبح الآن الرمز الرئيسي للكوارث الإنسانية حتى جرى استبداله بحوادث تحطم طائرات المسافرين اقترابا من زمننا الحالي. لقد كان هناك عدد كبير من حطام السفن

عبر التاريخ، بيد أنها لم تكتسب أهمية رمزية كبيرة مطلقاً، ليس فقط للبحارة ولكن لسكان الأرض كذلك. قبل القرن التاسع عشر، كانت حوادث السفن شائعة جداً إلى درجة التحول إلى شيء مهم بالنسبة إلى الشعوب الساحلية، غير أنها كانت ذات أثر قوي في سكان اليابسة. وبينما كان يرتحل باتجاه كيب كود في العام 1849، انحرف ثورو عن مساره باتجاه الساحل، حيث اجتذبه إعلان مكتوب يقول: «الموت! مائة وتسع وأربعون روحاً فقدت في كوهاست». فقد تحطمت سفينة سانت جون الشراعية، وهي سفينة مهاجرين من غالواي، مجتذبة أعداداً ضخمة من إيرلندي بوسطن إلى الساحل. وحتى فيما كان الثكلي يجمعون جثث أقربائهم، استمر المحليون في عملهم في جمع طحالب البحر «كأنه لم يكن هناك أي حادثة في الدنيا». لم يكن ذلك بسبب نقص التعاطف، بل كان ذلك يعكس وعياً بحرباً مختلفاً وقديماً والذي كان يقبل الموت في البحر على أنه حتمي لا مفر منه. لقد كان لفكرة حطام السفينة معنى مختلف عندما كانت حوادث الغرق جزءاً من النظام الطبيعي للأشياء، هي شيء يجب ألا يعطل عمل هؤلاء الذين كان مصيرهم أن يموتوا وأن يحيوا عن طريق البحر⁽²⁷⁾.

لقد كان تحطم السفن متكرر الحدوث في القرون السابقة إلى درجة أنه لم يكن موضوعاً هاملاً جديراً بالذكر. لقد جرى التعرف على مواقع ما يقرب من ثلاثة ملايين سفينة محطمة عن طريق علماء الآثار الحديثين، ومزيد من هذه المواقع موجود حول العالم من دون شك. في القرن التاسع عشر، كان للمنارات المتزايدة والعاملة بشكل أفضل مرفوقة بتطوير القوى البخارية أن خففت وبشكل ملحوظ أعداد السفن المحطمة. بيد أنه كان تحديداً في ذلك العصر الذي لم يكن للسفن فيه أن تغرق أن تعظم الفرع من هذه الحوادث بالنسبة إلى سكان اليابسة، الذين بالنسبة إليهم أتت هذه الحوادث لتبرز العجز الإنساني في مواجهة قوى البحر العظيمة. في رواية لواشنطن إيرفينغ، يبرز التصادف مع حطام سفينة منجرف أفكاراً بشأن الضياع المطلق. في القرن التاسع عشر، أصبح حطام السفن رمزا لقوى الطبيعة ولعجز المحاولات الإنسانية عن التحكم في أقدارهم سواء على الأرض أو في البحر⁽²⁸⁾.

في أدب القرن التاسع عشر، أصبح البحر هو الموقع الرئيسي للخطر والمغامرة، الطقس الأهم للعبور بالنسبة إلى صبية اليابسة الذين يتوقون إلى تأكيد رجولتهم. في إنجلترا كان البحر يعتبر «البرية الوحيدة غير المروضة، حيث ربما لا يزال الإنسان صغيراً ووحيداً بين ضخامة الخلق... إن الذهاب إلى البحر كان هرباً من المدينة ومن الآلة»، كما بين رابان. في العصور القديمة، خدمت الجبال والغابات غرضاً مشابهاً، وقد استمرت في ذلك بالنسبة إلى السكان الأمريكيين الأصليين على ساحل شمال غرب أمريكا، الذين طالما اتجهوا إلى الأراضي الداخلية في رؤاهم الارتحالية. ولكن بالنسبة إلى الأمريكيين الأوروبيين، الذين كانوا مستمرين في عملية التطهير من جميع آثار البرية في الأرض، فالمحيطات فقط هي التي قدمت درجة من التحدي تضمن استنهاض البطولة في الطبقة الاجتماعية للرجال المهذبين التي كان ينتمي إليها ثورو في حد ذاته. لقد شعر رجال الطبقة الوسطى أواخر القرن التاسع عشر بأنهم ورثوا عالماً يتقلص باستمرار، عالماً أخلي من الأشياء البرية المتوحشة الضرورية للمحافظة على رجولتهم. «لا أستطيع سوى أن أشعر كأنني قد عشت في بلد مروض ومخصي إذا جاز التعبير»، كتب ثورو في العام 1855. لقد كانت النكهة البحرية، التي كان يكتسبها وهو آمن على الساحل، هي خلاصه⁽²⁹⁾.

لم يكن هناك شيء مُفقد للرجولة أكثر من ذلك العالم الأليف الفيكتوري شديد الأنوثة، وعليه لم يكن مفاجئاً أن الرجولة أصبحت مرتبطة بالمساحة الوحيدة التي، وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت النساء مبعديات عنها منهجياً، أعني البحر. في القرون الأولى، كانت النساء فعلياً جزءاً من العالم الساحلي، مشاركات تقريباً في كل جوانب التجارة وصيد السمك. بيد أنه مع وصول الطاقة البخارية أصبحت النساء مقيدات بشكل متزايد فقط بالأنشطة الساحلية، أو، عندما كان يسمح لهن بالصعود على القوارب، كن يُقَيَّدن بدور الراكب السلبي. وعلى الرغم من أن البحر كان يُقدَّم مراراً وتكراراً على أنه مؤنث وشبيه بالرحم، بيد أنه أصبح يُرى على أنه محيط حصري بالرجال. لقد جرى نسيان مشاركة المرأة سابقاً في العالم البحري وذلك عندما أصبح البحر يؤدي خدمة رمزية أخرى وذلك عن طريق تأكيد، بل وتضخيم، الفروقات الجندرية الطرق التي لم يعد لليابسة القدرة على أدائها⁽³⁰⁾.



تامبلهوم Tumblehome، للمصور بيتر راستون. الصورة مقدمة من الفنان.

في أدواره الجديدة باعتباره برية، قدم البحر مهرباً من الزمن، من التاريخ في حد ذاته. ومع صعود الدولة الأممية الأرضية، أصبحت الأرض أكثر تأريخاً وبشكل مكثف، مما عزل دور البحر. الآن بدأت التواريخ الأممية وانتهت على الساحل، فيما أصبحت فكرة الأبدية أكثر ارتباطاً بالمحيطات من أي وقت مضى، كأنها محاولة لإزالتهم من مسيرة الزمن التخريبية التي بدت مستمرة من دون هواده على الأرض. إن السرمدية كانت شيئاً أقي ثورو باحثاً عنه في زيارته إلى كيب كود، ولقد وجدها على الساحل: «نحن لا نربط فكرة القدم بالمحيط، ولا نتساءل كيف بدا منذ ألف سنة مضت، كما نفعل مع الأرض، حيث إنه كان متوحشاً ويصعب غور أسباره بذات الدرجة دوماً». وعليه، كان البحر محصناً من الخسارات التي عانتها الياسبة باستمرار. لقد كان خالداً⁽³¹⁾.

لقد وجد ثورو شيئاً ملهماً روحانياً ومتجدداً باستمرار حول البحر. سنوات عدة قبل جولات كيب كود، وبينما كان يعيش لمدة قصيرة على جزيرة ستاتن، كتب ثورو «أن أفضل موقع للسكن الإنساني كان على طرف الأرض، حيث هناك ربما تغوص عميقاً الدروس والتأثيرات المستمرة للبحر في حياة وشخصية رجل الأرض، ربما مزودة خياله بصبغة بحرية». وبسبب كونه سليل أسرة تجارية ساحلية من ماساتشوستس، لطالما

شعر ثورو باتصاله بالبحر. «إنها كلمة نبيلة، البحار.. يجب أن يكون في داخل كل واحد منا مزيد من معاني هذه الكلمة.. لربما يجب أن نكون بحارة وأرضيين بشكل متساو، وحتى جبالنا الخضراء تحتاج إلى بعض من خُضرة البحر لنختلط بها». يبدو أن ثورو لم يكن رجل الأرض الذي طالما دُفع به أن يكون، ولكنه لم يكن بحارا كذلك بالطريقة التي كان بها أسلافه. هو كان عوضا عن ذلك مؤسساً لنسل جديد من بين أجناس الحافة، مديرا وجهه تجاه البحر فيما هو متجذر بقوة على الأرض. لقد كان هو من أوائل من أسمتهم إيميلي ديكنسون «مراقبي المياه الساحلين». سرعان ما سينضم إليه آخرون، بمن فيهم والت ويتمان، الذي كتب عن الشاطئ أنه مكان يشير إلى «التواصل، والتقاطع، والصلب يتزاوج مع السائل - ذاك الشيء الغريب الجذاب»⁽³²⁾.

إن هؤلاء الذين كانوا يكسبون عيشهم من البحر نادرا ما عبروا عن أي مشاعر تجاهه غير حتمية القدر. لقد كانوا يقضون أوقاتهم الترفيهية مصوبين ظهورهم إلى البحر، متجاهلين هؤلاء المهتمين «بملاحقة الساحل» على أنهم غريبو الأطوار، وحتى معتوهون. إن الانتشاء بالبحر لم يكن جزءا من الثقافة البحرية القديمة. لقد وصف رالف والدو إيميرسون «حياة البحر بأنها ذوق مكتسب، مثل ذاك الذي نكتسبه للطماطم والزيتون». «ما أشار إليه ثورو على أنه صبغة بحرية كان شيئا يتحصل عليه سكان اليابسة. إن قصيدة إيميلي ديكنسون «الابتهاج هو في ذهاب» توضح تماما أن حب البحر كانت له جذور أرضية:

الابتهاج هو في ذهاب

روح أرضية إلى البحر،

عابرة البيوت - عابرة الألسنة الأرضية

إلى حيث الأبدية العميقة

أن تناسلنا كما حدث، بين الجبال،

هل يستطيع البحار أن يتفهم

هذه النشوة الإلهية

لغرة الشأو البادية من اليابسة⁽³³⁾.

بالنسبة إلى هربرت. جي. ويلز هناك «لا يوجد رومانسية للبحر في سفينة إبحار صغيرة كما رأيتها أنا. إن الرومانسية هي في ذهن رجل الأرض الحالم»⁽³⁴⁾.

الساحل الاستشفائي

لقد كان الأوروبيون والأمريكيون منجذبين إلى البحر حتى عندما أصبحت أعداد من يعبر خط المد منهم أقل فأقل. لقد كان الساحل جذابا في البداية بسبب صفاته البرية المهيبة، بيد أنه في النهاية لم يكن الساحل الصخري ولكن الرملي، ما ندعوه اليوم بالشاطئ، هو ما أصبح أكثر صفاته جاذبية. لقد كان الشاطئ اختراعا للعصر الحديث، صور طبيعية جديدة تماما ثقافيا كما هي ماديا. يخبرنا المعجم الإنجليزي لأكسفورد بأن الكلمة المحلية beach أو شاطئ كانت تعني في الأصل نوعا معينا من الصخور والذي يدعوه الإنجليز «shingle» أو «حصى» أو «cobble» أو «الأحجار المستديرة». لقد تطلب الأمر فترة زمنية قبل أن تصبح الكلمة اسما لنوع مميز من الأماكن. إن شواطئ الحصى والأحجار المستديرة أكثر شيوعا في أوروبا، بينما الشواطئ الرملية منتشرة في الأمريكتين وفي أستراليا، بيد أن القاسم المشترك بينها هو الطريقة التي تشكلت وتغيرت بها عن طريق حركة المياه. تحمل الأنهار الأحجار إلى البحر، حيث يجري طحنها إلى قطع أصغر ثم تُلقى على طول الساحل. إن الشواطئ، وأكثر من أي أجزاء أخرى من الساحل، تتغذى على الحركة. لقد كان يقال إن «الشاطئ هو المكان الذي تتوقف فيه الرمال لتزاح لوهلة قبل أن تواصل رحلتها إلى مكان آخر». عندما تجف الأنهر وتراجع التيارات الساحلية تموت الشواطئ وتختفي⁽³⁵⁾.

ولأن الشواطئ حية ودائمة التغيير، تكون عصية على التعريف وعصية أكثر على التحديد. لا عجب إذن أن لم يكن لأسلافنا أسماء ولا مشاعر تجاهها. لقد كانوا يخافون طبيعتها المتقلبة حيث بذلوا مجهودا قليلا للتحكم فيها. اليوم، عندما نستثمر الكثير من الجهود في موازنة واستقرار الشواطئ وذلك من خلال تغذية الشواطئ وإجراءات أخرى، فإنها تستمر في التملص من قبضتنا. وعليه فنحن نتحدث عن الرمال المتحركة ومخاطر البناء على الرمال. فبين كل الملامح الساحلية، وبعيدا عن الأراضي الرطبة، فإن الشواطئ هي الأكثر سيولة بين كل مظاهر الطبيعة، إنها terrae infirma أو الأرض اللينة العظمى. اليوم تعتبر الشواطئ حول العالم من أكثر الأماكن اصطناعية. إن الرمل، وتحديدًا الرمل الأبيض، أصبح هو المعيار العالمي للشواطئ حتى في الأماكن التي تكون فيها هذه الشواطئ صناعية تماما ومستوردة. إن ما كان ذات يوم مادة بلا قيمة أصبح الآن رمزا لا يقدر بثمن. إن العديد من الشواطئ اليوم هي من صنع الإنسان تماما، والبعض منها داخلي كذلك، بعيدا عن البحر وعن الطبيعة بحد ذاتها⁽³⁶⁾.

إنه تحول مذهل، فعندما استقر الأوروبيون والأمريكيون على السواحل في البداية، فإنهم بالعموم تجاهلوا، بل تفادوا، ما يعتبر اليوم أكثر الامتدادات الساحلية جاذبية. عندما جرى الاقتراب منه في البداية عبر البحر، كان الشاطئ يستخدم للرسو ولكن ليس للاستقرار. لم يكن سكونه القاحل غير مضياف فقط ولكنه منفر. لقد ارتبط الشاطئ طويلا بالأوبئة والموت، وسيمر وقت طويل قبل أن تستبدل سمعة الشاطئ الجهنمية بتسميته الجديدة كجنة أرضية. وحتى الآن لا يزال الرعب يلاحق الشاطئ، متفجرا بذعر دوري حول هجمات القرش والمخاوف المستمرة من تلوث المياه وسرطان الجلد⁽³⁷⁾.

لقد مرت قرون قبل أن يصبح الشاطئ هدف وصول وليس نقطة انتقال بين الأرض والبحر. قبل القرن التاسع عشر، كان الشاطئ هو أسهل مكان لإرساء قوارب المياه الضحلة. لقد أرسى أسلافنا سفنهم على الشاطئ لزمّن طويل قبل أن يفكروا في النزول للشاطئ بأنفسهم. فحتى هؤلاء الذين كسبوا قوتهم من البحر تفادوا الخط الساحلي، حيث بنوا مساكنهم على الأرض موجهين بعيدا عن البحر. فلزمن طويل، لم يجد الزوار سوى القليل الذي يبهجهم حول الساحل. فحتى سنة 1903، قال مسافر سويدي على الساحل الغربي للدولة إنه «خلال كل الرحلة، لم أشهد مكانا واحدا جميلا»⁽³⁸⁾.

عندما بدأت الطبقة الراقية الإنجليزية في بدايات القرن الثامن عشر هجر المنتجعات الأرضية من أجل تلك الواقعة على الساحل، لم يكونوا يقصدون المياه الدافئة والشواطئ الرملية. لقد كان التخلص من الألم عوضا عن البحث عن المتعة هو ما حرك أول تدفق نحو البحر. كان المرضى والمتنقّهون ينجذبون إلى المميزات العلاجية الرفيعة الشهيرة لمياه البحر الباردة. بيد أن العلاجات التي وجدوها هناك كانت، وفق مقاييسنا، أكثر جهنمية منها نعيمية. لقد أتوا ليس ليسبحوا ولكن ليستحموا، ولقد كانت تجري مساعدتهم لاستكمال هذا النشاط عن طريق ما يسمى آلات الاستحمام، والتي كانت كبائن على عجلات تنقلهم عبر الشاطئ وإلى المياه، حيث، وبمساعدة عاملين مستأجرين، كان يجري غمس الرجال والنساء على حد سواء في البحر كجزء من علاجاتهم النفسية والجسدية، والتي كانت تشتمل كذلك على شرب مياه البحر، والتي كانت تعتبر طبية في ذلك الوقت. قبل أن تصل سكك الحديد إلى ساحل نيو جيرسي، كانت الرحلة إلى هناك توصف بأنها «عقوبة أكثر منها

متعة... كانت الرحلة مرهقة كذلك التي يَتَجَشَّمُها المسلمون إلى مكة». لاحقا، عندما بدأت الطبقات الراقية الإنجليزية بالتطلع جنوبا إلى المتوسط بحثا عن علاجاتهم، كانوا يذهبون خلال الشتاء، حيث إنه لم يكن حتى القرن العشرين أن حلت الشمس محل المياه الباردة كإكسير للصحة والنشاط⁽³⁹⁾.

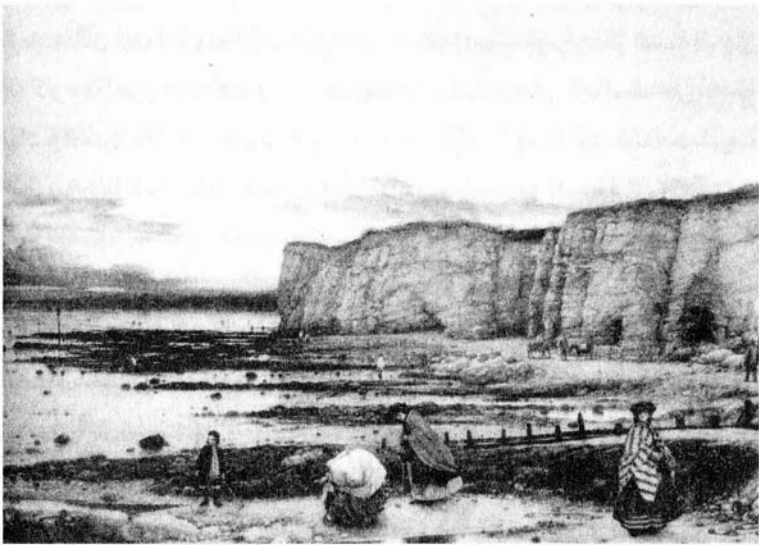
ليس كل ساحل يصلح لأن يكون منتجعا. لقد جرى اختيار الشواطئ الإنجليزية في البداية كونها مسطحة، حيث كان لها أسطح صلبة مما وفر منفذا سهلا لآلات الاستحمام، والتي كانت تغوص في الرمل الناعم. وفق مقاييس اليوم، كانت المقاييس المفضلة قبيحة وغير مريحة. لقد كانت هذه المقاييس مرتبطة أكثر بالعجزة عن الرياضيين، بالأجساد الموبوءة عن الصحة. لم تنتشر مهارات السباحة حتى القرن العشرين. فالخوض في المياه والانغماس فيها برزا على ساحل جيرسي، وهذه الأنشطة هي أحد الأسباب التي جعلت المياه الضحلة مواقع شاطئية مفضلة. وفيما كان الاستحمام العاري مقبولا حتى منتصف القرن التاسع عشر، فإن الوسائل المختارة للوصول إلى البحر بقيت هي ذاتها آلة الاستحمام، والتي لم توفر فقط احتياطا آمنا ولكنها كذلك كانت تخبئ الجسد، وهي الخدمة التي كانت تقدرها النساء تحديدا. ولكن بحلول نهاية القرن التاسع عشر كانت المياه المالحة تفقد سمعتها العلاجية، حيث كانت الأعداد المتزايدة من الناس تأتي البحر من أجل متعة السباحة الخالصة، والتي هي نوع من الرياضة التي أخذت شعبيتها في الازدياد. لقد حلت أزياء الاستحمام للرجال والنساء موضوع الخصوصية جاعلة من آلة الاستحمام عديمة الفائدة. كانت هذه الآلات تقف على حافة الرمال كخرف تبديل لمرتادي الشاطئ الجدد. لاحقا، ستتطور هذه الآلات إلى أكواخ شاطئ مواجهة للبحر ثم إلى منازل شاطئية. بحلول ذلك الوقت، كان الشاطئ في حد ذاته قد أصبح هدف الوصول⁽⁴⁰⁾.

ولكن قبل أن يكون الشاطئ مكانا للسباحة أو التشمس، كان مكانا للمشي، والركوب، وأخيرا للاستكشاف. لقد جرى اكتشاف الساحل الإنجليزي عقليا وروحانيا قبل أن يُستكشف حسيا بزمان طويل. لقد وجد علماء الآثار في أجراف البحر «أرشيف الأرض» الأحفوري. في البداية، أكدت العجائب الطبيعية الموجودة على حافة البحر ولم تضعف الجدل بشأن وجود تصميم إلهي. مع مرور الوقت، ستؤرخ الأحافير بداية الحياة بوقت أقدم بكثير عما اقترحته قصص الكتاب المقدس، ولكن خلال معظم القرن

التاسع عشر كان الدين لايزال في موطنه الطبيعي على الشاطئ. كان الساحل غاية أولية ليس فقط للمسافرين عبر الزمن ولكن كذلك لعلماء النبات والحيوان المبتدئين، والذين، في عصر ما قبل مهنية العلم، قد اهتموا على العديد من النساء. يمكن مشاهدة هؤلاء النساء وأطفالهن وهم يستكشفون أحواض الصخور، غارسين أياديهم للحصول على عينات، والتي ستجد طريقها إلى الحوض المائي المنزلي، والذي كان صخب الطبقة المتوسطة الأمريكية والأوروبية في منتصف القرن التاسع عشر. بعد ذلك كانت هناك الرغبة العامة لتمشيط الشاطئ، الذي توعز مجموعات الأصداف، وصخور الشاطئ، وزجاج البحر التي كانت تملأ الردهات وغرف الأطفال الفيكتورية. على المدى البعيد كان لهذا التجميع المركز نتائج وخيمة. كان إدmond غوس يتذكر الساحل على أنه كنز دفين جرى اكتشافه في خمسينيات القرن التاسع عشر. لقد أسف على أنه مع نهاية القرن «كل شيء كان قد انتهى. إن حلقة الأحياء الجميلة التي كانت مرسومة حول سواحلنا كانت حلقة رقيقة وهشة. لقد بقيت واستمرت كل هذه القرون كنتيجة كلية للإهمال، إنه الجهل الحميد للإنسان... لن يرى أحد مجددا على ساحل إنجلترا ما رأيته أنا في بداية طفولتي»⁽⁴¹⁾.

كان رد الفعل الغريزي الأول للأوروبيين والأمريكيين، مع الأخذ بعين الاعتبار الخوف طويل الأمد من البحر، هو دفع هذا البحر إلى التراجع وذلك عن طريق مد اليابسة بأكثر قدر ممكن. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، نُقلت الفنادق والمسكن الأنيقة، والتي جرى بناؤها سابقا بعيدا عن الساحل ومواجهة في غير اتجاهه، إلى مواقع أقرب إليه، صانعة لأول مرة خطأ ساحليا ظاهرا ومستقرا في العديد من مدن المنتجعات والنوادي الصحية. فما كان ذات يوم حدا مساميا بين الأرض والبحر أصبح الآن حدا منيعا غير قابل للاختراق، مكتملا بحائط بحري ومنتزهات مبنية لهذا الغرض. في القرن الثامن عشر، عندما لم يكن الناس يقضون الكثير من الوقت على الشاطئ مثلما كانوا يقضونه عند الشاطئ، كانت الرمال والحصى لاتزال مواد غريبة، مساحتها هي مساحة حدودية مملوءة بالقلق بين الأرض والبحر، بين الحضارة والطبيعة. وحتى السنوات المتأخرة من سبعينيات القرن التاسع عشر كان زوار مدينة أتلانتك يشكون من الرمال التي كانت تنزلق في كل مكان. لقد صُنع الممشى ليبقي الطبيعة حرفيا تحت السيطرة. إن ذات الكراهية تجاه البرية الساحلية تبرز الأعداد الضخمة من الجسور

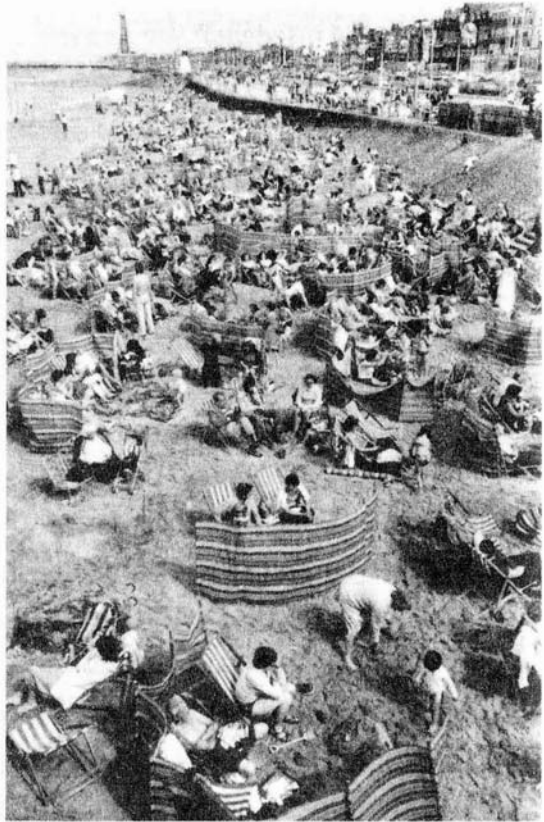
المائية وممرات المشي والتي جرى بناؤها في أواخر القرن التاسع عشر. في بريطانيا وحدها جرى بناء ما يزيد على ستين جسرا مائيا بين العامين 1850 و1900. كانت هذه الجسور الأولى المصنوعة للترفيه ما هي فعليا إلا امتدادات للأرض حيث كانت تحمل الزوار فوق وليس إلى الشاطئ في حد ذاته، حيث كانت تحميهم من روائحه ومناظره البغيضة فيما توفر لهم نقطة نظر آمنة ليتطلعوا إلى كل من البحر والبر. كما أنهم حرصوا على ألا يجري جلب الكثير من رمال الشاطئ ومخلفاته إلى الفنادق والمنازل الأنيقة الساحلية التي اصطفت الآن على الواجهة الساحلية⁽⁴²⁾.



خليج بيغويل في كنت، ذكرى من 5 أكتوبر 1858.
الصورة من ويكيبيديا كومنز.

وفي وقت لم يكن فيه الشاطئ في حد ذاته بُعد مكانا ليتطلع منه الإنسان أو ليرى الآخرون منه، أدت الجسور المائية وممرات المشي هذا الغرض. لقد سمحت هذه للزوار بأن «يخدعوا الطبيعة»، مقتربين أكثر مما يمكن من البحر من دون التخلي عن أي من زينة الملبس وأمطاط السلوك اللائقة والتي شكلت مفهوم الاحترام بالنسبة إلى الطبقة الوسطى الفيكتورية. وكمكافأة إضافية، فإن البنية التحتية

الجديدة منعت الاختلاط بهؤلاء الناس الذين كانوا يحتلون الشواطئ لزمن طويل، وهم صيادو السمك وجامعو النباتات المحليون. إن الخط الساحلي جديد التكوين كان كذلك خطأ طبقيًا، وحدا اجتماعيًا لا تقل درجة تخطيطه والدفاع عنه عن الساحل في حد ذاته. في البداية، حاول الزوار تفادي «الرعاع» ليس إلا، وذلك عن طريق عزل أنفسهم مكانيا عن الشاطئ، مبقين إياه حرفيا ورمزيا أسفلهم. ولكن مع مرور الوقت، أصبح إغراء البحر والشاطئ - في حد ذاته - شديد القوة. بحلول نهاية القرن التاسع عشر كان لا بد للمقيمين القدامى من أن يُرحلوا، لقد جرى إخفاؤهم، كما حدث مع «الأهالي الأصليين» الآخرين عندما قررت الطبقة الراقية المدينية أن تعزل الجبال والغابات من أجل أغراضهم الترفيهية والجمالية الخاصة⁽⁴³⁾.



بلاك بول، إنجلترا،
الصورة لإليوت إيرويت،
بترخيص من ماغنوم.

لقد أُزيل سكان الساحل، كما أُزيلت الهضبات وغيرها من الأماكن سابقا. ولكن حيث إن مقدمة الشاطئ طالما كانت تعتبر شعبية، فإن هذه آخر حركات التطويق العظيمة، قد استُقبلت بمقاومة قوية من السكان الساحليين المقيمين، خاصة صيادي السمك وجامعي النباتات والذين كانوا معتادين على إرساء قواربهم على الشاطئ في أكثر البقع المرغوبة، وتخزين معداتهم، ومعالجة السمك على مرأى واشتمام من ساحبي الطبقة الراقية. وكما في حالة مصارف فنلاند السابقة، كان الصراع بين آخر أشخاص الحافة وأواخر القادمين الجدد شديدا بالفعل، ومنذ بداية القرن التاسع عشر، ولكن مع مرور الوقت، فقد الصيادون والجامعون أماكنهم، حيث دُفِعوا إلى موانئ قريبة، لتُسحب منهم مجددا عندما بدأ أهل اليابسة التوق إلى شراء أملاك الواجهة الساحلية. يصف جين - ديدير إيرباين هذه العملية بأنها «مُدْمرة» للشاطئ، فهي «احتلال جمالي للساحل عن طريق أيديولوجية قضاء الإجازة»، نتج عنها الاختفاء «الحقيقي والرمزي، للإنسان الساحلي، Homo littoralis». إن دليلا إلى منطقة هاستينغس لسنة 1858 يطمئن الزوار بأنه «قد جرى تحسين الشاطئ بشكل كبير، بإزالة أكواخ صيد السمك القديمة غريبة المنظر، والتي سابقا كثيرا ما أعاقت منظر البحر». لقد دافع صيادو السمك، وجامعو المحار الفرنسيون عن حقهم في المرور إلى البحر حتى نهاية القرن التاسع عشر، غير أنه حتى هؤلاء جرى نفيهم أخيرا إلى المرفأء المحلية. في القرن العشرين، طُرِدَت الشعوب الساحلية من كل مكان ما عدا أقل المناطق جاذبية على الشاطئ. أخيرا، وبصورة ذات مغزى، جرى مسح كل ذكرى لوجود إنسان الساحل⁽⁴⁴⁾.

إمكانية الفراغ

لقد خُلِقَ الشاطئ من العدم، من دون أن يوفر شعورا بالمكان، أو شعورا بالتاريخ والمرتبطين بأماكن قضاء العطل الأخرى مثل القرية الريفية. وعليه فقد بدا الشاطئ على أنه لا مكان، فراغ، وبقي كذلك منذ ذلك الحين. من البداية كان فراغه، تصحره الاصطناعي، جزءا من جاذبيته. لطالما بحث تجار العقارات عن أماكن خالية لبناء الأندية الصحية والمنتجعات. منذ البداية، كانوا يتنافسون على المساحة الساحلية المحدودة، والتي أصبح إيجادها أكثر صعوبة. لقد أثبتت الطبيعة أنها العدو الأول لمشاريع المنتجعات المزدهرة على طرفي الأطلنطي. فحيثما وقفت الأراضي الرطبة

والسواحل الصخرية في طريق التوسع في الواجهات الشاطئية، كانت وببساطة تملأ أو تسوى بالأرض⁽⁴⁵⁾.

في خلال القرن التاسع عشر، كان الشاطئ يُغَيَّر ويُنْتَف حتى مع إعادة تشكيله كأنقى الصور التعبيرية للطبيعة. لقد أزيلت الأحياء النباتية والحيوانية الطبيعية وحلت الرمال الجدباء أو الحصى محلها. في بريطانيا اليوم لا تُوجد تقريبا أي شواطئ عذراء، وفي أمريكا الشمالية يوجد أقل القليل منها، ما عدا في المناطق التي جرت المحافظة عليها عن عمد. إن مفاهيم أهل اليابسة تقول إنه لا بد من تنظيف الشواطئ من كل ما هو ذو رائحة أو قبيح المظهر. في القرن التاسع عشر، كان الشاطئ مغطى بالمخلفات الطافية وما يرميه البحر على الشاطئ. كان حطام السفن يجتذب مجاميع الناس، وكانت السفن الثقيلة تُترك لتتعفن في الرمال. الآن، أصبحت الشواطئ مرتبطة بالحياة عوضا عن الموت، فتذكريات الموت هذه لم تعد مقبولة، كما أن الحياة الطبيعية التي كانت تجتذب الصيادين والجامعين ذات يوم لم يعد يسمح لها أن تتجمع هناك كذلك. اليوم، أُخليت الشواطئ ونُظفت بوسائل ميكانيكية. رمالها نادرا ما تكون نتاج نشاط طبيعي للبحر، ولكنها مجروفة أو مشحونة إلى هناك.

غير أن هذا التصحر هو الجاذب الرئيسي للشاطئ الحديث. لقد كان يقال إن «أنقى أشكال العطاء هو الفراغ في ذاته». لقد سكن الرجال المقدسون ذات يوم الصحارى بسبب ما تقدمه روحانيا. لاحقا، اجتذبت الجزر المهجورة الرحالة والنسك. بيد أن الفراغ الشاطئي اليوم غالبا ما سيثير إمكانية شعورية لا روحانية. هناك نستطيع أن نخلي أنفسنا من كل الهموم والمسؤوليات المرتبطة بحيواتنا العادية، وعليه ظهور مصطلح العطلة vacation. في الفترات الزمنية السابقة، كانت كلمة عطلة تعني إيقافا لا إراديا عن العمل أو فقدانه. فقط في نهاية القرن التاسع عشر حملت الكلمة معاني أكثر إيجابية⁽⁴⁶⁾.

بمصطلحات لغة البحار «أن تكون على الشاطئ» كان يعني ذات يوم أن تكون بلا عمل ومعدما تماما. بيد أن الشاطئ لم يعد مرتبطا بالمعدمين المعزولين. وفيما تعتبر الشواطئ المكان المفضل للعائلات مع أطفالها، فإنها مرتبطة كذلك بالغريب والإغرائي. تشير الشواطئ إلى الطبقة الاجتماعية، كما أنها تكشف عن الهوية الجنسية وغيرها من الهويات. كانت الشواطئ تستخدم لفرض العزل الجنسي والعرقى، ولكن في حالة شواطئ العراة والمثليين، يمكن رؤيتها على أنها مانحة للقوة. كونها مملوءة بالمهتمين

بكمال أجسامهم وبعشاق الشمس، تلك هي أماكن حيث نتخلص فيها، ولو لوقت قصير، من تقاليدنا. ونجد طبائع جديدة لأنفسنا. فكونها عتبة، فإن حافة البحر لطالما أشارت إلى إمكان تغيير الأشكال، وكانت في سابق الأزمنة أماكن تلازمها مخلوقات نصف حيوانية، نصف إنسانية مثل حورية البحر ومخلوقات السيلكي. هذه المخلوقات اختفت، غير أن التغيير لا يزال مرتبطاً بالرمال المتحركة، كما لم يرتبط سابقاً بأي بيئة أرضية. تبقى المياه وسيلة درامية للتحويل الديني، ولا يزال الساحل هو موقع التعميد، بيد أن الشاطئ أصبح كذلك مكاناً للتجديف وعدد آخر من الطقوس الدنيوية الجديدة، خاصة تلك المرتبطة بالعائلة⁽⁴⁷⁾.

إن الشاطئ هو ما يعرفه مارك أوجيه على أنه اللا - مكان non place، شيء لتعبه لا لتسكن فيه. إن اللا - أماكن تحظى بأقل اهتمام من الجغرافيين، فالقليل من الشواطئ لديها مؤرخوها. يبين الشاطئ بداية ونهاية، ولكنه لا يوفر سرداً في المنتصف، فالشاطئ ليس لديه تاريخ، ومرتادو الشواطئ لا روابط لهم مع أفراد إنسان الساحل السابقين. عوضاً عن ذلك، تظهر الشواطئ نفسها على أنها نقطة عودة أبدية والتي تعدّ بالأمتار تغيير أبداً - مكان حيث لا يحدث شيء مطلقاً. وكما يقول أرباين، نسيت الشواطئ تاريخها. لقد محا التجديد أغلبية آثار الحياة السابقة للشعوب الساحلية؛ فحتى قرى صيد السمك الباقية هي منفصلة عن الماضي، مجرد تصور لحيوات عاملة سابقة قد انقرضت الآن. إن جاذبية الشاطئ تقع في حقيقة أنه يبعد كل «ما له علاقة بالعمل»، فعلاقته الحقيقية بالطبيعة والتاريخ يجب أن يجري إخفاؤها دوماً، حيث إن الشاطئ يقدم نفسه في الثقافة الحديثة على أنه مكان أساسي للهروب، مكان للسوان والنسيان⁽⁴⁸⁾.

إن الساحل الذي ظهر في القرن التاسع عشر قد قدم نفسه في البداية على أنه طبيعة وحشية ولكنها سرعان ما رُوضت، حيث حظيت ببروتوكولها وقواعد سلوكياتها الخاصة بها، والتي ستصبح في النهاية غاية في العالمية، حتى أن الشواطئ بدأت تشبه بعضها. لقد فقد الشاطئ، كحال كل اللا - أماكن الحديثة، اتصاله بالشعور المحلي. فبمجرد أن جرى تهجير كل سكانه الأصليين ومحو ماضيه، أصبح مستعداً لإعادة البناء كعالم منفصل، لا ينتمي إلى الأرض ولا إلى البحر، بمساحاته الخاصة، بمعمارها الخاص، وبأزمانه الخاصة. فمنذ بداية القرن التاسع عشر فصاعداً، جرى تحويل المنتجعات الصحية القديمة إلى أماكن لهو، مدن ملاء فاخرة، والتي في حين كانت تتردد عليها الطبقات الاجتماعية العليا في البداية، سرعان ما اجتاحتها طبقة المدينة البرجوازية. بحلول منتصف القرن

التاسع عشر، أخذت الطبقة العاملة من المرتحلين يوميا بالتدفق من المدن الصناعية. في البداية حضروا على أنهم مقيمون، حيث استأجروا الغرف الإضافية من زوجات صيادي السمك. أقام المتنزهون الأفضل حالا في الفنادق حديثة البنين. وسعيا إلى تأكيد درجتهم الاجتماعية، بدأ الأغنياء إما بالارتحال إلى مكان آخر وإما بتخصيص الساحل، مُشيدين بيوتهم الشاطئية الضخمة الخاصة بهم. لقد قامت الطبقات الوسطى بمحاكاتهم على مقياس أصغر، وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين كانت هناك مدن كاملة من العيش المتواضعة المستوى التي أخذت تزحم سواحل كل من أوروبا وأمريكا الشمالية. بعد الحرب العالمية الثانية، جلبت ثورة المركبة الآلية معها فكرة منتزهات العربات الكبيرة (الكارافان). لأول مرة، كان لدى الأشخاص العاملين وقت إجازة كاف لينضموا إلى ذلك التيار المتدفق نحو البحر، وعندئذ بدأ أن «ساحل البحر ينتمي إلى الجميع». وفيما كانت ذات يوم منازل موسمية، بحلول سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته أصبحت المجتمعات الشاطئية ضواحي ساحلية، مسكونة على مدار السنة من المتقاعدين والذين قرروا تحويل منازلهم الصيفية إلى أماكن إقامة دائمة. الآن هي مجتمعات غرف نوم كذلك، حيث العاملون الذين ينتقلون من المدينة إلى الساحل البحري من أجل قضاء عطلاتهم يعودون إلى التنقل يوميا من الساحل إلى أماكن عملهم⁽⁴⁹⁾.



مجموعات مختلفة من المحققين باتجاه البحر، الصورة لإليوت أرويت.
بترخيص من ماغنوم.

الشاطن موقع طقوسي

إن ما بدا على أنه رحلة قصيرة سيتطور أخيرا إلى ما نعرفه الآن باسم عطلة العائلة. في منتجعات مثل منتجع الليدو في روما، كيب ماي في فيلادلفيا، وبرايون في لندن، والتي جميعها تبعد مسافة رحلة قطار قصيرة عن المدن، تثبت الأمهات والأطفال أنفسهم على الساحل الصيفي، في حين يلحق الآباء بهم في عطل نهاية الأسبوع. في بداية القرن التاسع عشر أصبح الشاطن مرتبطا بالعائلة النووية^(*). لقد أصبح متصلا بالطفولة، وفيما أصبح الأطفال هم المحاور المكانية والزمانية والتي تدور حولها حياة العائلة، اكتسب الشاطن معنى خاصا على أنه المكان الوحيد الذي «يحاول فيه الكبار أن يصبحوا صغارا». لقد كان ذلك مهما تحديدا بالنسبة إلى الرجال، والذين في طور الحياة اليومية قد تحولوا إلى غرباء بالنسبة إلى أطفالهم، والذين بالنسبة إليهم كان الشاطن رابطا ليس فقط بصغارهم، ولكن كذلك بطفولتهم هم، والتي يتذكرونها الآن من خلال عدسات الحنين الوردية⁽⁵⁰⁾.

مسبقا مع نهاية القرن التاسع عشر بدأت العائلات في العودة سنة بعد سنة إلى المنتجعات الشاطنية ذاتها، حيث أخيرا بدأت تستثمر في الممتلكات الساحلية والتي يمكن تملكها من جيل إلى جيل، فما كان ذات يوم رحلة سياحية تزين الآن بزينة الحج الديوي. وبتقديس الشاطن على أنه المنطقة المثلى لقضاء العطلة، اكتسبت الحياة هناك قيمة طقسية متزايدة. وحيث إنه لم يعد مكانا لعرض القيمة الاجتماعية، فقد خدم الشاطن كمساحة استعراضية للطقوس العاطفية الدالة على التماسك العائلي. وكما وصفه إيرباين، أصبح الشاطن «موقعا طقسيا» و«سجادة صلاة» من أجل أداء طقس معين، فعلى مدى أغلب أيام الأسبوع، يكون الشاطن هو مملكة النساء والأطفال، ولكن في عطلات نهاية الأسبوع كان يمكن للعائلات أن تعيد تشكيل نفسها، وأن ترتفع إلى تلك النسخة المثالية التي رسمتها لنفسها. بين كل المناسبات العائلية الأخرى التي ظهرت خلال مدة القرن الماضي أو نحوه، كانت عطلة الساحل البحري تتطلب أكبر قدر من الاستثمار، حتى عندما كانت توفر أفضل العوائد. وفي أواخر القرن العشرين حلت الشواطئ محل الجبال، والقرى الريفية مناطق مفضلة للأوروبيين والأمريكيين الشماليين⁽⁵¹⁾.

(*) تعبير يشير إلى العائلة المكونة من الأب والأم والأبناء. [المتجمة].

بالنسبة إلى الهارب من سرعة الحياة الحديثة، لا شيء يمكن له أن ينافس الشاطئ. لقد توقف الزمن عند حافة الرمال، لقد أصبح الشاطئ المكان المفضل في العالم لعمل لا شيء. لقد كان الشاطئ لا مكانا، حيث يفترض أن يحدث شيء هناك. معلق بين الماضي والحاضر، إنه مكان للحلم وليس للفعل، كل ما يذكر بالعمل قد أبعد منذ زمن. بحلول سبعينيات القرن العشرين كان أكثر الأسباب التي قدمها سكان لوس أنجلوس شيوعا حول سبب قدومهم إلى شواطئ الهادي هو أن هذه الشواطئ لم تكن فقط الأكثر بهجة، ولكن كذلك الأكثر أمنا بين كل الأماكن العامة «إنما الرمال كالمحراب بالنسبة إلي»، تقول إحدى السيدات الشابات: «وأنا هناك، أسترخي وأهدأ تماما»؛ فحتى وقت قريب، حتى الأنشطة الجسدية العنيفة كانت تعزل بعيدا، وكما رأينا مسبقا، ظهرت السباحة في وقت متأخر على الشاطئ. أما ركوب الأمواج فوصل فقط في ستينيات القرن العشرين، وكذلك جرى تنظيمها في معظم المناطق الشاطئية. الرياضات القسوى العنيفة، مثل الطيران الشراعي المعلق وركوب الرياح، كان لا بد لها أن تبحث عن مأوى آخر على الساحل، في أماكن كان تعتبر سابقا أكثر رهبة منها متعة⁽⁵²⁾.



صف الصحة الشاطئي في أوشن سيتي، نيو جيرسي، في عشرينيات القرن العشرين.

الصورة مقدمة من مكتبة الكونغرس.

وحيث إن الشاطئ هو اختراع حديث تماما، فسرعان ما ارتبط بدرجة من الحنين نادرا ما تلتصق بالسّمات الجغرافية الأخرى. إن الذكريات الجميلة تعيد الكبار إلى رمال طفولتهم، ولكن مثل ملايين الصور التي تسجل الحياة الحديثة على الشاطئ، فإن الذاكرة تجمد الوقت وتغرب التاريخ الحقيقي لمثل هذه الأماكن. فمنذ قرن مضى، هؤلاء المحظوظون بما فيه الكفاية ليشتروا بيوت صيادي السمك المهجورة بدأوا بفعل ذلك. الآن الأكثر شيوعا هو بناء منازل جديدة تقترب من الساحل بأكثر قدر ممكن. خلال سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، كانت نسبة 80 في المائة من كل أعمال الإعمار في الولايات المتحدة يحدث في المناطق الساحلية، عادة على الشاطئ مباشرة. وفيما كانت ذات يوم أقل مناطق البلد سكانا، أصبحت السواحل الآن الأعلى كثافة سكانية. في أوروبا كان هناك حراك مشابه باتجاه البحر. هناك، وحيث اليايسة أكثر ندرة، أصبحت سواحل بلجيكا، وإسبانيا، وإيطاليا كأنها مدن كبيرة. في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية أصبحت السواحل تعرف الأراضي الداخلية بدرجة غير مسبوقه في الماضي. في كل سنة خلال سبعينيات القرن العشرين، كان اثنا عشر إلى ثمانية عشر مليون شخص يزورون الشواطئ العامة الرئيسية في لوس أنجلوس، والتي كانت بطول ثلاثة أميال وشكلت 353 هكتارا فقط. بحلول ذلك الوقت لم تعد هذه الرمال تعرف الساحل المباشر لها فقط، ولكنها أصبحت مساحات حلم لمنطقة عصرية ضخمة⁽⁵³⁾.

التحديث في الماء

لقد أصبح الشاطئ المكان المفضل في العصر الحديث من أجل الاستغراق في أحلام اليقظة. في العصور السابقة، أطلقت الجبال والغابات العنان للخيال، ولكن في القرن الواحد والعشرين كان هو البحر الذي «يسحب الذهن للخارج وبعيدا». كان الهندوس في الهند يقيمون مزاراتهم عند طرف البحر، والذي هو بالنسبة إليهم «نهاية الأرض، حافة الحياة الأرضية، حيث يمكن للأتقياء والمتأملين أن يحدقوا عبر الفراغ، ذلك «الماء الأسود» المذكور في الأدب السنسكريتي القديم. إنهم يخوضون في المياه حتى تغمر كواحلهم وملابسهم كاملة، حيث يغمرون أنفسهم في المياه ولكن نادرا ما يسبحون. لقد رأينا كيف أنه في أوروبا ما قبل المسيحية كان الساحل

يعامل على أنه بوابة إلى عوالم أخرى، حيث أصبح موقعا للطقوس ومراسم الدفن. كان المسيحيون أقل احتمالا في إقامة كنائسهم على حافة البحر، حيث إن خيالاتهم كانت مجذوبة إلى الأعلى وليس إلى الخارج. في العصور الوسطى، عندما كانت الحياة مقيدة فعليا وبشدة، كان يبدو أن العالم يفتح عموديا فقط، حيث كان الخيال موجها في اتجاه السماء أعلاه، عوضا عن العوالم البعيدة في الجانب الآخر⁽⁵⁴⁾. في عصر الاكتشافات، أصبح العالم، ولأول مرة «متسعا في سطحه، منخفضا في سقفه». أصبح البعد الأفقي غاية في الأهمية، حيث اتخذت الجبهات، البحرية والأرضية، أهمية رمزية، وكذلك مادية غير مسبوقة. مع إغلاق الجبهات الأرضية في أواخر القرن التاسع عشر، مع ذلك، اتخذت الجبهات البحرية معنى جديدا. لقد أصبحت أكثر أهمية من أي وقت مضى لتعريف ولحماية الهويات القومية. في نهاية القرن التاسع عشر، أصبح الإنجليز مقتنعين بأن «حرية إنجلترا كانت محفوظة في الماء المالح - الماء المالح هذا هو القناة الإنجليزية... هذا «الشريط الفضي» الذي يفصل إنجلترا السعيدة عن الصراعات القارية»⁽⁵⁵⁾.

مع إغلاق الجبهات الداخلية، كان الأمر متروكا للساحل البحري ليوفر منفذا من دون عائق نحو الأفق. كان البرجوازيون الفيكتوريون هم أول من اكتشف الكيفية التي وفر بها الأفق «مساحة يمكن للخيال والرؤية الداخلية أن يسافرا من خلالها». في القرن العشرين، أصبح الساحل مساحة الحلم المفضلة للجموع. إنه «دائما ومبدئيا مفتوح - لاستقبال محتوى جديد، بنيان جديد، واحتمالات جديدة». يقول بي - فو توان بأن ساحل البحر الحديث هو مميز بين المظاهر الطبيعية الحديثة، وذلك من حيث توفيره بشكل متزامن للملجأ والمهرب، الأمان والآفاق المفتوحة. في عالم يترك القليل للخيال، نتوق نحن إلى «عالم ما ورائي والذي، بطبيعته، لا يمكن الوصول إليه لا حقيقة ولا تصورا»⁽⁵⁶⁾.

لقد أصبح الارتحال نحو الآفاق أكثر شخصية من أي وقت مضى. إنه أساسي بالنسبة إلى السياحة الحديثة، بيد أننا لا نحتاج - بعد الآن - إلى أن نسافر مسافات بعيدة لإيجاد آفاق جديدة. في الأزمنة القديمة كان من الضروري عبور الشواطئ لإيجاد فرص جديدة. اليوم نحن نحتاج فقط إلى أن نتجه إلى الساحل. إن أذهان الملايين تسافر بعيدا حتى عندما تبقى أجسادهم ثابتة على الشاطئ. ومثل الهندوس

في الهند، فإن هؤلاء على الأغلب سيخوضون في الماء على أن يسبحوا فيه. عندما تنزهنا مشيا على سواحل بريطانيا خلال ثمانينيات القرن العشرين، كان بول ثيروكس مفتونا بالأشخاص الذين وجدهم تحت كل أنواع الطقوس الجوية يقضون ساعات لا متناهية محققين في البحر «بدا البريطانيون بالنسبة إليّ شعبا يقف إلى الأبد على ساحل متهالك ماسحين الأفق بأنظارهم». لقد قرر ثيروكس أن تلك كانت «طريقة الشخص الفقير في السفر - أن يقف على ساحل البحر ويحدق في المحيط. أنا أعتقد أن هؤلاء الناس كانوا يتخيلون أنهم هناك عند الأفق المنتظر، عند البحر... نادرا ما شاهدت أحدا يوجه ظهره تجاه البحر (لقد كانت تلك أندر وضعية يتخذها إنسان على الساحل). أغلبية الناس كانوا ينظرون تجاه البحر بوجوه آملة قلقة، كأنهم من فورهم تركوا موطنهم الأصلي»⁽⁵⁷⁾.

بيد أن ذلك لم يكن فقط غرابة أطوار بريطانية. يصف دلبليو. جي. سيبالد الألمان الذين يمكن الظن خطأ أنهم صيادو سمك: «أنا لا أعتقد أن هؤلاء الرجال يجلسون بجانب البحر طوال النهار وطوال الليل حتى لا يفوتوا وقت مرور السمك الأبيض، ارتفاع السمك المفلطح، أو قدوم سمك القد إلى المياه الأكثر ضحالة، كما يدعون أنهم يرغبون فقط في أن يكونوا في مكان حيث يكون العالم خلفهم، ولا شيء أمامهم إلا الفراغ. في الواقع، تقريبا، يستحيل اليوم أن تمسك بأي شيء يصطاد سمكا من الشاطئ»⁽⁵⁸⁾.

لقد كتب هيرمان ميلفيل ملاحظاته مسبقا حول الكيفية التي كان بها سكان مانهاتن منجذبين لحافة المياه خلال منتصف القرن التاسع عشر «ولكن انظر! ها هي الجموع قادمة، مهرولة بشكل مباشر نحو المياه، حيث تبدو مُصرّة على الغوص. غريب! ما من شيء سيرضي الجموع غير الحدود القصوى لليابسة، فالتسكع أسفل الجانب المظلل من هذه المستودعات هناك لا يفي بالغرض. كلا، بل لا بد أن تلك الجموع ستقترب من الماء على قدر ما تستطيع من دون أن تقع فيه... كل أهل اليابسة يأتون من الممرات والأزقة، الشوارع والجادات - شمالا، شرقا، جنوبا، وغربا. غير أنهم يتحدثون هنا. نعم، كما يعرف الجميع، فالتأمل والمياه متزاوجان إلى الأبد». بالنسبة إلى ماثيو آرنولد، كان شاطئ دوفر يفوح بالفقد: «لقد جلب إلى ذهنه المد والجزر العكرين للمعاناة الإنسانية». اليوم، للتحديق المائي أغراض عدة بيد أنه

أصبح شائعا جدا حتى أنه أصبح عاديا. إنه منتشر في كل جزء من العالم الغربي، خاصة على السواحل المواجهة للغرب، حيث «الغروب» هو طقس ليلي يومي⁽⁵⁹⁾. في السابق، كانت أنفُس المشاهد البحرية الفنية تحتوي وبشكل مستمر على السفن وعلى الأنشطة البحرية الأخرى، وذلك تقديرا لهؤلاء الذين كانوا يكسبون قوتهم من البحر. بيد أنه في وقتنا هذا اختفى الأشخاص العاملون من اللوحات والصور، كما اختفوا من الشاطئ بعد ذاته. بداية من القرن التاسع عشر، انقطعت العيون عن التجول في الميناء أو بالقرب من الساحل، حيث أصبحت موجة بشكل متزايد في اتجاه أفق البحر. في أوقاتنا هذه «البحر هو للتحديق فيه بل وللاحتفاء به كذلك»، كتب فيليب ستينبيرغ «ولكن كمكان حقيقي للإنتاج والتنقل فقد اختفى بشكل كبير». إنه فراغ المحيط الذي هو محط النظر. وكما لاحظ مايكل توسيغ، لم يعد البحر مكانا للسكن بعد الآن ولكن مكان للتأمل⁽⁶⁰⁾.

الكل يرغب في منظر مفتوح لا يعيقه شيء، والشاطئ، بعد أن جرت تصفيته من الأشخاص والأشياء المشتتة للانتباه، هو المكان الأمثل للحصول على ذلك. في السويد كان «فراغ وبساطة المنظر الأرضي الطبيعي في ذاتيهما، ما وفر فرصة للإنسان ليجد نفسه، مدخلين الإنسان في حالة ذهنية تأملية أو شبيهة بالغيوبية». بدأت المنازل ذات الإطلالة البحرية مسبقا بتحقيق أرباح خلال نهاية القرن التاسع عشر. لقد جرى تدوير أكواخ صيادي السمك القديمة، والتي كانت تبعد واجهتها عن البحر، أو أعيد بناؤها حتى تتناسب مع المتطلبات الثقافية الجديدة. في وقتنا الحالي، يبدو أنه لا شيء يهم مثل الإطلالة. لقد أصبحت «لا تقدر بثمن»⁽⁶¹⁾.

بينما هم منجذبون لنقاء البحر واختلافه، فإن سياح الساحل اليوم هم أقل احتمالا في التعامل مع البحر أو المغامرة من خلاله. وكما لاحظ جون ستيلغيو، «إن بريته، فضائته، وطبيعته تجتذب السواحل، بيد أن سواح هذه الأيام يريدون أن يتفرجوا، لا أن يفعلوا». في أعقاب هذا العشق للمناظر البحرية في القرن التاسع عشر، أصبح البحر في حد ذاته مشهدا تصويريا picturesque. لم تعد الرمال الممسوحة والمنظفة تضيف الكثير إلى المنظر الجميل، حيث الآن بعد أن زالت رائحة وإحساس المسمكات القديمة، لم يعد هناك الكثير الذي يعتبر تجربة شعورية عدا تلك البصرية. في السابق، كان الرومانطيقيون يفضلون السواحل الصخرية على أنها أماكن مخيفة

لاختبار الشعور بالهيبة، ولكن اليوم نحن نسعى خلف الشواطئ الخفيفة الميلان والمحمية بشباك القرش وحراس الإنقاذ. لقد أصبح ذلك هو المكان الأمثل «للحم، بعيدا عن اضطرابات وتقلبات الطبيعة، وبعيدا عن الحقائق اليومية التاريخية، الاجتماعية، والثقافية». كونها منفصلة عن كل من البحر والأرض، تلك هي الأماكن الوحيدة حيث يستطيع الإنسان أن يدير ظهره للعالم، للتاريخ في ذاته. وعلى عكس الأراضي النائية، نادرا ما احتوت الشواطئ على أنصبة تذكارية. فحتى حطام السفن التي كانت تغطي السواحل ذات يوم، تجري إزالتها أولا فأولا الآن، بحيث لا يبقى أي شيء يذكر بالأحداث المأساوية التي قد تؤثر في السياحة، أو تفسد أحلام المصطاف. إن حطام السفن، مثل كثير من أمور البحر، أصبح الآن رمزيا خالصا⁽⁶²⁾.

عندما سار بول ثيوكس على الساحل البريطاني في ثمانينيات القرن العشرين، فقد شعر بالفقد، ليس فقط للطبيعة، ولكن للتاريخ كذلك. لقد هُدم كل شيء - الأجراف، الصيد، المرافئ - بما فيها الشواطئ بحد ذاتها⁽⁶³⁾. في ذلك الوقت كان البريطانيون ينسحبون من الشاطئ، مفضلين الاسترخاء حول أحواض السباحة بالفنادق التي كانت تقدم «نسخة أفضل لإدارة بكثير من الشاطئ، مياه ذات درجة حرارة لطيفة، من دون رمل يدخل بين أصابع القدم، وقريبة من بار الفندق». في أماكن أخرى، كان الناس يتجهون إلى الأراضي الداخلية كذلك، حيث الشواطئ الداخلية الجديدة التي بدأت في اليابان ثم انتشرت الآن حول العالم. بيد أن منظر الشاطئ يبقى قويا، وذلك الحنين اللاتاريخي حوله يبقى غير منقوص. تفضل مارغريت درابل الآن، والتي قضت طفولتها على ساحل لينكونشاير غير الصحي، حيث تتذكر سباحتها في مياه المجاري، تفضل عدم العودة إلى هناك، ليس بسبب التلوث، ولكن «لخوفها أن يكون المكان قد دُمِر مسبقا، جنة مفقودة». تُعَبِّر الشواطئ من بين أكثر الأماكن غير المستقرة بين كل مشاهد الطبيعة، غير أن ارتباطها بالفردوس يقاوم بعناد كل تغيير. كونه مجمدا زمنيا في المليارات من الصور الفوتوغرافية، يبقى الساحل هو المكان الذي نودعه أحلامنا الثمينة، وأكثر كوايسنا رعبا⁽⁶⁴⁾.

الأحلام والكوابيس الساحلية

نحن نتوقع أن الحضارة
ستنتهي على الشاطئ.

فيليب فيرنانديز - ارميستو⁽¹⁾

لقد كان هناك زمن حين كان فقط هؤلاء
الذين يقيمون على الساحل يسمون ساحلين،
لكن اليوم يربط الناس الذين يسكنون مئات
الأميال بعيدا عن البحر أنفسهم بالسواحل،
يقيمون مهرجانات المأكولات البحرية، يتشمسون
بل يركبون الأمواج أيضا على الشواطئ الداخلية.
إن مزيدا من الناس اليوم يقيمون على السواحل،
وعلى ما يبدو فإن الجميع تقريبا يرتبطون بها. ربما
كان السبب في هذا هو، كما يقول جون موري،
أن «كل شخص يولد في هذا العالم لديه ساحل،
وحافة، وحد، ومنطقة انتقالية بين أنفسهم وبين
العالم». إن الأشخاص الذين لم يسبق لهم أن
ذهبوا إلى نيو جيرسي يألفون «الساحل». إن رمز

«إن العلاقة بين المدينة والبحر،
مثل تلك التي بين الحضارة
والطبيعة، لم تكن مستقرة قط»

كاليفورنيا هو الشاطئ، فيما تود ماين أن يعتقدوها الجميع ساحل سرطان البحر. تقدم نوحا سكوشا نفسها على أنها «ملعب كندا المحيطي». فعندما تهاجم الأعاصير وحوادث اندلاق النفط، تحتشد أمم كاملة للدفاع عن السواحل⁽²⁾.

رهما لم يكن ذلك واقعا منذ 100 عام مضت، بيد أن السواحل اليوم لا تعرف الدول والأمم فقط لكنها تربطهم إقليمية، وعالميا أيضا. تشكل الشواطئ التي أقام عليها الأوروبيون ذات يوم دفاعاتهم بعضهم ضد بعض الآن ساحلا واحدا مستمرا من بحر البلطيق حتى البحر المتوسط. كل أجزاء أوروبا اليوم تطالب بالبحر على أنه إرث مشترك، ومصدر للهوية المشتركة. بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح ينظر إلى حافة الأطلنطي الشمالية على أنها تعرف الحضارة الغربية. وعلى الرغم من أنها صنعت لتقاوم قوى عظمى قارية، الاتحاد السوفييتي، بيد أن تنظيم معاهدة شمال الأطلنطي اختار أن يعرف نفسه نسبة إلى المحيط. والآن، ترى شعوب حافة الهادي أنفسها كذلك على أنها تمتلك مزيدا من الصفات المشتركة بعضها مع بعض عما تمتلكه مع سكان مناطقهم النائية المتعددة⁽³⁾.

لقد اتخذت السواحل سلطة رمزية ضخمة. من المفارقات أن هذه السواحل هي مكان الحدثة الأول للأحلام ولكن كذلك للكوابيس. إنها تقع على حافة البحر بما يسمح لنا أن نتخيل مولد عوالم جديدة وموت القديم منها. في كل مكان، يعود الناس الآن إلى البحر، محضرين معهم أعظم آمالهم وأسوأ مخاوفهم، تجتذبهم رؤى إلى جزر خيالية وشواطئ عذبة^(*)، لكنهم كذلك ملاحقون بالشياطين القديمة للرياح، والماء، والنار. فعلى ما تفضل كاليفورنيا أن تدعوه «ساحل أحلامها»، يتجادل مجلس المدينة لسانتا باربارا حول ما إذا كان يتطلب منهم أن يرسموا خطا أزرق ساطعا في شوارعهم للتدليل على درجة ارتفاع البحر المستقبلية. يفضل المهتمون بالبيئة هذه الفكرة كونها أداة لزيادة الوعي، بيد أن أصحاب المنازل، وخوفا من أن هذه الفكرة ستتهبط بأسعار عقاراتهم، ينظمون معارضة شرسة. إن المدينة نفسها هي في كامل الوعي حول حقيقة انتمائها إلى ما يسمى «ساحل النار»، حيث تُفقد المنازل في حرائق هائلة وبشكل منتظم. إن السواحل هي، وبشكل متزامن، أكثر المساكن الطبيعية جاذبية وأكثرها عرضة للمخاطر. إن التعدي على الأماكن التي

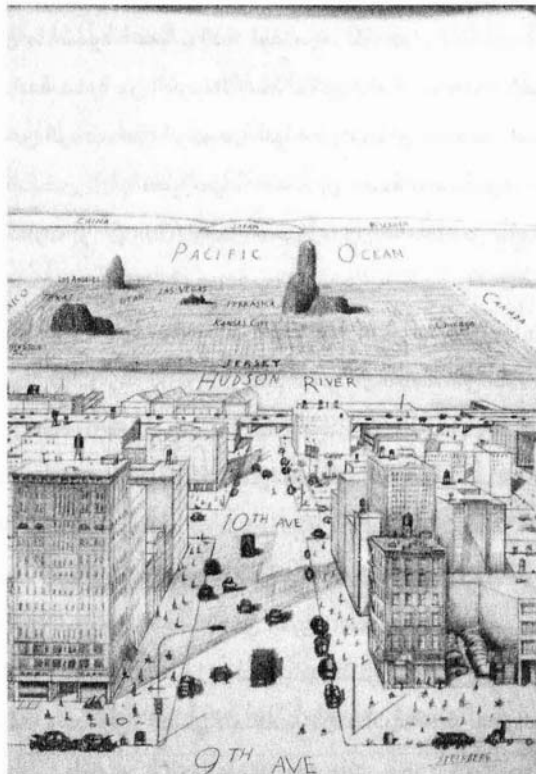
(*) من جنة عدن . [الترجمة].

لم تكن في يوم مناسبة للسكن قد أسهم بشكل مباشر في تعرية الساحل وتلويث المحيط، وفي إشعال النيران المدمرة كذلك. يحيا الكاليفورنيون الساحليون فيما يسميه مايك دافيز «بيئة الخوف»، التي هي بيئة من صنعهم هم بأنفسهم بشكل كبير. كأن هذه التهديدات الحقيقية غير كافية، فقد تمكنا من استحضار مجموعة جديدة كاملة من الوحوش البحرية، التي توالدت بعيدا على اليابسة عن طريق كتاب مثل بيتر بينجلي، كاتب قصة Jaws أو «الفك المفترس»⁽⁴⁾.

عندما أطلق ستيفن سبيلبيرغ نسخة فيلمه من «الفك المفترس» صيف العام 1975، قالت «نيويورك تايمز» إن «مستخدمي السنانير والسباحين الذين لم يسبق لهم حقا أن أخذوا بعض الوقت لينظروا بانتباه نحو الماء قبل ذلك، يفعلون ذلك الآن، وغالبا ما يعرفون أي شيء يشبه ولو من بعيد سمك القرش على أنه قرش فعلا». لاحقا في ذلك الخريف، كتب اثنان من أطباء الأعصاب إلى مجلة «نيو إنغلاند» الطبية بشأن ما أسموه «عصاب الفك المفترس». لقد جرى تشخيص ذلك المرض عند فتاة في السابعة عشرة من الغرب الأوسط، والتي بعد أن شاهدت الفيلم مرت بخمس نوبات من الرعب، على الرغم من أنها تعي تماما أن «مخاطر هجوم سمك القرش في غرب كانساس كانت فعليا بعيدة تماما». إن القصة الأصلية في التايمز كانت مدركة عندما أشارت إلى أن «(ال) وحش المجنون.. في الفك المفترس يأتي من أعماق الفضاء الداخلي، من البحر كما من كوابيس الإنسان»⁽⁵⁾.

إن المدى الذي تصل إليه المخاوف والخيالات الساحلية هو أحد مقاييس تمدد مفهوم الساحل. فمن جهة، هناك نزعة للأرض لأن تضم البحر، لأن تعامله على أنه منها، على أنه منطقة يمكن توزيعها، وتأجيرها، واستملاكها. وعليه، اتخذ البحر شكلا قاريا. لم يُستخدم مصطلح قاري حتى نهايات القرن الثامن عشر، غير أنه بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر كان المصطلح يوظف لتوصيف الجزر القريبة من الساحل. لقد استخدم مصطلح الجرف القاري منذ العام 1950 فصاعدا وجرى تثبيته عن طريق ميثاق الأمم المتحدة لقانون البحر في العام 1982. في القرون السابقة، امتدت سيادة الدولة فقط لثلاثة أميال من الساحل. بحلول سبعينيات القرن العشرين كانت قد امتدت لاثني عشر ميلا، ومع الإقرار العالمي للمناطق الاقتصادية الحصرية في العام 1982، كان للدول أن تطالب بالموارد الاقتصادية على بعد مائتي ميل داخل البحر⁽⁶⁾.

إن اكتشاف النفط والغاز عبر الساحل، وكذلك الفوائد التي يمكن اكتسابها من الرمال والتعدين غير العضوي، قد ركزا التفكير الإستراتيجي على المياه القريبة من الساحل. لقد نشرت القوات البحرية للولايات المتحدة تقريرها Forward... from the Sea أو «للأمم من البحر» في العام 1994، معيدة تركيز الانتباه من المحيط التقليدي للمياه الزرقاء إلى حرب المياه البنية. يقول المؤلف، اللواء البحري بول غافني، إنه بسبب أن نصف سكان العالم يعيشون على بعد خمسين ميلا من البحر، فإنه من المرجح أن الخلافات المستقبلية ستشمل السواحل، خصوصا المدن الساحلية. في العام 1999، خطت القوات البحرية لتنظيم تمارين حرب مدنية في مونتري وأميندا، وكاليفورنيا. أدت الاحتجاجات ضد رسوهم في مناطق حساسة بيئيا إلى إيقاف التمارين، بيد أن فكرة الحرب الساحلية تبقى ذات أهمية مرتفعة على جدول الأعمال⁽⁷⁾.



سول ستينبيرغ،
View from 9th Avenue
«المنظر من الجادة
التاسعة»، 1976. حقوق
الطبع لمؤسسة سول
ستينبيرغ
Artist Rights Society (ARS)
جمعية حقوق الفنانين، نيويورك.

على الجانب الأرضي، تلاشت فكرة الخط الساحلي تدريجياً، مفسحة الطريقة أمام فكرة المنطقة الساحلية، التي يمكن لها أن تمتد مئات الأميال في الداخل الأرضي. أحيانا يبدو كأن بريطانيا هي لا شيء سوى سواحلها. يقول البريطانيون إن «كوننا أهل جزيرة فنحن منجذبون إلى الحافة، هناك نستشعر بقوة جوهر كتلتنا الأرضية السابحة». بيد أن الوضع نفسه صحيح بالنسبة إلى الأمم القارية، حيث تبدو السواحل أكثر ضخامة. بحلول سبعينيات القرن العشرين يبدو أن الولايات المتحدة أصبحت ما هي إلا سواحلها، حيث انخفضت أهمية داخلها الأرضي إلى كونه شيئاً تسافر فوقه أو تقطعه. إن الرسم الكرتوني لسول ستينبيرغ لعام 1976 *A Veiw of the World from 9th Avenue* أو «منظر للعالم من الجادة التاسعة» صور هذه الخريطة الذهنية⁽⁸⁾.

لقد توقف الساحلي عن كونه موقعا جغرافيا منفردا حيث أصبح رمزا يطفو بحرية ليجري تخصيصه لمجموعة أغراض تجارية واجتماعية ليست بالضرورة ذات أي علاقة بالمكان حيث الأرض والماء يلتقيان. لمجلة *Coastal Living* أو «الحياة الساحلية» قاعدة قراء أرضيين كبيرة، والذين يهتمون أكثر بطريقة الحياة التي تستعرضها المجلة عن ظروف السواحل بحد ذاتها. وبينما تستحوذ السواحل على مساحة ذهنية متزايدة على كل من الأرض الداخلية وعبر الساحل، فإن التجربة الحقيقية للبيئات الساحلية مهمشة. في مطلع انهيار الاقتصاد الساحلي لصيد السمك والشحن في القرن العشرين، استعمرت النشاطات الترفيهية والسياحية السواحل كما لم تفعل من قبل. ومثلما جرى استبدال العمل بالاستهلاك في الحيوانات اليومية لهؤلاء الذين يعيشون على الساحل، تمزقت استمرارية وتسلسل الحياة الساحلية، التي تعود إلى ألف سنة مضت، حيث أصبح الساحل مكانا بلا ذاكرة في حد ذاته، بلا جغرافيا أو تاريخ ليصنع عليهما مستقبلا قويا. حتى في حين أننا نصبح أكثر ساحلية من جهة، فإننا نصبح كذلك أقل ساحلية من جهات أخرى⁽⁹⁾.

السواحل المفقودة

في العصر الحديث، أصبح شعور ما بالفقد نافذا بقوة. إنه في جزء منه نتاج الطبيعة العنيفة بل التدميرية للتاريخ المعاصر، الذي شهد جماعات بأكملها بل وأما تدمر بالكامل أيضا. من السهولة انعكاس شعور شخصي وجماعي بالفقد على

الأماكن، خصوصا إذا لم يكن لهذه الأماكن وجود فعلي مطلقا. لم يكن لقارة أتلانتس المفقودة، التي هي خيال اختلقه أفلاطون كقصة تحذيرية للإغريق، أي تأثير حقيقي في الخيال الشعبي حتى القرن التاسع عشر، وذلك عندما جرى إنعاش القصة عن طريق الكاتب الشعبي إغناطيو سدونيلى في إصدار كان الأعلى مبيعا في العام 1882 وذلك كتحذير لمعاصريه. من هذه النقطة فصاعدا أصبحت أتلانتس موضوعا لمئات الكتب وعدد كبير من الأفلام. ما كان لجاذبيتها أن يعادلها شيء سوى تلك التي لقارة ليموريا المفقودة التي بدأ شعب التاميل في جنوب آسيا يصبح مهووسا بها في زمن كان وجودهم هم مهددا. لم يكن لجاذبية «المفقود» إلا أن ازدادت مع الزمن⁽¹⁰⁾.

بالنظر إلى تاريخ السواحل، فإنه من السهل فهم سبب ربط مفهوم الفقد بها. يألف البحارة ظاهرة looming أو اللوح في الأفق، التي هي خيال بصري يمكنه أن يجعل السواحل تظهر وتختفي. لضباب السواحل التأثير نفسه، ولكن كذلك يفعل التاريخ، والذي رأى السواحل تأتي وتذهب بسرعة لا يضاهاها سوى القليل من السمات الطبوغرافية الأخرى. الآن يعرف الساحل الشمالي لكاليفورنيا، والملاصق لمقاطعة همبولدت، على أنه «الساحل المفقود». فقد فوت الأوروبيون المستكشفون الأوائل ميناء العميق الوحيد، خليج همبولدت، تماما. وفي حين أنه جرى رسمه عن طريق أمريكي كان يعمل عند شركة الفرو الروسية - الأمريكية في العام 1806، فإنه لم يزره البيض قط إلى أن جرى مسحه عن طريق حملة استكشافية أرضية في العام 1849. من هذه النقطة فصاعدا، جعلت صناعة الخشب الأحمر المزدهرة منه أحد أكثر السواحل ازدحاما على الساحل الغربي. بيد أنه لم يُستكمل الطريق السريع الساحلي حتى عشرينيات القرن العشرين، وعندما تراجعت صناعة الخشب، فإن هذا الساحل أصبح مجددا أحد أكثر أجزاء أمريكا الشمالية انعزالا. إن اسم الساحل المفقود كان اختراعا لصناعة ما بعد الحرب السياحية، التي حققت أرباحا من الرغبة العالمية في اكتشاف أماكن جديدة تماما. ففي العصر الذي كانت تحتل فيه القارات المفقودة، القبائل المفقودة، والحضارات المفقودة، مثل هذه المساحة الضخمة من الخيال الشعبي، بقي هذا الجزء الرائع من ساحل كاليفورنيا مفقودا ولكن ليس منسيا⁽¹¹⁾.

فعلى مدى أغلب القرن العشرين ابتليت السواحل حول العالم بفقد، ليس بالضرورة هو من صنعها. لقد كانت هذه السواحل ولاتزال مهددة بالتغيرات الحادثة في صناعة

صيد السمك، التي أصبحت مسبقا في نهايات القرن التاسع عشر مشروعا لأعماق البحار، منفصلا عن سواحل بعينها. فقبل أن تكون هناك مصانع للهارين وعمل مصري عبر الساحل بوقت طويل، كان صيد السمك قد أصبح عالميا، ونشاطا يبحث بلا كلل عن مجموعات السمك الكبيرة والأيدي العاملة البحرية الرخيصة. الوضع نفسه كان حقيقيا بالنسبة إلى الشحن، فهو كذلك قد توقف تدريجيا عن كونه عملية ساحلية محلية. في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كانت السواحل تعرف بمرافئها، وبواجهاتها المائية العاملة. اليوم، لم تعد المدن الواقعة على البحر مرافئ، حيث انتقلت المرافئ إلى أماكن أخرى على طول الساحل أو أعلى الأنهار. ومع ظهور سفينة الحاويات في خمسينيات القرن العشرين، ظهر التهريب البحري ثم انتهى في منشآت مبنية خصيصا، لم تكن فيها تجمعات سكانية يمكن ذكرها. لقد فقدت الواجهات البحرية القديمة أدوارها وبحلول ستينيات القرن العشرين كانت هذه الواجهات تحول إلى مناطق سكنية أو ترفيهية. خلال هذه العملية أصبحت السواحل تشتهر بمراسيها وشواطئها⁽¹²⁾.



حالة نادرة للتعايش المعاصر بين الواجهات البحرية العاملة وشاطئ للسباحة، بيبز، ديفون، إنجلترا. الصورة مقدمة من ويكيبيديا كومنز.

لقد أصبح البحر بداية من العصر البخاري، وكونه قد أصبح أكثر ظهوراً في عصر أنظمة تحديد المواقع العالمية الأخير هذا، أكثر شبهاً بالأرض، «لقد أصبحت المصانع متحركة، تشبه السفن، كما أصبحت السفن وبشكل متزايد تشبه الشاحنات والقطارات.. إن هذا التغير التاريخي يعكس العلاقة «الكلاسيكية» بين ثبات الأرض وانسيابية البحر». تغادر السفن الآن وتصل بانتظام الساعة على ممراتها العابرة للمحيط، غير متأثرة وإلى حد كبير بحركة المد أو الرياح. تزور السفن السياحية المرافئ القديمة مثل تلك التي في ميامي وستوكهولم، ولكن، وبخلاف المراكب الترفيهية، اختفت حركة المرور الساحلية إلى حد كبير في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية. إن السواحل أقل ارتباطاً بنفسها بقطعها الطولي عن ارتباطها بالسواحل البعيدة. فاليوم يمكن أن يقال إن فانكوفر وسياتل هما أكثر وقوعاً على الهادي عن كونهما في أمريكا الشمالية⁽¹³⁾.

يستمر العالم في فقد نوع من السواحل واكتساب نوع آخر، نوع أقل ارتباطاً بكثير ببيئته الطبيعية، تلك البيئة الانتقالية التي أعالت الشعوب الساحلية طوال ألف سنة. إن الساحل الجديد ليس نتاج الطبيعة بل التخطيط. إنه ساحل أنثروبوجيني، مصنوع وفق متطلبات كل من الشعوب الأرضية الداخلية التي تستعمر الساحل الآن، وكذلك صناعات صيد السمك والشحن في أعماق البحار، التي تعمل على أساس المتطلبات الزمنية والمكانية نفسها لمثيلاتها الأرضية. وفيما تصبح الأنشطة البحرية مشابهة إلى حد كبير لتلك التي على الأرض، يصبح الساحل في حد ذاته عرضة لما أسماه كالوم روبرتس «الضغط الساحلي»، الذي يهدد كل أجناس الحياة الساحلية، بما فيها الإنسان. أحياناً يبدو أنه جرى تصغير الساحل إلى حد كونه خطأ من الرمال، ظل لكيئونه السابقة معزولاً عن تاريخه وجغرافيته في حد ذاتهما.

المسكيات الحرة

لقد بلغ العالم الساحلي لشمال الأطلسي وشمال الهادي قمته خلال منتصف القرن التاسع عشر وهو في تراجع منذ ذلك الوقت. إن الرابط القديم بين الأرض والبحر، والزراعة وصيد السمك، يمر الآن بمحنة قاسية. تستمر كثير من أنشطة الصيد في تركيزها على المياه الغنية للأجراف القارية غير أنها الآن تقدم بأسلوب

مختلف تماما، عن طريق أيد عاملة موظفة في الأغلب من الداخل الأرضي أو من الخارج أكثر من كونها من الساحل ذاته. إن العمل ورأس المال كلاهما مرتحل، منفصلان عن المجتمعات المحلية، مرتكزان في المرافئ الآخذة في التوسع، حتى إنهما أصبحا تروسا في عجلة المشروع العالمي العظيمة⁽¹⁴⁾.

كانت مراكب الصيد تعمل بالبخار بحلول ستينيات القرن التاسع عشر ثم مغطاة بالفولاذ بحلول العام 1880، كما أن حجمها ونطاق عملها كانا في ازدياد سريع، ما مكنهم من استخدام تقنيات الصيد بالشبك التي كانت مستحيلة خلال عصر الإبحار الشراعي. كان الصيد بالشبك في قاع البحر يمارس منذ العصور الوسطى، بيد أن الحصيلة كانت قليلة مقارنة بحصيلة صيد الشبك البخاري، الذي بدأ في المياه القريبة من الساحل في ثمانينيات القرن التاسع عشر ومن ثم ابتعد أكثر فأكثر عن الساحل فيما هو يكشف مساحات ضخمة نظيفة من الجرف القاري، محولا إياها إلى صحار قاحلة، خالية من الحياة. لقد وصف مارك كرلانسكي صيد السمك بالشبك بأنه «صيد السمك المساوي للتعدين السطحي»، بيد أنه في هذه الحالة سبق التدمير في البحر ذاك الذي على الأرض. مع بداية تراجع الصيد من على الساحل، تحركت سفن صيد السمك بالشبك والقوارب والتي كانت مجهزة بأميال من شبك الصيد الكبيرة مبتعدة عن الساحل أكثر من أي وقت مضى. وبحلول القرن العشرين كان صيادو السمك يقضون مزيدا من الوقت في البحر على السفن التي كانت تجمع عمليتي الحصاد والتحميض. كانت هذه السفن تقيد إلى الأرض فقط على أحد المرافئ الكبيرة القادرة على التعامل مع الكميات الضخمة لصيدها، وبحلول ستينيات القرن العشرين أصبحت تلك السفن «المصانع»، أعجوبة ميكانيكية قادرة على مسح مساحات كاملة من المحيط وتنظيفها من السمك. وعلى رغم أن ذلك حدث بريادة الإنجليز، فقد جرى تطوير هذا النوع من الصيد على النطاق الصناعي عن طريق الاتحاد السوفيتي واليابان. ففي هذا الاندفاع لاستغلال البحار السبعة، انتفعت كل أساطيل المصانع العالمية من الدعم الحكومي الضخم. لقد طرد صيادو السمك الذين كانوا يستخدمون المراكب الصغيرة، خاصة هؤلاء المنتمين إلى الأمم الأقل تطورا، من مياههم. في الصومال تحول هؤلاء الصيادون المستغنى عنهم إلى القرصنة، حيث يثأرون من السفن العابرة التابعة للأمم الغنية⁽¹⁵⁾.

لقد حدث التوسع في نطاق المسمكات سابقا، بالطبع، بداية من القرن الخامس عشر. الذي كان جديدا في ذلك الوقت هو الطلب المتزايد على السمك الطازج، والذي كان يعتمد على علاقة جديدة تماما بين الأرض والبحر. لم تكن الأسواق الداخلية الكبيرة للسمك الطازج ممكنة قبل العصر البخاري، والذي لم يسمح فقط للسفن ذات الثلاثات بإيصال صيدها في الوقت المناسب لكنه وفر السكك الحديد التي يمكنها إيصال البضاعة الطازجة إلى أعماق الأراضي الداخلية. لقد أعطى تواصل السكك الحديد امتيازا لقليل من المرفأئ الكبيرة على حساب الموانئ الساحلية الصغيرة، التي كانت تخدم الأسواق المحلية فقط، وعليه فقد كانت النتيجة النهائية هي نهاية الآلاف من المجتمعات الصغيرة التي كانت تخلط على مدى قرون الزراعة بصيد السمك. بعض هذه المجتمعات استمر على قيد الحياة بالتركيز على أجناس بحرية معينة، مثل سرطان البحر، بيد أن معظم صيادي السمك الساحليين وجدوا صعوبة في التنافس مع الأساطيل قوية التمويل التي تعمل من المرفأئ الكبيرة. إن سفن المصانع الضخمة هذه وطواقمها الموظفة عالميا التي تشغلها تعمل جميعا في البحر، بيد أنها لم تعد بعد الآن جزءا من الثقافة البحرية المميزة.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا، لم يعد صيد السمك مهنة موسمية يمارسها في الأغلب شباب أعزب متطلعين إلى مستقبلهم على أنهم سيصبحون مزارعين أو حرفيين. لقد تحول الصيد بشكل متزايد إلى عمل بروليتاري يمتد مدى الحياة، يقوم به عمال جرى تجميعهم بشكل كبير إما من بين سكان الأراضي الداخلية الفقراء وإما من بين المهاجرين الفقراء. إن التقسيم الطبقي، الذي كان نادرا بين المجتمعات الساحلية القديمة، أصبح الآن واضحا. الفروق الجندرية، التي كانت مشوشة في الأزمنة السابقة عندما كانت النساء يؤديان أدوارا عدة مهمة في عملية صيد السمك الساحلية، قد تعمقت كذلك: فبينما أصبحت القوارب أكبر حجما والرحلات أطول زمنا، أصبح صيد السمك ذكوريا بشكل خالص. لقد استمرت النساء في العمل، ولكن فقط على الساحل وذلك في الجزء الأخير التحضيري من هذا العمل⁽¹⁶⁾.

خلال القرن التاسع عشر أصبح العمل البحري أكثر انفصالا من أي وقت مضى. لقد رأينا كيف أن الواجهة البحرية قد أصبحت مثل خلية النحل جامعة الناس من بقية مدن المرفأئ، التي كان لكل منها الآن «مدينة البحار» الخاصة بها، والتي

تكون غريبة عن حياة بقية المدينة. لم يكن صيادو السمك نسلا مختلفا قط من قبل، بيد أنهم الآن مقيدون داخل مقاطعتهم، مرتبطون بالمرافئ الأخرى أكثر من ارتباطهم بالأراضي النائية. كانت مدن البحارة مساحات عالمية في، ولكن لا تنتمي إلى، الأمة الأرضية، حيث ترتبط هذه المدن بالعناصر الأجنبية، وبالجرمة، وبالغاء. كان المواطنون الملتزمون بالقانون يتجنبون هذه المدن التي كانت عرضة للتمييز والقمع من الدولة بحد ذاتها.



سفينة مصنع ألمانية، Kiel NC105، 2008، الصورة من ويكيبيديا.

لطالما كان صيد السمك عرضة للازدهار والكساد وذلك منذ العصور الوسطى، بيد أن التاريخ الطويل للانهار البيئي وانقراض الأجناس إما أنه نسي وإما أنه جرى تجاهله عندما أعيد اكتشاف ثراء البحر في القرن التاسع عشر. لم يكن غريبا وصف البحر على أنه «منجم ثروة لا ينضب»، وتعويدة بالنسبة إلى هؤلاء الذين كانوا يرونه على أنه الجبهة العظمى الأخيرة، وجنة عدن الأرضية الوحيدة غير المدمرة. على الساحل الغربي لأمريكا، كانت مسمكات السلمون المحلية «فعالة بشكل مخيف» قبل وصول الأوروبيين والأمريكيين، غير أن الأعداد الصغيرة نسبيا للصيادين وعدم وجود سوق تجاري كانا يعنيان أنه لم يجر اصطياد الكميات السمكية الكبيرة لأكثر من مستوى تعويض واكتفاء السوق. عندما وصل البيض إلى الساحل الغربي، فقد جلبوا معهم أوبئة دمرت صيادي السمك المحليين، ما نتجت

عنه عودة إلى الوضع الطبيعي بين أسراب سمك السلمون التي نشرت رؤى بهيجة بالغنى بين القادمين الجدد. لقد وصل صيادو السمك المهاجرون من كل بقاع العالم - الصينيون، الصقليون، البرتغاليون، التشيليون - في مطلع عصر حمى الذهب في كاليفورنيا. وبعد أن أفرغوا النظام النهري في ساكرامنتو من السمك في ستينيات القرن التاسع عشر، انتقلوا إلى الشمال إلى فم نهر كولومبيا، حيث تأسست صناعة التعليب على مستوى صناعي احترافي. مع مرور الوقت استُهلك هذا المخزون، ما أدى إلى الوصول إلى صيد السمك بالقوارب ذات المحركات عبر الساحل وذلك في بداية القرن العشرين⁽¹⁷⁾.

في هذا العصر من صيد السمك مرتفع التمويل في أعماق البحار، مثلت المحيطات جبهة جديدة، وكانت المرافئ هي الجبهات المدينية التي ظهرت حيثما وفرت التكنولوجيا الجديدة مصدرا طبيعيا لانتزاع الربح. كان التعدين الرمز المفضل لصيد السمك الصناعي، حيث اشتركت مرافئ الصيد في مصير مستوطنات التعدين من حيث إنها أصبحت مدن أشباح بمجرد استهلاك العرق المعدني الأم. خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، تبعت أساطيل الصيد الأسماك من مكان إلى آخر، وذلك في ارتحال موسمي بحري متوسع جعل فكرة صيد السمك بوصفه عملا مستقرا متجذرا محل سخرية. لقد أصبحت فكرة قرية الصيد القديمة الجذابة ملاحقة ببقايا السواحل التي كانت تهجر من سكانها وتمتلئ بالكادحين بسرعة كبيرة، حيث أصبحت هناك ندرة متزايدة في عملية استمرار الأجيال، إذ باعت مقدما العديد من الأسر القديمة أملاكها على واجهات المياه منتقلة إلى الأراضي الداخلية. بداية من ستينيات القرن العشرين، أعيد تأهيل سواحل الولايات المتحدة، بيد أن الموانئ أصبحت في الأغلب تمتلئ بمهارات الترفيه، حيث يهتم سكانها باستهلاك السمك أكثر من صيده. واجهت غلوسستر، ماساتشوسيتس، التي قاومت هذا الاتجاه، صعوبة في المحافظة على واجهة مائية عاملة حيث إنها تحولت وبشكل متسارع إلى ضاحية في بوسطن. في بداية القرن الواحد والعشرين، بدا أن «كل الخطوط الساحلية في العالم ستحتوي على لا شيء سوى السياحة والإبحار باليخوت»⁽¹⁸⁾.

يتعثر نشاط صيد السمك العالمي الآن على الرغم من الحماية والمساندات الحكومية السخية. ويستمر بعض صيد السمك الساحلي عن طريق القوارب

الصغيرة، والذي يستهدف الأسواق المحلية، وهنا وهناك يقوم صيادو السمك بتأسيس نظير لسوق المزارعين، عارضين صيدا طازجا ومحليا ليتنافس مع بضائع الصيد المصنعي والتوزيع العام. في أماكن مثل مرفأ كلايد، وماين، يعاد بناء الرابط بين الأرض والبحر بشكل بطيء ومؤلم. لقد بدأ حلم جديد بالاستقرار يظهر، ولكن لايزال الوقت مبكرا للتكهن بما إذا كان سيستمر.

المرفأ البحرية المخفية

إن العلاقة بين المدينة والبحر، مثل تلك التي بين الحضارة والطبيعة، لم تكن قط مستقرة. لقد رأينا كيف أن الواجهة المائية قد ظهرت كمصد بين سكان المدينة والماء في القرن التاسع عشر. بالنسبة إلى المرفأ البحري الصناعي «كان الماء هو دمه الحيوي، وليس روحه». وفيما أصبحت المدن أكثر انغلاقا على الأرض ذهنا إن لم يكن فعليا، أصبحت الواجهة المائية منطقة غريبة، وفي القرن العشرين بدا كأنها لم توجد أصلا بالنسبة إلى أغلبية البوسطنيين واللندنين والباريسيين. بحلول ذلك الوقت تحول الناس إلى أماكن أخرى بحثا عن الهواء النقي والمياه. لقد كان يقال عن النيويوركيين إنهم «فقدوا كل ارتباط لهم بالبحر، تقريبا نسوا أن البحر موجود هناك». حتى الترويجيون، الذين كانوا في يوم أكثر شعب بحري بين كل الشعوب، قد ابتعدوا عن واجهاتهم المائية. لقد قيل إن العجلات قد حلت اليوم محل عوارض السفن في معظم المرفأ الترويجية⁽¹⁹⁾.

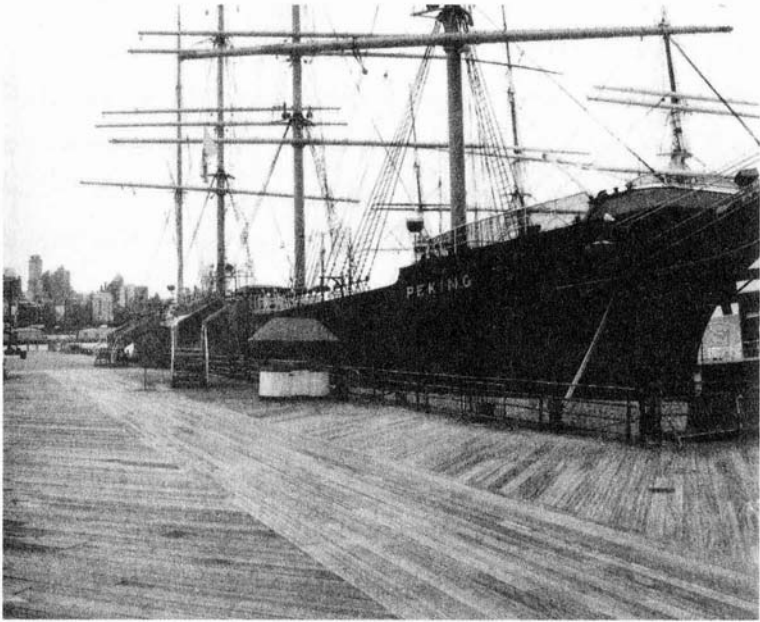
لقد تدفق سكان المدن ذات يوم إلى الواجهات المائية في ساعات فراغهم. الآن، هم معزولون بساحات السكك الحديدية والطرق السريعة، هؤلاء المقتدرون يذهبون إلى السواحل القريبة للتنزه. في نيويورك هناك جزيرة كوني، وفي لندن هناك برايتون ومارغيت. إن تزايد المنتجعات الساحلية تغذى على رغبة أهل الضواحي في الهرب من الحرارة، والقذارة، والإزعاج المصاحبة للمدينة الصناعية. لقد ابتكر هؤلاء أنواعا جديدة من الترفيه، بما فيها مدن الملاهي، كما اخترعوا عددا وافرا من الأذواق، والرياضات، والمباني المعمارية الساحلية الجديدة، في هذه الأثناء، تعفنت أرصفة الموانئ في المدن حيث أصبحت الواجهات المائية أراضي خربة. فلم يكن حتى سبعينيات القرن العشرين أن عادت المدن الأمريكية والأوروبية إلى البحر، هذه المرة لتصنع علاقة جديدة تماما به.

«لقد صنعت التكنولوجيا ثم دمرت الواجهة المائية التقليدية»، كتب بيتر هول. لقد ختم مصيرها عندما قطعت كارثة السويس في العام 1956 نقل البترول من الشرق الأوسط إلى أوروبا، مجبرة التجارة على اللجوء إلى شاحنة النفط العملاقة، والتي لم يكن ممكنا استقبالها على الأرصفة القديمة. في العقد نفسه من الزمان، اخترع مالكوم ماكلين، أمريكي، سفينة الحاويات الحديثة، والتي كانت تتطلب كذلك خدمات مرفئية جديدة تماما قادرة على التعامل مع الكثافة العالية والسرعة الكبيرة للإنتاج. لم تكن المرفئ القديمة قادرة على توفير منافذ كفوّة لسكك الحديد والطرق السريعة. لقد خسر نظام مانهاتن للممشى الممتد من الرصيف أمام نظام مرفأ إليزابيث في نيو جيرسي عبر نهر الهدسون، لقد حلت أوكلاند محل جارتها ذات الخليج ألا وهي سان فرانسيسكو، كما أصبحت روتردام البوابة إلى أوروبا. لقد قضت السفن القديمة نصف وقتها راسية، بيد أن سفن الحاويات، التي تعمل وفقا لجداول زمنية دقيقة، قد خفضت أوقات رسوها في المرفئ إلى أقل من 20 في المائة من زمن الرحلة. إن سواحل المرفئ ذات الصناعة الثقيلة قد صعدت تكلفتها إلى ما بين 60 و 75 في المائة من كل نفقات الشحن، ولكن الآن، وحيث إن الرافعات الميكانيكية قد حلت محل العامل الذي يحمل السفن، فإن الأرباح قد قفزت عاليا. لقد أصبحت سفن الحاويات تعرف باسم «كفن عامل المرفأ». حملت السفن الجديدة طواقم عمل أصغر وأقل تكلفة، بحيث لا تدفع لهم المبالغ الممتازة نفسها. ومثل صيد السمك، أصبح الشحن صناعة حرة، يدار من خلال سفن مبنية ومسجلة في مرفئ غريبة، حيث تتفادى الضرائب والقوانين التنظيمية عن طريق رفعها لما يسمى الأعلام الملائمة^(*) وكذلك عن طريق عوامة طواقم عملهم.

لم يعد لما أسماه ألان سيكولا «السفن الهاربة» موطن محدد. بحلول العام 1960 أصبح المرفأ محطة في الطريق في رحلة مستمرة، مكان اللامكان، مخفيا ومنسيا. مع تغير الزمن أصبحت تلك المرفئ تقريبا لا شيء، لقد حبست طواقم العمل في السفن في حين اختفت مدن البحار القديمة. لقد أصبحت السفينة، كما يقول مايكل فوكو، «قطعة سباحة من المكان، مكان بلا مكان، والذي هو موجود

(*) Flags of Convenience: هي أعلام الدول التي تسجل فيها السفن غير أنها ليست دول المنشأ، حيث يجري هذا التسجيل لتفادي الضرائب والقوانين لدول المنشأ. [المترجمة].

من أجل نفسه». كان ذلك حقيقة كذلك بالنسبة إلى السفن السياحية التي حلت محل سفن الركاب العابرة للمحيطات في العصر نفسه. وكونها تحمل ما يزيد على ستة آلاف من الركاب وطاقم العمل، كانت هذه السفن العملاقة تحتاج إلى مرافئ جديدة، مثل ذاك الذي في ميامي. أصبحت هذه السفينة في حد ذاتها، وكونها عالما مكتفيا ذاتيا بمتاجره ومطاعمه، هي المقصد الأخير. ففي سفينة مصنوعة لتجعل الركاب ينسون حتى أنهم في البحر، فإن «انتباه الراكب يتحول في الواقع عن البحر، وذلك باتجاه السفينة وكل المتع التي تعد بها». ومثل الواجهة المائية الحديثة، فهي على البحر لا منه⁽²¹⁾.



The Peking، بيكينغ، سفينة تاريخية ترسو في متحف الشارع الجنوبي للمرفأ البحري،

نيويورك. الصورة مقدمة من ويكيبيديا كومنز.

لقد كان للواجهة المائية ذات يوم ثقافتها المميزة، غير أنه عندما توقفت السفن عن الرسو وبدأت الأرصفة بالتعفن سرعان ما تحول الإهمال إلى خراب تام. أصبحت ساحات سكك الحديد غير المستعملة موطنًا للمتشردين. بحلول ستينيات القرن

العشرين، أصبح الميناء مكانا حيث يلقي سكان نيويورك ليس فقط بفضلاتهم بل بجيرانهم الأقل حظا كذلك.

بيد أنه كان في ذلك الوقت تحديدا بدأت الواجهات المائية حول العالم بما أسماه هانز ماير «البعث المذهل». ففي خلال سنوات قليلة قصيرة، أصبحت الواجهات البحرية المنبوذة تشتري عن طريق متعهدي المشاريع. لقد هدمت السكك الحديد والطرق السريعة التي فصلت المدن عن مياهها، كما دمرت الأرصفة المتعفنة. في حالة نموذجية للتدمير الخلاق، ماتت واجهات العالم المائية ثم بعثت من جديد، كل ذلك في مدة قصيرة جدا⁽²²⁾.

لقد استغلت الأماكن التي جرى إخلاؤها حديثا في استعمالات متعددة: جزء منها سكني، وجزء تجاري، وآخر ترفيهي. قاد رصيف لونغ وارف في بوسطن هذا المسير، وسرعان ما لحقت بها بالتيكور، ثم أتت لندن، روتردام، سنغافورة، سيدني، وسان فرانسيسكو. في عصر ارتفاع العولمة استعارت بعض المدن من بعضها الآخر. أصبح التطوير للواجهة البحرية متوقعا بالطريقة ذاتها التي كان عليها تطوير المنتجعات. وبالبناء على أقرب مسافة من الماء، دفع التطور بعملية دفن النفايات إلى درجاتها القصوى. لقد جرت التضحية بالأراضي الرطبة المجاورة، حيث جرت هندسة آخر السمات الطبيعية للموانئ القديمة حتى اختفت من الوجود. حول العالم بأكمله، حل الآن يوم الساحل الأنثروبوجيني⁽²³⁾.

السواحل الأنثروبوجينية

منذ سبعينيات القرن العشرين فصاعدا، عاد سكان المدينة إلى البحر، ولكن بأسلوب غير مسبوق في التاريخ السابق للمرافئ البحرية. فلا علاقة عمل اليوم لسكان الواجهات المائية بالماء. ففيما عدا خدمات العبارة، لم تعد الواجهة المائية المطورة نقطة عبور. فأماكن قليلة فقط تسمح بالنفاذ إلى الماء في حد ذاته، وتلك عادة ما تكون مراسي خاصة. يلاحظ فيليب لوبات أن «لما نها تن كراهية مرضية تقريبا لأن تسمح لك بالتجول إلى طرف النهر والاقتراب بما يكفي لتمس المياه». إن سكان الميناء الجدد هم في الأغلب من الطبقتين الاجتماعيتين العليا أو الوسطى، هم أناس أداروا في العقود السابقة ظهورهم إلى المدينة الداخلية سعيا خلف

حياة أفضل في الضواحي. ليس فقط إنهم أكثر غنى من الطبقات العاملة البحرية والصناعية والتي حلوا محلها، ولكنهم في الأغلب يجمعون صفتي كونهم أكبر وأصغر عمرا معا. لقد أصبحت الضواحي أماكن لإنشاء الأسر. بيد أن تطوير الواجهات المائية يوفر للكبار العزاب، والذين يجدون في هذا المكان «جبهة جديدة» ومكانا لأساليب الحياة المتنوعة. لطالما كانت الواجهة المائية فردوسا متحررا، بيد أنها الآن لم تعد مرتبطة بالخطر، الجريمة، والكدح، ولكن ببناء حياة جيدة كما يعرفها لنا مفهوم الاستهلاك⁽²⁴⁾.



سفن حاويات في خليج سان فرانسيسكو. الصورة من ويكيبيديا.

مثل ما حدث مع الشاطئ، نظفت الواجهة المائية أولا من سكانها الأصليين ومن ثم جرى استعمارها من قبل أهالي الأراضي الداخلية. وما كان ذات يوم مكانا للعمل، أصبح الآن في الأغلب مكانا للاستهلاك، ومكانا «للتسوق عوضا عن الشحن»، كما تقول آن بتنويزر، مساحة احتفالية والتي منها يشاهد الناس الألعاب النارية والسفن الطويلة. إن هؤلاء الذين يجتمعون عند حافة المياه هم مشاهدون وليسوا مشاركين. مثل هؤلاء الذين يسكنون الشاطئ الحديث، ليسوا هناك ليدخلوا إلى البحر بل لينظروا فقط. لم تعد الواجهة المائية مكانا بل صارت مشهدا طبيعيا. ومثل

الشاطئ، فإن الواجهة المائية المدنية الجديدة هي لا مكان، هي ليست معزولة فقط عن بيئتها الطبيعية بل عن تاريخها في حد ذاته. لقد كان يقال إن «الشيء الوحيد الذي يتجاهله سكان نيويورك أكثر من الطبيعة هو التاريخ»⁽²⁵⁾.

في البداية، تطلبت إعادة تطوير الموانئ، مثل إعادة تطوير الشواطئ، عملا ضخما من النسيان. ومن ثم، بداية مع ستينيات القرن العشرين، اكتشف المستثمرون القيمة التجارية للتاريخ البحري كعامل جذب بالنسبة إلى السياح حيث بدأوا بإضافة عملية الترميم التاريخي إلى جدول أعمالهم، وذلك على الرغم من أنه، وفي مطلع الدمار الشامل للمرافق القديمة، كان هناك القليل جدا الذي يمكن ترميمه. بدلا من ذلك، اخترع هؤلاء نسختهم الخاصة بهم من الماضي - رصيف الصياد في سان فرانسيسكو، مرفأ الشارع الجنوبي في نيويورك، أرصفة إرساء السفن في لندن - كلها مصممة لتحظى بنصيبتها من السياحة البحرية. اليوم، ما يسمى بالواجهات البحرية التاريخية ليس لها سوى أقل ارتباط بالتاريخ. فغالبا هذه الأماكن هي مشاريع تجارية وليست بحرية، ونوع من أنواع الأسواق التجارية في المدينة «كيف يمكن لنيويورك، بعد أن خنقت مرفأها حتى الموت (أيا كانت الأسباب الصالحة لعمل ذلك) أن تعود فتطلب منا أن نحتفي بهذا الذي كان محركا اقتصاديا عظيما ذات يوم، في أكثر المحيطات تعقيما وزينة اصطناعية، والذي يتردد عليه بشكل رئيسي السياح فقط؟» هكذا يتساءل لوبيت. لقد أصبحت الواجهة المائية بأكملها حافة للأرض. لقد توقفت عن كونها نقطة تواصل أو عبور. لم تعد تلك منطقة بيئية انتقالية حيث تتواصل البيئات، تتحدى، وتجدد حيوية بعضها البعض. وكونه لم يعد جزءا من المنطقة الساحلية الأكبر، لم يعد المرفأ مكانا مميزا مسكونا بمجموعة سكانية مميزة. في الواقع، لقد أصبح مشكوكا فيه ما إذا كان من الممكن وصف المرافق الساحلية في أي من مواصفاتها عدا في موقعها⁽²⁶⁾.

لم يسبق للسواحل أن كانت غنية جدا بقيمة عقاراتها وفقيرة جدا بما جعلها ذات يوم الموطن الأول للبشرية. إن ما اعتقده هنري ديفيد ثورو عتبة البرية الأخيرة أصبح الآن ربما هو أقل الأماكن طبيعية على الأرض. لقد كان يقال عن الساحل البريطاني إنه لم يعد أي جزء منه تقريبا نقيا أصليا. هذا التوصيف هو حقيقة بالنسبة إلى الشواطئ تحديدا، والتي في العالم الغربي هي جميعها تقريبا من صنع

الإنسان إلى حد ما. إن رحلة البحث عن النقي البدائي منها في المناطق الأبعد من الكرة الأرضية ما نتج عنها سوى رفع نسبة هندسة الشواطئ هناك. إن نصف ساحل نيوجيرسي كاملا هو الآن مدرع. تعود برامج حماية شاطئه، والتي تضم حواجز الأمواج، الأرصفة الممتدة داخل البحر، وحواجز البحر، إلى العام 1920، حيث إن «النيوجيرسية» تمارس الآن (كما يجري الاحتجاج ضدها) في كل مكان في العالم. بيد أن الهندسة الساحلية ليست واضحة في مكان كما هي في اليابان، حيث إن 65 في المائة من السواحل مغطاة الآن بالخرسانة⁽²⁷⁾.

إن السواحل الطبيعية، يحذرنا بول كارتر، «متقطعة بعناد، غاية في السوء، غير منطقية، تستحيل على الإصلاح»، كما أن أي جهود مبذولة لاستقرارها قد أنت بنتائج عكسية لما كان مقصودا. إن الشواطئ، مثل الكائنات التي تعيش عليها، متحركة. إن الرمال تتحرك باستمرار، متنقلة على وبعيدا عن وعلى طول الساحل تجاوبا مع التغييرات في كل من الأرض والبحر. إنها تتغذى على الرواسب المجروفة من الداخل. إن الحواجز الجزيرية العظيمة للأطلنطي وسواحل خليج أمريكا مستمرة في الحركة على مدى قرون. لقد كان يقال حول هايتراس في نورث كارولينا: «إن هذه الجزيرة غير ثابتة. إن لديها خواص وقتية تنقلية مبنية في صلب وجودها». في ثمانينيات القرن العشرين في هايتراس «المنازل المبنية مسافة بعيدة عن الشاطئ (كانت) تباع على أساس أنها «عقار الواجهة المحيطية وذلك مع مطلع القرن». «حتى التعرية كانت تحقق أرباحا». فقط عندما تستقر هذه الجزر الحاجزية في مكانها يجري اختراقها وتعريتها. وحيث إنه تُمنع من التحرك، فإن هذه الجزر تموت فعليا، حيث تنكمش في حجمها وحيويتها. عندما يجري سد الأنهار وتحويل مساراتها وعندما تتوقف تيارات المياه وحركات المد عن تغذية السواحل بدفعها الرواسب في اتجاه الساحل، فإن الكوارث تلي كل ذلك. تسعى الحكومات إلى تجديد الشواطئ عن طريق ضخ الرمال، بيد أنه من المعروف جيدا أن الشواطئ «المرممة» معرضة للتعرية بضعف نسبة تلك المتروكة على طبيعتها⁽²⁸⁾.

إن السبب في استمرارنا في «إصلاح» السواحل فقط لندمرها هو ليس عصيا على الفهم. لقد سمحنا للناس بأن يشيدوا المباني إلى حافة البحر، خالقين عقارات، والتي هي بالنسبة إلى المجتمعات الساحلية المتدهورة اقتصاديا قاعدة الضرائب

الرئيسية. وكما يقول مستشار في فلوريدا بشأن الموضوع، «لقد كان علينا أن نحمي الإوزة الذهبية». يعتقد القادمون الجدد إلى الساحل أن «كل الأراضي (هي) دائمة وكل الحدود ثابتة». وكما رأينا، بدأت هذه العملية عن طريق الأوروبيين والأمريكيين الأثرياء في القرن التاسع عشر مع بناء النوادي الصحية، أماكن الاستحمام، وأخيرا، المقاطعات الساحلية. لقد أصبح ممكنا لسامويل بيوت موريسون أن يكتب في العام 1921 «لقد حلت مدن المصانع ومراكز اليخوت الآن محل قرى صيد السمك. إن الحدائق والقصور الإيطالية يمكنها أن تمحو حتى ذكرى المزارع الساحلية الوعرة»⁽²⁹⁾.

لقد ساندت السياحة متوسطة الدخل نمو المنتجعات في النصف الأول من القرن العشرين، غير أنه لم يبدأ التدفق الحقيقي نحو الساحل إلا بعد الحرب العالمية الثانية. من ستينيات القرن العشرين فصاعدا، لم تنم المجتمعات الساحلية في الحجم فقط بل أصبحت تشبه الضواحي أكثر فأكثر. لقد اجتذبت تلك المتقاعدين، والذي اصطاف العديد منهم أو قضى شتاءاته هناك قبل أن يستقروا في المنطقة بشكل دائم. إن الأشخاص العاملين الذين كانوا يسافرون سابقا من المدينة إلى الساحل قد عكسوا الآن مسارهم بأن جعلوا من مساكنهم الموسمية أماكن إقامة مستقرة على مدار العام. لقد كان ذلك واقعا حقيقيا تحديدا على السواحل القريبة من المدن الكبيرة، بيد أن العملية ذاتها يمكن رؤيتها كذلك في ماين، حيث كانت تتحول قرى صيد السمك إلى ما يقترب من الضواحي بسرعة كبيرة. مع مطلع القرن الواحد والعشرين، كان الملايين يهجرون الواجهات العشبية للضواحي من أجل تلك التي للساحل، محضرين معهم طريقة تفكير تركز القيمة المرتفعة على العقار والخصوصية. لقد تجاوب المستثمرون مع هذا التدفق بأن قاموا بالبناء بتهور مقتربين بشكل غير مسبوق من البحر، وهو النهج الذي أسهم بشكل عظيم في الدمار الذي تكبدته السواحل خلال العواصف، الكبيرة منها والصغيرة. إن تأمين العقار المضمون حكوميا قد شجع على إعادة البناء حتى على أكثر المواقع حساسية. لن يسمح للإوزة التي كانت تضع بيضا من الذهب أن تموت، حتى عندما جرى تدمير السمات الطبيعية للساحل بسبب المشاريع الهندسية والتي تسببت في ارتفاع نسبة تعرية السواحل⁽³⁰⁾.

اليوم أكثر من نصف أنشطة الخط الساحلي موظفة من أجل السياحة والترفيه. لقد جرى احتجاز الزراعة، وصيد السمك، والشحن، في جزء صغير جدا من الخط الساحلي الكلي. تحتل الواجهات العاملة في ماين فقط 20 من الخط الساحلي الكلي والبالغ 5300 ميل. فما كان ذات يوم واجهة مناسبة، حافة أعظم حديقة في العالم، هو الآن حد ذو حراسة مشددة والذي يعيق الدخول من الأرض والبحر على حد السواء. وبجفاف الأراضي الرطبة وبسد السواحل بالسدود المضادة للأمواج، ما كان حافة ناعمة أصبح الآن حافة صلبة غير قابلة للاختراق. في الولايات المتحدة، 83 في المائة من السواحل الشرقية و60 في المائة من السواحل الغربية أصبحت ملكية خاصة. لا يزال للعامه حق بالأقدمية في النفاذ إلى الساحل وذلك أسفل أعلى خط للمد، بيد أن نفاذهم إلى مناطق التيارات المنبسطة هو محدود بشدة. عندما بدأ الوعي بكم هو قليل ما بقي من المنافذ السياحية المتاحة يرتفع في سبعينيات القرن العشرين، ضغطت المجتمعات على ملاك العقار وقاضتهم وذلك لتأمين حق مرور والذي يسمح بالنفاذ إلى الشواطئ. في ننتاكايت، كانت حركة One Big Beach أو شاطئ كبير واحد فاعلة منذ العام 2004، ولكن بحق نفاذ محدود فقط. في أماكن أخرى، بدأ أن التخصيص كان هو الفائز في الصراع. في ديستين، فلوريدا، على سبيل المثال، وقف ملاك العقار حتى ضد مشاريع تغذية الشاطئ وذلك بسعي منهم إلى المحافظة على ما اعتبروه أنه حقهم السيادي في الخصوصية. لقد كانوا يفضلون ألا يكون لديهم أي شاطئ على أن يتشاركوا فيه مع الغرباء. قبل ازدهار واجهتها الشاطئية في سبعينيات القرن العشرين، كانت ديستين مجتمع صيد متأكلا، واليوم هي هدف سياحي رئيسي، متخمة بالأسواق التجارية الفاخرة، وملاعب الغولف، ومدن الملاهي، وبقاعدة ضريبية تقدر بقيمة 4.5 مليارات دولار. لقد عمدها مطوروها على أنها «قرية صيد السمك الأكثر حظا في العالم»، على الرغم من أنه لا صيد، عدا عن صيد التسلية، يجري هناك⁽³¹⁾.

حول كل العالم، أصبحت القرى الساحلية مركزا لنوع من الحنين والتي لم يكن لها شبيهه في القرون السابقة. فما كان ينفر الزائر المدني ذات يوم أصبح الآن يجتذب الملايين. لقد حلت قرية صيد السمك محل قرية الفقراء كنسخة

مثالية لما يجب أن تكون عليه الحياة. مثل هذه المدن الصغيرة تبدو أنها توقف الزمن وتضع الماضي بين أيدي الناس بطريقة لم تستطعها المدن الكبيرة والضواحي الممتدة. إن أحجامها الصغيرة وعزلتها تقدمان وهما ملاذ، لموطن في عالم بلا قلب أو رحمة. فحول حافة شمال الأطلسي - في أسكتلندا، نيو إنغلاند، بريتانى، نونافا سكوشا، القناة الإنجليزية، وماين - تتلوى ما تدعى بالمسارات التراثية على طول السواحل، ملقبة بنا عند قرية طريفة غريبة بعد الأخرى.

لقد جرت الإشارة إلى nostalgia أو الشعور بالحنين - والمشتقة من الكلمة الإغريقية التي تعني العودة إلى الوطن nostos - لأول مرة في القرن السابع عشر وذلك على أنها حالة طبيعية خطيرة متفشية بين بعض الجنود المرتزقة السويسريين، والذين قد سيطر عليهم الاشتياق إلى الوطن حتى إنهم أصبحوا غير صالحين للعمل. إن تحول هذه الظاهرة من مرض جسدي إلى حالة نفسية، مرتبطة بالحنين أكثر تجاه ماضٍ عنه تجاه مكان، قد حدث فقط في القرن التاسع عشر. اليوم، يعتبر الحنين سمة متفشية في المجتمعات الحديثة، حيث يشكل أساساً لصناعة التحف والتراث، قوى محرّكة في كل شيء بداية من فكرة الحماية التاريخية وإلى فكرة اللقاءات العائلية. يبدو أننا لا نكتفي من العودة إلى الماضي، أو بالأحرى إلى نسخة مثالية من الماضي، والتي ليس لها سوى شبه قليل بالحقيقة التاريخية. وعلى الرغم من أنه لم يعد يعامل على أنه مرض خطير، فإن للشعور بالحنين تبعات خطيرة بالنسبة إلى هذه الأماكن والأشخاص والتي يوجه إليها هذا الحنين.

لقد رأينا مقدماً كيف وقعت قرية صيد السمك تحت تعويذة الحنين. في أسكتلندا، يقود ما يعرف باسم Fishing Heritage Trail أو خط تراث صيد السمك السواح بشكل رئيسي إلى الأماكن التي لم يعد فيها صيد السمك وذلك لأن خبراء السياحة يعتقدون عموماً أن «المشهد الطبيعي البحري جذاب فقط في الماضي أو من على مسافة، فبسبب «طبيعته الرملية» يكون الاقتراب منه غير مناسب لاستهلاك الطبقات الوسطى». في جلوسستر، حيث المسمكات تموت اليوم، يتبع الزوار خطأ أحمر حول الميناء إلى مواقع حيث كانت هذه المسمكات موجودة. فحيثما يستمر صيد السمك، يستمر الخلاف بين القادمين

الجدد والمقيمين كذلك. عندما رغب المستثمرون في ترصيف الشوارع في المرفأ الأستكتلندي الصغير لمنطقة بتنويم، اعترض البقية الباقية من الصيادين على أساس أن حجر الترصيف زلق ويمكن أن يجعل عملهم خطرا. بيد أنه لربما أكبر خطر هو الحنين بحد ذاته. في القرن العشرين، حلت القوالب النمطية الإيجابية محل السلبية بيد أنها تركت سكان القرى يشعرون، كما قال أحد النيوفاوندلانديين، كما لو أنهم «في محمية خاصة»، كأنهم معروضات في متحف عن كونهم بشرا حقيقيين. وبينما حلت السياحة محل صيد السمك كالمصدر الأوحد الأكبر للدخل والتوظيف الساحليين، فإن العديد من الأشخاص الساحليين قد تبنوا على مضض الهوية المعطاة إليهم. لقد خضعوا للقرارات الرسمية والتي فضلت المنظر على ما هو فعال، مملية عليهم الألوان التي يصبغون بها بيوتهم وكمية المعدات التي يمكن لهم أن يخزنوها في ساحاتهم الجانبية. وفيما سيطرت المراسي على الواجهات البحرية العاملة، أصبح العديد من صيادي سمك ماين متنقلين. وكونهم لم يعودوا قادرين على شراء عقار على الواجهة البحرية، أصبحوا هم غرباء بحد ذاتهم، معرضين للشعور نفسه بالفقد كما الغرباء⁽³²⁾.

بيد أن هذا الشعور بالفقد الذي يختبره المحليون يجب ألا نخلطه بالحنين الذي يأتي به الداخلون إلى الساحل. عادة ما يكون الصيادون أقل تصويرا للماضي على أنه مثالي، أقل رغبة في أن يجمدوه في مكانه. بالنسبة إليهم، الماضي هو حاضر مستمر، شيء يجري البناء فوقه، أو كما يقول أعضاء Heritage Society أو جمعية التراث في بكي، أستكتلندا: «نحن لانزال هنا. دعونا نخبركم كيف كنا نحيا». يصل القادمون الجدد وهم يسعون إلى الحصول على ملجأ مما يعرفون أنه عائق للتطور. هم يلقون نظرة متحيزة تجاه المستقبل، وهو الشيء الذي لا يستطيع الأشخاص الذين يعانون نقصا في العمل في بكي أن يفعلوه، حيث إن تراث الأخيرين هؤلاء ليس سلعة بل شيء يخططون على أساسه لجمع الدروس المختلفة من أجل المستقبل. هذا الشعار: «مستقبلنا مستقر في ماضينا» يعبر عن إصرارهم على عدم ترك قريتهم لأن تصبح متنزها بحريا. «نحن لسنا مهتمين تحديدا بالسياحة»، هم يقولون، «نحن مهتمون بالحفاظ على المجتمع»⁽³³⁾.

في مرفأ كلايد، تلك القرية التي تبدو أنها «مثالية كبطاقة تذكارية» والتي تقع على شبه جزيرة سانت جورج في ماين، وهي مكان مرتبط بثلاثة أجيال من عائلة وايت الفنية، بدا أن المجتمع هناك في طريقه إلى أن يخسر كامل أسطوله. فبشعورهم بأنهم لربما يكونوا «آخر الصيادين في مرفأ كلايد»، استجاب الصيادون الأرضيون على طريقة أهالي بكي. أسست The Midcoast Fishermen's Cooperative أو مجموعة صيادي منتصف الساحل مجموعة Port Clyde Fres Catch أو مجموعة الصيد الطازج لمرفأ كلايد، والتي هي مجموعة تساند المسمكات والمؤسسة على غرار الزراعة المتبناة مجتمعيًا. وبمساعدة منظمي وايت وماين، فتحت الجمعية طريقًا إلى المستقبل مبنيًا على الممارسات الماضية للبيع المباشر للعملاء المحليين⁽³⁴⁾.

الجنة والجحيم على الساحل

على مدى أغلب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بدا أن السواحل في طريقها لطرد المخاوف التي كانت وعلى مدى طويل مرتبطة بها. لقد بدا أن الفردوس ثبت نفسه أخيرًا على الشاطئ. لقد انتقلت جغرافيا المدينة المثالية (يوتوبيا) وبشكل قاطع من الأراضي الداخلية إلى الساحل، ثم عبر الساحل إلى الجزر، التي أعلنها جون فاوولز على أنها «المجتمعات البديلة الأصلية». غير أنه وحتى عندما كانت السواحل تنظف من حطام السفن، فإنها كانت لاتزال مظلمة بمجموعة جديدة من التهديدات. لقد قدمت لوحة وينسلو هومر للعام 1899 The Gulf Stream أو «مجرى الخليج» صورة لا تنسى - لبحار أسود منبوذ على قارب بلا صاري ولا دفة محاط ببحر مملوء بسماك القرش - والتي بدت أنها تمثل الحالة الإنسانية في «وجه إله متباعد وطبيعة لا تقاوم»⁽³⁵⁾.

لم يظهر سمك القرش بوصفه كائنًا مفترسًا بقوة حتى نهاية القرن الثامن عشر بيد أنه أصبح أكثر تهديدًا من أي وقت مضى خلال السنوات المائة القادمة. لقد جرى تسجيل ذكرى هجوم سمك قرش في لوحة العام 1778 بيد الفنان جون سينغلتون كوبلي، والتي كلفه بها رجل إنجليزي يدعى بروك واتسون الذي فقد ساقه عندما كان صبيًا في ميناء هافانا. إن اللوحات الرومانطيقية مثل Raft of the Medusa أو «طوف مدوسا» هي التي أشهرت هذا الموضوع، بيد أنها

كانت لوحة هومر، والتي عرضت لأول مرة في العام 1900 في بوسطن، والتي جذبت الانتباه. كما بين بيتر إيتش. وود، إن العلاقة بين السود وسمك القرش ما كانت لتغيب عن الأمريكيين والأوروبيين. إن لوحة جي. إم. ديليو. تيرنر Slave Ship (Slaves Throwing Overboard the Dead and Dying, Typhoon Coming on) أو «سفينة العبيد» (العبيد يلقون من على ظهر السفينة الموتى والمشرفين على الموت، إعصار قادم) (1840) قد كشفت عن ممارسات تجار العبيد من حيث تخلصهم من الأفارقة الموتى والمشرفين على الموت في الممر الأوسط^(*) على طريق تجار العبيد في الأطلنطي. يقدر وودز بأن ما يقرب من 800 ألف من الأفارقة ربما أصبحوا «طعما لسمك القرش»، كما أنه «لرما غير سمك القرش أنماط تغذيتهم وهجراتهم ليستغلوا هذا الكسب غير المتوقع». يفسر ذلك هذا التدافع المتوحش لسمك القرش في المياه الاستوائية والذي يبينه هومر. لقد كان صيادو السمك في المناطق المعتدلة يصطادون سمك القرش على مدى مئات السنين من دون أن يشهدوا مثل هذا السلوك. بالتأكيد، قبل عرض لوحة هومر كانت الفكرة المنتشرة عن سمك القرش توحى بالاستسلام والجبن⁽³⁶⁾.



The Gulf Stream أو «مجرى الخليج» لوينسلو هومر، 1899.

الصورة من ويكيبيديا.

(*) الممر الأوسط: هو المرحلة الوسطى من رحلة تجارة العبيد التي تبدأ في أوروبا وتنتهي هناك. [المترجمة].

من هذه النقطة فصاعداً، انتقلت أسطورة أكل البشر إلى ما هو أبعد من المناطق الاستوائية وإلى كل جزء من المحيط، حيث حل سمك القرش محل سمك القرش محل الحوت كأعظم وحش بحري في العالم. وفيما تراجع صناعة صيد الحيتان لفترة وجيزة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تقلص التواصل مع الحيتان فيما ارتفعت المصادفات مع سمك القرش وذلك عندما أصبح الاستحمام في البحر عادة شهيرة في كل من أمريكا الشمالية وأوروبا. لأول مرة، كان البشر يغزون محيط سمك القرش، وعليه فقط ظهر نوع جديد من الطعم. وعلى الرغم من عددها القليل، فإنه بدأ التبليغ عن الاعتداءات بشيء من الانتظام. في بداية القرن العشرين تحولت صورة سمك القرش بشكل كبير من فريسة طيعة إلى حيوان مفترس متوحش.

إن نظرتنا إلى سمك القرش لا تنحدر إلينا من الثقافات البحرية القديمة، والتي كانت تكره السباحة كما أنها كانت تتعامل مع سمك القرش بالاحترام الذي يقدمه الصيادون عادة لفريستهم، لكن في الواقع من الخوف الذي صنعه مجتمع صناعي مديني والذي فقد إلى حد كبير اتصاله مع البحر. ستحول أحداث الصيف الحار الطويل للعام 1916 العلاقة القرشية - الإنسانية في شمال أمريكا. لقد اجتذبت الحرارة العالية مصحوبة بانتشار وباء شلل الأطفال الآلاف من الناس إلى الشواطئ، وفي خلال أقل من أسبوعين قتل أربعة رجال في المياه عبر ساحل نيوجيرسي. هذه الوفيات أنتجت أول رعب حديث تجاه سمك القرش، والذي هدد صناعة السياحة، كما اجتذب أنظار الرئيس وودرو ويلسون، محافظ نيوجيرسي السابق، حيث نتج عن ذلك أضخم مشروع صيد حيوانات ممول فدراليا في التاريخ. في السنوات اللاحقة، وفيما سعت المصالح الاقتصادية إلى إيداع هذه الحوادث بأكملها طي النسيان، لم يكن لأسطورة «أكل البشر في جيرسي» أن تختفي. لقد عادت هذه الأسطورة بشراسة في العام 1975، وذلك عندما ظهر فيلم Jaws أو «الفك المفترس» على الشاشة، وهي الأسطورة التي رفضت أن تختفي على الرغم من كل الجهود المبذولة لتثقيف العامة حولها⁽³⁷⁾.

لشعوره بالمسؤولية الشخصية عن القتل المستهتر لسمك القرش الذي تبع ظهور فيلم «سمك القرش»، كتب بيتر بينغلي لاحقاً كتباً عدة ليضع الأمور في نصابها. لقد لاحظ ريتشارد ويليس أن «الإنسان يخاف مما يجهل، ومن بين كل الكائنات الضخمة التي يتشارك معها في هذا الكوكب، فإن الإنسان يعرف أقل القليل عن سمك القرش». وفيما جرى دحض أسطورة أكلة البشر بشكل كبير بواسطة الدراسات العلمية الحديثة،

كما أن المذابيح قد قلت بعض الشيء، بيد أن ذلك لم يؤثر في الثقافة العامة. فبالنسبة إلى هؤلاء الذين يسعون إلى مواجهة قريبة مع البرية، ليس هناك بالنسبة إليهم حتى الآن ما يمكن أن يحل محل المواجهة مع القرش الأبيض العظيم. فمئذ ستينيات القرن العشرين، أصبحت السباحة مع سمك القرش مغامرة برية اقتصادية ناجحة، وما يسميه أليس «أناس سمك القرش» لايزالون مستمرين في الاستجابة لدعوة البرية في عصر أصبحت فيه الذئاب والدببة محظورة كونها أجناسا محمية⁽³⁸⁾.

في هذه الأثناء، أصبح ما كان يوما ما وحش البحر الكلاسيكي الكائن المدلل الآن عند الناشطين البيئيين. يأتي ذكر الحيتان فقط أربع مرات في الكتاب المقدس، وليس على أنها مخلوقات من الطبيعة بل أدوات لإرادة الخالق. في العصور الوسطى، ظهرت الحيتان على أنها أعظم من سمك القرش في كتب الحيوانات البحرية. بدأ الإسكندنافيون في صيدها على أسس تجارية في القرن التاسع، غير أن صيادي الحيتان الباسكيين كانوا هم الأوائل الذين طاردوا الحيتان لما هو أبعد من سواحل أوروبا وإلى الشمال الأطلسي. خلال عصر التوسع العظيم لصيد الحيتان التجاري في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، اكتسب هذا الحيوان أكثر أبعاده خطورة، حيث أدى دور الشرير أمام البحار البطل لذلك الوقت. دخل الخوف إلى وعي أهالي الأرض من خلال عدد ضخم من القصص الرومانتيكية حول صيد الحيتان، التي كتبها سير والتر سكوت، جيمس فينيمور كوبر، وعدد آخر من كتاب أقل شهرة. لم يكن لأي منهم خبرة شخصية مع الحيتان، عدا مع تلك الميثة والمجروفة على السواحل القريبة. لقد اعتمدوا عوضا عن ذلك على قصص صيادي الحيتان، الذين عكسوا شراستهم هم على فرائسهم، حتى إنهم أطلقوا على قطاع الحيتان الرمادية المسالمة عادة والمنتمية إلى باجا كاليفورنيا اسم «السمكة الشيطانية». وبينما اشتدت حدة صيد الحيتان، اشتد معه مقدار العنف بين الإنسان والحيتان. عندما كانت تهاجم، كانت هذه الحيتان معروفة بقدرتها على كسر وإغراق ليس فقط قوارب صيد الحيتان الصغيرة، بل السفن الكبيرة التي أطلقتها. من بين كل الروائيين البحريين الجدد، فقط كان لهيرمان ميلفيل خبرة حقيقية بالبحر، لكنه أيضا اعتمد على روايات البحارة الآخرين، بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا على متن Essex أو «اسيكس»، التي غرقت في مياه الهادي بعد أن ضربها حوت عنبر ضخم في العام 1820. كان ميلفيل يعتمد على الروايات حول حوت موكا ديك سيئ السمعة، وهو حوت أبيض تمت ملاحظته في البداية عبر جزيرة موكا بالقرب من الساحل التشيلي في

العام 1810، وهو المسؤول عن عدد من الاعتداءات عندما جرت ملاحقته برماح صيد الحيتان على مدى العقدين التاليين⁽³⁹⁾.



حيتان قاتلة تؤدي استعراضا في Sea World أو عالم البحار، أورلاندو، فلوريدا.
الصورة من ويكيبيديا.

غير أنه، وفي الوقت الذي نشر فيه ميلفيل روايته العظيمة في العام 1851، أصبح صيد الحيتان على وشك التراجع. إن الثورة البترولية تبعد فقط عقدا من الزمان، كما أن اصطياد الحيتان قد فرغ من رومانسيته. كان لصناعة زيوت الحيتان كل صفات الرأسمالية التي على الأرض، مستخدمة مصدرا طبيعيا عن طريق قوة عمل بروليتارية في أغلبها. لقد حصل كتاب ميلفيل على نقد مدمر، أحدهم وصف الكاتب بأنه «رجل أخبل، مجنون مثل الأرنب الراكض^(*) يموء، يهذر، يصرخ، مثل مجنون لا يقهر». لم يكن حتى سقوط سوق زيت الحيتان وتلاشي الحقائق الدموية لهذه الصناعة من الذاكرة من الممكن رؤية Moby Dick أو «موبي ديك» على أنها تلك التحفة الأدبية الرائعة التي كانتها بحق. لم يحدث ذلك سوى في عشرينيات القرن العشرين، ولم يكن حتى صدور نسخة الفيلم من هذه الرواية في خمسينيات القرن العشرين، مصحوبة بالتغيير العالمي لعملية صيد الحيتان بحد ذاتها، أن لاحت هذه الثدييات العملاقة بشكل كبير مجددا في

(*) Mad as a march hare: مثل إنجليزي شائع، حيث الأرنب هو تلك الشخصية التي تظهر في قصة «أليس في بلاد العجائب» ولربما كان للمثل تاريخ أبعد اعتقادا من التصرفات الطائشة لأنثى الأرنب في فصل التزاوج. [المترجمة].

الخيال الشعبي. لقد عاد الحوت ليس على أنه ذلك الشيء الضخم من الماضي، ولا على أنه مصدر الرعب في أعالي البحار، بل على أنه نموذج للأجناس المهتدة بالانقراض. ومع انتقال صفاتها كقاتلة إلى سمك القرش، تحولت الحيتان إلى نجوم للمتنزهات البحرية مثل «عالم البحار». لقد بدأت عملية مشاهدة الحيتان التجارية خلال سبعينيات القرن العشرين حيث حفرت الطريق في العام 1982 لمنع صيد الحيتان التجاري عالميا. لقد أصبح الآن مقبولا أن تهاجم الحيتان فقط إذا كانت في حالة دفاع عن النفس، عندما تحاول أن تدافع عن نفسها وعن صغارها. في وقتنا الحالي، تعتبر الحيتان «رموزا والتي تمثل كل ما هو غامض، رائع، ومعطاء للحياة في المحيط». لقد أسس البشر لنوع من القرابة الطوطمية^(*) مع الثدييات البحرية والتي لم يمدوها لتشمل السمك بحد ذاته. لقد بدا أن وحشية الحيتان ما هي إلا نتاج جهلنا وليست نتاج طبيعتهم، وهو الموضوع الذي بدأنا الآن نراه حقيقيا كذلك بالنسبة إلى سمك القرش⁽⁴⁰⁾.

من الأسوار إلى الأطلال

يبدو كأن العالم قد انقلب داخله إلى خارجه، حيث أطرافه تحل محل مراكزه. فما كانت أسوار القارات، خطوطها الدفاعية الأولى، أصبحت الآن أكثر نقاطها ضعفا. في نهايات القرن التاسع عشر، أصبح ممكنا للورد كورزون أن يعلن السواحل «الأكثر عندا، والأقل قابلية للتغيير والأكثر تأثيرا» بين كل الجبهات الطبيعية. بحلول ذلك الوقت كان علم تحصين السواحل قد تطور بشكل تام، فلم يكن ليخطر لأسلاف وينستون تشرشل أنه سيجري الدفاع عن إنجلترا من شواطئها، غير أن تشرشل قدم موقفه الخطابي الشهير هناك في العام 1940 لأنه بحلول القرن العشرين كانت السواحل تعتبر الجلد السميك للجسد السياسي، حتى بعد أن جعلتها القوى الجوية عديمة الفائدة كحواجز ضد القصف. لقد بلغت عملية عسكرية السواحل أوجها خلال الحرب العالمية الثانية، عندما أصبحت مشاهد طبيعية معينة - الأجراف البيضاء في دوفر، الحائط الأطلنطي لهتلر، الألسنة البحرية في كاليفورنيا - الأسوار الرمزية لحروب منتصف القرن العشرين⁽⁴¹⁾.

لقد أظهر D-Day أو يوم D أو يوم هبوط نورماندي حماقة هذه الإستراتيجية، بيد أنه سيمر وقت طويل قبل أن يجري التخلي عن فكرة تحصين السواحل. خلال الحرب الباردة بقيت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مركزيتين بشكل غريب على

(*) الطوطم (Totem): لفظ من اللغة الألبوية يدل على كائن روحي أو طبيعي له قداسة عند جماعة من الناس، ويؤدي دورا رمزيا في نظامهم الميتولوجي. [المحرر].

دفاعات الخطوط الساحلية. حظر الاتحاد السوفييتي سواحل دوله العميلة الواقعة على البلطيق على السواح، فيما تحولت الألسنة البحرية والمطلة على البوابة الذهبية إلى قاعدة نايكي (*) الصاروخية المنعزلة. على الرغم من ذلك، مع مرور الوقت تلاشت أهمية الدفاعات الساحلية، حتى ضيق الأفق المتباهى به في إنجلترا تقلص كثيرا منذ إتمام قناته الموصلة مع القارة الأوروبية في العام 1944. اليوم، انضمت الملاجئ الأرضية ومنصات إطلاق الصواريخ إلى أبراج ومنارات مارتيلو كمناطق جذب سياحية رئيسية. في عصر القوى الجوية، أصبح حرس السواحل في كل مكان قلقتن أكثر بشأن مهربي المخدرات، الإرهابيين، والمهاجرين غير الشرعيين عنهم بشأن التهديد بالغزو المسلح. إن الحصون حول السواحل ما هي سوى أطلال، غير أن هجرها قد ترك إرثا واحدا غير متوقع. كما يشير توم كيليون، كون الأراضي المحمية العسكرية السابقة هي بين الأجزاء القليلة من السواحل في المناطق المدنية «والتي هي غير ملطخة بالكابوس العقيم للتوسع المدني، تبقى هذه الحافة الجميلة هناك حيث الأرض تلتقي بالبحر»⁽⁴²⁾.



حرس السواحل خلال الحرب العالمية الثانية في إنجلترا. الصورة من مكتبة الكونغرس.

(*) Project Nike: هو مشروع أمريكي لتطوير الصواريخ المضادة للطائرات، وأصبحت كلمة نايكي تشير إلى كل قاعدة تضم هذه النوعية من الصواريخ. [الترجمة].

في خلال عقود قليلة، أصبح المشهد الطبيعي الذي كان يعتبر يوماً ما سوراً للحماية الآن الأكثر تهديداً وضعفاً بين السمات الطبيعية كلها. وفيما كان ذات يوم يعتبر أفضل دفاعاتنا ضد كل أنواع عداواتنا، البشرية والطبيعية، أصبح اليوم الساحل هو الذي يحتاج إلى الدفاع. فقط منذ مائتي سنة مضت، كانت السواحل تنتمي أكثر إلى البحر منها إلى الأرض حيث كان يمكن الاقتراب منها فقط عبر الماء. وبخلاف المرافئ، كانت السواحل مأهولة بشكل متجزئ، عادة فقط حول المنارات والتي بنيت لتقود السفن إلى الموانئ الآمنة ولتحذر للابتعاد عن التتوءات الخطرة. لقد أنقذت المنارات حيوات عدة، غير أن هذه المنارات هي بحد ذاتها مهددة اليوم. أصبح حطام السفن نادراً الآن، بيد أن السواحل مغطاة ببقايا المنارات والتي سقطت من على الأجراف المتعرية أو التي هجرت بسبب الفيضانات الساحلية. اليوم، هذه المنارات التي أنقذت حيوات عدة ذات زمن هي في حاجة إلى إنقاذ. وفيما كانت سابقاً رمزاً للقدرة الإنسانية على الوقوف في وجه قوى الطبيعة، تثير المنارات اليوم الأسئلة حول الضعف الإنساني ليس فقط بالنسبة إلى البحارة بل للأرضيين كذلك. في كارولينا الجنوبية، حصلت مؤسسة تسمى Save the Light أو «لنحمي الضوء» على حق حضانة منارة جزيرة موريس، والتي تقع عبر شاطئ فولي خارج تشارليستون. بنيت هذه المنارة في العام 1876 على مسافة نحو 1600 قدم خلف خط المد. اليوم، بسبب التعرية وتراجع الخط الساحلي في كارولينا، وجدت هذه المنارة الموضوعية حديثاً على جزيرة واقعة الآن على المسافة نفسها عبر الساحل التي كانت عليها في داخل الأرض⁽⁴³⁾.

يعود تاريخ المنارات إلى العالم القديم، غير أنها أصبحت شائعة على سواحل أوروبا وأمريكا بحلول القرن التاسع عشر. كان من الصعب الوصول إليها سوى عن طريق القارب، وكان حراسها يتوقعون زيارات قليلة سوى من هؤلاء المجروفين من على السواحل القريبة. لقد قال مهندس المنارات العظيم روبرت ستيفينسون مرة «يحتل حارس المنارة مكاناً منعزلاً بين البشر». إن هذا العمل يعتبر عمل طبقة متدنية، حيث كان يعتقد أنه يشجع نزعات القتل والانتحار. غير أن هذه الصفات القوطية^(*) بحد ذاتها راقت للجيل الأول من الرومانتيكيين، وخلال

(*) Gothic qualities: إشارة إلى نوع من الأدب المظلم المخيف، يسمى بالعربية الأدب القوطي، يعتمد على الأماكن المهجورة المظلمة. [الترجمة].

العصر الفيكتوري اجتذبت المنارات أعدادا متزايدة من الزائرين اليوميين، وهم السابقون للسواح المعاصرين، والذين جعلوا من المنارات المتبقية أكثر الأماكن التي تجري زيارتها على أغلب السواحل. إن الانعزال نفسه الذي قاد الرجال إلى الجنون قد جعل الآن المنارات أماكن هروب مثالية من الوجود الأرضي الرتيب⁽⁴⁴⁾. وفي تغير استثنائي في الحظ، ذاك الذي كان مرشحا لأن يهجر ويدمر أصبح الآن واحدا من أفضل مناطق الاجتذاب الساحلية. في أوروبا، بقيت المنارات ملكية عامة، ولكن، وتحت مرسوم أمريكي للحفاظ القومي على المنارات في العام 2000، تشتري المنارات المعزولة من الخدمة عادة من أجل الاستعمال الخاص أو أنها تحول إلى أماكن إقامة سياحية. إن فعل «lighthouse» أو «زيارة المنارات»، والمقصود به زيارة أكبر عدد منها، أصبح الآن رياضة تنافسية، رياضة تقترح أن شيئا ما يحدث في الأعماق، حنين إلى أمان مكان ما في عالم، هو بخلاف ذلك، لا مكاني. ترتبط المجتمعات الساحلية الآن بمناراتها أكثر من ارتباطها بأي مشهد طبيعي أرضي آخر. غير أن كذلك يفعل سكان الأراضي الداخلية، فيما أقاليم وقطاعات كاملة قد تبنت المنارات على أنها رموز موحدة. في نيو إنغلاند حلت المنارات محل برج كنيسة القرية في الأهمية الرمزية. وبينما يجري ابتلاع أهل القرى عن طريق الامتداد المدني، فإن المنارة المعزولة تبرز على أنها رمز للثبات في عالم مقلوب رأسا على عقب⁽⁴⁵⁾.

لقد كان تحديدا عندما لم يصبح للمنارات غرض بحري أن اتخذت هذا الدور الثقافي الجديد. لقد بدأ كأن هذه المنارة التي اكتسح البحر ذات يوم قد أصبحت محورية على الأرض، حيث تخدم على أنها مكان سياحي جاذب وكأداة تحذير لقارات بأكملها. إن الارتباط بالتراث الساحلي على درجة من القوة اليوم حتى إن أي اقتراحات بتحريك المنشآت المهتدة بعيدا عن البحر يمكن لها أن تثير معارضة عاطفية شديدة. في جزء منه يعود ذلك إلى خوف أصحاب المصالح العقارية من أن أي تراجع عن البحر سوف يقلل من قيمة العقار، غير أن آخرين يرون في التراجع عن البحر علامة على الضعف. إن مثل هذا التحالف أخذ شكله خلال العام 1990، عندما أصبحت منارة كيب هاتيراس مهددة بالتعريّة حيث جرى تحديد موعد لنقلها إلى مكان آخر. لم تنقل المنارة سوى في العام 1999، وذلك لأن العديد من الناس رأوا في التراجع نوعا من الاستسلام للطبيعة الشرسة. لقد قيل إن العديد من الناس كانوا يفكرون في المنارة على أنها «رمز للقوة والثبات وكصرح لقضية أبطال

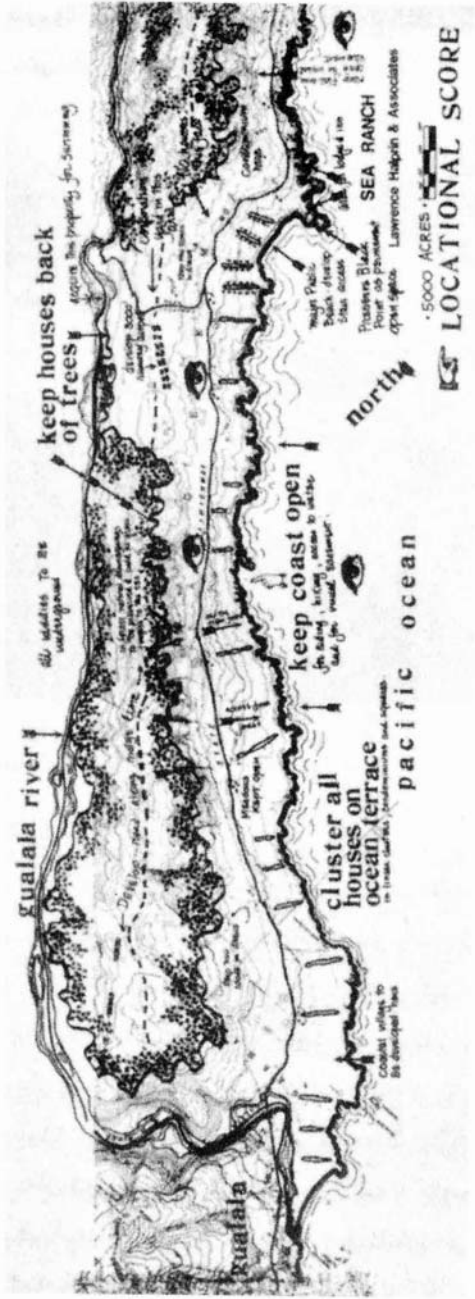
السواحل، والذين... دخلوا في معركة ذكاء مع البحر»، واعتقدوا أن «الالتفاف، أو الفرار، عن طريق تحريك المنارة سيكون» خيانة⁽⁴⁶⁾.



خط تحريك منارة كيب هاتاراس، 1999. الصورة من قطاع نورث كارولينا للطرق السريعة.

خطر في الفردوس

باتت السواحل التي كانت ذات يوم تقيّم لأغراضها العسكرية، بين أكثر المناطق سلاما على الأرض في يومنا هذا. هناك نحن ننتقل وننسى كم يمكن للبحر أن يكون خطرا. إن جغرافيات المدن الفاضلة (اليوتوبيا)، التي كانت واقعة في أعماق الأراضي الداخلية إبان القرن التاسع عشر، قد انتقلت بشكل نهائي إلى الساحل. لقد استقرت جنة عدن على الشاطئ - ولكن لا يزال الناس يتخيلونها من خلال مصطلحات أرضية تامة. في الولايات المتحدة، يقع اثنان من المجتمعات المثالية والتي اكتسبت انتباها خاصا - ساحل فلوريدا Sea Ranch «سي رانش» في كاليفورنيا - على الساحل بيد أنه أنشئ على أسس أرضية تماما. فكلاهما لا يعطي الكثير من الاهتمام لميزات البيئات الانتقالية الخاصة ببيئتهما الساحلية⁽⁴⁷⁾.



منظور المهندس المعماري لورانس هالبرين لمنطقة Sea Ranch، «سي رانش»، من كتابه
 «سي رانش: مذكرات حول فكرة».
 الصورة من الأرشيف الهندسي لجامعة بنسلفانيا.

من بين الاثنين، يعتبر الساحل الأكثر تقليدية، هو في الواقع مثل الضاحية إلى جانب البحر، لكن مع إزالة كل عيوب الضواحي. إنه مجتمع كثيف البنيان، يرحب بالمشي، ما يخفف من ازدحام السيارات ومن التلوث، غير أنه يقع بعيدا عن البحر على غرار القرى الساحلية القديمة والتي يحاول هذا المجتمع تقليدها. يعد الساحل البحري بفوائد الحياة الساحلية من دون أن يكون ساحليا في أي من صفاته سوى في موقع. سي رانش، من جهة أخرى، هي أقرب إلى المنتجع، لم يكن الغرض منها الإقامة فيها على مدار السنة، غير أنها قريبة بما يكفي من منطقة خليج سان فرانسيسكو لتكون جذابة لعطلة نهاية الأسبوع وللإقامات الممتدة. لا تقدم الرانش خدمة تسوق أو أي خدمات أخرى. يحتل الساحل فقط ثمانية هكتارات من خليج المكسيك، فيما تقع السي رانش على جزء رائع من ساحل مندوتشينو، حيث تمتد على مساحة خمسة آلاف هكتار، وحيث يلتزم كل بيت عليها بقوانين بيئية صارمة للحفاظ على طبيعة الغابات والمراعي. تكمن جاذبيتها في موقعها الممتد على حافة صدع سان أندريس. يصفها صانعوها كالتالي: «إن تجربة الوجود هنا محكومة بتهايوي الأرض باتجاه البحر وكذلك بالنداء المستمر للمحيط... تنجذب العين باستمرار باتجاه الأفق اللامع... إنه الساحل، بشكل رئيسي، الذي يجتذب الناس إلى هنا لمسة البرية المتجسدة بقوة في خط الساحل بحد ذاته»⁽⁴⁸⁾.

لم يكن يتووى للسي رانش أن تكون منتجعا ولا ضاحية «لقد كان الهدف المشاركة في تجربة الخط الساحلي، لا أن يعزل في ملكية خاصة منفصلة»، حتى وإن كانت البيوت ملكيات منفصلة. لقد تعامل رئيس المهندسين، لورنس هالبرين، مع المشروع من منطلق بيئي: «لقد كنت مقتنعا بأنه بإمكاننا أن نتفادي صنع ضاحية أخرى، وفي المقابل نطور مجموعة مجتمعية للأشخاص المتشابهين فكريا، بحبهم للطبيعة ولهذا الموقع تحديدا، والذين بالنسبة إليهم «العيش المسالم على الأرض» هو المبدأ الحاكم». لقد كان عازما ألا يبني على الأجراف فيما أسماه أسلوب «حائط ماليبو». لقد تواصل من خلال تصميمه مع هنود البومو ومع مربي الماشية والذين كانوا موجودين هناك قبله، حيث كانت تصاميمه تتبع تلك التي للمجتمعات الزراعية الأولى في نيوانغلاند، والتي تخيلها هو (على نحو خاطئ) أنها كانت موزعة حول حديقة عامة. لم تكن هي البرية التي كان هالبرين ومساعدوه

يسعون إليها، بل مكان حيث يمكن للبشر والطبيعة أن يتعايشا. «لقد أصبحت مقتنعا بأن سي رانش من الممكن أن تصبح مكانا حيث الطبيعة البرية والموطن الإنساني يمكن لهما أن يتفاعلا فيما يشبه التعايش التكافلي القوي حيث يمكن للبيئة الانتقالية أن تسمح للناس بأن يصبحوا جزءا من النظام البيئي». في تناقض مع المدن المثالية الأرضية السابقة والتي تأسست على العمل المشترك، الذي كان يجب أن يوحد سكان السي رانش هو المشهد الطبيعي المشترك، أو لأكون أكثر تحديدا، نظرة مشتركة للمشهد الطبيعي، هذا «الأفق اللامع» الذي تحدث عنه هالبرين في مخطظه الأصلي. وفيما جرى بذل كل جهد ممكن حتى لا يجري إزعاج الطبيعة في هذا المكان، فإن استثناء واحدا كان مسموحا به هو: قطع الأشجار التي كانت تعيق منظر البحر أمام الأعضاء⁽⁴⁹⁾.

مرة أخرى ها نحن نأتي أمام حالة تفضيل للنظر فوق كل الحواس الأخرى. كان أصحاب السي رانش مهتمين أقل الاهتمام بوجود منفذ للبحر. لم يجر بناء أي موانئ أو مراس، حيث كان البحر أبرد من أن يسمح بالسباحة. إن المخططات الأولية لم يكن فيها حق مرور للعامّة إلى الساحل بحد ذاته، وهو الشيء الذي خالف القوانين الساحلية لكاليفورنيا وعطل بناء مزيد من العقارات هناك لمدة 8 سنوات وذلك حتى جرى الاتفاق على حقوق العامّة. في النهاية، كان هالبرين بحد ذاته محبطا بسبب الدرجة التي انتصرت بها المصالح الخاصة وضمير بها إحساس «المجتمع الترفيهي الخارجي الطبيعي المنحى». إن المشهد البحري المشترك، في غياب أي ارتباط جماعي حقيقي مع البحر بحد ذاته، هو غير قادر على تكوين مجتمع أو شعور قوي بالارتباط بالمكان، حيث إن «المشهد الطبيعي يرى: المكان يختبر ويعرف»، كما يذكرنا الكاتب الإنجليزي آدم نيكولسون⁽⁵⁰⁾.

لا شك في أن علاقة أصحاب سي رانش مع ساحلهم ليست فعلا مختلفة عن تلك التي لسكان أي منتجعات ساحلية أخرى ومجتمعات سكنية أخرى والتي تحتل الآن الساحل بطوله حول العالم. إن اللافتة التي صادفتها أنا في زيارتي هناك - لا تدر ظهرك إلى المحيط أبدا - لا تختلف بأي شكل من الأشكال عن الأخرى المنصوبة في أماكن أخرى. بالنسبة إلى العامّة الذين ليست لديهم أي تجربة حقيقية مع البحر، المخاطر القادمة من تقاطعات التيارات والأمواج العنيفة حقيقية جدا. فبخلاف

مئات الآلاف الذين قضوا في أعاصير التسونامي، فإن المئات يغرقون كل سنة حتى على السواحل المحروسة بموظفي إنقاذ، فكلما كان الساحل أكثر جاذبية، تعاضمت المخاطر. يجري بشكل منتظم جرف الناس من على الصخور على حافة حديقة أكاديا العامة في ماين. فقط عبر الساحل على جزيرة Great Gott أو غريت غوت، وهو المكان الذي اصطفت فيه لمدة ربع قرن، وفي 23 أغسطس 2009 شهدنا موجة عنيفة تكونت بسبب إعصار بيل مئات الأميال عبر الساحل. لقد وصلت الموجة في عصر يوم صاف وحطمت الكوخين الواقعين على جرف البحر. لم يقتل أي من جيراننا، غير أنه في اللحظات القليلة اللاحقة، وعندما وصلت الموجة نفسها عند أكاديا، حدثت المأساة. كان الآلاف من الناس مجتمعين عند منطقة تندر هول Thunder Hole الشهيرة لمشاهدة راكبي الأمواج، قد جرف العديد من الناس إلى البحر وغرقت فتاة صغيرة⁽⁵¹⁾.

تدعو نونفا سكوشا نفسها ملعب محيط كندا، بيد أنها لا تمتلك سوى القليل من الشواطئ القابلة للسباحة والعديد من المشاهد المطلة غير الآمنة. عندما يفترض أن يكون جون بيجي الريفي، يجري اعتراض خيالات السياح بطريقة فظة عن طريق لافتة تقول:

إنذار

الإصابة والموت كانا مكافأة للسواح المستهترين هنا

إن المحيط والصخور غداران

استمتع بالبحر من على مسافة⁽⁵²⁾

إن الشعوب الساحلية القديمة لم تكن أبدا بحاجة إلى التذكير بمخاطر البحر. وكما رأينا سابقا، فإن سكان جزيرة الأمير إدوارد كانوا حذرين من «ملاحقة الساحل» تحت أي ظروف جوية. لطالما اعتقد صيادو السمك والبحارة بقوى المحيط المدمرة المميتة. في الماضي، كانت الشواطئ مغطاة بحطام السفن، memento mori، والتي منها جرى اختلاق العديد من القصص التحذيرية. تجري هندسة الشواطئ العذنية (من جنة عدن) اليوم، مثل السفن السياحية الراسية عبر الساحل، بحيث تخفي الخطر الحقيقي وتصدر وهم الأمان. غير أن المخاطر القادمة من البحار

تظل مؤكدة، ومع كل تسونامي، إعصار، أو تسرب بترولي، يظهر على السطح الوعي بقواها في إيقاع الفوضى بأقوى الحضارات. اليوم، حطام السفن على السواحل أصبح أمرا نادرا، غير أن كابوسا جديدا يختبئ عبر الساحل. في تسعينيات القرن العشرين، بدأت تقارير في الظهور حول حاويات ضخمة وناقلات نفط عملاقة اختفت ببساطة ومن دون أي أثر. السبب، على ما يبدو، هو ارتفاع نسبة العواصف المحيطية والتي أنتجت أموجا عنيفة يبلغ حجمها أكثر من مائة قدم ارتفاعا. في العام 1995 ضربت سفينة الملكة إليزابيث الثانية بموجتين يبلغ ارتفاعهما خمسا وتسعين قدما. بالنسبة إلى قبطانها، رونالد وارويك، «بدا كما لو أن السفينة كانت تتجه مباشرة إلى الأجراف البيضاء في دوفر». الآن يواجه البحارة أسوأ مخاوفهم ليس على حافة البحر بل في مكان لطالما اعتبروه آمنا نسبيا: منتصف المحيط⁽⁵³⁾.

خاتمة

تعلم العيش مع السواحل

أخيرا وجد الإنسان، كذلك،
طريقه عودةً إلى البحر.

راتشيل كارسون، البحر من حولنا⁽¹⁾

على مدى نصف القرن الماضي كان هناك تدفق في اتجاه الساحل، والذي بسرعه وكثافته ينافس أيا من الهجرات العظيمة في التاريخ البشري. اليوم نصف سكان العالم يعيشون على بعد 120 ميلا من البحر. بحلول العام 2025 يقدر أن تبلغ النسبة 75 في المائة. في الولايات المتحدة 54 في المائة من السكان يعيشون فيما تعرف بأنها دول ساحلية، على بعد 50 ميلا من البحر، ويصل 3600 إنسان إلى الأقاليم الساحلية كل يوم. في كاليفورنيا 80 في المائة من سكان الولاية يعيشون على بعد 30 ميلا من الساحل. إن المناطق المعرفة

«لم يكن هذا التدفق في اتجاه البحر متوقعا»

على أنها ساحلية تشكل 15 في المائة فقط من منطقة أراضي الدولة، والذي يعني أنها ثلاث مرات أعلى كثافة سكانية عن الأراضي الداخلية. نحن معتادون على المحيطات وهي تصطدم بالساحل، ولكن الآن ولأول مرة هي موجة بشرية تلك التي تتدحرج في اتجاه البحر⁽²⁾.

في القرن التاسع عشر، قطع الملايين المحيطات ليسكنوا أراضي جديدة. ولأنها مجهزة بالقنوات وسكك الحديد، قطع الناس المسافة سريعاً إلى الأراضي الداخلية، مديرين ظهورهم إلى البحر، تاركين أقل الأثر على الساحل، وذلك بخلاف مرافئ دخولهم. اليوم، المداخل مثل جزر أليس وأنجيل Ellis and Angel، تعتبر مواقع حج بالنسبة إلى سلالات هؤلاء الذين دخلوا منها. بيد أن هذا التسونامي البشري الجديد الذي يتحرك من المناطق الداخلية إلى السواحل لا يحتاج إلى جواز سفر أو تأشيرة دخول. إن معظم الهجرات الجماعية خلال التاريخ كانت غير إرادية، حدثت بسبب الحاجة أو الحرب، وارتبطت بالقدر أكثر من ارتباطها بالحرية. غير أن هذه الهجرة مختلفة، حيث إنها مدفوعة بالرغبة، بقدر ما هي مدفوعة بالحاجة. حتى قريباً استمرت هذه الهجرة بشكل غير ملحوظ، غير أنه لا الهجرة ولا آثارها على الساحل يمكن تجاهلها بعد اليوم⁽³⁾.

بكل تأكيد، يعود الناس إلى الساحل لعدد مختلف من الأسباب. إلى حد بعيد فإن الأعداد الأكبر تنجذب إلى المدن الضخمة، مثل بانكوك، وشانغهاي، ولاغوس. تلك بدأت على أنها مرافئ، غير أنها لم تعد بحرية في أي من صفاتها سوى موقعها. هناك يوجد عدد من مراكز الإنتاج أقل من مواقع الاستهلاك. اختفت مدن البحارة بشكل كبير، حيث تزدهم الآن الواجهات المائية والأسواق التجارية والمباني السكنية. توظف صناعة صيد السمك أعداداً أقل فأقل من الناس، حيث انتقل الشحن إلى مرافئ جديدة بعيدة تماماً عن المدينة بحد ذاتها. يعزى إلى اكتشافات البترول والغاز عبر الساحل شيء من النمو الساحلي، كما يعزى إلى المقدرات العسكرية، بيد أن المدن الواقعة بجانب البحر ستقدم - على الأرجح - وظائف في سلك الخدمة العسكرية عن الوظائف في القطاع الصناعي. إنها السياحة، أكبر جهة توظيفية مفردة في العالم، والمسؤولة عن النمو الكبير للمجتمعات البحرية الصغيرة. يبدو الوضع كأن العوالم قد قلبت

ظهرا لبطن، حيث حواف الجزر والقارات حلت محل الأراضي الداخلية كمراكز للجاذبية الديموغرافية.

في عصر الأملاك العقارية

لم يكن هذا التدفق في اتجاه البحر متوقعا. لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تناقضا سكانيا على السواحل وعلى الجزر الساحلية، عندما جرى مكنة صيد السمك والشحن البحري. إن التسونامي البشري الحالي بدأ بقطرات قليلة، وكانت مقدمته مكونة من سكان الأراضي الداخلية الأغنياء والذين وصلوا في البداية كسياح موسميين، ومن ثم بدأوا في اقتناء العقار. لقد رأينا كيف أن هذه الطبقة الراقية قد قضت أغلب نهاية القرن التاسع عشر في تنظيف السواحل من الأشخاص الأدنى، حيث بنوا مقاطعاتهم الخاصة، مبقين الطبقات الاجتماعية المتدنية على بعد منهم. لقد جعلت أخيرا السكة الحديد، ومن بعدها السيارات، السواحل في متناول يد الطبقات الوسطى المدينية، بيد أنه، وحتى أواخر القرن العشرين، كانت منافذ الطبقات العاملة محدودة بسبب النقص في المال ووقت الفراغ.

إن هذا البعد الطبقي لم يمر بسلام؛ ففي العام 1928 قال جي. سبينسر سميث، رئيس مؤسسة حماية السواحل والشواطئ الأمريكية: «كان هناك زمن، فقط منذ سنوات قليلة مضت، عندما كان يمكن لقلّة مميّزة نسبيا أن تزور ساحل نيبتون القديم». لقد كان سعيدا لأن يعلن أن «النظام القديم قد تغير، على أي حال، واليوم تنتمي واجهات المحيطات إلى الجموع الكبيرة». كان سميث يتكلم عن سواحل نيوجيرسي ونيويورك التي أصبحت مناطق شهيرة بحلول العام 1920، وذلك ليس فقط خلال الأعياف وعطلات نهاية الأسبوع. خلال الحرب العالمية الثانية، عندما رأيت - ولأول مرة - البحر من على رمال مدينة أتلانتك، توقفت الحركة تجاه البحر حين أصبحت الشواطئ خطوط الدفاع الأولى في كل مسرح حرب، ومحظورة على المدنين. بعض السواحل، مثل ساحل البلطيق، بقيت مأهولة بشكل قليل خلال عصر الحرب الباردة، بيد أن خمسينيات القرن العشرين وستينياته شهدت تسارعا في عجلة التطوير التي تخيلها سميث. لقد

تبنّت مؤسسته مصالح المستثمرين الساحليين، وملاك المنتجعات، ومتعهدي عوالم الترفيه التي بدأت في البروز في أمريكا، والذين أصبحوا يقدرّون الآن قيمة جذب جموع من الطبقة الاستهلاكية. من وجهة نظر سميث، يشجع الشاطئ ليس فقط الازدهار، ولكن كذلك التوافق الطبقي «لن تستطيع الشيوعية، أو الاشتراكية، أو أي حركة ism^(*) أخرى أن تؤمن أبدا موضع قدم لها في هذه الدولة مادامت الجموع البشرية أعطيت الفرصة للتمتع بهبات الطبيعة العظيمة في الحدود المسموح لهم بها»⁽⁴⁾.

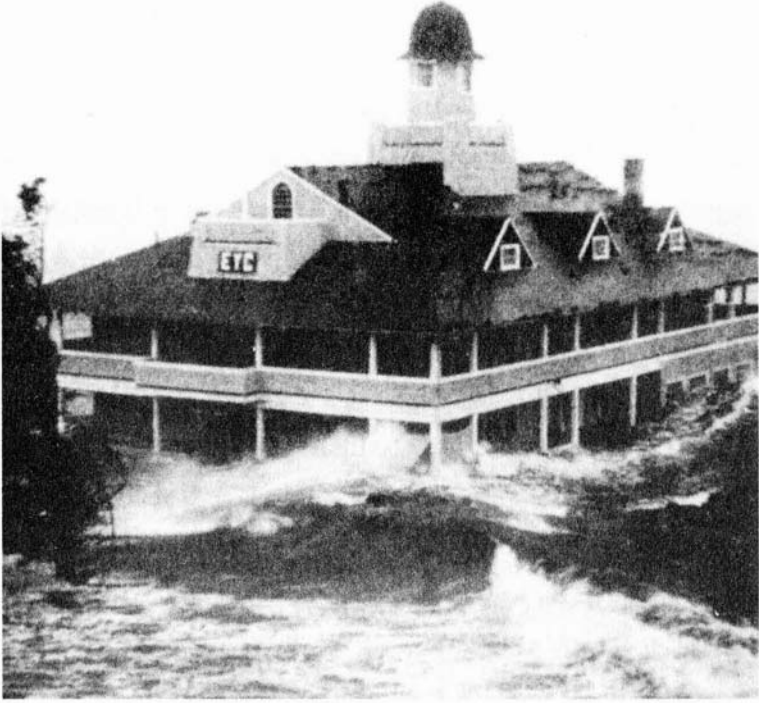
سيتم تعيين هذه الحدود بصرامة، مع ذلك. تقليديا، كان الساحل أسفل خط المد الأعلى مفتوحا للعامة. إن الخط الذي كان مرسوما بين المحيط العام والأماك الخاصة يختلف مكانه وفق الزمان والمكان، فقبل زمن مراقب الأبنية، كان هذا الخط يُحدّد عن طريق الأعراف وموافقة المجتمع على قدر ما كان يحدد عن طريق القانون. الآن، خلال ما تسميه روث مور زمن العقار، أصبحت الحدود واضحة المعالم، حيث أصبحت العقارات الساحلية سلعة، واستثمّارا جذابا جدا، ومكانا يتطلع فيه الشخص إلى ارتفاع ثروته على حساب البيئة⁽⁵⁾.

لطالما سعت مؤسسة حماية السواحل والشواطئ الأمريكية The American Shore and Beach Protection Association وبنجاح من أجل هذا النوع من ترميم الشاطئ، غير أنها كانت حريصة على أن تحصر العامة على الرمال. إن مناداتها الشعبية من أجل حق الاستخدام العالمي للشواطئ تخفي حقيقة أن هذه المؤسسة تعارض أي قانون قد يتعدى على حقوق ملاك العقار، من أشخاص وشركات، والذين يشكلون قاعدة أعضائها. تدافع المؤسسة عن حقهم في بناء الحوائط البحرية وحواجز الأمواج التي تسهم بشدة في تعرية الشاطئ والتي تخلق حاجة شديدة إلى تجديد الرمال عليه. من المرضي للمؤسسة تماما أن تجعل دافعي الضرائب يسدّدون الفاتورة من أجل برامج الحماية والتجديد التي كانت عالية التكلفة وعديمة الفائدة بشكل كبير. كما أنها تعارض باستمرار نوعية التخطيط الذي قد يصل إلى جذور المشكلات الحقيقية للتعرية الساحلية⁽⁶⁾.

(*) إشارة إلى كل الكلمات التي تنتهي بهذه الحروف، والتي تعبر عن نظريات فكرية قد تتحول إلى حركات أيديولوجية على أرض الواقع. [المترجمة].

يأتي بنا ذلك إلى صلب موضوع المشكلات الساحلية اليوم، والتي هي تداعيات ليست للأعداد الضخمة للسكان الساحلين بقدر ما هي تداعيات للطريقة التي يعيشون بها على الساحل. لقد تناقصت أعداد السكان الساحلين القدامى من المزارعين صائدي السمك والبحارة إلى أقلية صغيرة. كما أن هذا الجزء من الساحل الذي طالما خدم على أنه واجهة بحرية عاملة قد جرى تحجيمه بالصورة ذاتها. في ماين، على سبيل المثال، لا يخدم سوى 25 من أصل 5300 ميل من الساحل البحري الأغراض عامة بعد الآن. تحولت البقية إلى أملاك خاصة، الكثير منها إلى عقارات سكنية نخبوية. إن حماية هذه الأملاك تأخذ أولوية فوق كل الاعتبارات الأخرى - قبل كل شيء، فوق الطبيعة الحيوية للساحل، وهو المكان الحي الذي تتخذ فيه المخلوقات موطنًا لها عليه، بما فيها نحن.

إن الوعي العام بالتغيرات المناخية، وبارتفاع مستوى البحر، هو الآن وعي قوي حتى أنه من الصادم معرفة أن هذه المواضيع لم تكن حتى تُناقش قبل ثمانينيات القرن الماضي. إن المعلومات الموثوقة حول تاريخ مستويات البحر أكثر حداثة من ذلك التاريخ، ولا تزال جدا غير مكتملة، خاصة بالنسبة إلى العصور الأقدم. يمكننا أن نكون متأكدين جدا أنه خلال الفترة التي تسمى العصر الجليدي الأصغر، 1350 - 1850، كانت مستويات البحر مستقرة نسبيا. ثم بدأت البحار في الارتفاع حوالي مليمترين كل سنة لمدة قرن تقريبا. الآن ارتفعت هذه النسبة إلى 3 مليمترات لكل سنة عندما بدأت كتل الجليد والصفائح الجليدية في الذوبان، يرفع الاحتباس الحراري من درجات حرارة البحر وكثافته، كما تغيرت أشكال الأحواض المحيطية. الآن أصبح المستقبل عصيا على التنبؤ، كما أن تقديرات ارتفاع مستويات البحر، وصولا إلى سنة 2100، قد تباينت إلى حد كبير. العلماء الدقيقون يعتقدون أن أقل ارتفاع ربما يكون 0.9 متر، وأكثره يكون مترين. تعد هذه القراءات منخفضة جدا مقارنة بالعديد من التنبؤات المقلقة، غير أنه عندما يكون ارتفاع مستوى البحر مصحوبا بارتفاع في النشاط العاصفي، وتغيرات في كل من الأرض والبحر بسبب الاحتباس الحراري، سيصبح التأثير عنيفا جدا، خصوصا بالنسبة إلى الـ 100 مليون إنسان الذين يعيشون فقط على ارتفاع متر من مستوى البحر⁽⁷⁾.



اشتعال عاصفة إبان إعصار كارول، 1969، حين جرفت نادي اليخوت في رود آيلاند.

الصورة من المكتبة المصور ل NOAA

إن تأثيرات التغير المناخي حقيقية جدا، بيد أن السواحل كانت في محنة قبل الارتفاعات الأخيرة في مستويات البحر بوقت طويل، وذلك بسبب عوامل إنسانية وطبيعية مجتمعة. لقد وصل التنقيب عن النفط إلى الشاطئ قبل أن يتعداه. إن عمليتي التجفيف والردم للأراضي الرطبة كانتا مستمرتين على مدى قرون، حيث شغلت الجزء الأكبر من القرن الماضي تقريبا. اليوم، 70 في المائة من أراضي العالم الرطبة قد اختفت. في الولايات المتحدة، الخسارة أعظم في الواقع: 80 إلى 90 في المائة.

إن تسليح السواحل الذي كان المقصود به حماية السكان الساحليين، قد أنتج شعورا كاذبا بالأمن. في اليابان، على الرغم من أن 65 في المائة من سواحلها

المكشوفة محمية بالحوايط البحرية، أو مؤمنة بطرق أخرى، فإن شيئا لم يستطع إيقاف التسونامي العظيم الذي وقع يوم 11 من مارس من العام 2011. في تارو، شعر الناس الواقفون على قمة حائط المدينة البحري الضخم بأنهم في أمان، غير أنهم جُرفوا جميعا. في اليابان، تعني كلمة تسونامي «موجة الميناء»، ومن نواح عديدة رفعت هندسة الموانئ الحديثة من السرعة التدميرية لهذا الجيشان الأخير. لطالما اشتكى الصيادون من أن بناء الحوايط البحرية حد كثيرا من قدرتهم على رؤية الأمواج القادمة. كذلك، قللت الحوايط البحرية من وعي السكان الساحليين بالبحر عموما. إن وعي العامة بالتاريخ البيئي ضحل في كل الأحوال، إذ إن القليل من قرى صيد السمك اليابانية لاتزال تحتفظ بذكريات لعواصف تسونامية سابقة. غير أن هؤلاء الذين فعلوا كان لديهم سجل أفضل في الإخلاءات الناجحة عن هؤلاء الذين نسوا الماضي. هناك سواحل ضخمة لا بد من تعويضها عما أسماه بيتر كان «فقدان الذاكرة البيئي عبر الأجيال»، والتي تمنعنا من معرفة ليس فقط الأسباب طويلة الأمد للانحدار، ولكن كذلك الطرق التي نستطيع بها التأقلم مع هذه الأسباب⁽⁸⁾.



نتائج التسونامي الياباني، 2011، الصورة ليوموري شيمبون،

الصورة مقدمة من Getty Images

التعلم من الماضي

كل طفل في المدرسة يعلم اليوم أن مياه البحر آخذة في الارتفاع، غير أن القليل يعرف أي شيء عن الطرق المتعددة التي تكيف بها جنسنا، غالبا بنجاح، مع الحوادث الأولية للفيضانات. إلى اليوم، هناك نقاشات عامة حول التقليل من التأثيرات الإنسانية في التغيرات المناخية أكثر بكثير من تلك التي تدور عن الاعتبارات الجادة للتكيف معها. بلا شك، لا بد للثنتين أن تتحركا يدا بيد، بيد أنه من الضروري أن نأتي بالماضي إلى طاولة الحوار مع الحاضر والمستقبل. فخلال المليونين ونصف المليون سنة الأخيرة، كانت هناك تذبذبات في مستوى البحر تصل إلى 500 قدم. فقبل نهاية آخر عصر جليدي، فقط منذ عشرة آلاف سنة مضت، كانت المحيطات أقل انخفاضا بمعدل 400 قدم عما هي عليه اليوم. وكما رأينا مسبقا، فإن الفيضانات يمكنها أن تشجع تحركات سكانية ضخمة، وتسبب تغييرات جذرية في أساليب الحياة. في الإقليم الذي نسميه الآن هولندا حدث ذلك مرات عدة في الأعوام 1170، و1362، و1703، و1916، و1953. حول العالم كله هناك قوائم مطولة من الفيضانات ومن المدن التي فُقدت في البحر⁽⁹⁾. بيد أن التاريخ لا يزودنا بقائمة الكوارث فقط، ولكن كذلك بدروس بناء حول التكيف الإنساني. فم منذ الأزمنة البعيدة، عاشت الشعوب الساحلية حياة برمائية فوق الكومات أو مثل عرب الأهوار، على جزر عائمة مصنوعة من القصب. وكما رأينا سابقا، فإن أسلافنا الساحليين، الأمريكيين الأصليين والأوروبيين، أدركوا ضرورة عدم البناء على قرب كبير من الماء. لقد خيم الأوروبيون - كما فعل صيادو السمك الرحل الأصليون - على الساحل عوضا عن الاستقرار عليه. وحتى عندما بنوا أماكن للمأوى، فقد صنعوها بحيث يمكن تفكيكها وإزالتها بشكل سريع. لقد تعلم صيادو السمك الأوروبيون القادمون من شرق لونغ آيلاند، والذين وصلوا في أواخر القرن السابع عشر، أين يقيمون مخيماتهم من الأمريكيين الأصليين الذين كانت تجمعهم بهم علاقة طيبة في البداية. لقد قام البيض، المعروفون باسم Bonackers، باصطياد الحيوانات، كما اصطادوا السمك بطرق مشابهة لتلك التي كان الهنود يستخدمونها. حيث كانت هاتان المجموعتان تتزاوج كل منهما من الأخرى أحيانا. لاحقا، عندما جمعوا بين صيد السمك والزراعة، بنوا على أراض أكثر ارتفاعا، ولكنهم استمروا إلى وقت متأخر، حتى ثلاثينيات القرن العشرين، في الاحتفاظ بالأكواخ الجاهزة بالقرب من الساحل، لقد

كانوا يصطادون السمك من الشاطئ، وذلك عن طريق إطلاق مراكبهم مباشرة في اتجاه الأمواج. يتذكر القدامى أن أكواخ البوناكيريين كانت تُفكَّك خلال فصل الخريف، حيث كانت تُخزَّن حتى موسم صيد السمك القادم. وتُزال في حال هددتهم العواصف⁽¹⁰⁾. لطالما كانت السواحل الرملية، كتلك التي في لونغ آيلاند، دائمة الحركة، مترققة وحية. إن البوناكيريين، مثل بيل ليستر، يدركون تماما طبيعة البيئة التي يسكنونها. «لا شيء سوى خط رملي صغير»، كانت تلك هي الطريقة التي وصف بها ليستر لونغ آيلند. عندما جرت مقابلته خلال سبعينيات القرن العشرين، عبر عن قلقه المسبق بشأن تبعات تطوير الشاطئ: «لا يزال هناك كثير من المساحة في الغابات يمكن للناس أن يبنوا عليها. عوضا عن ذلك فقد هبط هؤلاء إلى الساحل واحتلوا رمالنا. نعم، شاطئنا الرملي. الآن وقد تجمعت الرمال قادمة من المحيط على مدى آلاف السنوات. والآن هم يمتلكون منازل كبيرة على طول الشاطئ. يجب ألا تكون هناك منازل حيث جرف البحر الرمال على مدى كل هذه السنوات»⁽¹¹⁾.



أكواخ صيد السمك على ساحل لونغ آيلاند، 1902، يظهر في الصورة القبطان جاشوا فورنير.

الصورة لهال بي. فوليرسون. الصورة مقدمة من الجمعية التاريخية لمقاطعة سفلوك.

إن قطعة الأرض الطويلة الرملية، في الركن الجنوبي الغربي لكيب كود، والمعروفة باسم جزيرة مونوموي، تحكي قصة أخرى عن التكيف، في هذه الحالة قصة تراجع إستراتيجي. في أوقات ما كانت تلك شبه جزيرة، في أوقات أخرى كانت جزيرة واحدة أو جزرا متعددة. لقد كانت المكان الذي يتردد عليه الباحثون عن حطام السفن، وذلك قبل أن تجتذب صيادي السمك في العام 1710. لقد تفادى هؤلاء ميناء ريك لمصلحة منطقة باودر هول، حيث أسسوا قرية صغيرة تدعى وايتواش. في خمسينيات القرن التاسع عشر، عندما كان المدخل إلى باودر هول مسدودا بالرمال المتحركة، كان السكان إما يهجرون منازلهم، وإما كانوا ينقلونها عبر السفن إلى الأراضي الرئيسية. لاحقا، حول المصطافون المنازل المتبقية إلى ما يخدم أغراضهم، بيد أنه وبعد أن أصبحت مونوموي ملجأ عاما للحياة البرية في العام 1970، هُدمت المنازل المتبقية بعد وفاة أصحابها. اليوم، فقط مركز منارة مونوموي القديم هو المتبقي⁽¹²⁾.

لم تكن مثل هذه التراجعات الإستراتيجية استسلاما للطبيعة بأي شكل، ولكنها تكيف منطقي مع ما أسماه الهولنديون «الذئب المائي». كانت هولندا تبني الجزر الاصطناعية منذ العصور الرومانية، لكنهم كذلك عرفوا قيمة الكتبان بوصفها مصدات، حيث كانوا حريصين على ألا يتعدوا عليها. وعليه، عندما قدم الهولنديون إلى أمريكا الشمالية، في القرن السابع عشر، فقد أداروا ظهورهم إلى الشواطئ الرملية للونغ آيلاند، مفضلين أن يستقروا بجانب نهر الهدسون بدلا من ذلك. كان شعب الموكن في تايلاند، المعروفون بالنسبة إلى جيرانهم بأنهم «شعب بحري»، متناغمين بدقة مع علامات التسونامي في العام 2004، حيث تمكنوا من الهرب إلى الأراضي الداخلية في حين غرق 175 ألفا آخرون. على سواحل بيرو وكولومبيا، تبنى قرى صيد السمك الآن على أساس إمكان تحريكها للخلف في حال تهديد الفيضانات. في ألaska، تفكر شعوب الإنويت في التراجع عن الساحل، والشئ ذاته صحيح بالنسبة إلى أهالي القرى في دلتا النيجر في غرب أفريقيا. في أكثر جزر العالم ضعفا وانكشافا، جزر المالديف، بدأ الناس فعليا في الانتقال إلى الأراضي المرتفعة، كما أن الحكومة تشتري أراضي في الهند وسريلانكا تحسبا لعملية إعادة استيطان ضخمة. في فينيسيا التي يهاجمها الانخفاض

والارتفاع في مستويات البحر، حيث تسبب ذلك في جعل ميدان سانت مارك مغمورا بالمياه على مدى ثلث السنة، انخفضت نسبة السكان مقدما وبشكل كبير، كما أن هناك بعض الحديث عن إخلاء نهائي للمدينة. في هذه الأثناء يفكر البريطانيون في الهجرة الانتقائي لأجزاء محددة من خطهم الساحلي، وإن أسرع خصومهم في تسمية ذلك «الخيار الاستسلامي»⁽¹³⁾.



آثار التعرية الساحلية، جزيرة دوفين، ألاباما، نوفمبر 2005، الصورة مقدمة من Center for Land Use Interpretation، مركز مفاهيم استخدام الأراضي.

إن فكرة المنزل القارب قديمة، على الأقل، قدم سفينة نوح. فكثيرا ما لجأ الناس وحيواناتهم إلى البحر، عندما لم يعد لهم مكان على الأرض. إن عملية استعمار الهادي قد استمرت بهذه الطريقة، وهي مستمرة في أجزاء عديدة من آسيا اليوم. على الساحل الغربي لأمريكا الشمالية، في القرن التاسع عشر، كانت المساكن المؤقتة تعوم على جذوع أشجار ضخمة، حيث قدمت مأوى لآلاف من الحطابين. لقد استمرت البيوت العائمة في تقديم سكن رخيص في فانكوفر، سياتل، بورتلاند، وخليج سان فرانسيسكو. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أصبحت تلك منتشرة بين البوهيميين والهيبيين (سكان المياه بوضع اليد). في

أماكن مثل سوساليتو. ولكن بحلول العام 1970 دفعت سمعة هؤلاء، بأنهم ملوثون للمكان وقبيحو الأشكال، بالمدن - بما فيها فانكوفر - إلى إزالتهم من على واجهاتهم المائية. ومع ذلك، فإن مجتمعات بيوت القوارب المرتفعة المستوى والمجهزة بأنظمة المجاري الخاصة بها لم تستمر فقط، ولكنها ازدهرت في أماكن مثل بحيرة يونيون في سياتل ومرسى قرية البحر في فانكوفر. عندما انتقل ستانلي ودافني بيرك إلى قرية البحر في العام 1978، فإنه قدموا أسبابهم المنطقية «نحن جميعا أتينا من الماء، في النهاية، ومن المريح البقاء بقرية»⁽¹⁴⁾.

يعود الناس إلى البحر بأحلام كبيرة وصغيرة. في ميناء نيويورك، بدأت تطفو فكرة وحدات السكن الصحية بيثيا والتي تدعى Waterpod أو الحجرة المائية، فيم جرى إطلاق مشروع البدائل البحرية الفخمة على الساحل الغربي. تقدم مؤسسة البدائل البحرية التي أسست في العام 2008، من قبل متعهدي وادي السيليكون التحرريين، رؤية لجهة محيطية لأمم سيادية عائمة فوق الماء، متحررة من قوانين كل من البحر واليابسة، أماكن يمكن فيها تجربة الأفكار الجديدة. وكونها مستوحاة من الحفارات والسفن السياحية الواقعة عبر الساحل والتي ليس بها مرافق تعود إليها، فإن هذه البدائل البحرية ستعيش في البحر ، على الرغم من ذلك، من دون أن تكون مرتبطة به بأي صورة عدا في الموقع. تعود البدائل البحرية إلى البحر في صورة متحررين معزولين عن العامة كما عن الأراضي الرئيسية. إن هؤلاء ملهمون أكثر عن طريق آين راند^(*) منهم عن طريق راتشيل كارسون^(**). هم لا يدخلون إلى البحر ذهنيا ولا خياليا، فحلهم ليس حلما بيثيا ولكنه سياسي. من معظم النواحي يبقى هؤلاء ملاك أراض⁽¹⁵⁾.

تعزيز المياه

ليس هناك من سفينة فسيحة بما فيه الكفاية لكي تضم المليارات من البشر الذين قد يجري تهجيرهم بسبب التعرية الساحلية والفيضانات. الذي نحتاج

(*) Ayn Rand (ت. 1982): أديبة ومفكرة أمريكية من أصل روسي، عالجت في كتاباتها فردية الإنسان، وأهمية الإدراك العقلائي للذات، باعتباره طريقا إلى الحياة الأخلاقية. [المحرر].

(**) Rachel Carson (ت. 1964): عالمة أحياء بحرية أمريكية، أسهم كتابها «الربيع الصامت» في تحفيز الحركة البيئية العالمية. [المحرر].

إليه فعليا هو إعادة تفكير جوهرية، ليس فقط بشأن كيف نبني نحن على السواحل ولكن لماذا نبني؟ لن نتمكن نحن من هندسة طريقنا للتخلص من نقاط ضعفنا الحالية، بيد أننا نستطيع أن نعيد النظر في العلاقة بين الأرض والبحر، بحيث نتفهم أن السواحل تشكل بيئة انتقالية مميزة تحتاج إلى أسلوب مختلف تماما في الحياة. إن السواحل متحركة، وعليه يجب علينا نحن أيضا أن نتحرك من أجل البقاء. لقد كان هناك زمن كانت فيه المباني المتعلقة بالأنشطة البحرية مباشرة هي فقط الواقعة على الساحل، في حين أن كل المساكن الأخرى كانت مبنية عميقا في الأراضي الداخلية. يبدو أن الوقت قد حان للعودة إلى هذا المبدأ المعتدل جدا. إنها اللحظة الصحيحة كذلك لنبدأ فكرة دفاع الخط الساحلي، إن كان ذلك في شكل الحواجز البحرية، أو حواجز الأمواج، أو تجديد الشواطئ، حيث يجب القبول بالدلائل العلمية وبأن الطبيعة يمكنها أن تؤدي هذه الوظيفة نيابة عنا إن نحن فقط سمحنا لها. لقد تحركت ولاية ماين في العام 1982 لإنهاء كل بناء تسليحي على الخط الساحلي. الآن حان الوقت بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى، حيث التعرية أكبر، لأن تحذو حذو ماين، وتوفر المليارات من الدولارات المهذرة⁽¹⁶⁾.

من البداية، وضعت الثقافة الغربية البحر في دور الخصم الشرير. الآن بعد أن توقفت السواحل عن كونها خط دفاعنا الأول ضد البشر الغزاة، نواجه نحن اليوم مجموعة جديدة من التهديدات - التسونامي، الأمواج المتوحشة، المد الأحمر - والتي يبدو أنها تبرر تدخلاتنا العنيفة. إن التنبؤ بحالة الطقس هو عملية مملوءة بالرموز الحربية، كما أن مقاومة تعرية الشواطئ قد أصبحت في كل مكان المعادل الأخلاقي للحرب. في أعقاب إعصار كاميل، في العام 1969، أخرج المسيحيون أعلامهم الأمريكية كما لو أنهم كانوا في معركة. ليس الوضع أن الفيضانات، واندلاع العواصف ليست تهديدات حقيقية، ولكن الوضع ينحصر، وحتى هذا الوقت، في أن العديد من وسائل الدفاع ضد هذه الظواهر قد أثبتت عدم واقعيتها⁽¹⁷⁾.

لن تزودنا الهندسة بأي حلول. ليس المطلوب بأقل من عقلية جديدة تماما، نموذج ثقافي جديد، إذا ما كان لنا أن نعيش ببساطة على سواحلنا. لزمنا طویل

كنا نفكر في البحر والأرض على أنهما شيان مختلفان، في حين أنهما، تاريخياً، يشكلان نظاماً ساحلياً حيويًا واحدًا. يجب أن نتوقف عن رسم الخطوط بحزم وقسوة، وأن نبدأ في ممارسة ما دعاه إيفياتار زيرو بافل «اليونة الذهنية». نحن نحتاج إلى أن نذكر أنفسنا بأن الطبيعة - في حد ذاتها - لا ترسم خطوطاً أو تخلق فروقاً حادة. لقد حان الوقت لقبول فكرة التدفق فيما يعني الزمن والمكان، حيث من الواضح أن كل جهودنا لتثبيت السواحل، لكي نضعها في خرائط وجداول، هي غير مجدية. الخرائط جيدة في إظهار بعض الأشياء، لكنها لا تستطيع تصوير التجربة الإنسانية⁽¹⁸⁾.

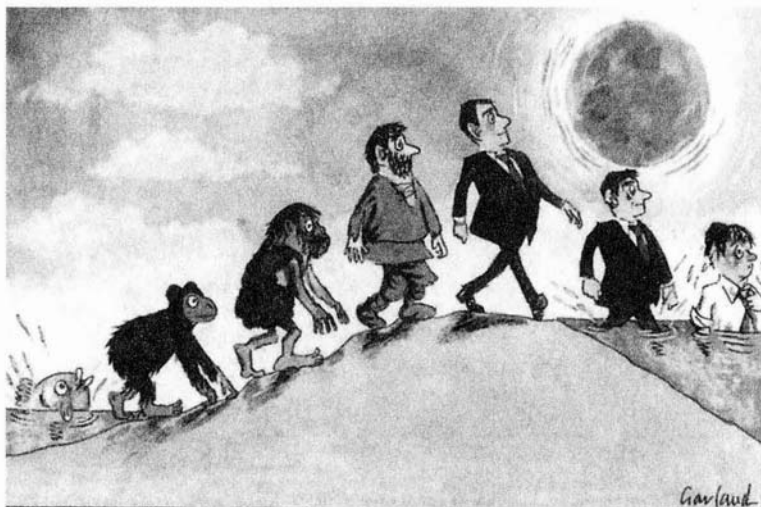


منازل قوارب في سوساليتو، كاليفورنيا، 2004. الصورة مقدمة من ويكيبيديا كومنز

يجب علينا أن نعيد التفكير، ليس فقط في علاقة الأرض بالبحر، ولكن كذلك تلك التي بين البشرية والطبيعة، بحيث نتخلى عن الفروق التي تفصلنا عن المخلوقات الأخرى. يذكرنا والاس كوفمان وأورين بيلكي بأنه «ليس هناك مصائب أو كوارث في الطبيعة»، هناك فقط الإجراءات التي هي جزء من أسلوب

الطبيعة في عمل التعديلات الخاصة بها. يجب علينا أن ننتبه إلى النصيحة المقدمة من فرانسيس بيكون منذ تقريبا 400 سنة: «لكي تحكم الطبيعة يجب أن تطيعها»⁽¹⁹⁾.

كما رأينا، هناك مقدار كبير من الخوف وليس التفهم هو ما يجري تركيزه على البحر ومخلوقاته. نحن نتحدث عن أجناس عدوانية، في حين أننا نحن من خلق الظروف الملائمة لها لتنمو في الأماكن التي يود أن يعيش فيها الإنسان. فمثل الذئب وأسد الجبل، يُنظر اليوم إلى أسماك القرش على أنها غازية، في حين أن البشر هم الذين يتعدون على مناطقهم. على بعض السواحل، جرى إعلان الطحالب البحرية على أنها عدو، وذلك عن طريق هؤلاء الذين يفضلون شواطئهم نظيفة وخالية من كل شوائب، في حين أنه في الحقيقة، وعلى مدى قرنين من الزمان، كانت الأرض هي المتعدية على المياه؛ مما أدى إلى حدوث تلوث وتعرية ضخمين وغير مسبوقين. لربما حان الوقت للدعوة إلى هدنة بين الأرض والماء، بين أنفسنا والطبيعة.



تطور الإنسان The Evolution of Man، رسوم متحركة لنيكولاس غارلاند، 2009.

الصورة مقدمة من الفنان ومجموعة الأعلام البرقية

إن الخطوة الأولى في هذه العملية هي استيعاب أن الأرض والماء ليسا متضادين ولكنهما جزءان لا يفترقان من البيئات الانتقالية المتواصلة، خاصة على طول الساحل. يجب علينا أن نتخلى عن اعتقادنا «أزرق - الماء» التقليدي بأن المحيطات كينونات أولية أبدية، ونبدأ في تبني ما يمكن تسميته الفهم «البنّي - المياه» للطبيعة المهجنة، الحيوية لعواملنا الساحلية المائية. فقط بعد أن عكزنا المياه بعض الشيء نستطيع الآن أن نبدأ في تمييز الطبيعة السائلة لما أخطأنا فهمه على أنه أرض صلبة. وبمجرد أن ندرك أن الرياح، الأرض، والمياه كلها جزء من نظام حيوي تعد البشرية جزءاً منه، فإننا سنتفهم بشكل أفضل، ليس فقط كوكبنا الأرضي المائي *terraqueous planet*، ولكن كذلك أنفسنا.

الهوامش

المقدمة

- (1) John A. Murray, introduction to *The Seacoast Reader*, ed. John A. Murray (New York: Lyons, 1999), xvii.
- (2) Kristin M. Crossett et al., *Population Trends along the Coastal United States, 1980–2009* (Washington, DC: National Oceanic and Atmospheric Administration, 2004); Don Hinrichsen, *Coastal Waters of the World: Trends, Threats, and Strategies* (Washington, DC: Island Press, 1998).
- (3) John R. Gillis, "Being Coastal," *California Coast and Ocean* 23, no 1 (2007): 10–15.
- (4) Rachel L. Carson, *the Sea around Us* (New York: Oxford University Press, 1951), 15.
- (5) Ruth Moore, "The Offshore Islands," in *The Tired Apple Tree: Poems and Ballads* (Noble- boro, ME: Blackberry Books), 1990.
- (6) John Gillis, "Filling the Blue Hole in Environmental History," in *The Future of Environmen- tal History: Needs and Opportunities*, ed. Kimberly Coulter and Christof Mauch (Munich: Rachel Carson Center for Environment and Society, 2011), 16–18.

(7) للتمييز بين «العيش في» في مقابل «العيش على»، انظر:

- Owe Ronstrom, "In or On? Island Words, Island Worlds, II," *Island Studies Journal* 6, no. 2 (2011): 277–44.
- (8) James Hamilton-Paterson, *Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds* (New York: Europa Edi- tions, 2009), 23; Rachel L. Carson, *The Edge of the Sea* (Boston: Houghton Mifflin, 1998), 1.

الفصل الأول

- (1) Rebecca Solnit, "Seashell to Ear," in *Unraveling the Ripple*, ed. Helen Douglas (Edinburgh: Pocketbooks, 2001), n.p.
- (2) Eric Leed, *The Mind of the Traveler: From Gilgamesh to Global Tourism* (New York: Basic Books, 1991), 19; *A Dictionary of Creation Myths*, ed. David Leeming and Margaret Fleming (New York: Oxford University Press, 1995), 99; Max Oelschlaeger, *The Idea of Wilderness: From Prehistory to the Age of Ecology* (New Haven, CT: Yale University Press, 1991), 45–46; Christopher Connery, "There Was No

More Sea: The Suppression of the Oceans, from Bible to Cyberspace,"
Journal of Geographical History 32 (2006): 495-505.

- (3) Dictionary of Creation Myths, 93-94, 111.
- (4) Hugh Brody, *the Other Side of Eden: Hunters, Farmers, and the Shaping of the World* (New York: Free Press, 1994), 86, 13-14.
- (5) Zygmunt Bauman, *Liquid Times: Living in an Age of Uncertainty* (Cambridge, UK: Pol-ity, 2007), 98-99; Steve Mentz, *At the Bottom of Shakespeare's Ocean* (London: Continuum, 2009), 98.
- (6) هذه والاقتباسات اللاحقة من:
- Robert Alter, *Genesis: Translation and Commentary* (New York: W. W. Norton), 1996.
- (7) Alain Corbin, *Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750-1840* (Berkeley: University of California Press, 1994), 2, 5.
- (8) Brody, *Other Side of Eden*, 97.
- (9) *Ibid.*, 118-23; also David Christian, *Maps of Time: An Introduction to Big History* (Berkeley: University of California Press, 2004), 181-91.
- (10) Alan Dundes, "The Flood as Male Myth of Creation," in *The Flood Myth*, ed. A. Dundes (Berkeley: University of California Press, 1988), 167-82; W. H. Auden, *The Enchafed Sea, or The Romantic Iconography of the Sea* (New York: Random House, 1950), 45.
- (11) Samuel Eliot Morison, "The Ancients and the Sea," in his *Spring Tides* (Boston: Houghton Mifflin, 1965), 45; Auden, *Enchafed Sea*.
- (12) John R. Gillis, *Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World* (New York: Palgrave/Macmillan, 2004), chaps 1-5.
- (13) Helen M. Rozwadowski, *Fathoming the Ocean: The Discovery and Explanation of the Deep Sea* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), chap. 1; Gisli Palsson, *Coastal Economics, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse* (Manchester: Manchester University Press, 1991), 97-101.
- (14) Gillis, *Islands of the Mind*, 10-16; Francis Pryor, *Stonehenge: A Quest for Life and Death in Bronze Age Britain* (London: Harper Perennial, 2008), 13.

- (15) Steven Mithin, *After the Ice: A Global Human History 20,000–5000 BC* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), 3; Max Uhle, *the Emeryville Shellmound*, University of California Archaeology and Ethnology 7, no. 1 (Berkeley: University of California Press, 1907), 31.
- (16) David Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers: Ecology and Prehistory," *Current Anthropology* 21, no. 6 (December 1980): 734; Douglas J. Kennett, *The Island Chumash: Behavioral Ecology in a Maritime Society* (Berkeley: University of California Press, 2005); chap. 8; Jon M. Erlandson, "The Archaeology of Aquatic Adaptations: Paradigms for a New Millennium," *Journal of Archaeological Research* 9, no. 4 (December 2001): 738.

(17) انظر:

David R. Harris, "The Farther Reaches of Human Time': Retrospect on Carl Sauer as Prehistorian," *Geographical Review* 92 (2002): 526–44; Carl Sauer, *Agricultural Origins and Dispersals* (New York: American Geographical Society, 1952), 23–28, 96; Gisli Palsson, "Hunters and Gatherers," in *History, Evolution and Social Change*, ed. T. Ingold, D. Richer, and J. Woodburne (Oxford: Berg, 1988), 203; Roy Ellen, "Modes of Subsistence: Hunting and Gathering in Agriculture and Pastoralism," in *Companion Encyclopedia of Anthropology*, ed. Tim Ingold (London: Routledge, 1994), 206; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 727.

(18) Tom Koppel, *Lost World: Rewriting Prehistory* (New York: Atria Books, 2003), 121; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptions," 287–88, 304–5.

(19) Alister Hardy, "Was Man More Aquatic in the Past," *New Scientist* 7 (April 1960): 642–45.

(20) عندما نشر في العام 1982، كان كتاب كاتبة العلوم النسوية إين مورجان شديد الرواج بين العامة، غير أنه تلقى نقدا لاذعا من علماء علم الإنسان، وذلك لتوسعه في نظرية هاردي.

The Aquatic Ape (New York: Stein and Day, 1982), 21; Richard Ellis, *introduction to Aquagenesis: The Origins and Evolution of Life in the Sea* (New York: Viking), 2001.

(21) تواصل شخصي مع البروفيسور مايكل ويليامز، المؤرخ لساور أكتوبر،

Sauer, *Agricultural Origins and Dispersals*, October 28, 2008.

- (22) Carl O. Sauer, "Seashore—Primitive Home of Man," in *Land and Life: A Selection from the Writings of Carl Ortwin Sauer* (Berkeley: University of California Press, 1963), 309.
- (23) *Ibid.*, 311.
- (24) Rachel Carson, *The Sea around Us* (New York: Oxford University Press, 1951), 14–15.
- (25) Palsson, *Coastal Economics*, 64–66; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 294–305.
- (26) يمكن تتبع مصير النظرية في:
 "Aquatic Ape Hypothesis," http://en.wikipedia.org/wiki/Aquatic_ape_hypothesis; also Simon Bearder. "Flood Brothers," *BBC Wildlife* 18, no. 6 (June 2000): 64–68;
- الاستثناء هو في عمل فيليب ك. ستينبيرغ
The Social Construction of the Ocean (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2001); Palsson, *Coastal Economics*, 64–65; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 294–95.
- (27) Spencer Wells, *The Journey of Man: A Genetic Odyssey* (New York: Random House), 2002.
- (28) Ian Tattersall, *The World from Beginnings to 4000 BCE* (New York: Oxford University Press, 2008), chaps 4–5; Wells, *Journey of Man*, 47.
- (29) Richard Forman and Michael Gordon, *Landscape Ecology* (New York: John Wiley and Sons, 1986), 497; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 302.
- (30) Michael A. Crawford, "A Role for Lips as Determinant of Evolution and Hominid Brain Development," in *Polyunsaturated Fatty Acids: Neural Foundation and Mental Health*, ed. Ole G. Mouritsen and Michael M. Crawford (Copenhagen: Royal Danish Academy of Sciences and Letters, 2007), 7–32; Rowan Jacobsen, *The Living Shore: Rediscovering a Lost World* (New York: Bloomsbury, 2009), 117.
- (31) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 289, 293, 331.
- (32) Simon Winchester, *Atlantic: Great Sea Battles, Heroic Discoveries, Titanic Storms, and a Vast Ocean with a Million Stories* (New York: HarperCollins, 2010), 56–59.

- (33) Curtis W. Marean et al., "Early Human Use of Marine Resources and Pigment in South Africa during the Middle Pleistocene," *Nature* 449 (2007): 905–8. Curtis W. Marean, "The African Evidence for the Origins of Modern Human Behavior," Nobel Lecture, Gustavus Augustus College, 2008, <https://gustavus.edu/events/nobelconference/2008/marean-lecture.php>.
- (34) Robert Walker et al., "Early Human Occupants of the Red Sea Coast of Eritrea during the Last Interglacial," *Nature* 405 (May 4, 2000): 65–69; Marean, "African Evidence."
- (35) Wells, *Journey of Man*, 99:
- تشير الأبحاث الأخيرة حول اكتشافات الأدوات الصخرية المؤرخة إلى 127 ألف سنة مضت في شبه الجزيرة العربية إلى أن بعض كائنات الهوموسابيان لربما قد انطلقوا لمسافة أبعد من منطقة الشرق قبل أن يهتفوا من الحياة.
- "Findings Hint at Early Exit for Humans from Africa," *New York Times*, January 28, 2011, A4.
- (36) Walker et al., "Early Human Occupants of the Red Sea Coast," 69; Nicolas Wade, *Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors* (New York: Penguin, 2009), chap. 5; Wells, *Journey of Man*, 80.
- (37) Wells, *Journey of Man*, 68–76; Jacobsen, *Living World*, 108; Koppel, *Lost World*, xiii–xiv; Jon M. Erlandson et al., "The Kelp Highway Hypothesis: Marine Ecology, the Coastal Migration Theory, and the Peopling of the Americas," *Journal of Island and Coastal Archaeology* 2 (2007): 161–74.
- (38) Jacobsen, *Living World*, 113–15.
- (39) Robert Van de Noort and Aidan O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology* (London: Duckworth, 2006), chaps. 2–3; Brian M. Fagan, *Ancient North America: The Archaeology of a Continent* (London: Thames and Hudson, 1991), 72–73; Erlandson et al., "Kelp Highway," 170–71.
- (40) Jacobsen, *Living World*, 96–97; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 296–98.
- (41) Jacobsen, *Living World*, 96–97; Palsson, *Coastal Economics*, 52–53.

- (42) William J. Mitsch and James Gosselink, *Wetlands*, 3rd ed. (New York: John Wiley, 2000), 3; Karin Sanders, *Bodies in the Bog and the Archaeological Imagination* (Chicago: University of Chicago Press), 2009.
- (43) Bryony Coles and John Coles, *People of the Wetlands: Bogs, Bodies, and Lake Dwellers* (London: Thames and Hudson, 1989), chap. 2; Van de Noort and O'Sullivan, introduction to *Rethinking Wetland Archaeology*; V. Gaffney, S. Fitch, and D. Smith, *Europe's Lost World: The Rediscovery of Doggerland* (York, UK: Council for British Archaeology, 2009), 135–38.
- (44) Gaffney, Fitch, and Smith, *Europe's Lost World*, 66; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 304.
- (45) Grahame Clark, *Starr Carr: A Case Study in Bioarchaeology* (Reading, MA: Addison Wesley), 1972.
- (46) Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 728; Kennett, *Island Chumash*, 15.
- (47) *Ibid.*
- (48) Dorothy B. Vitaliano, *Legends of the Earth: Their Geologic Origins* (Bloomington: Indiana University Press, 1973), chap. 7; Nancy J. Turner, Iaian J. Davidson-Hunt, and Michael O'Flaherty, "Living on the Edge: Ecological and Cultural Edges as Sources of Diversity for Social-Ecological Resilience," *Human Ecology* 31, no. 2 (September, 2001): 454–55; Van de Noort and O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology*, 70–75; Tony Pollard, "Time and Tide: Coastal Environments, Cosmology and Ritual Practice in Early Prehistoric Scotland," in *The Early Prehistory of Scotland*, ed. Tony Pollard and Alexi Morrison (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1996), 198–210.
- (49) Dieter Gerten, "How Water Transcends Religion and Epochs: Hydrolatry in Early European Religion and Christian Syncretism," in *A History of Water*, ser. 2, vol. 1, ed. Terje Tvedt and Terje Oestigaard (London: I. B. Tauris, 2010), 323–42; Van de Noort and O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology*, chap. 2; Sanders, *Bodies in the Bog*.
- (50) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 332.
- (51) Turner, Davidson-Hunt, and O'Flaherty, "Living on the Edge," 454–55.

- (52) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 323–34; Koppel, *Lost World*, 11, 213, 256; Jacobsen, *Living Shore*, 107–9; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 453–57, 727.
- (53) John Noble Wilford, "On Crete, New Evidence of Very Ancient Mariners," *New York Times*, February 16, 2010, D1; Christian, *Maps of Time*, 181.
- (54) Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 730.
- (55) Mitsch and Gosselink, *Wetlands*, chaps. 1, 3; Van de Noort and O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology*, 36; Kennett, *Island Chumash*, chap. 2; Jacobsen, *Living Shore*, 42–47; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 734; Barry Cunliffe, *Europe between the Oceans: Themes and Variations, 9000 BC–AD 1000* (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 62–70.
- (56) Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 71, 272–30.
- (57) Christian, *Maps of Time*, 185–87.
- (58) Jacobsen, *Living Shore*, 98, 110.
- (59) Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 71; Pálsson, "Hunters and Gatherers," 198–202.
- (60) Kennett, *Island Chumash*, 24, and chap. 5; Ellen, "Modes of Subsistence," 205–6.
- (61) Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 89–139; Van de Noort and O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology*, 76, 99.
- (62) Anna Ritchie, "The First Settlers," in *The Prehistory of Orkney*, ed. Colin Renfrew (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1985), 52; Pollard, "Time and Tide," 203–6.
- (63) V. Gordon Childe, *Skara Brae: A Pictish Village in Orkney* (London: Kegan Paul, French, Trubner, 1931), 2; D. V. Clarke and Niall Sarples, "Settlement of Subsistence in the Third Millennium BC," in *The Prehistory of Orkney*, ed. Colin Renfrew (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1985), 81, 184.
- (64) David Clarke and Patrick Maguire, *Skara Brae: Northern Europe's Best Preserved Neolithic Village* (Edinburgh: Historic Scotland, 2000), 27–29.
- (65) Robert Tignor et al., *Worlds Together, Worlds Apart: A History of the World* (New York: W. W. Norton, 2008), 1:20; Jacobsen, *Living Shore*, 128.

الفصل الثاني

- (1) Plato, *Phaedo*, trans. David Gallop (Oxford: Clarendon, 1975), 108c.
- (2) Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II* (New York: Harper and Row, 1972), 1:103.
- (3) Rachel L. Carson, *The Sea around Us* (New York: Oxford University Press, 1951), 3.
- (4) Jonathan Raban, *Coasting: A Private Voyage* (New York: Penguin, 1988), 25.
- (5) Felipe Fernandez-Armesto, *Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature* (New York: Free Press, 2001), chap. 7; Peregrine Horden and Nicholas Pruce, "The Mediterranean and 'the New Thalassocracy,'" *American Historical Review* 111, no. 3 (June 2006): 722–40.
يمكن الاطلاع كذلك على المعلومات عن الإمبراطورية البحرية في «ويكيبيديا»: <http://en.wikipedia.org/wiki/>
- (6) Fernandez-Armesto, *Civilizations*, 412.
- (7) Michael Pearson, *The Indian Ocean* (London: Routledge, 2003), 3.
- (8) Robert Walker et al., "Early Human Occupation of the Red Sea Coast of Eritrea during the Last Interglacial," *Nature* 405 (May 4, 2000): 65–69; Ian Tattersall, *The World from Beginnings to 4000 BCE* (New York: Oxford University Press, 2008), 56, 67, 91; Rainer Buschmann, *Oceans in World History* (Boston: McGraw-Hill, 2007), 12–14.
- (9) Pearson, *Indian Ocean*, 50–51.
- (10) *Ibid.*, 47; K. N. Chauduri, *Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from Islam to 1750* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 14–15; Michael Pearson, "Emulating the Mudskipper [*Periophthalmus kroelreuteri*]: Toward an Amphibious History," paper delivered at the meetings of the American Historical Association, San Diego, January 10, 2010, ms. 11–12.
- (11) Pearson, *Indian Ocean*, 60.
- (12) *Ibid.*, 62.
- (13) Nola Cooke and Lia Tana, eds., *Water Frontier: Commerce and the Chinese in the Lower Mekong Region, 1750–1880* (London: Rowman and Littlefield, 2004), 1–17.

- (14) Buschmann, *Oceans in World History*, 76–77.
- (15) Nicholas Wade, *Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors* (New York: Penguin, 2006), 74–75.
- (16) Patrick D. Nunn, *Vanished Islands and Hidden Continents of the Pacific* (Honolulu: University of Hawaii Press, 2009), v.
- (17) Walter Grainge White, *the Sea Gypsies of Malaya* (Philadelphia: Lippincott, 1922), 58–60; Wade, *Before the Dawn*, 74–75.
- (18) Astrid Lindenlauf, “The Sea as a Place of No Return in Ancient Greece,” *World Archaeology* 35, no. 3 (2003): 421; Barry Cunliffe, *Europe between the Oceans: Themes and Variations, 8000 BC–AD 1000* (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 61.
- (19) David Abulafia, introduction to *The Great Sea: A Human History of the Mediterranean* (Oxford: Oxford University Press, 2011); Peregrine Horden and Nicholas Purcell, *The Corrupting Sea: A Study of Mediterranean History* (Oxford: Blackwell, 2000), 133; Lindenlauf, “Sea as a Place of No Return,” 417.
- (20) H. C. Darby, “The Medieval Sea-State,” *Scottish Geographical Magazine* 48, no. 3 (May 16, 1932): 136, 146.
- (21) Fernandez-Armesto, *Civilizations*, 384; Pedrag Matvejevic, *Mediterranean: A Cultural Landscape* (Berkeley: University of California Press, 1990), 7, 10–11; Jonathan Raban, *Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings* (New York: Vintage, 1999), 95, 106.
- (22) Horden and Purcell, *Corrupting Sea*, 11, 133; Tim Ingold, *Lines: A Brief History* (London: Routledge, 2007), 76–9, 152; John R. Gillis, *Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 61–64.
- (23) Ingold, *Lines*, 76–79, 152.
- (24) Margaret Deacon, *Scientists and the Sea, 1650–1900: A Study in Marine Science* (London: Academic Press, 1971), 11.
- (25) Braudel, *the Mediterranean and the Mediterranean World*, 161.
- (26) *Ibid.*, 109–15.
- (27) Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 89–99; 270–76; Horden and Purcell, *Corrupting Sea*, 134.

- (28) Herodotus, quoted in Wolfgang Rudolf, *Harbor and Town: A Maritime Cultural History* (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), 9;

أدين بهذه الفكرة إلى مايكل بيرسون.

- (29) Quoted from Plato's *Laws*, 4, cited in Steven Mentz, "Toward a Blue Cultural Studies: The Sea, Maritime Culture, and Early Modern English Literature," *Literature Compass* 6, no. 5 (2009): 998; Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 416-33; Wallace Kaufman and Orrin H. Pilkey, *The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline* (Durham, NC: Duke University Press, 1983), 152; Rudolf, *Harbor and Town*, 23-26.
- (30) Robert D. Foulke, "Odysseus's Oar: Archetype of Voyaging," in *Maritime History as World History*, ed. Daniel Finamore (Gainesville: University Press of Florida, 2004), 184; Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World*, 104; Alain Corbin, *The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750-1840* (Berkeley: University of California Press, 1994), 12.
- (31) Denis Cosgrove, "Island Passages," in *Bridging Islands: The Impact of Fixed Links*, ed. G. Baldacchino (Charlottetown, PEI, Canada: Acorn, 2007), 17-19: on the notion of "inside-out" geography, see Horden and Purcell, *Corrupting Sea*, 133.
- (32) Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World*, 115-26: on varieties of Mediterranean peninsulas, see Matvejevic, *Mediterranean*, 20-21.

(33) انظر:

archipelago في Oxford English Dictionary.

- (34) Gillis, *Islands of the Mind*, chaps. 3, 5.
- (35) *Ibid.*, 9, and chaps. 3, 5; Horden and Purcell, *Corrupting Sea*, 134; Cosgrove, "Island Passages," 20-21.
- (36) Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World*, 160-61; Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 3-5.
- (37) Horden and Purcell, *Corrupting Sea*, 11.
- (38) Cunliffe, *Europe between the Oceans*, chaps 3-5.
- (39) Christopher Connery, "There Was No More Sea: The Suppression of the Ocean, from Bible to Cyberspace," *Journal of Geographical History*

- 32 (2006): 499–506; quote from Hesiod from Samuel Eliot Morison, *The European Discovery of America: The Northern Voyages, A.D. 500–1600* (New York: Oxford University Press, 1992), 4.
- (40) Matvejevic, *Mediterranean*, 17; Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 258–64; Francis Pryor, *Seahenge: A Quest for Life and Death in Bronze Age Britain* (London: Harper Perennial, 2001), 140, 214; Cunliffe, *Facing the Ocean*, 10.
- (41) Alan Villiers, *The Western Ocean: The Story of the North Atlantic* (London: Museum Press, 1957), 13; Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 31, 38; Michal Mollet de Jourdon, *Europe and the Sea* (Oxford: Blackwell, 1993), 4; V. Gaffney, S. Fitch, and D. Smith, *Europe's Lost World: The Rediscovery of Doggerland* (York, UK: Council for British Archaeology, 2009).
- (42) David Kirby and Merja-Liisa Hinkanen, *The Baltic and the North Sea* (London: Routledge, 2000), 28–30; Cunliffe, *Facing the Ocean*, 31, 48; Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 72–80.
- (43) Cunliffe, *Europe between the Oceans*, 138–39; Cunliffe, *Facing the Ocean*, 17, 136–38; Pryor, *Seahenge*, 68–69.
- (44) Cunliffe, *Facing the Ocean*, 29–31, 138.
- (45) Kirby and Hinkanen, *the Baltic and the North Sea*, 23.
- (46) Cunliffe, *Facing the Ocean*, 34–35; Jonathan M. Wooding, *Communications and Commerce along Western Seaways* (Oxford: *Tempvs Repartivm*, 1996); Nils Stora, "Landscape, Territory, Autonomy, and Regional Identity: The Aland Islands in Cultural Perspective," in *Nordic Landscapes: Region and Belonging on the Northern edge of Europe*, ed. Michael Jones and Kenneth Olwig (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2008), 446; Darby, "Medieval Sea-State," 139.
- (47) Darby, "Medieval Sea-State," 148–49; Lauren Burton, *A Search for Sovereignty: Law and Geography in European Empires, 1400–1900* (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), chaps 1, 3.
- (48) Cunliffe, *Europe between the Oceans* 56; Gillis, *Islands of the Mind*, 47–51.
- (49) Christian Buchet, *The Eternal Sea* (New York: Abrams, 2006), 9; Cunliffe, *Facing the Ocean*, 9.

- (50) Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 421; Karin Sanders, *Bodies in the Bog and the Archaeological Imagination* (Chicago: University of Chicago Press, 2009); Robert van de Noorte, "An Ancient Seascape: The Social Context of Seafaring in the Early Bronze Age," *World Archaeology* 35, no. 3 (2003): 404–15; Gillis, *Islands of the Mind*, 40; Paul Rainbird, "Islands of Time: Toward a Critique of Island Archaeology," *Journal of Mediterranean Archaeology* 12, no. 2 (1999): 216–34; Matvejevic, *Mediterranean*, 17.
- (51) Matvejevic, *Mediterranean*, 17; Cunliffe, *Facing the Ocean*, 30–32; David Thomson, *The People of the Sea: A Journey in Search of the Seal Legend* (London: Barrie and Rockliffe, 1965); also "Selkie," <http://en.wikipedia.org/wiki/Selkie>.
- (52) Dorothy Dinnerstein, *The Mermaid and the Minotaur: Sexual Arrangements and Human Malaise* (New York: Harper and Row, 1976), 2; Christer Westerdahl, "Seal on Land, Elk at Sea: The Ritual Landscape at the Seaboard," *International Journal of Nautical Archaeology* 34, no. 1 (2005): 2–23.
- (53) Richard Ellis, *Monsters of the Sea* (New York: Alfred A. Knopf, 1995), 375; Yi-Fu Tuan, *Landscapes of Fear* (New York: Pantheon, 1979), 10; Corbin, *Lure of the Sea*, chap. 1.
- (54) Ellis, *Monsters of the Sea*, 77–107, 372–76; Harriet Ritvo, *The Platypus and the Mermaid and Other Figments of Classifying Imagination* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), 89, 183.
- (55) Colin Renfrew, *Prehistory: The Making of the Human Mind* (New York: Modern Library, 2009), 120–33; Paul Rainbird, *The Archaeology of Islands* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), 12–15; Curtis Marean et al., "Early Human Use of Marine Resources and Pigment in South Africa during the Middle Pleistocene," *Nature* 449 (October 18, 2007): 905–8; Cunliffe, *Facing the Ocean*, 31, 362; Gillis, *Islands of the Mind*, 28.
- (56) Charles Westin, "The Region and Its Landscapes," in *The Baltic Sea Region: Cultures, Politics, Societies*, ed. Eitold Maciejewski (Uppsala, Sweden: Baltic University Press, 2002), 137–34; Zbigniew Kobylinski, "Ships, Society, Symbols, and Archaeologists," in *The Ship: A Symbol of Prehistoric and Medieval Scandinavia*, ed. Ole Crumlin-Pederson and Birgitte Murch Thye (Copenhagen: National Museum, 1995),

9-18; Chris Ballard et al., "The Ship as Symbol in the Prehistory of Scandinavia and Southeast Asia," *World Archaeology* 35, no. 3 (2003): 385-403; Gunilla Larsson, *Ship and Society: Maritime Ideology in Late Iron Age Sweden* (Uppsala, Sweden: Department of Archaeology and Ancient History, 2007), 382.

(57) Larsson, *Ship and Society*, 254-57, 296-98.

(58) Dan Carlsson, "Harbors and Farms on Gotland," in *Europeans or Not: Local Level Strategies on the Baltic Rim*, ed. Nils Blankrist and Sven-Olaf Lindquist (Visby, Sweden: Centre for Baltic Studies, 1998), 115-21; in *Vikings: The North Atlantic Saga*, ed. William Fitzhugh and Elizabeth Ward (Washington, DC: Smithsonian, 2000), chap. 2.

(59) Kirsten Hastrup, "Icelandic Topography and Sense of Identity," in *Nordic Landscapes: Region and Belonging on the Northern Edge of Europe*, ed. Michael Jones and Kenneth Olwig (Minneapolis: Minnesota University Press, 2008), 55; Simon Winchester, *Atlantic: Great Sea Battles, Heroic Discoveries, Titanic Storms, and a Vast Ocean of a Million Stories* (New York: HarperCollins, 2010), 79.

(60) مقتبسة في Magnus Magnusson and Hermann Pálsson، مقدمة لكتاب:

The Vinland Sagas: The Norse Discovery of America (London: Penguin, 1965), 15.

(61) Hastrup, "Icelandic Topography and Sense of Identity," 59.

(62) *Ibid.*; on this process, see James Hamilton-Paterson, *The Great Deep: The Sea and Its Thresholds* (New York: Random House, 1992), 67.

الفصل الثالث

(1) T.S. Eliot, "The Dry Salvages," *The Four Quartets* (New York: Harcourt, Brace and Jovanovich, 1943), 36.

(2) The concept of "rimland" is Felipe Fernandez-Armesto's. See his *Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature* (New York: Free Press, 2001), 309-15.

(3) Robert J. Hoeksema, *Designed for Dry Feet: Flood Protection and Land Restoration in the Netherlands* (Reston, VA: American Society of Civil Engineers, 2006), chap. 1; Basil B. Cracknell, *Outrageous Waves: Global Warming and Coastal Change in Britain through Two*

- Thousand Years (Chichester, UK: Phillimore, 2005), preface; David Kirby and Meja-Liisa Hinkkanen, *The Baltic and the North Sea* (New York: Routledge, 2000), 24; Hubert Lamb, *Historic Storms of the North Sea, British Isles, and Northwest Europe* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), 17.
- (4) V. Gordon Childe, *Ancient dwellings at Skara Brae* (Edinburgh: Her Majesty's Stationery Office, 1950), 6–7; Lamb, *Historic Storms*, 19–20; Kirby and Hinkkanen, *The Baltic and the North Sea*, 25.
- (5) Hans Meyer, *City and Port: Urban Planning as a Cultural Venture in London, Barcelona, New York, and Rotterdam* (Rotterdam: International Books, 1999).
- (6) Kirby and Hinkkanen, *The Baltic and the North Sea*, 24; Hoeksema, *Designed for Dry Feet*, 10–11.
- (7) H. C. Darby, *The Draining of the Fens* من توصيف للعام 1610 مقتبس في أنظر كذلك كتاب: (Cambridge: Cambridge University Press, 1956).
- Robert Van de Noort and Aidan O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology* (London: Duckworth, 2006), 77–78.
- (8) Darby, *Draining of the Fens*, 56, 90.
- (9) Van de Noort and O'Sullivan, *Rethinking Wetland Archaeology*, 78; Young in 1799, quoted in Darby, *Draining of the Fens*, 154; Patrick Sutherland and Adam Nicolson, *Wetland: Life in the Somerset Levels* (London: Michael Joseph, 1986), 7–8. In the Fenlands, the Isle of Ely
- تقدم مثال آخر للشيء ذاته.
- (10) Sutherland and Nicolson, *Wetland*, 23; Wolfgang Rudolph, *Harbor and Town: A Maritime Cultural History* (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), 12–14.
- (11) Barry Cunliffe, *Facing the Ocean: The Atlantic and Its Peoples, 8000 BC–AD 1500* (New York: Oxford University Press, 2001), 553.
- (12) John Dyson, *Business in Great Waters: The Story of British Fishermen* (London: Angus and Robertson, 1978), 35–41; Bonnie McCay, "The Culture of Commoners: Historical Observation on Old and New World Fisheries," in *The Question of the Commons: The Culture and Ecology of Communal Resources*, ed. B. McCay and James Acheson (Tucson: University of Arizona Press, 1987), 196–201.

- (13) Cunliffe, *Facing the Ocean*, 543; John R. Gillis, *Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 27–28; Kirby and Hinkanen, *The Baltic and the North Sea*, 59.
- (14) Orvar Lofgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in some Northern Atlantic Regions," in *Modernization and Marine Fisheries Policy*, ed. John Maolo and Michael Orband (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 154; Liv Schei and Gunnie Moberg, *The Orkney Story* (London: n.p., 1985), 147; Harold Fox, *The Evolution of the Fishing Village* (Oxford: Leopard's Head Press, 2001), chaps 2–3.
- (15) Fox, *Evolution of the Fishing Village*, 35.
- (16) *Ibid.*; Lofgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling," 155–76; M. A. Herubel, *Peches maritimes* (Paris, 1911), quoted in Harold A. Innis, *The Cod Fisheries: The History of an International Economy*, rev. ed. (Toronto: University of Toronto Press, 1978), 494.
- (17) Steve Higgonson and Tony Wailey, *Edgy Cities* (Liverpool: Northern Lights, 2006), 68; Paul Thompson, Tony Wailey, and Trevor Lummis, *Living the Fishing* (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 12–13.
- (18) Gisli Palsson, *Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Dis- course* (Manchester: Manchester University Press, 1991), 29–31; Kirby and Hinkanen, *The Baltic and the North Sea*, 186–87; John R. Gillis, *Youth and History: Tradition and Change in European Age Relations, 1770–Present* (New York: Academic Press, 1974), chap. 1.
- (19) Thompson, Wailey, and Lummis, *Living the Fishing*, 4–14; W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northwest Atlantic, 1500–1800," *American Historical Review* 113, no. 1 (February 2008): 46.
- (20) Richard C. Hoffmann, "Economic Development and Aquatic Ecosystems in Medieval Europe," *American Historical Review* 101, no. 3 (June 1996): 633; on evidence of recreational fishing, see Richard Hoffmann, *Fisher's Craft and Lettered Art: Tracts on Fishing from the End of the Middle Ages* (Toronto: University of Toronto Press, 1997); quote from Callum Roberts, *The Unnatural History of the Sea* (Washington, DC: Island, 2007), 159.

- (21) Roberts, *Unnatural History of the Sea*, 636–42.
- (22) Mark Kurlansky, *Cod: A Biography of the Fish That Changed the World* (New York: Walker, 1997), 24.
- (23) Bolster, “Putting the Ocean in Atlantic History,” 26–29.
- (24) Roberts, *Unnatural History of the Sea*, chap. 2; quotation from *ibid*, 33.
- (25) Bolster, “Putting the Ocean in Atlantic History,” 26.
- (26) Innis, *Cod Fisheries*, chaps. 3–6; Gerald M. Sider, *Culture and Class in Anthropology and History: A New Foundland Illustration* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), 14–15.
- (27) Lewes Roberts, *Merchants Mapped of Commerce* (London, 1638), quoted in Peter Pope, *Fish into Wine: The Newfoundland Plantation in the Seventeenth Century* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2004), 234.
- (28) Elizabeth Mancke, “Spaces of Power in the Early Modern Northeast,” in *New England and the Maritime Provinces*, ed. Stephen J. Hornsby and John G. Reid (Montreal: McGill-Queens University Press, 2005), 32–33; D. H. Meinig, *The Shaping of America* (New Haven, CT: Yale University Press, 1986), 1:81.
- (29) *An Account of the Island of Prince Edward by a Late Resident of that Colony* (London: James Aspeare, 1819), 14; Rosemary E. Ommmer, *From Outpost to Outport: A Structural Analysis of the Jersey-Gaspe Cod Fishery, 1767–1886* (Montreal: McGill-Queen’s University Press, 1991), chap. 2.
- (30) Roberts, *Merchants Mapped of Commerce*, 83–87; Bolster, “Putting the Ocean in Atlantic History,” 32–35.
- (31) Roberts, *Merchants Mapped of Commerce*, 99–113, 159.
- (32) Elizabeth Mancke, “Early Modern Expansion and the Politicization of Oceanic Space,” *Geographical Review* 89 (April 1998): 225–34.
- (33) Lauren Benton, *A Search for Sovereignty: Law and Geography in European Empires, 1400– 1900* (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), chaps. 1–4; quote from James E. Vance, *Capturing the Horizon: The Historical Geography of Transportation* (New York: Harper and Row, 1986), 102.
- (34) G. Malcolm Lewis, “Native North Americans’ Cosmological and Geographical Awareness: Their Representations and Influence on

- Early European Exploration and Geographical Knowledge,” in *North American Explorations*, ed. John L. Allen (Lincoln: University of Nebraska Press, 1997), 1:81–82; Harold Prins, “Children of Gluskap: Wabanaki Indians on the Eve of European Invasion,” in *American Beginnings: Exploration, Culture, and Cartography in the Land of Norumbega*, ed. Emerson W. Baker et al. (Lincoln: University of Nebraska Press, 1994), 75.
- (35) John Stilgoe, “Archipelago Landscape,” in *Visions of America: Landscape as Metaphor in the Late Twentieth Century* (New York: Harry M. Abrams, 1994), 74; Wilcomb E. Washburn, “The Intellectual Assumptions and Consequences of the Geographical Exploration of the Pacific,” in *The Pacific Basin*, ed. H. Frits (New York: American Geographical Society, 1967), 327–28.
- (36) Meinig, *Shaping of America*, 1:58; Benton, *Search for Sovereignty*, 46–50.
- (37) Washburn, “Intellectual Assumptions and Consequences”; Douglas H. McManis, *European Impressions of the New England Coast, 1497–1620*, Research Paper 139 (Chicago: University of Chicago Department of Geography, 1972), 37–38; James Gibson, “The Exploration of the Pacific Coast,” in *North American Exploration*, ed. John L. Allen (Lincoln: University of Nebraska Press, 1997), 2:328–96; James D. Drake, *The Nation’s Nature: How Continental Pre- sumptions Gave Rise to the United States of America* (Charlottesville: University of Virginia Press, 2011).
- (38) Stephen J. Pyne, *How the Canyon Became Grand: A Short History* (New York: Viking, 1998), 5; Pedrag Matvejevic, *Mediterranean: A Cultural Landscape* (Berkeley: University of California Press, 1990), 16; John F. Roberts, *The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World* (Berkeley: University of California Press, 2005), 7.
- (39) Gillis, *Islands of the Mind*, 87–92; Donna Merwick, *The Shame and the Sorrow: Dutch- American Encounters in New Netherlands* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), 53, 28, 53, 88–89, 93.
- (40) Dan G. Kelley, *Edge of a Continent: The Pacific Coast from Alaska to Baja* (Palo Alto, CA: American West, 1971), 272.
- (41) Meinig, *Shaping of America*, 62, 65, 88.

(42) Ibid., 65.

(43) فكرة نقل المواشي البحرية تعود إلى

Rosemary Ommer's. Rosmary E. Ommer, "Rosie's Cove: Settlement Morphology, History, Economy, and Culture in a Newfoundland Outport," in *Fishing Places, Fishing People: Tradition and Issues in Canadian Small-Scale Fisheries*, ed. Dianne Newall and R. Ommer (Toronto: University of Toronto Press, 1994), 23; Pope, *Fish into Wine*, 251; Mancke, "Spaces of Power," 35.

(44) Innis, *Cod Fisheries*, chaps. 1–4; Sider, *Culture and Class in Anthropology and History*, chap. 2; Joseba Zulaika, *Terranova: The Ethos and Luck of Deep-Sea Fishermen* (Philadelphia: Institute for the Study of Human Issues, 1981), 34.

(45) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 32–33; Mancke, "Spaces of Power," 36–37.

(46) William Cronon, *Changes in the Land: Indians, Colonists, and the Ecology of New England* (New York: Hill and Wang, 1983), 37, 39, 51, 53.

(47) Ibid., 37; Charles C. Mann, *1491: New Revelations of the Americas before Columbus* (New York: Alfred A. Knopf, 2005), chap. 2.

(48) Robert Swan, *Coast, the Sea, Canadian Art* (Stratford, ON: Gallery, 1978); John Stilgoe, *Alongshore* (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), ix; Benjamin Labaree et al., *America and the Sea: A Maritime History* (Mystic, CT: Mystic Seaport Museum, 1998), 4.

(49) Walter Prescott Webb, *The Great Frontier* (Austin: University of Texas Press, 1975), 2, 7–21; for a comprehensive survey of extractive frontiers,

من أجل مسح شامل للحدود المقتطفة، انظر:

John F. Richards, *The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World* (Berkeley: University of California Press), 2005.

(50) Cronon, *Changes in the Land*, chaps. 1, 3.

(51) John Smith, *A Description of New-England*, by Captain John Smith, in *The Complete Works of Captain John Smith, 1550–1631*, ed. Philip L. Barbour (Chapel Hill: University of North Carolina Press,

- 1986), 1:331, 333, 335, 347; Roberts, *Unending Frontier*, 33; Cronon, *Changes in the Land*, 22; Jonathan Raban, *Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings* (New York: Vintage, 1999), 62–63.
- (52) Roberts, *Unending Frontier*, 33; Cronon, *Changes in the Land*, 22; Raban, *Passage to Juneau*, 62–36.
- (53) حول الطرق المتعددة التي تغيرت من خلالها البيئة الأمريكية قبل وصول الأوروبيين بزمان طويل، انظر Mann, 1491، عندما قتلت الأوبئة المنقولة عن طريق الأوروبيين 95 في المائة من الشعب الأمريكي الهندي، ما أدى إلى حدوث عملية إعادة تحريج ضخمة، حلت فترة باردة خلال ذلك الوقت كانت تعرف باسم العصر الجليدي الأصغر.
- Lecture by Richard Nevle, Geography Department, University of California at Berkeley, February 16, 2011; Rowan Jacobsen, *The Living Shore: Rediscovering a Lost World* (New York: Bloomsbury, 2009), 3–12.
- (54) M. J. Bowden, “The Invention of American Tradition,” *Journal of Historical Geography* 18, no. 1 (1992): 3–12; Bolster, “Putting the Ocean in Atlantic History,” 36; W. Jeffrey Bolster, “Opportunities in Marine Environmental History,” *Environmental History* 11 (July 2006): 567–97; Geoff Bailey et al., “Historical Ecology of the North Sea Basin,” in *Human Impacts on Ancient Marine Ecosystems*, ed. Torben Rich and Jon Erlandson (Berkeley: University of California Press, 2008), 215–42; J. B. C. Jackson, “What Was Natural in the Coastal Oceans,” *Proceedings of the National Academy of Sciences* 98 (2001): 5411–18; J. B. C. Jackson et al., “Historical Overfishing and Recent Collapse in Coastal Ecosystems,” *Science* 243 (2001): 629–39; Michael Pauly and Jay MacLean, *In a Perfect Ocean: The State of Fisheries and Ecosystems in the North Atlantic Ocean* (Washington, DC: Island, 2003), 15–16.
- (55) Joseph E. Taylor, *Making Salmon: An Environmental History of the Northwest Fisheries Crisis* (Seattle: University of Washington Press, 1999), chap. 1. On Icelanders’ view that fish determined the fate of humans, see Gisli Palsson, *Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse* (Manchester: Manchester University Press, 1991), 129, 162.
- (56) Arthur F. McEvoy, *The Fisherman’s Problem: Ecology and Law in the California Fisheries, 1850–1980* (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), chap. 2.

- (57) Ommer, "Rosie's Cove," 116; Hugo Grotius, *Mare Librum* (1608), quoted in Philip Steinberg, *The Social Construction of the Ocean* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 92; Mancke, "Spaces of Power," 32–49.
- (58) Cronon, *Changes in the Land*, 38, 53; on Maine Indians, see Philip P. Conkling, *Islands in Time: A Natural and Cultural History of the Islands of the Gulf of Maine*, 2nd ed. (Camden, ME: Down East Books, 1999), chap. 1; Bunny McBride and Harold E. L. Prins, *Indians in Eden: Wabanakis and Rusticators on Maine's Mount Desert Islands, 1840s–1920s* (Rockland, ME: Down East Books, 2009), 1–5.
- (59) Gerald C. Pocious, *A Place to Belong: Community, Order, and Everyday Space in Newfoundland* (Athens: University of Georgia Press, 1991), 200; Robert Mellin, *House Launching, Slide Hauling, Potato Trenching, and other Tales from a Newfoundland Fishing Village* (New York: Princeton Architectural, 2003); Robert Finch, *The Primal Place* (Woodstock, VT: Countryman, 1983), 100.
- (60) Samuel Eliot Morison, *The Maritime History of Massachusetts, 1783–1860* (Boston: Houghton Mifflin, 1921), 11; Daniel Vickers with Vince Walsh, *Young Men and the Sea: Yankee Sea-farers in the Days of Sail* (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 11; Joseph Reynolds, Peter Gott, *the Cape Ann Fisherman* (Boston: Jewett, 1956), 128; W. H. Bunting, *Portrait of a Port: Boston, 1852–1914* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), 2–4.
- (61) David Vickers, *Farmers and Fishermen: Two Centuries of Work in Essex County, Massachusetts, 1630–1850* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1994), 52–103; Reynolds, Peter Gott, 81; Bunting, *Portrait of a Port*, 6–7; Vickers and Walsh, *Young Men and the Sea*, 1–4.
- (62) Vickers, *Farmers and Fishermen*, 108–41, 252.
- (63) Alexis de Tocqueville, *Democracy in America* (New York: Alfred A. Knopf, 1945), 1:429.
- (64) Susan Parman, *Scottish Crofters: A Historical Ethnography of a Celtic Village* (Fort Worth, TX: Holt, Reinhart and Winston, 1990), 73; Pocious, *Place to Belong*, 79; Mellin, *House Launching*, 110; Robert Finch, *The Iambics of Newfoundland: Notes from an Unknown Shore* (Berkeley, CA: Counterpoint, 2007), 59.

- (65) Finch, *Iambics of Newfoundland*, 258; Eliot, "Dry Salvages," 36.
(66) Matvejevic, *Mediterranean*, 16; George Putz, *The Maine Coast (Secaucus, NJ: Chartwell Books, 1985)*, 25.

الفصل الرابع

- (1) Beryl Markham, *West with the Night* (San Francisco: North Point, 1983), 245.

(2) انظر مقدمة:

See Paul Carter, to *The Road to Botany Bay: An Exploration of Landscape and History* (New York: Alfred A. Knopf, 1981).

للبوسطنيين في 1800، كان «الساحل» هو الساحل الشرقي، حيث ركزوا عملياتهم التجارية.

Samuel Eliot Morison, *the Maritime History of Massachusetts, 1783–1860* (Boston: Houghton Mifflin, 1961), 53; Paul Carter, "Dark with Excess of Light," in *Mappings*, ed. Denis Cosgrove (London: Reaktion Books, 1999), 125–47.

(3) حدث سواحل نوفا سكوشا للعام 1863، مقتبس من:

Ian McKay, "Among the Fisherfolk: J. F. B. Livesay and the Invention of Peggy's Cove," *Journal of Canadian Studies / Revue d'études canadiennes* 27, nos. 1–2 (Spring 1988), 29–31; Alain Corbin, *The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840* (Berkeley: University of California Press, 1994), chap. 1; John R. Gillis, *Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 10–12; Shauna McCabe, *Lit- toral Documents* (Charlottetown, PEI: Confederation Centre Art Gallery, n.d.), 12.

- (4) Harold F. Wilson, *The Jersey Shore: A Social and Economic History of the Counties of Atlantic, Cape May, Monmouth and Ocean* (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), chaps. 2–3.
(5) Karl F. Nordstrom et al., *Living on the New Jersey Shore* (Durham, NC: Duke University Press, 1986), 4; Christopher Camuto, *Time and Tide in Acadia: Seasons on Mount Desert Island* (New York: W. W. Norton, 2009), 1; Henry David Thoreau, *The Maine Woods* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1972), 82; Donald W. Meinig, *The*

- Shaping of America: Atlantic America, 1492–1800 (New Haven, CT: Yale University Press, 1986), 57–65; James E. Vance, Capturing the Horizon: The Historical Geography of Transportation (New York: Harper and Row, 1986), 110; James Drake, The Nation's Nature: How Continental Presump- tions Gave Rise to the United States of America (Charlottesville: University of Virginia Press, 2011).
- (6) Vance, Capturing the Horizon, 102; David Hackett Fischer, Champlain's Dream (New York: Simon and Schuster, 2008), 105–226; Meinig, Shaping of America, 62.
- (7) Martin W. Lewis and Karen E. Wigen, The Myth of Continents: A Critique of Metageography (Berkeley: University of California Press, 1997), 24–28.
- حول موضوع الأراضي النائية، انظر:
<http://en.wikipedia.org/wiki/Hinterland>.
- (8) Camuto, Time and Tide in Acadia, 108; Carter, “Dark with Excess of Light,” 125–47; Mark Monmonier, Coastlines: How Mapmakers Frame the World and Chart Environmental Change (Chicago: University of Chicago Press, 2008), chap. 11.
- (9) Paul Shepard, Man in the Landscape: A Historic View of the Esthetics of Nature (New York: Alfred A. Knopf, 1967), 43; James Hamilton-Paterson, Seven Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions, 2009), 23, 59–60; Martin Lewis, “Dividing the Ocean Sea,” Geographical Review 89 (1999): 199–200.
- (10) Horace P. Beck, the Folklore of Maine (Philadelphia: Lippincott, 1957), chap. 1.
- (11) Roger Stein, Seascape and the American Imagination (New York: Clarkson N. Potter, 1975), 4–8, 16; John Wilmerding, A History of American Marine Painting (Boston: Little, Brown, 1968), chaps. 1–8; David Tatham, “Winslow Homer and the Sea,” in Winslow Homer in the 1890s: Prout's Neck Observed (New York: Hudson Hills, 1990), 81; John R. Gillis, “Artists on the Edge,” paper delivered at “Art, Islands, and Islomania,” Small Islands Cultures Research Initiative Conference, Guernsey, June 2010.
- (12) Carter, “Dark with Excess of Light,” 147.

- (13) Nathaniel Philbrick, *Mayflower: A Story of Courage, Community, and War* (New York: Penguin, 2006), chap. 5.
- (14) Alice Garner, *A Shifting Shore: Locals, Outsiders, and the Transformation of a French Fishing Town, 1823–2000* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 48–49; Carter, “Dark with Excess of Light,” 125–47; Monmonier, *Coastlines*, chap. 11; McCabe, *Littoral Documents*, 18; JeanDidier Urbain, *At the Beach* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 65.
- (15) Tim Ingold, *Lines: A Brief History* (London: Routledge, 2007), 152; William H. Bunting, *Portrait of a Port: Boston, 1852–1914* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), xvii.
- (16) Martin Jay, “Scopic Regimes of Modernity,” in *Vision and Visuality*, ed. Hal Foster (Seattle: Bay, 1988), 3–28.
- (17) Allan Sekula, *Fish Story* (Dusseldorf, Germany: Richter Verlag, 1995), 53–54; Paul Theroux, “The True Size of Cape Cod,” in *Fresh Air Fiend* (Boston: Houghton Mifflin, 2000), 148.
- (18) John R. Stilgoe, *Shallow Water Dictionary: A Grounding in Estuary English* (New York: Princeton Architectural, 2004), 54, 56.
- (19) John Brickerhoff Jackson, *Discovering the Vernacular Landscape* (New Haven, CT: Yale University Press, 1984), 14; Michael Pearson, “Littoral Society: The Concept and the Problem,” *Journal of World History* 17, no. 4 (December 2006): 356; David Kirby and Merja-Liisa Hinkamen, *The Baltic and the North Sea* (London: Routledge, 2000), 59.
- (20) Raymond Lewis, *Sea Coast Fortifications of the United States* (Washington, DC: Smithsonian Press, 1970); Christopher Somerville, *Coast: A Celebration of Britain’s Coastal Heritage* (London: BBC Books, 2005), 10; http://en.wikipedia.org/wiki/Martello_tower.
- (21) Margaret Cohen, “Modernity and the Waterfront: The Case of Hausmann’s Paris,” in *Urban Imaginations: Locating the Modern City*, ed. Alexis Cinvar and Thomas Bender (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2007), 68–69; Dirk Schubert, “Transformation Processes in Waterfronts in Seaport Cities—Causes and Trends between Divergence and Convergence,” in *Port Cities as Areas of Transition: Ethnographic Perspectives*, ed. Waltraud Kokot et al. (New Brunswick, NJ: Transaction Books, 2008), 25–46.

- (22) Kirby and Hinkamen, *The Baltic and the North Sea*, 76–81; see map of dog hole ports at Whaling Station Museum, Point Lobos State Reserve, Carmel, CA.
- (23) Kirby and Hinkamen, *The Baltic and the North Sea*, 82, 151; Fischer, *Champlain's Dream*, 112.
- (24) Warren Goeschenstein, *Historic American Towns along the Atlantic Coast* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999), 11–12; remark by R. G. F. Candage, master mariner, 1881, quoted in Bunting, *Portrait of a Port*, 56.
- (25) John Robert McNeill, *Atlantic Empires of France and Spain: Louisbourg and Havana, 1700– 1763* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1983), 17.
- (26) Donna Merwick, *The Shame and the Sorrow: Dutch-Amerindian Encounters in New Netherlands* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), chaps. 1–3, Bunting, *Portrait of a Port*, 2.
- (27) Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29; Hans Meyer, *City and Port* (Rotterdam: International Books, 1999), 21; Vance, *Capturing the Horizon*, 102.
- (28) Michael Reidy, *Tides of History: Ocean Science and Her Majesty's Navy* (Chicago: University of Chicago Press, 2008), 60–74.
- باليابانية، isu تعني ميناء، nami تعني موجة، انظر «تسونامي» في ويكيبيديا، بدأ استعمال المصطلح بالإنجليزية في بدايات القرن العشرين ليصبح أخيراً مادة للبحث العلمي، انظر «تسونامي» في:
- English Oxford Dictionary.
- (29) Quoted in Gillis, *Islands of the Mind*, 125.
- (30) Daniel Vickers with Vince Walsh, *Young Men and the Sea: Yankee Seafarers in the Age of Sail* (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 2–4, 28, 248–51.
- (31) Bunting, *Portrait of a Port*, 5; Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29; Cohen, "Modernity and the Waterfront," 63, 67.
- (32) Phillip Lopate, *Waterfront: A Walk around Manhattan* (New York: Random House, 2004), 15, 61; Meyer, *City and Port*, 33; Vickers and Walsh, *Young Men and the Sea*, 210; Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29, 43; Bunting, *Portrait of a Port*, 46, 451;

- Wolfgang Rudolf, *Harbor and Town: A Maritime Cultural History* (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), chap. 2; Isaac Land, *War, Nationalism, and the British Sailor, 1750–1850* (New York: Palgrave Macmillan, 2009), chaps. 1–4.
- (33) Mark Kurlansky, *The Big Oyster: History on the Half Shell* (New York: Ballantine Books, 2006), xvii.
- (34) Cohen, "Modernity and the Waterfront," 65; Herman Melville, *Moby-Dick* (New York: Barnes and Noble Books, 1993), 2.
- (35) Melville, *Moby-Dick*, 3, 4; T. S. Eliot, "The Dry Salvages," in *The Four Quartets* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1943), 36.
- (36) June Nadal-Klein, *Fishing the Heritage: Modernity and Loss along the Scottish Coast* (Oxford: Berg, 2003), 8; Vickers and Walsh, *Young Men and the Sea*, 28.
- (37) Paul Thompson, Tony Waily, and Trevor Lummis, *Living the Fishing* (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 9–13; Orvar Lofgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in Some North Atlantic Regions," in *Modernization and Marine Fisheries Policies*, ed. John Maiolo and Michael Orbach (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 151–55.
- (38) Lena Lencek and Gideon Bosker, *The Beach: The History of Paradise on Earth* (New York: Penguin, 1999), 82.
- (39) Harold Fox, *The Evolution of the Fishing Village* (Oxford: Leopold's Head, 2001), chap. 4; James Coull, "The Development of Fishing Communities with Special Reference to Scotland," in *Managing Britain's Marine and Coastal Environments: Towards a Sustainable Future*, ed. Horace D. Smith and Jonathan S. Potts (London: Routledge, 2005); Samuel Eliot Morison, *The Maritime History of Massachusetts, 1783–1860* (Boston: Houghton-Mifflin, 1931), 11–12.
- (40) Morrison, *Maritime History*; Jean-Didier Urbain, *At the Beach* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 49–51.
- (41) Thompson, Waily, and Lummis, *Living the Fishing*, 8–15; Daniel Vickers, *Farmers and Fishermen* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1994), 130–32; Vickers and Walsh, *Young Men and*

the Sea, 250; Thompson, Waily, and Lummis, 8-9; Sarah Orne Jewett, *The Country of the Pointed Firs and Other Fiction* (New York: Oxford University Press, 1996), 20-21; Rudolf, *Harbor and Town*, 113-40.

(42) Corbin, *Lure of the Sea*, 211-27.

(43) Land, War, Nationalism, and the British Sailor, 161-64.

(44) *Ibid*, 158; John R. Stilgoe, *Alongshore* (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), 310-18.

(45) المادة المكتوبة حول مناظر الطبيعة المتخيلة موجزة في:

John Urry, *Sociology beyond Societies: Mobilities for the Twenty-First Century* (London: Routledge, 2000), 137-38; Stilgoe, *Alongshore*, 319-33; Ian McKay, *The Quest for the Folk: Antimodernism and Cultural Selection in Twentieth Century Nova Scotia* (Montreal: McGill and Queen's University Press, 1994), chap. 4; Dona Brown, *Inventing New England: Regional Tourism and the Nineteenth Century* (Washington, DC: Smithsonian Press, 1995), 120-21; James Overton, *Making a World of Difference: Essays on Tourism, Culture, and Development in Newfoundland* (St. Johns, NL: Institute for Social and Economic Research, 1996), 111-15.

(46) Earle Shettleworth and W. H. Bunting, *An Eye on the Coast: The Maritime and Monhegan Island Photographs by Eric Hudson* (Gardiner, ME: Tilbury House, 1998), 94; Robert Swan, *Coasts, the Sea, Canadian Art* (Stratford, ON: Gallery, 1978), unpaginated; Garner, *Shifting Shore*, 94; Brown, *Inventing New England*, 120-33.

(47) Garner, *Shifting Shore*, 94, chap. 10.

حول استيلاء البيض على الهويات الأمريكية الأصلية في أمريكا القرن التاسع عشر، انظر:

Philip DeLoria, *Playing Indian* (New Haven, CT: Yale University Press), 1998.

(48) McKay, *Quest for the Folk*, 28; Douglas Pope, *DeGarthe: His Life, Marine Art, and Sulpture* (Hartspport, NS: Lancelot), 1989.

(49) McKay, *Quest for the Folk*, 39-41.

(50) Nadal-Klein, *Fishing the Heritage*, 171; Jan Goss, "Disquiet on the Waterfront: Reflection on Nostalgia and Utopia in Urban Archetypes of Festival Marketplaces," *Urban Geography* 17 (1966): 238.

- (51) McKay, "Among the Fisherfolk," 29; Urbain, At the Beach, 37; George H. Lewis, "The Maine That Never Was: The Construction of Popular Myth in Regional Culture," *Journal of American Culture* 16, no. 2 (Summer 1997): 95; McKay, *Quest for the Folk*, 250.
- (52) Rachel Carson, *the Sea around Us* (New York: Oxford University Press, 1951), 19; Reidy, *Tides of History*, 75-89.
- (53) Lord Curzon of Kedleston, *Frontiers: The Romanes Lecture of 1907* (Oxford: Clarendon, 1907), 13.
- (54) Alexis de Tocqueville, *Democracy in America* (New York: Alfred A. Knopf, 1945), 421-34; Denis Cosgrove, "Worlds of Meaning: Cultural Geography and the Imagination," in *Rereading Cultural Geography*, ed. Kenneth Foote et al. (Austin: University of Texas Press, 1994), 390-91; also Eric Leed, *The Mind of the Traveler: From Gilgamesh to Global Tourism* (New York: Basic Books, 1991), 19; Drake, *Nation's Nature*; John Seelye, *Memory's Nation: The Place of Plymouth Rock* (Chapel Hill: University of North Carolina Press), 1998.
- (55) John Whitehead, "Hawai'i: The First and Last Far West," *Western Historical Quarterly* 23, no. 2 (May 1992): 153-77; Jonathan Raban, *Coasting: A Private Voyage* (London: Penguin Books, 1987), 300-301.
- (56) Adrian Room, *Dictionary of Place Names in the British Isles* (London: Bloomsbury, 1988), 206, 216-17.

أود أن أشكر جري بريغن لسماحه لي بقراءة مقاله غير المنشور:

"Sacred Force: Ishi Meets the End of the Trail"

- (57) Gillis, *Islands of the Mind*, 13-14, 56; W. H. Hudson, *The Land's End: A Naturalist's Impression of West Cornwall* (London: J. M. Dent and Son, 1923), 52.
- (58) *Voyage Round Great Britain, undertaken in the summer of the Year 1813 and commencing from Land's-End, Cornwall by Richard Ayton and views by William Daniell* (London: Longman, Hurst, Rees, Orme and Brown, 1814), iv-2.
- (59) Hudson, *Land's End*, iii, 52; Fred Gray, *Designing the Seaside: Architecture, Society and Nature* (London: Reaktion Books, 2006), chap. 1.
- (60) Hudson, *Land's End*, 45.
- (61) *Ibid*, 299.

- (62) Ibid., 302; David Lowenthal, "Living with and Looking at Landscape," *Landscape Research* 32, no. 5 (October 2007): 643; Loren Baritz, "The Idea of the West," *American Historical Review* 66, no. 2 (April 1961): 637-40; Nathaniel Philbrick, foreword to *American Sea Writing: A Literary Anthology*, ed. Peter Neill (New York: Library of America, 2000), xv.

(63) مقتبس من:

John McKinney, *A Walk along Land's End: Discovering California's Unknown Coast* (New York: HarperCollins, 1995), VI; see http://en.wikipedia.org/wiki/Navies_of_landlocked_countries.

- (64) Paul Theroux, *the Kingdom by the Sea: A Journey around Great Britain* (Boston: Houghton- Mifflin, 1985), 5.

- (65) John Cheever, *The Wapshot Chronicle* (New York: Harper and Brothers, 1954), 188-89; McKinney, *Walk along Land's End*, 172; on beach glass, see Cornelia Dean, *Against the Tide: The Battle for America's Beaches* (New York: Columbia University Press, 1999), 238-39.

الفصل الخامس

- (1) Jonathan Raban, *Oxford Book of the Sea* (Oxford: Oxford University Press, 1992), 3.
- (2) Helen M. Rozwadowski, *Fathoming the Ocean: The Discovery and Exploration of the Deep Sea* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), 4; James Hamilton-Paterson, *Seven Tenths: The Sea and Its Thresholds* (New York: Europa Editions, 2009), 210.
- (3) W. H. Auden, *the Enchafed Flood, or the Romantic Iconography of the Sea* (London: Faber and Faber, 1951), 19.
- (4) Donald Wharton, "The Colonial Period," in *America and the Sea: A Literary History*, ed. Haskell Springer (Athens: University of Georgia Press, 1995), 32-38; Nathaniel Philbrick, *The Mayflower: A Story of Community, Courage, and War* (New York: Viking, 2006).
- (5) Steve Mentz, *At the Bottom of Shakespeare's Sea* (London: Continuum, 2009); Raban, *Oxford Book of the Sea*, 4-7; Margaret Cohen, *The Novel and the Sea* (Princeton, NJ: Princeton University Press), 2010.

- (6) Carl Schmitt, *Land und Meer: Eine weltgeschichtliche Betrachtung* (Leipzig: Reklam, 1942), 66.

كلمة hinterland مشتقة من الألمانية، وقد استخدمت بالإنجليزية لأول مرة في العام 1888 كمرادفة لمعنى back country أو الريف الخلفي، انظر مقال ويكيبيديا حول الأراضي النائية / <http://en.wikipeida.org/wiki/Hinterland>.

إن مفهوم كلمة heartland أو الأرض الداخلية يعود إلى العام 1904، عندما نشر هالفورد جي. ماكيندر كتابه *The Scope and Methods of Geography and the Geographical Pivot of History* والذي أعيده طابعته عن طريق London's Royal Geographical Society في العام 1951.

- (7) Cohen, *The Novel and the Sea*, 109-19; Hans Blumenberg, *Shipwreck with Spectator: Paradigm of a Metaphor for Existence* (Cambridge, MA: MIT Press, 1997), 8; Margaret Cohen, "The Chronotopes of the Sea," in *The Novel*, ed. Franco Moretti (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2006), 1.2:658.

- (8) Raban, *Oxford Book of the Sea*, 27.

- (9) Rozwadowski, *Fathoming the Ocean*, 17; Hamilton-Paterson, *Seven Tenth*, 146.

(10) مقتبس عن:

William Cronon, foreword to Majorie Hope Nicolson, *Mountain Gloom and Mountain Glory: The Development of the Aesthetics of the Infinite* (Seattle: University of Washington Press, 1997), xviii; Lena Lencek and Gideon Bosker, *The Beach: The History of Paradise on Earth* (New York: Penguin Books, 1998), 54-56; Jules Verne, *Twenty Thousand Leagues under the Sea* (New York: Signet, 2001), 12.

- (11) Jonathan Raban, *Coasting: A Private Voyage* (New York: Penguin, 1987), 8; Raban, *Oxford Book of the Sea*, 9-10;

لمزيد من البحث:

Philip Steinberg, *The Social Construction of the Ocean* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 118-21; Cohen, *The Novel and the Sea*, chap. 4.

(12) من أجل أمثلة من بداية العصر الحديث، انظر:

- John R. Gillis, *Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), chap. 3.

حول العصر الحديث، انظر:

- Raban, *Oxford Book of the Sea*, 28–29.
- (13) Cynthia F. Behrman, *Victorian Myths of the Sea* (Athens: Ohio University Press, 1977), 12–21; Raban, *Oxford Book of the Sea*, 3.
- (14) Behrman, *Victorian Myths of the Sea*, 13–14, 21–22; Raban, *Oxford Book of the Sea*, 20–22; Philip Plisson, *The Eternal Sea* (New York: Abrams, 2006).
- (15) Verne, *Twenty Thousand Leagues under the Sea*, 12.
- (16) Haskell Springer, *America and the Sea: A Literary History* (Athens: University of Georgia Press, 1995), 17–21.
- (17) Robert Louis Stevenson, from “The English Admirals,” 1881, in Raban, *Oxford Book of the Sea*, 285; Blumenberg, *Shipwreck with Spectator*, 8; Roger Marsters, “Fathoming the Ocean’s Perils: Romantic Conceptions of the Sea and British Admiralty Hydrology, 1829–1853,” the Age of Sail conference, Vancouver, 7–10- 2010 جرى تقديم الورقة في
- (18) Quoted in Christiana Payne, “Seaside Visitors: Idlers, Thinkers and Patriots in Mid-19th Century Britain,” in *Water, Leisure and Culture: European Historical Perspectives*, ed. Susan C. Anderson and Bruce H. Tabb (Oxford: Berg, 2002), 103; Behrman, *Victorian Myths of the Sea*, chaps. 3–5; Peter Unwin, *The Narrow Sea: Barrier, Bridge, and the Gateway to the World—The History of the English Channel* (London: Headline Books, 2003); Springer, *America and the Sea*, 26.
- (19) Quoted in Payne, “Seaside Visitors,” 99; Behrman, *Victorian Myths of the Sea*, 21; Thomas Cole, *The Journey of Life: A Cultural History of Aging in America* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), 118–27.
- (20) Auden, *Enchafed Flood*, 23; Steinberg, *Social Construction of the Ocean*, 191–92; Alain Corbin, *The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840* (Berkeley: University of California Press, 1994), 171; Payne, “Seaside Visitors,” 90–93; John R. Gillis, “Birth of the Virtual Child: Origins of Our Contradictory Images of Children,” in *Childhood and Its Discontents: The First Seamus Heaney Lectures*, ed. Joseph Dunne and James Kelly (Dublin: Liffey, 2002), 31–50.

- (21) Helen Rozwadowski, "Ocean: Fusing the History of Science and Technology with Environmental History," in *Blackwell's Companion to American Environmental History*, ed. Douglas Cazaux Sackman (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), 447; Mircea Eliade, *Patterns of Comparative Religion* (New York: Meridian, 1963), 431-34.
- (22) Hugh Clark, "Frontier Discourse and China's Maritime Frontier: China's Frontiers and the Encounter with the Sea through Early Imperial History," *Journal of World History* 20, no. 1 (March 2009): 20-21; Rozwadowski, *Fathoming the Ocean*, 7.
- (23) W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northeast Atlantic, 1500-1800," *American Historical Review* 113, no. 1 (February 2008): 19-47.
- (24) Steinberg, *Social Construction of the Ocean*, 202.
- (25) Bunny McBride and Harold E. L. Prins, *Indians in Eden: Wabanakis and Rusticators on Maine's Mount Desert Island, 1840s-1920s* (Rockland, ME: Down East Books, 2009), 84.
- (26) Henry David Thoreau, *Cape Cod* (Mineola, NY: Dover Books, 2004), 133.
- (27) *Ibid.*, 2-3, 112.
- (28) Blumenberg, *Shipwreck with Spectator*, 67; Robert Foulke, *The Sea Voyage Narrative* (New York: Twayne, 1997), 12; Washington Irving, "The Voyage," in *American Sea Writing: A Literary Anthology*, ed. Peter Neill (New York: Library of America, 2000), 61.
- (29) Raban, *Oxford Book of the Sea*, 15; Jonathan Raban, *Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings* (New York: Vintage, 1999), 103-4; quotation from William Cronon, *Changes in the Land* (New York: Hill and Wang, 1983), 4.
- (30) Steinberg, *Social Construction of the Ocean*, 191.
- (31) William Cronon, "The Trouble with Wilderness, or Getting Back to the Wrong Nature," in *Uncommon Ground*, ed. William Cronon (New York: W. W. Norton, 1995), 79.

لا يذكر كرونان البحر بشكل مباشر، غير أن مناقشته للبرية لتطبيق على البحر
كذلك. Cape Cod, 133.

- (32) Thoreau, "Paradise (to Be) Regained," in *The Works of Thoreau*, ed. Henry Seidel Canby (Boston: Houghton Mifflin, 1937), 779; see Hugh

- Egan, "Cooper and His Contemporaries," in *America and the Sea: A Literary History*, ed. Springer, 76-77; Whitman quoted in Nathaniel Philbrick, *American Sea Writing*, xvi.
- (33) "Chasing the shore" is a phrase used on Prince Edward Island. See David Weale, *Chasing the Shore: Little Stories about Spirit and Landscape* (Charlottetown, PEI: Tangle Lane, 2007), 9; Dickinson's "Exultation is the going," found in Raban, *Oxford Book of the Sea*, 256-57.
- (34) Wells in *Oxford Book of the Sea*, 179-80, 217.
- (35) Karl F. Nordstrom, *Living with the New Jersey Shore* (Durham, NC: Duke University Press, 1986), xi.
- (36) حول الأراضي الرطبة أو المستنقعات، انظر:
Rod Giblett, *Postmodern Wetlands: Culture, History, Ecology* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1996).
- من أجل نظرة عامة، انظر:
Godfrey Baldacchino, "Replacing Materiality: A Western Anthropology of Sand," *Annals of Tourism Research* 37, no. 3 (2010): 763-78.
- (37) Michael Taussig, "The Beach (A Fantasy)," *Critical Inquiry* 26, no. 2 (Winter 2000): 256.
- (38) Orvar Lofgren, *On Holiday: A History of Vacationing* (Berkeley: University of California Press, 1999), 113.
- (39) Susan C. Anderson, "Cultural Ideas of Water and Swimming in Modern Europe," in *A History of Water*, series 2, ed. Terji Tvedt and Terji Oestigaard (London: I. B. Tauris, 2010), 1:250-54; Jean-Didier Urbain, *At the Beach* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 78-94; Harold F. Wilson, *The Jersey Shore: A Social and Economic History of the Counties of Atlantic, Cape May, Monmouth and Ocean* (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), chap. 15.
- (40) Wilson, *Jersey Shore*, 431; Anderson, "Cultural Ideas of Water and Swimming," 258-62.
- (41) Payne, "Seaside Visitors," 96; Rozwadowski, *Fathoming the Ocean*, 104-7; John R. Stilgoe, introduction to W. H. Bunting, *The Camera's Coast: Historic Images of Ship and Shore in New England* (Boston:

Historic New England, 2006), 11; Bernd Brunner, *The Ocean at Home: An Illustrated History of the Aquarium* (New York: Princeton Architectural Press, 2003); Edmund Gosse, quoted in Paul Theroux, *Kingdom by the Sea: A Journey around Great Britain* (Boston: Houghton Mifflin, 1983), 351.

- (42) Fred Gray, *Designing the Seaside: Architecture, Society and Nature* (London: Reaktion Books, 2006), 135, 201, 225; Wilson, *Jersey Shore*, 536; Urbain, *At the Beach*, 30–31; Charles E. Funnell, *By the Beautiful Sea: The Rise and High Times of the Great American Resort Atlantic City* (New York: Alfred A. Knopf, 1975), 11–12.
- (43) Alice Garner, *A Shifting Shore: Locals, Outsiders, and the Transformation of a French Fishing Town* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 174.
- (44) Urbain, *At the Beach*, 37, 85; Gray, *Designing the Seaside*, 132; Garner, *Shifting Shore*, vii.
- (45) Urbain, *At the Beach*, 59–60.

(46) حول دور الخلاء، انظر:

Gillis, *Islands of the Mind*, chap. 2.

(47) انظر كلمة *Beach* في *Urbain, At the Beach* Oxford English Dictionary; *Beach*, chap. 9.

- (48) Marc Auge, *Non-places: Introduction of an Anthropology of Supermodernity*, trans. John Howe (London: Verso, 1995); Lofgren, *On Holiday*, 237.
- (49) Lofgren, *On Holiday*, 212, 227; Theroux, *Kingdom by the Sea*, 166; John Walton, *the British Seaside: Holidays and Resorts in the Twentieth Century* (Manchester: Manchester University Press, 2000), 36–49; Wilson, *Jersey Shore*, 1011.
- (50) Corbin, *Lure of the Sea*, VI; Taussig, "Beach," 270; Gillis, "Birth of the Virtual Child."
- (51) Urbain, *At the Beach*, 139; John R. Gillis, *A World of Their Own Making: Myth, Ritual, and the Quest for Family Values* (New York: Basic Books, 1996), 104–8; Gillis, *Islands of the Mind*, 156–65; Payne, "Seaside Visitors," 91–93.

- (52) Robert B. Edgerton, *Alone Together: Social Order on an Urban Beach* (Berkeley: University of California Press, 1979), 169.

حول العلاقة بين الرياضة العنيفة والساحل، انظر:

John Brinkerhoff Jackson, "Places for Fun and Games," in *Landscape in Sight*, ed. Helen Horwitz (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), 1-18.

- (53) حول ظاهرة التصوير الساحلي، انظر:

John R. Stilgoe, introduction to W. H. Bun- ting, *The Camera's Coast: Historic Images of Ship and Shore in New England* (Boston: His- toric New England, 2006), 7-9; Cornelia Dean, *Against the Tide: The Battle for America's Beaches* (New York: Columbia University Press, 1999), 3; Jan de Graaf, preface to *Europe: Coast Wise*, ed. Jan de Graaf and D'Laine Camp (Rotterdam: 010 Publishers, 1997); Edger- ton, *Alone Together*, 6.

- (54) Orvar Loefgren and Billy Eng, *The Secret World of Doing Nothing* (Berkeley: University of California Press, 2010), 31-33; David E. Sopher, *Observations on Strand Habitats and Cultures of South Asia* (Berkeley: Center for South Asian Studies, 1959), 24.

- (55) Gillis, *Islands of the Mind*, 146; Payne, "Seaside Visitors," 92.

- (56) Loefgren, *On Holiday*, 123; Kate Flint, *The Victorians and the Visual Imagination* (Cam- bridge: Cambridge University Press, 2000), 285-86; Yi-Fu Tuan, *Topophilia: A Study of Environmental Perception, Attitudes, and Values* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1974), 115; Edward Casey, "Borders and Boundaries: Edging into the Environment," in MerlouPonty and *Environmental Philosophy: Dwelling on the Landscapes of Thought*, ed. Suzanne Cataldi and William Hemrick (Albany: State University of New York Press, 2007), 69; Vincent Crapanzono, *Imaginative Horizons: An Essay in Literary-Philosophical Anthropol- ogy* (Chicago: University of Chicago Press, 2004), 14.

- (57) Theroux, *Kingdom by the Sea*, 188.

- (58) W. G. Sebald, *the Rings of Saturn* (New York: New Directions, 1998), 52.

- (59) Herman Melville, *Moby-Dick* (New York: Barnes and Noble / New Directions, 1998), 52; Mathew Arnold, "Dover Beach," 1867, in

Oxford Book of the Sea, ed. Raban, 275–76; Loeffgren and Eng, Secret World of Doing Nothing, 36.

- (60) Roger F. Stein, *Seascape and the American Imagination* (New York: Clarkson N. Potter, 1975), 16; Steinberg, *Social Construction of the Ocean*, 171; Taussig, "Beach," 258.
- (61) Loeffgren, *On Holiday*, 116.
- (62) John R. Stilgoe, *Alongshore* (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), 407; Urbain, *At the Beach*, 137.
- (63) Quoted in Theroux, *Kingdom by the Sea*, 351.
- (64) Quoted in *ibid*; Loeffgren, *On Holiday*, 236; Margaret Drabble quoted in *Coastline: Britain's Theatrical Heritage* (London: Kingfisher Books, 1987), 37.

الفصل السادس

- (1) Felipe Fernandez-Armesto, *Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature* (New York: Free Press, 2001), 408.
- (2) John A. Murray, introduction to *The Seacoast Reader*, ed. Murray (New York: Lyons, 1999), xvii; Jan de Graff with D'Laimé Camp, eds., *Europe: Coast Wise* (Rotterdam: 010, 1997), 93–94.
- (3) Mollat du Jourdan, *Europe and the Sea* (Oxford: Blackwell, 1993), chap. 1; Fernandez- Armesto, *Civilizations*, 462–63.
- (4) Orrin H. Pilkey and Rob Young, *The Rising Sea* (Washington, DC: Island, 2009), 171; Mike Davis, *Ecology of Fear: Los Angeles and the Imagination of Disaster* (New York: Metropolitan Books, 1998), chaps 1–3.
- (5) "Impact of 'Jaws' Has Anglers and Bathers on Lookout," *New York Times*, July 11, 1975, 20, J. A. Robinson and A. Barnett, "Jaws Neurosis," letter, *New England Journal of Medicine* 293, no. 22 (November 27, 1975): 1154–55.
- (6) Horace D. Smith and Jonathan S. Potts, "People of the Sea," in *Managing Britain's Marine and Coastal Environments: Toward a Sustainable Future*, ed. Smith and Potts (London: Routledge, 2005), 7; s.v. "continental," in OED; Daniel Vickers with Vincent Walsh, *Young Men and the Sea: Yankee Seafarers in the Age of Sail* (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 248–49.

- (7) David Helvang, *Blue Frontier: Saving America's Living Seas* (New York: W. H. Freeman, 2001), chaps 1, 4.
- (8) Nicholas Crane, quoted by Neil Oliver, foreword to *Coast: A Celebration of Britain's Coastal Heritage* by Christopher Somerville (London: BBC Books, 2005), 6.

(9) أوليفر، تقديم لـ Coast.

(10) أفضل مناقشة لمفهوم Lost في الثقافات الحديثة مقدم من:

Sumathi Ramaswamy, *The Lost Land of Lemuria: Fabulous Geographies, Catastrophic Histories* (Berkeley: University of California Press), 2004.

(11) حول مفهوم النسيج أو Looming. انظر:

John R. Gillis, *Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World* (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 143.

- (12) Alan Sekula, *Fish Story* (Düsseldorf: Richler Verlag, 1999), 134.
- (13) Sekula, *Fish Story*, 49; Fernandez-Armesto, *Civilizations*, 463.
- (14) David Kirby and Merja-Liisa Hinkanen, *the Baltic and North Seas* (London: Routledge, 2000), 149.
- (15) Mark Kurlansky, *the Last Fish Tale* (New York: Ballantine Books, 2008), 136; Callum Roberts, *the Unnatural History of the Sea* (Washington, DC: Island, 2007), 203–4.
- (16) Gisli Palsson, *Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse* (Manchester: Manchester University Press, 1991), 64–65, 110; Paul Thompson, Tony Wailey, and Trevor Lummis, *Living the Fishing* (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 20–30; Orvar Lofgren, "From Peasant Fishery to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in Some North Atlantic Regions," in *Modernization and Marine Fishing Policy*, ed. John Mailo and Michael Orbach (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 158–59.
- (17) Kirby and Hinkanen, *Baltic and North Seas*, 246; Vickers and Walsh, *Young Men and the Sea*, 210; for 1823 quotation, see Roberts, *Unnatural History of the Sea*, 163; Joseph E. Taylor III, *Making Salmon: An Environmental History of the Northwest Fisheries Crisis* (Seattle: University of Washington Press, 1999) chap. 1; Arthur F.

- McEvoy, *The Fisherman's Problem: Ecology and Law in the California Fisheries, 1850–1980* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980); Roberts, *Unnatural History of the Sea*, chap. 20; John F. Richards, *The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World* (Berkeley: University of California Press, 2005), 568.
- (18) Lofegren, "From Peasant Fishery to Industrial Trawling," 151–53; M. Estelle Smith, introduction to *Those Who Live from the Sea: A Study of Maritime Anthropology* (St. Paul, MN: West, 1977), 1–22; W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northeast Atlantic, 1500–1800," *American Historical Review* 113, no. 1 (February 2008): 47; Kurlansky, *Last Fish Tale*, 246.
- (19) Gisela Jaaks, ed., *Der Traum von der Stadt am Meer: Hafenstädte aus aller Welt* (Hamburg: Hamburg Museum, 2003); Steve Higginson and Tony Wailey, *Edgy Cities* (Liverpool: Northern Lights, 2006); Phillip Lopate, *Waterfront: A Walk around Manhattan* (New York: Anchor Books, 2005), 15; Margaret Cohen, "Modernity on the Waterfront: The Case of Hausmann's Paris," in *Urban Imaginaries: Locating the Modern City*, ed. Alev Cinar and Thomas Bender (Minneapolis: Minnesota University Press, 2007), 55–75; W. H. Bunting, *Portrait of a Port: Boston, 1852–1914* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), xvii; Mark Kurlansky, *The Big Oyster: History on the Halfshell* (New York: Ballantine Books, 2006); Jan de Graaf and D'Laine Camp, eds., *Europe: Coast Wise; An Anthology of Reflections on Architecture and Tourism* (Rotterdam: 010 Publishers, 1997), 114–25; Tormod Kleindal, "Men's Response to Changes in the Coastal Zone of Norway," in *Coastal Zone: Men's Response to Change*, ed. Kenneth Ruddle et al. (London: Harwood, 1988), 185.
- (20) Peter Hall, "Waterfronts: A New Urban Frontier," *Aquapolis* 1, no. 1 (1991): 6; Alex Roland, W. Jeffrey Bolster, and Alexander Keysaar, *The Way of the Ship: America's Maritime History Reenvisioned, 1600–2000* (New York: John Wiley, 2007), pt. 5; on Europe, see Kirby and Hinkanen, *Baltic and North Seas*, 255–59.
- (21) Sekula, *Fish Story*, 50, 54, 116; Hall, "Waterfronts," 5–8; Lopate, *Waterfront*, 227–30; Wolfgang Rudolf, *Harbor and Town: A Maritime Cultural History* (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), chap. 2; Kirby and Hinkanen, *Baltic and North Seas*, 261.

- (22) Lopate, *Waterfront*, 227; Hans Meyer, *City and Port: Urban Planning as a Cultural Venture in London, Barcelona, and Rotterdam* (Rotterdam: International Books, 1999), chap. 1.
- (23) Hall, "Waterfronts," 6–11.
- (24) Lopate, *Waterfront*, 286; Josef W. Konvitz, *Cities and the Sea: Port City Planning in Early Modern Europe* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978) 186; Meyer, *City and Port*, 189.
- (25) Ann L. Buttenwieser, *Manhattan Water-Bound: Manhattan's Waterfront from the Seventeenth Century to the Present*, 2nd ed. (Syracuse: Syracuse University Press, 1999), 207–8; Meyer, *City and Port*, 25; Kurlansky, *Big Oyster*, xvi; on Europe, see de Graaf and Camp, *Europe: Coast Wise*, 14.
- (26) Lopate, *Waterfront*, 232.
- (27) Somerville, *Coast*, 7; Walter Kaufman and Orrin H. Pilkey, *The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline* (Durham, NC: Duke University Press, 1988), 270; James Hamilton-Paterson, *Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds* (New York: Europa Editions), 2009 chap. 2; Alex Kerr, *Dogs and Demons: The Fall of Modern Japan* (London: Penguin, 2001), 18–19.
- (28) Paul Carter, "Dark with Excess of Light," in *Mappings*, ed. Denis Cosgrove (London: Reaktion Books, 1999), 147; Adam Nicolson, *On Foot: Guided Walks in England, France, and the United States* (New York: Crown, 1998), 121, 78–79; Kaufman and Pilkey, *Beaches Are Moving*, chaps. 5, 7.
- (29) Andrew Rise, "A Stake in the Sand," *New York Times Magazine*, March 21, 2010, 79; Kaufman and Pilkey, *Beaches Are Moving*, 35; Samuel Eliot Morison, *the Maritime History of Massachusetts, 1783–1860*, 4th ed. (Boston: Houghton Mifflin, 1961), 3.
- (30) John Walton, *The British Seaside: Holidays and Resorts in the Twentieth Century* (Manchester: Manchester University Press, 200), 69; Harold F. Wilson, *The Jersey Shore* (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), 2:1010; Warren Beamscher, *Historic American Towns along the Atlantic Coast* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999), 67; Kaufman and Pilkey, *Beaches Are Moving*, chaps 7-10.

- (31) John C. Sawhill, introduction to *The Seacoast Reader*, ed. John A. Murray (New York: Lyons, 1999), xi; Kaufman and Pilkey, *Beaches Are Moving*, 183–84; Frances Ruley Karttunen, “A History of Road and Ways in Nantucket County,” unpublished manuscript, 2008; Rise, “Stake in the Sand,” 66.
- (32) Jan Goss, “Disquiet on the Waterfront: Reflection on Nostalgia and Utopia in Urban Arche- types of Festival Marketplaces,” *Urban Geography* 17 (1996): 238; June Nadel-Klein, *Fishing for Heritage: Modernity and Loss along the Scottish Coast* (Oxford: Berg, 2003), 184, 188, 206–10.
- (33) Nadel-Klein, *Fishing for Heritage*, 206, 210.
- (34) Joshua Moore, “The Last Port,” <http://www.domeast.com/node/13322>.
- (35) John Fowles, *Islands* (Boston: Little, Brown, 1978), 17; Gillis, *Islands of the Mind*, 81; Peter H. Wood, *Weathering the Storm: Winslow Homer’s “Gulf Stream”* (Athens: University of Georgia Press, 2004), 16–17.
- (36) Wood, *Weathering the Storm*, 72–81.
- (37) Richard G. Fernicola, *Twelve Days of Terror: A Definitive Investigation of the 1916 New Jersey Shark Attacks* (Guildford, CT: Lyons, 2002).
- (38) Richard Ellis, *the Book of Sharks* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1975), 172; an account of its origins is found in Peter Matthiessen’s *Blue Meridian: The Search for the Great White Shark* (New York: Random House, 1971).
- (39) Richard Ellis, *Men and Whales* (New York: Alfred A. Knopf, 1991), 457–60; Helen Rozwadowski, *Fathoming the Ocean: The Discovery and Exploration of the Deep Sea* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), 26.
- (40) Ellis, *Men and Whales*, 250, 462.
- (41) Hamilton-Paterson, *Seven-Tenths*, 109.
- (42) Gillis, *Islands of the Mind*, 145; Tom Killion, *Fortress Marin* (n.p., n.d.).
- (43) Gered Lennon et al., *Living with the South Carolina Coast* (Durham, NC: Duke University Press, 1996), 4.
- (44) Patrick Beaver, *A History of Lighthouses* (London: Peter Davis, 1971), 136; Lennon et al., *Living with the South Carolina Coast*, 8.

- (45) Kevin Blake, "Lighthouse Symbolism in the American Landscape," Focus on Geography 50, no. 1 (Summer 2007): 14.
- (46) Hugh Morton, "Cost, Risk Too Great," News and Observer (Raleigh, NC), February 15, 1998, reprinted at <http://ncsu.edu/coast/chl/article2.html>; Pilkey and Young, Rising Sea, 174-75, Blake, "Lighthouse Symbolism," 4.
- (47) كتابان للكاتب بي - فون توان يبحثان طبيعة الخوف والرغبة بالنسبة إلى سمات سطح الأرض المختلفة، انظر:
Landscapes of Fear (New York: Pantheon, 1979) and Topophilia: A Study of Environmental Perceptions, Attitudes, and Values (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1974).
- (48) Richard Sexton, Parallel Utopias: The Quest for Community, with essays by Ray Olden-burg and William Turnbull (San Francisco: Chronicle Books, 1995); Donlon Lydon and Jim Alinder, The Sea Ranch (New York: Princeton Architectural, 2004), 13-14.
- (49) Lydon and Alinder, Sea Ranch, 287-89; Lawrence Halprin, the Sea Ranch: Diary of an Idea (Berkeley, CA: Spacemaker, 2002), 17, 25.
- (50) Halprin, Sea Ranch, 41; Lyndon and Alinder, Sea Ranch, 13; Adam Nicolson, Sissinghurst: An Unfinished History (London: Harper, 2009), 319.
- (51) Susan Casey, the Wave: In Pursuit of the Rogues, Freaks, and Giants of the Ocean (New York: Doubleday), 2010.
- (52) Robert Swan, Coasts, the Sea, and Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, n.d.), no pagination.
- (53) David Weale, Chasing the Shore: Little Stories about Spirit and Landscape (Charlottetown, PEI: Tangle Lane, 2007), 9-12; Casey, Wave, 112-13.

الخاتمة

- (1) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 15.

(2) حول الاختلافات في تعريف المنطقة الساحلية، انظر:

- "How Many People Live in Coastal Areas," *Journal of Coastal Research* 23, no. 5 (September 2007): iii-vi; Don Hinrichsen, "Coasts in Crisis," US Geological Survey, 2008, <http://pubs.usgs.gov/circ/c1075/intro.html>; also Andrew Goldie, *The Human Impact on the Natural Environment*, 6th ed. (Oxford: Blackwell, 2005), 243; Christian Buchel, *The Eternal Sea* (New York: Abrams, 2006), 329; Gary Griggs and Laurent Savoy, *Living with the California Coast* (Durham, NC: Duke University Press, 1985), 1; American Shore and Beach Preservation Association, "Fact Sheet: Restoring America's Beaches: Myth and Reality," fact sheet, n.d., http://www.asbpa.org/publications/fact_sheets/pubs_fs_myth_reality.htm.
- (3) Edward Wenk, *the Politics of the Sea* (Seattle: University of Washington Press, 1972), 170.
- (4) محضر اجتماع لاتحاد محمية الساحل والشاطئ الأمريكي Coney Island, NY, 1928, 6.
- (5) Robert Thompson, "Cultural Models and Shoreline Social Conflict," *Coastal Management* 35 (2007): 227.
- (6) Orrin H. Pilkey and Rob Young, *The Rising Sea* (Washington, DC: Island, 2009), 162-63.
- (7) Michael S. Kearney, "Late Holocene Sea Level Variations," in *Sea Level Rise: History and Consequences*, ed. Bruce C. Douglas, Michael S. Kearney, and Stephen P. Leatherman (San Diego: Academic Press, 2001), 13-38; W. Tad Pfeffer et al., "Kinematic Constraints on Glacier Contributions to 21st Century Sea Level Rise," *Science* 321 (2008): 1340-43.
- (8) Kazuyuki Kolke, "The Countermeasures against Coastal Hazards in Japan," *Geojournal* 38, no. 3 (1996): 301-12; Stephen Leatherman, "Social and Economic Costs of Sea Level Rise," in *Sea Level Rise*, ed. Douglas, Kearney, and Leatherman, 182-83; Norimitsu Onishi, "A Japanese Town's 'Great Wall' Provided a False Sense of Security," *New York Times*, April 2, 2011, A4-5; Norimitsu Onishi, "Seawalls Offered Little Protection against Tsunami's Crushing Waves," *New York Times*, March 14, 2011, A8; Peter Kahn, *The Human Relationship with Nature: Development and Culture* (Cambridge, MA: MIT Press, 1999), 7.
- (9) Pilkey and Young, *Rising Sea*, xi; Robert J. Hoeksema, *Designed for Dry Feet: Flood Protection and Land Reclamation in the Netherlands*

- (Reston, VA: American Society of Civil Engineers, 2006), chaps. 1, 7; Simon Winchester, *Atlantic* (New York: HarperCollins, 2010), 415; Karl F. Nordstrom et al., *Living with the New Jersey Shore* (Durham, NC: Duke University Press, 1986), 4-5.
- (10) Nordstrom et al., *Living with the New Jersey Shore*, 4-5; Peter Matthiessen, *Men's Lives* (New York: Vintage, 1988), 3-63; Bay Men Collection, tape 1052, Folk Life Archives, Library of Congress, Washington, DC.
- (11) Nordstrom et al., *Living with the New Jersey Shore*, xi; Bay Men Collection, interview with Rich Rofshe, Case Files, Folk Life Archives, Library of Congress.
- (12) William Sargent, *Just Seconds from the Ocean: Coastal Living in the Wake of Katrina* (Hanover, NH: University Press of New England, 2007), 1-6.
- (13) Wallace Kaufman and Orrin H. Pilkey Jr., *The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline* (Durham, NC: Duke University Press, 1983), xiii, 3, 21, 160-63, 176.
- (14) Robert Kronenberg, *Houses in Motion: The Genesis, History, and Development of the Portable Building*, 2nd ed. (Chichester, UK: John Wiley and Sons, 2002), 24-25; Nobuhiro Suzuki, "Floating Houses in Seattle," *Aquapolis 1* (1996): 36-41; David Wolf, "The Houseboats of Sausalito: From Arks to Anarchy and Recent Re-gentrification," *Aquapolis 1* (1996): 28-35; Ted Laturus, *Floating Homes: A Houseboat Handbook* (Vancouver, BC: Harbour, 1986), 17.
- (15) Steven Kurutz, "A Fluid Definition of Self-Sufficiency," *New York Times*, June 4, 2008, D4; on Seasteading, see <http://en.wikipedia.org/wiki/seasteading>; Eamonn Fingleton, "Sea-steading: The Great Escape," *Prospect* 169 (2010).
- (16) Griggs and Savoy, *Living with the California Coast*, 372; Joseph Kelley et al., *Living on the Coast of Maine* (Durham, NC: Duke University Press, 1989), 12; Kaufman and Pilkey, *Beaches Are Moving*, 289.
- (17) Kaufman and Pilkey, *Beaches Are Moving*, 113-14.
- (18) Eviatar Zerubavel, *the Fine Line: Making Distinctions in Everyday Life* (New York: Free Press, 1991), 115-22.

(19) الاقتباس من هينريكسون لـ "Coasts in Crisis".

المؤلف في سطور

جون آر . غيليس

- يُدرّس في جامعة روتجيز Rutgers University، ويقوم معظم أيام السنة في بيركلي، في كاليفورنيا.
- دَرَس في عدد من الجامعات المرموقة مثل برينستون وستانفورد، كما أنه عضو زائر في عدد من المؤسسات الأكاديمية المهمة مثل أكسفورد.
- له عدد كبير من المؤلفات، كان أولها بعنوان Prussian Bureaucracy in Crisis، والذي صدر في العام 1971.

المترجمة في سطور

د. ابتهاج عبدالعزيز الخطيب

- من مواليد الكويت العام 1972.
- حصلت على بكالوريوس الأدب الإنجليزي من جامعة الكويت في العام 1996، وماجستير الأدب الإنجليزي من جامعة إنديانا في بنسلفانيا في العام 1998، ودكتوراه الأدب الإنجليزي من جامعة بول ستيت في إنديانا العام 2003.
- لها أبحاث منشورة حول المسرح الحديث والمعاصر، ولها عدد من الترجمات مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبلات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر. وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على الأيزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة ببذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدون أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع - المؤلف أو المترجم - تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (ويحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين ديناراً كويتياً مقابل تقديم المخطوطة - المؤلف والمترجمة - من نسختين مطبوعتين.

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubai Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	+202 25782700- 25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة المغربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنقة سجلمامه - بلقدير - ص ب 13008	+212 522249200	+212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص ب 719 - 3 نهج الغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نمنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الفميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	---	+973 17 617733	---
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 - ممقط - الرمز البريدي 130 - المذيبة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص ب 3488	+974 4557809/10/11	+974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	+970 22980800	+970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ث المشتل - المقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD. lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	---	+964 700776512 +964 780662019	---
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	+1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+44 2087499828 +44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	---	+218 217297779	---

تنويه

للاطلاع على قائمة كتب السلسلة انظر عدد
ديسمبر (كانون الأول) من كل سنة، حيث توجد
قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة
في السلسلة منذ يناير 1978.

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية
الاشتراكات	
دولة الكويت	
للأفراد	15 د . ك
للمؤسسات	25 د . ك
دول الخليج	
للأفراد	17 د . ك
للمؤسسات	30 د . ك
الدول العربية	
للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	
للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقداً أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1152 / 1153 / 1193 / 1194 / 1195 / 1196

**قسمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**

جريدة الفنون	إبداعات عالمية		عالم الفكر		الثقافة العالمية		سلسلة عالم المعرفة		البيان	
	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار		
	12		20		12		12		25	مؤسسات داخل الكويت
	8		10		6		6		15	أفراد داخل الكويت
36			24		16		16		30	مؤسسات دول الخليج العربي
24			12		8		8		17	أفراد دول الخليج العربي
48		100		40		50		100		مؤسسات خارج الوطن العربي
36		50		20		25		50		أفراد خارج الوطن العربي
36		50		20		30		50		مؤسسات في الوطن العربي
24		25		10		15		25		أفراد في الوطن العربي

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م



Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب...

كان البشر، حتى من قبل التاريخ المسجل، يحتشدون دوماً بالقرب من الماء. غير أنه ومع استمرار تدفق الأعداد السكانية المتزايدة حول العالم في اتجاه السواحل، بدرجة غير مسبوقة، ومع ارتفاع منسوب المياه المستمر بسبب التغيرات المناخية، بدأت علاقتنا بالبحار تأخذ أبعاداً جديدة وكارثية الاحتمال. إن آخر جيل من سكان السواحل يعيش جاهلاً بشكل كبير بتاريخ من سبقوه، وبالبيئة الطبيعية، وبال حاجة إلى العيش باستقرار على سواحل العالم. لقد نسيت البشرية كيفية التعايش مع المحيطات. يستعيد جون آر. غيليس، مؤلف هذا الكتاب، وهو توثيق فطن لأكثر من 100 ألف سنة للحضارات الساحلية، التجربة الساحلية منذ أصولها الأولى بين البشر الذين عاشوا على امتداد الساحل الأفريقي، وصولاً إلى صخب وروعة المدن الضخمة والمنتجعات البحرية اليوم. يأخذ غيليس القارئ منطلقاً من الموقع الساحلي المحتمل إلى جنة عدن، مروراً بالجماعات التي تكونت على الشواطئ، والخلجان، والجداول النهرية، منذ بداية المجتمع الإنساني، وصولاً إلى الدور الحاسم الذي أدته السواحل خلال عصر الاكتشافات والإمبراطوريات. إن توثيق التحركات الجماعية لشعوب بأكملها في اتجاه السواحل، خلال نصف القرن الأخير، يستدرج قصة الحياة الساحلية إلى الحاضر.

خلال هذه الرحلة، يتناول غيليس موضوع تغير علاقة البشرية مع البحر، وذلك من منطلق بيئي، مستعرضاً تاريخ صنع، وإعادة صنع، مناظر الطبيعة الساحلية - بناء الموانئ، واستنزاف الأراضي الرطبة، وبداية الحيوانات البحرية وانقراضها، واختراع فكرة الشاطئ، وذلك بينما يزودنا بإدراك عالمي لعلاقتنا بالماء.

إن «الساحل البشري»، من حيث كونه كتاباً تثقيفياً وشخصياً جداً، هو في الواقع أكثر من مجرد تاريخ، إنه قصة نطاق لطالما كان ذا أهمية مركزية من حيث أمزجة، وخطط، ووجود هؤلاء الذين يعيشون ويحلمون عند أطراف اليابسة.